الميزان في تفسير القرآن

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد السادس

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحیم

الميزان فی تفسیر القرآن

کاتب:

محمد حسین طباطبایی

نشرت فی الطباعة:

علامه طباطبایی

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

تفسیر المیزان المجلد ۶

اشاره

سرشناسه : طباطبائی، سیدمحمدحسین، ۱۲۸۱ - ۱۳۶۰.

عنوان و نام پدیدآور : تفسیر المیزان/ محمدحسین طباطبائی؛ ترجمه ناصر مکارم شیرازی... [و دیگران].

وضعیت ویراست : [ویراست ۲؟]

مشخصات نشر : قم: بنیاد علمی و فکری علامه طباطبائی ؛ تهران: مرکز نشر فرهنگی رجا: امیرکبیر، ۱۳۶۳-

مشخصات ظاهری : ۲۰ج.

شابک : ۱۶۰۰۰ریال(دوره کامل)

یادداشت : جلد۱۱ و ۱۹ کتاب توسط سید محمدباقر موسوی همدانی ترجمه شده است.

یادداشت : ج.۱۱ (چاپ صد و بیست و هشتم: ۱۳۶۳).

یادداشت : ج.۱۹ (چاپ اول؟: ۱۳۶۳).

یادداشت : عنوان عطف: ترجمه تفسیر المیزان.

عنوان عطف : ترجمه تفسیر المیزان.

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -، مترجم

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵م ۹۰۴۱ ۱۳۶۳

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۶۳-۳۵۴۹

ص :۱

اشاره

[بقيه سوره المائده]

[سوره المائده (۵): الآيات ۵۵ الى ۵۶]

اشاره

إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ اَلصَّلاٰهَ وَ يُؤْتُونَ اَلزَّكٰاهَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ (۵۵) وَ مَنْ يَتَوَلَّ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اَللّٰهِ هُمُ اَلْغٰالِبُونَ (۵۶)

(بيان)

الآيتان-كما ترى-موضوعتان بين آيات تنهى عن ولايه أهل الكتاب و الكفار، و لذلك رام جماعه من مفسرى القوم إشراكهما مع ما قبلهما و ما بعدهما من حيث السياق، و جعل الجميع ذات سياق واحد يقصد به بيان وظيفه المؤمنين فى أمر ولايه الأشخاص ولايه النصره،و النهى عن ولايه اليهود و النصارى و الكفار،و قصر الولايه فى الله سبحانه و رسوله و المؤمنين الذين يقيمون الصلاه و يؤتون الزكاه و هم راكعون،و هؤلاء هم المؤمنون حقا فيخرج بذلك المنافقون و الذين فى قلوبهم مرض،و يبقى على وجوب الولايه المؤمنون حقا،و تكون الآيه داله على مثل ما يدل عليه مجموع قوله تعالى: «وَ اللّٰهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» :آل عمران-۶۸،و قوله تعالى: «النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» :الأحزاب:۶، و قوله تعالى فى المؤمنين: «أُولٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ» :الأنفال:۷۲،و قوله تعالى: «وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» الآيه:التوبه-۷۱.فمحصل الآيه جعل ولايه النصره لله و لرسوله و المؤمنين على المؤمنين.

نعم يبقى هناك إشكال الجمله الحاليه التى يتعقبها قوله: «وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاهَ » و هى قوله: «وَ هُمْ رٰاكِعُونَ » و يرتفع الإشكال بحمل الركوع على معناه المجازى و هو مطلق

الخضوع لله سبحانه أو انحطاط الحال لفقر و نحوه،و يعود معنى الآيه إلى أنه ليس أولياؤكم اليهود و النصارى و المنافقين بل أولياؤكم الله و رسوله و المؤمنون الذين يقيمون الصلاه،و يؤتون الزكاه،و هم فى جميع هذه الأحوال خاضعون لساحه الربوبيه بالسمع و الطاعه،أو أنهم يؤتون الزكاه و هم فقراء معسرون هذا.

لكن التدبر و استيفاء النظر فى الآيتين و ما يحفهما من آيات ثم فى أمر السوره يعطى خلاف ما ذكروه،و أول ما يفسد من كلامهم ما ذكروه من أمر وحده سياق الآيات، و أن غرض الآيات التعرض لأمر ولايه النصره،و تمييز الحق منها من غير الحق فإن السوره و إن كان من المسلم نزولها فى آخر عهد رسول الله ص فى حجه الوداع لكن من المسلم أيضا أن جميع آياتها لم تنزل دفعه واحده ففى خلالها آيات لا شبهه فى نزولها قبل ذلک،و مضامينها تشهد بذلک،و ما ورد فيها من أسباب النزول يؤيده فليس مجرد وقوع الآيه بعد الآيه أو قبل الآيه يدل على وحده السياق،و لا أن بعض المناسبه بين آيه و آيه يدل على نزولهما معا دفعه واحده أو اتحادهما فى السياق.

على أن الآيات السابقه أعنى قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ «إلخ»،تنهى المؤمنين عن ولايه اليهود و النصارى،و تعير المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض بالمسارعه إليهم و رعايه جانبهم من غير أن يرتبط الكلام بمخاطبه اليهود و النصارى و إسماعهم الحديث بوجه بخلاف الآيات التاليه أعنى قوله:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ »

«إلخ»،فإنها تنهى عن ولايتهم و تتعرض لحالهم بالأمر بمخاطبتهم ثم يعيرهم بالنفاق و الفسق فالغرض فى القبيلين من الآيات السابقه و اللاحقه مختلف،و معه كيف يتحد السياق؟!.

على أنک قد عرفت فى البحث عن الآيات السابقه أعنى قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارىٰ أَوْلِيَاءَ » (الآيات)أن ولايه النصره لا تلائم سياقها،و أن خصوصيات الآيات و العقود المأخوذه فيها و خاصه قوله: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» و قوله:

«وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» لا تناسبها فإن عقد ولايه النصره و اشتراطها بين قومين لا يوجب صيروره أحدهما الآخر و لحوقه به،و لا أنه يصح تعليل النهى عن هذا العقد بأن القوم الفلانى بعضهم أولياء بعض بخلاف عقد ولايه الموده التى توجب الامتزاج النفسى

و الروحى بين الطرفين،و تبيح لأحدهما التصرف الروحى و الجسمى فى شئون الآخر الحيويه و تقارب الجماعتين فى الأخلاق و الأعمال الذى يذهب بالخصائص القوميه.

على أنه ليس من الجائز أن يعد النبى ص وليا للمؤمنين بمعنى ولايه النصره بخلاف العكس فإن هذه النصره التى يعتنى بأمرها الله سبحانه،و يذكرها القرآن الكريم فى كثير من آياته هى النصره فى الدين و حينئذ يصح أن يقال:إن الدين لله بمعنى أنه جاعله و شارع شرائعه فيندب النبى ص أو المؤمنون أو هما جميعا إلى نصرته أو يدعوا أنصارا لله فى ما شرعه من الدين كقوله تعالى: «قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللّهِ» :الصف:۱۴،و قوله تعالى: «إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ» :محمد:۷،و قوله تعالى:

«وَ إِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ -إلى أن قال: لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ» :آل عمران:۸۱، إلى غير ذلك من الآيات الكثيره.

و يصح أن يقال:إن الدين للنبى ص بمعنى أنه الداعى إليه و المبلغ له مثلا، أو إن الدين لله و لرسوله بمعنى التشريع و الهدايه فيدعى الناس إلى النصره،أو يمدح المؤمنون بالنصره كقوله تعالى: «وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ»، :الأعراف:۱۵۷،و قوله تعالى: «وَ يَنْصُرُونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ» :الحشر:۸،و قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا» :الأنفال:۷۲،إلى غير ذلك من الآيات.

و يصح أن يقال:إن الدين للنبى ص و للمؤمنين جميعا،بمعنى أنهم المكلفون بشرائعه العاملون به فيذكر أن الله سبحانه وليهم و ناصرهم كقوله تعالى: «وَ لَيَنْصُرَنَّ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» :الحج:۴۰،و قوله تعالى :«إِنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» :غافر:۵۱،و قوله تعالى: «وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» :الروم-۴۷ إلى غير ذلك من الآيات.

لكن لا يصح أن يفرد الدين بوجه للمؤمنين خاصه،و يجعلوا أصلا فيه و النبى ص بمعزل عن ذلك،ثم يعد(ص)ناصرا لهم فيما لهم،إذ ما من كرامه دينيه إلا هو مشاركهم فيها أحسن مشاركه،و مساهمهم أفضل سهام؛و لذلك لا نجد القرآن يعد النبى ص ناصرا للمؤمنين و لا فى آيه واحده،و حاشا ساحه الكلام الإلهى أن يساهل فى رعايه أدبه البارع.

و هذا من أقوى الدليل على أن المراد بما نسب إلى النبى ص من الولايه فى القرآن هو ولايه التصرف أو الحب و الموده كقوله تعالى: «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ»:

» الأحزاب:۶،و قوله تعالى: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا » (الآيه)، فإن الخطاب للمؤمنين،و لا معنى لعد النبى ص وليا لهم ولايه النصره كما عرفت.

فقد ظهر أن الآيتين أعنى قوله تعالى: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ » إلى آخر الآيتين لا تشاركان السياق السابق عليهما لو فرض أنه متعرض لحال ولايه النصره،و لا يغرنك قوله تعالى فى آخر الآيه الثانيه: «فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » ،فإن الغلبه كما تناسب الولايه بمعنى النصره،كذلك تناسب ولايه التصرف و كذا ولايه المحبه و الموده،و الغلبه الدينيه التى هى آخر بغيه أهل الدين تتحصل باتصال المؤمنين بالله و رسوله بأى وسيله تمت و حصلت،و قد قرع الله سبحانه أسماعهم ذلك بصريح وعده حيث قال: «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي» :المجادله:۲۱،و قال: «وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ:» الصافات:۱۷۳.

على أن الروايات متكاثره من طرق الشيعه و أهل السنه على أن الآيتين نازلتان فى أمير المؤمنين على(ع)لما تصدق بخاتمه و هو فى الصلاه،فالآيتان خاصتان غير عامتين،و سيجىء نقل جل ما ورد من الروايات فى ذلك فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

و لو صح الإعراض فى تفسير آيه بالأسباب المأثوره عن مثل هذه الروايات على تكاثرها و تراكمها لم يصح الركون إلى شىء من أسباب النزول المأثوره فى شىء من آيات القرآن و هو ظاهر،فلا وجه لحمل الآيتين على إراده ولايه المؤمنين بعضهم لبعض بجعلها عامه.

نعم استشكلوا فى الروايات-و لم يكن ينبغى أن يستشكل فيها مع ما فيها من الكثره البالغه-أولا:بأنها تنافى سياق الآيات الظاهر فى ولايه النصره كما تقدمت الإشاره إليه؛و ثانيا:أن لازمها إطلاق الجمع و إراده الواحد فإن المراد بالذين آمنوا الذين يقيمون الصلاه«إلخ»،على هذا التقدير هو على و لا يساعده اللغه، و ثالثا:

أن لازمها كون المراد بالزكاه هو التصدق بالخاتم،و لا يسمى ذلك زكاه.

قالوا:فالمتعين أن تؤخذ الآيه عامه،و تكون مسوقه لمثل قصر القلب أو الإفراد

فقد کان المنافقون یسارعون إلی ولایه أهل الکتاب و یؤکدونها،فنهی الله عن ذلک و ذکر أن أولیاءهم إنما هم الله و رسوله و المؤمنون حقا دون أهل الکتاب و المنافقین.

و لا یبقی إلا مخالفه هذا المعنی لظاهر قوله: «وَ هُمْ رٰاکِعُونَ » و ینـدفع بحمل الرکوع علی معناه المجازی،و هو الخضوع لله أو الفقر و رثاثه الحال،هذا ما استشکلوه.

لکن التدبر فی الآیه و ما یناظرها من الآیات یوجب سقوط الوجوه المذکوره جمیعا:

أما وقوع الآیه فی سیاق ولایه النصره،و لزوم حملها علی إراده ذلک فقد عرفت أن الآیات غیر مسوقه لهذا الغرض أصلا،و لو فرض سرد الآیات السابقه علی هذه الآیه لبیان أمر ولایه النصره لم تشارکها الآیه فی هذا الغرض.

و أما حدیث لزوم إطلاق الجمع و إراده الواحد فی قوله: «وَ الَّذِینَ آمَنُوا » «إلخ»، فقد عرفت فی الکلام علی آیه المباهله فی الجزء الثالث من هذا الکتاب تفصیل الجواب عنه، و أنه فرق بین إطلاق لفظ الجمع و إراده الواحد و استعماله فیه،و بین إعطاء حکم کلی أو الإخبار بمعرف جمعی فی لفظ الجمع لینطبق علی من یصح أن ینطبق علیه،ثم لا یکون المصداق الذی یصح أن ینطبق علیه إلا واحدا فردا و اللغه تأبی عن قبول الأول دون الثانی علی شیوعه فی الاستعمالات.

و لیت شعری ما ذا یقولون فی مثل قوله تعالی: «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا عَدُوِّی وَ عَدُوَّکُمْ أَوْلِیٰاءَ تُلْقُونَ إِلَیْهِمْ بِالْمَوَدَّهِ -إلی أن قال:- تُسِرُّونَ إِلَیْهِمْ بِالْمَوَدَّهِ» الآیه:الممتحنه:١،و قد صح أن المراد به حاطب بن أبی بلتعه فی مکاتبته قریشا؟ و قوله تعالی: «یَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنٰا إِلَی الْمَدِینَهِ لَیُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ» :المنافقون:

٨،و قد صح أن القائل به عبد الله بن أبی بن سلول؟و قوله تعالی: «یَسْئَلُونَکَ مٰا ذٰا یُنْفِقُونَ» :البقره:٢١۵ و السائل عنه واحد؟،و قوله تعالی: «الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ بِاللَّیْلِ وَ النَّهٰارِ سِرًّا وَ عَلاٰنِیَهً» :البقره:٢٧۴ و قد ورد أن المنفق کان علیا أو أبا بکر؟إلی غیر ذلک من الموارد الکثیره.

و أعجب من الجمیع قوله تعالی: «یَقُولُونَ نَخْشیٰ أَنْ تُصِیبَنٰا دٰائِرَهٌ » و القائل هو عبد الله بن أبی،علی ما رووا فی سبب نزوله و تلقوه بالقبول،و الآیه واقعه بین الآیات المبحوث عنها نفسها.

فإن قيل:إن هذه الموارد لا تخلو عن أناس كانوا يرون رأيهم أو يرضون بفعالهم فعبر الله تعالى عنهم و عمن يلحق بهم بصيغه الجمع.قيل:إن محصله جواز ذلك فى اللغه لنكته مجوزه فليجر الآيه أعنى قوله: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ » هذا المجرى،و لتكن النكته هى الإشاره إلى أن أنواع الكرامات الدينيه-و منها الولايه المذكوره فى الآيه- ليست موقوفه على بعض المؤمنين دون بعض وقفا جزافيا و إنما يتبع التقدم فى الإخلاص و العمل لا غير.

على أن جل الناقلين لهذه الأخبار هم صحابه النبى ص و التابعون المتصلون بهم زمانا و هم من زمره العرب العرباء الذين لم تفسد لغتهم و لم تختلط ألسنتهم و لو كان هذا النحو من الاستعمال لا تبيحه اللغه و لا يعهده أهلها لم تقبله طباعهم،و لكانوا أحق باستشكاله و الاعتراض عليه،و لم يؤثر من أحد منهم ذلك.

و أما قولهم:إن الصدقه بالخاتم لا تسمى زكاه،فيدفعه أن تعين لفظ الزكاه فى معناها المصطلح إنما تحقق فى عرف المتشرعه بعد نزول القرآن بوجوبها و تشريعها فى الدين،و أما الذى تعطيه اللغه فهو أعم من الزكاه المصطلحه فى عرف المتشرعه و يساوق عند الإطلاق أو عند مقابله الصلاه إنفاق المال لوجه الله كما يظهر مما وقع فيما حكاه الله عن الأنبياء السالفين كقوله تعالى فى إبراهيم و إسحاق و يعقوب: «وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ» :الأنبياء:۷۳،و قوله تعالى فى إسماعيل: «وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا» :مريم:۵۵ و قوله تعالى حكايه عن عيسى(ع)فى المهد: «وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا» :مريم:۳۱ و من المعلوم أن ليس فى شرائعهم الزكاه الماليه بالمعنى الذى اصطلح عليه فى الإسلام.

و كذا قوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكّى وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى» :الأعلى:۱۵ و قوله تعالى: «الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكّى» :الليل:۱۸ و قوله تعالى: «الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ كافِرُونَ» :حم السجده:۷ و قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاهِ فاعِلُونَ» :المؤمنون:۴،و غير ذلك من الآيات الواقعه فى السور المكيه و خاصه السور النازله فى أوائل البعثه كسوره حم السجده و غيرها،و لم تكن شرعت الزكاه المصطلحه بعد؛فليت شعرى ما ذا كان يفهمه المسلمون من هذه الآيات فى

لفظ الزكاه.

بل آيه الزكاه أعنى قوله تعالى: «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ» :التوبه:۱۰۳،تدل على أن الزكاه من أفراد الصدقه،و إنما سميت زكاه لكون الصدقه مطهره مزكيه مطلقا،و قد غلب استعمالها فى الصدقه المصطلحه.

فتبين من جميع ما ذكرنا أنه لا مانع من تسميه مطلق الصدقه و الإنفاق فى سبيل الله زكاه،و تبين أيضا أن لا موجب لارتكاب خلاف الظاهر بحمل الركوع على معناه المجازى،و كذا ارتكاب التوجيه فى قوله «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا » حيث أتى باسم إن (وَلِيُّكُمُ) مفردا و بقوله «الَّذِينَ آمَنُوا » و هو خبر بالعطف بصيغه الجمع،هذا.

قوله تعالى: «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا » قال الراغب فى المفردات:

الولاء (بفتح الواو)و التوالى أن يحصل شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما،و يستعار ذلك للقرب من حيث المكان و من حيث النسبه و من حيث الصداقه و النصره و الاعتقاد،و الولايه النصره،و الولايه تولى الأمر،و قيل:الولايه و الولايه (بالفتح و الكسر)واحده نحو الدلاله و الدلاله و حقيقته تولى الأمر،و الولى و المولى يستعملان فى ذلك،كل واحد منهما يقال فى معنى الفاعل أى الموالى(بكسر اللام) و معنى المفعول أى الموالى(بفتح اللام)يقال للمؤمن:هو ولى الله عز و جل و لم يرد مولاه،و قد يقال:الله ولى المؤمنين و مولاهم.

قال:و قولهم:تولى إذا عدى بنفسه اقتضى معنى الولايه و حصوله فى أقرب المواضع منه يقال:وليت سمعى كذا،و وليت عينى كذا،و وليت وجهى كذا أقبلت به عليه قال الله عز و جل: «فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها،فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ،وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » و إذا عدى بعن لفظا أو تقديرا اقتضى معنى الإعراض و ترك قربه.انتهى.

و الظاهر أن القرب الكذائى المعبر عنه بالولايه،أول ما اعتبره الإنسان إنما اعتبره فى الأجسام و أمكنتها و أزمنتها ثم أستعير لأقسام القرب المعنويه بالعكس مما

ذکره لأن هـذا هو المحصل من البحث فی حالات الإنسان الأولیه فالنظر فی أمر المحسوسات و الاشـتغال بأمرها أقـدم فی عیشـه الإنسان من التفکر فی المعقولات و المعانی و أنحاء اعتبارها و التصرف فیها.

و إذا فرضت الولاـیه-و هی القرب الخاص-فی الأمور المعنویه کان لازمها أن للولی ممن ولیه ما لیس لغیره إلا بواسـطته فکل ما کـان من التصـرف فی شـئون من ولیه ممـا یجوز أن یخلفه فیه غیره فإنمـا یخلفه الولی لا غیره کولی المیت،فإن الترکه التی کان للمیت أن یتصـرف فیها بالملک فإن لوارثه الولی أن یتصـرف فیها بولایه الوراثه،و ولی الصغیر یتصرف بولایته فی شئون الصغیر المالیه بتدبیر أمره،و ولی النصـره له أن یتصـرف فی أمر المنصور من حیث تقویته فی الدفاع،و الله سبحانه ولی عباده یدبر أمرهم فی الدنیا و الآخره لا ولی غیره،و هو ولی المؤمنین فی تدبیر أمر دینهم بالهدایه و الدعوه و التوفیق و النصـره و غیر ذلک،و النبی ولی المؤمنین من حیث إن له أن یحکم فیهم و لهم و علیهم بالتشـریع و القضـاء،و الحـاکم ولی النـاس بالحکم فیهم علی مقـدار سعه حکومته،و علی هـذا القیـاس سـائر موارد الولایه کولایه العتق و الحلف و الجوار و الطلاق و ابن العم،و ولایه الحب و ولایه العهـد و هکـذا،و قوله: «یُوَلُّونَ الْأَدْبٰارَ » أی یجعلون أدبارهم تلی جهه الحرب و تـدبر أمرها،و قوله «تَوَلَّیْتُمْ » أی تولیتم عن قبوله أی اتخـذتم أنفسـکم تلی جهه خلاف جهته بالإعراض عنه أو اتخـذتم وجوهکم تلی خلاف جهته بالإعراض عنه؛فالمحصل من معنی الولایه فی موارد استعمالها هو نحو من القرب یوجب نوعا من حق التصرف و مالکیه التدبیر.

و قـد اشـتمل قوله تعالی: «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا » «إلـخ»من السـیاق علی ما یـدل علی وحده ما فی معنی الولایه المذکوره فیه حیث تضـمن العد فی قوله: «اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا » و أسـند الجمیع إلی قوله: «وَلِیُّکُمُ » و ظاهره کون الولایه فی الجمیع بمعنی واحـد.و یؤیـد ذلـک أیضـا قوله فی الآـیه التـالیه: «فَإِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْغٰالِبُونَ » حیث یشـعر أو یـدل علی کون المتولین جمیعا حزبا لله لکونهم تحت ولایته؛فولایه الرسول و الذین آمنوا إنما هو من سنخ ولایه الله.

و قد ذکر الله سـبحانه لنفسه من الولایه،الولایه التکوینیه التی تصحح له التصرف فی کل شیء و تدبیر أمر الخلق بما شاء،و کیف شاء قال تعالی: «أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

أَوْلِيٰاءَ فَاللّٰهُ هُوَ الْوَلِيُّ» :الشورى:٩ و قال: «مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ شَفِيعٍ أَ فَلاٰ تَتَذَكَّرُونَ» :السجده:۴ و قال: «أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهِ» :يوسف:١٠١ و قال: «فَمٰا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ» :الشورى:۴۴ و فى معنى هذه الآيات قوله: «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» :ق:١۶،و قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ» :الأنفال:٢۴.

و ربما لحق بهذا الباب ولايه النصره التى ذكرها لنفسه فى قوله: «ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكٰافِرِينَ لاٰ مَوْلىٰ لَهُمْ» :سوره محمد-١١،و قوله: «فَإِنَّ اللّٰهَ هُوَ مَوْلاٰهُ» :التحريم:۴،و فى معنى ذلك قوله: «وَ كٰانَ حَقًّا عَلَيْنٰا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» :«الروم:۴٧».

و ذكر تعالى أيضا لنفسه الولايه على المؤمنين فيما يرجع إلى أمر دينهم من تشريع الشريعه و الهدايه و الإرشاد و التوفيق و نحو ذلك كقوله تعالى: «اللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ» :البقره:٢۵٧،و قوله: «وَ اللّٰهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» :«آل عمران:۶٨ و قوله: «وَ اللّٰهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ» :الجاثيه:١٩،و فى هذا المعنى قوله تعالى: «وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَهٍ إِذٰا قَضَى اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً مُبِيناً» :الأحزاب:٣۶.

فهذا ما ذكره الله تعالى من ولايه نفسه فى كلامه،و يرجع محصلها إلى ولايه التكوين و ولايه التشريع،و إن شئت سميتهما بالولايه الحقيقيه و الولايه الاعتباريه.

و قد ذكر الله سبحانه لنبيه(ص)من الولايه التى تخصه الولايه التشريعيه و هى القيام بالتشريع و الدعوه و تربيه الأمه و الحكم فيهم و القضاء فى أمرهم،قال تعالى: «النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» :الأحزاب:۶،و فى معناه قوله تعالى: «إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّٰاسِ بِمٰا أَرٰاكَ اللّٰهُ» :النساء:١٠۵،و قوله: «وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ» :الشورى:۵٢،و قوله: «رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيٰاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَهَ» :الجمعه:٢،و قوله: «لِتُبَيِّنَ لِلنّٰاسِ مٰا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» :النحل:

۴۴ و قوله: «أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ» :النساء:۵٩،و قوله: «وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَهٍ إِذٰا قَضَى اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ» » :الأحزاب:

٣۶،و قوله: «وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ إِلَيْكَ» :المائده:۴٩،و قد تقدم أن الله لم يذكر ولايه النصره عليه للأمه.

و یجمع الجمیع أن لـه(ص)الولایه علی الأمه فی سوقهم إلی الله و الحکم فیهم و القضاء علیهم فی جمیع شئونهم فله علیهم الإطاعه المطلقه فترجع ولایته(ص)إلی ولایه الله سبحانه بالولایه التشریعیه،و نعنی بذلک أن له(ص)التقدم علیهم بافتراض الطاعه لأن طاعته طاعه الله،فولایته ولایه الله کما یدل علیه بعض الآیات السابقه کقوله:

«أَطِیعُوا اللّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ » (الآیه)و قوله: «وَ مٰا کٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَهٍ إِذٰا قَضَی اللّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً » (الآیه)و غیر ذلک.

و هذا المعنی من الولایه لله و رسوله هو الذی تذکره الآیه للذین آمنوا بعطفه علی الله و رسوله فی قوله: «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا » علی ما عرفت من دلاله السیاق علی کون هذه الولایه ولایه واحده هی لله سبحانه بالأصاله و لرسوله و الذین آمنوا بالتبع و بإذن منه تعالی.

و لو کانت الولایه المنسوبه إلی الله تعالی فی الآیه غیر المنسوبه إلی الذین آمنوا -و المقام مقام الالتباس-کان الأنسب أن تفرد ولایه أخری للمؤمنین بالذکر رفعا للالتباس کما وقع نظیره فی نظیرها،قال تعالی: «قُلْ أُذُنُ خَیْرٍ لَکُمْ یُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ یُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِینَ» :التوبه.۶۱،فکرر لفظ الإیمان لما کان فی کل من الموضعین لمعنی غیر الآخر،و قد تقدم نظیره فی قوله تعالی: «أَطِیعُوا اللّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ :النساء-۵۹، فی الجزء السابق علی هذا الجزء من الکتاب.

علی أن لفظ «وَلِیُّکُمُ » أتی به مفردا و قد نسب إلی الذین آمنوا و هو جمع،و قد وجهه المفسرون بکون الولایه ذات معنی واحد هو لله سبحانه علی الأصاله و لغیره بالتبع.

و قد تبین من جمیع ما مر أن القصر فی قوله: «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّهُ » «إلخ»، لقصر الإفراد کان المخاطبین یظنون أن الولایه عامه للمذکورین فی الآیه و غیرهم فأفرد المذکورون للقصر،و یمکن بوجه أن یحمل علی قصر القلب.

قوله تعالی: «الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکٰاهَ وَ هُمْ رٰاکِعُونَ » بیان للذین آمنوا المذکور سابقا،و قوله: «وَ هُمْ رٰاکِعُونَ » حال من فاعل «یُؤْتُونَ » و هو العامل فیه.

و الرکوع هو الهیأه المخصوصه فی الإنسان،و منه الشیخ الراکع،و یطلق فی عرف الشرع علی الهیأه المخصوصه فی العباده،قال تعالی: «الرّٰاکِعُونَ السّٰاجِدُونَ»:

التوبه:۱۱۲ و هو ممثل للخضوع و التذلل لله،غير أنه لم يشرع فى الإسلام فى غير حال الصلاه بخلاف السجده.

و لكونه مشتملا على الخضوع و التذلل ربما أستعير لمطلق التذلل و الخضوع أو الفقر و الإعسار الذى لا يخلو عاده عن التذلل للغير.

قوله تعالى: «وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغالِبُونَ » ، التولى هو الأخذ وليا،و «الَّذِينَ آمَنُوا » مفيد للعهد و المراد به المذكور فى الآيه السابقه: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ » ،«إلخ»،و قوله: «فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغالِبُونَ » واقع موقع الجزاء و ليس به بل هو من قبيل وضع الكبرى موضع النتيجه للدلاله على عله الحكم،و التقدير:و من يتول فهو غالب لأنه من حزب الله و حزب الله هم الغالبون، فهو من قبيل الكنايه عن أنهم حزب الله.

و الحزب على ما ذكره الراغب جماعه فيها غلظ،و قد ذكر الله سبحانه حزبه فى موضع آخر من كلامه قريب المضمون من هذا الموضع،و وسمهم بالفلاح فقال: «لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ -إلى أن قال:- أُولئِكَ حِزْبُ اللّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» :المجادله-۲۲.

و الفلاح الظفر و إدراك البغيه التى هى الغلبه و الاستيلاء على المراد،و هذه الغلبه و الفلاح هى التى وعدها الله المؤمنين فى أحسن ما وعدهم به و بشرهم بنيله،قال تعالى:

«قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» :المؤمنون:۱،و الآيات فى ذلك كثيره،و قد أطلق اللفظ فى جميعها،فالمراد الغلبه المطلقه و الفلاح المطلق أى الظفر بالسعاده و الفوز بالحق و الغلبه على الشقاء،و إدحاض الباطل فى الدنيا و الآخره،أما فى الدنيا فبالحياه الطيبه التى توجد فى مجتمع صالح من أولياء الله فى أرض مطهره من أولياء الشيطان على تقوى و ورع،و أما فى الآخره ففى جوار رب العالمين.

(بحث روائى)

- فى الكافى،عن على بن إبراهيم،عن أبيه،عن ابن أبى عمير،عن عمر بن أذينه،

عن زراره؛و الفضیل بن یسار،و بکیر بن أعین،و محمد بن مسلم،و برید بن معاویه، و أبی الجارود،جمیعا عن أبی جعفر(ع)قال: أمر الله عز و جل رسوله بولایه علی و أنزل علیه: «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا-اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکٰاهَ وَ هُمْ رٰاکِعُونَ » و فرض من ولایه أولی الأمر فلم یدروا ما هی؟فأمر الله محمدا ص أن یفسر لهم الولایه-کما فسر الصلاه و الزکاه و الصوم و الحج-.

فلما أتاه ذلک من الله ضاق بذلک صدر رسول الله ص،و تخوف أن یرتدوا عن دینهم و أن یکذبوه،فضاق صدره و راجع ربه عز و جل-فأوحی الله عز و جل إلیه: یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ-وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ وَ اللّٰهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النّٰاسِ ،فصدع بأمر الله عز ذکره،فقام بولایه علی(ع)یوم غدیر خم- فنادی:الصلاه جامعه،و أمر الناس أن یبلغ الشاهد الغائب.

قال عمر بن أذینه:قالوا جمیعا غیر أبی الجارود:قال أبو جعفر(ع):و کانت الفریضه الأخری،و کانت الولایه آخر الفرائض-فأنزل الله عز و جل: «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی » ،قال أبو جعفر(ع):یقول الله عز و جل:لا أنزل علیکم بعد هذه فریضه-قد أکملت لکم الفرائض.

- و فی البرهان،و غایه المرام،عن الصدوق بإسناده عن أبی الجارود عن أبی جعفر (ع): فی قول الله عز و جل: «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا » ،قال:إن رهطا من الیهود أسلموا-منهم عبد الله بن سلام-و أسد و ثعلبه و ابن یامین و ابن صوریا-فأتوا النبی ص فقالوا:یا نبی الله-إن موسی أوصی إلی یوشع بن نون،فمن وصیک یا رسول الله؟و من ولینا بعدک؟فنزلت هذه الآیه: «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا-اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکٰاهَ وَ هُمْ رٰاکِعُونَ » .

قال رسول الله ص:قوموا فقاموا و أتوا المسجد-فإذا سائل خارج فقال (ص):یا سائل هل أعطاک أحد شیئا؟قال:نعم هذا الخاتم- قال:من أعطاکه؟ قال:أعطانیه ذلک الرجل الذی یصلی؛قال علی أی حال أعطاک؟قال:کان راکعا فکبر النبی ص و کبر أهل المسجد.

فقال النبی ص:علی ولیکم بعدی-قالوا:رضینا بالله ربا،و بمحمد نبیا،و بعلی

ص :۱۶

بن أبی طالب ولیا فأنزل الله عز و جل: «وَ مَنْ یَتَوَلَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا-فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغالِبُونَ » الحدیث.

- و فی تفسیر القمی،قال:حدثنی أبی،عن صفوان:عن أبان بن عثمان،عن أبی حمزه الثمالی،عن أبی جعفر(ع): بینا رسول الله ص جالس و عنده قوم من الیهود- فیهم عبد الله بن سلام إذ نزلت علیه هذه الآیه-فخرج رسول الله ص إلی المسجد فاستقبله سائل- فقال(ص):هل أعطاک أحد شیئا؟قال:نعم ذلک المصلی،فجاء رسول الله ص فإذا هو علی(ع):.

أقول:و رواه العیاشی فی تفسیره عنه(ع) .

- و فی أمالی الشیخ،قال:حدثنا محمد بن محمد-یعنی المفید-قال:حدثنی أبو الحسن علی بن محمد الکاتب،قال:حدثنی الحسن بن علی الزعفرانی،قال:حدثنا أبو إسحاق إبراهیم بن محمد الثقفی،قال:حدثنا محمد بن علی،قال:حدثنا العباس بن عبد الله العنبری،عن عبد الرحمن بن الأسود الکندی الیشکری،عن عون بن عبید الله،عن أبیه عن جده أبی رافع قال: دخلت علی رسول الله ص یوما و هو نائم-و حیه فی جانب البیت-فکرهت أن أقتلها و أوقظ النبی ص-فظننت أنه یوحی إلیه فاضطجعت بینه و بین الحیه-فقلت:إن کان منها سوء کان إلی دونه.

فکنت هنیئه فاستیقظ النبی ص و هو یقرأ: «إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا » -حتی أتی علی آخر الآیه-ثم قال:الحمد لله الذی أتم لعلی نعمته،و هنیئا له بفضل الله الذی آتاه،ثم قال لی:ما لک هاهنا؟فأخبرته بخبر الحیه-فقال لی:اقتلها ففعلت-ثم قال لی:یا(أبا،)رافع کیف أنت-و قوم یقاتلون علیا و هو علی الحق و هم علی الباطل؟جهادهم حقا لله عز اسمه-فمن لم یستطع بقلبه،لیس وراءه شیء-فقلت:

یا رسول الله ادع الله لی-إن أدرکتهم أن یقوینی علی قتالهم-قال:فدعا النبی ص و قال:إن لکل نبی أمینا،و إن أمینی أبو رافع.

قال:فلما بایع الناس علیا بعد عثمان،و سار طلحه و الزبیر ذکرت قول النبی ص-فبعت داری بالمدینه و أرضا لی بخیبر-و خرجت بنفسی و ولدی مع أمیر المؤمنین(ع)

-لأستشهد بين يديه فلم أدرك معه حتى عاد من البصره،و خرجت معه إلى صفين- (فقاتلت،)بين يديه بها و بالنهروان أيضا،و لم أزل معه حتى استشهد على (ع)،فرجعت إلى المدينه و ليس لى بها دار و لا أرض-فأعطانى الحسن بن على(ع) أرضا بينبع،و قسم لى شطر دار أمير المؤمنين(ع)فنزلتها و عيالى.

- و فى تفسير العياشى،بإسناده عن الحسن بن زيد،عن أبيه زيد بن الحسن،عن جده قال:سمعت عمار بن ياسر يقول: وقف لعلى بن أبى طالب سائل و هو راكع فى صلاه تطوع-فنزع خاتمه فأعطاه السائل- فأتى رسول الله ص فأعلم بذلك-فنزل على النبى ص هذه الآيه: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا-اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ » -(إلى آخر الآيه)فقرأها رسول الله ص علينا-ثم قال:

من كنت مولاه فعلى مولاه،اللهم وال من والاه،و عاد من عاداه.

-و فى تفسير العياشى،عن المفضل بن صالح،عن بعض أصحابه،عن أحدهما (ع)قال: قال:إنه لما نزلت هذه الآيه: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» - شق ذلك على النبى ص-و خشى أن تكذبه قريش-فأنزل الله: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » (الآيه)فقام بذلك يوم غدير خم.

- و فيه،عن أبى جميله عن بعض أصحابه عن أحدهما(ع)قال:إن رسول الله ص قال: إن الله أوحى إلى أن أحب أربعه:عليا و أبا ذر و سلمان و المقداد، فقلت:ألا فما كان من كثره الناس-أ ما كان أحد يعرف هذا الأمر؟فقال:بلى ثلاثه، قلت:هذه الآيات التى أنزلت: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا » -و قوله: «أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » -ما كان أحد يسأل فيمن نزلت؟فقال من ثم أتاهم لم يكونوا يسألون.

- و فى غايه المرام،عن الصدوق بإسناده عن أبى سعيد الوراق عن أبيه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده: فى حديث مناشده على(ع)لأبى بكر-حين ولى أبو بكر الخلافه،و ذكر(ع)فضائله لأبى بكر-و النصوص عليه من رسول الله ص فكان فيما قال له:فأنشدك بالله أ-لى الولايه من الله-مع ولايه رسول الله ص فى آيه زكاه الخاتم أم لك؟قال:بل لك.

- و فی مجالس الشیخ،بإسناده إلی أبی ذر:فی حدیث مناشده أمیر المؤمنین(ع) عثمان و الزبیر-و عبد الرحمن بن عوف و سعد بن أبی وقاص-یوم الشوری و احتجاجه علیهم- بما فیه من النصوص من رسول الله ص،و الکل منهم یصدقه(ع)فیما یقوله فکان مما ذکره(ع): فهل فیکم أحد آتی الزکاه و هو راکع فنزلت فیه: «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا-اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکٰاهَ وَ هُمْ رٰاکِعُونَ» -غیری؟ قالوا:لا.

- و فی الإحتجاج،فی رساله أبی الحسن الثالث علی بن محمد الهادی(ع)إلی أهل الأهواز حین سألوه عن الجبر و التفویض:

قال(ع): اجتمعت الأمه قاطبه لا اختلاف بینهم فی ذلک:أن القرآن حق لا ریب فیه عند جمیع فرقها-فهم فی حاله الاجتماع علیه مصیبون،و علی تصدیق ما أنزل الله مهتدون لقول النبی ص:«لا تجتمع أمتی علی ضلاله»،فأخبر(ع):

أن ما اجتمعت علیه الأمه-و لم یخالف بعضها بعضا هو الحق،فهذا معنی الحدیث لا ما تأوله الجاهلون،و لا ما قاله المعاندون من إبطال حکم الکتاب،و اتباع أحکام الأحادیث المزوره،و الروایات المزخرفه،و اتباع الأهواء المردئه المهلکه التی تخالف نص الکتاب،و تحقیق الآیات الواضحات النیرات،و نحن نسأل الله أن یوفقنا للصلاه، و یهدینا إلی الرشاد.

ثم قال(ع):فإذا شهد الکتاب بصدق خبر-و تحقیقه فأنکرته طائفه من الأمه- عارضته بحدیث من هذه الأحادیث المزوره،فصارت بإنکارها و دفعها الکتاب ضلالا،و أصح خبر مما عرف تحقیقه من الکتاب-مثل الخبر المجمع علیه من رسول الله ص قال:«إنی مستخلف فیکم خلیفتین کتاب الله و عترتی.ما إن تمسکتم بهما لن تضلوا بعدی-و إنهما لن یفترقا حتی یردا علی الحوض»و اللفظه الأخری عنه فی هذا المعنی بعینه قوله(ص):«إنی تارک فیکم الثقلین: کتاب الله و عترتی أهل بیتی، و إنهما لن یفترقا حتی یردا علی الحوض،ما إن تمسکتم بهما لن تضلوا».

وجدنا شواهد هذا الحدیث نصا فی کتاب الله-مثل قوله: «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا-اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکٰاهَ وَ هُمْ رٰاکِعُونَ » .ثم اتفقت

روايات العلماء-فی ذلک لأمیر المؤمنین(ع):أنه تصـدق بخاتمه و هو راکع فشـکر الله ذلک له،و أنزل الآیه فیه.ثم وجـدنا رسول الله ص-قد أبانه من أصحابه بهذه اللفظه:«من کنت مولاه فعلی مولاه-اللهم وال من والاه و عاد من عاداه»و قوله:

(ص)«علی یقضـی دینی،و ینجز موعدی،و هو خلیفتی علیکم بعدی»و قوله(ص) حین اسـتخلفه علی المدینه-فقال:یا رسول الله:أ تخلفنی علی النساء و الصبیان؟فقال (ص):أ ما ترضی أن تکون منی بمنزله هارون من موسی-إلا أنه لا نبی بعدی؟.

فعلمنا أن الکتاب شـهد بتصدیق هذه الأخبار،و تحقیق هذه الشواهد فیلزم الأمه الإقرار بها-إذا کانت هذه الأخبار وافقت القرآن-فلمـا وجـدنا ذلک موافقا لکتاب الله،و وجـدنا کتاب الله موافقا لهـذه الأخبار،و علیها دلیلا کان الاقتـداء فرضا-لا یتعـداه إلا أهل العناد و الفساد.

- و فی الإحتجـاج،فی حـدیث عن أمیر المؤمنین(ع): قـال المنـافقون لرسول الله ص:هـل بقی لربک علینا بعـد الـذی فرض علینا شیء آخر-یفترضه فتذکر فتسکن أنفسنا إلی أنه لم یبق غیره؟فأنزل الله فی ذلک: «قُلْ إِنَّمٰا أَعِظُکُمْ بِوٰاحِدَهٍ » -یعنی الولایه فأنزل الله: إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا-اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکٰاهَ وَ هُمْ رٰاکِعُونَ » ،و لیس بین الأمه خلاف أنه لم یؤت الزکاه-یومئذ و هو راکع غیر رجل واحد ،الحدیث.

- و فی الاختصاص،للمفیـد عن أحمـد بن محمد بن عیسـی،عن القاسم بن محمد الجوهری، عن الحسن بن أبی العلاء قال: قلت لأبی عبـد الله(ع):الأوصـیاء طاعتهم مفترضه؟ فقال:نعم،هم الـذین قال الله: «أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ » - و هم الذین قال الله: إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا-اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکٰاهَ وَ هُمْ رٰاکِعُونَ » .

أقول:و رواه فی الکافی،عن الحسین بن أبی العلاء عنه(ع)،و روی ما فی معناه عن أحمد بن عیسی عنه(ع).

و إسناد نزول ما نزل فی علی(ع)إلی جمیع الأئمه(ع)لکونهم أهل بیت واحد،و أمرهم واحد.

- و عن تفسير الثعلبى،أخبرنا أبو الحسن محمد بن القاسم الفقيه قال:حدثنا عبد الله بن أحمد الشعرانى قال:أخبرنا أبو على أحمد بن على بن رزين قال:حدثنا المظفر بن الحسن الأنصارى قال:حدثنا السرى بن على الوراق قال:حدثنا يحيى بن عبد الحميد الجمانى عن قيس بن الربيع عن الأعمش،عن عبايه بن الربعى قال:حدثنا عبد الله بن عباس رضى الله عنه- و هو جالس بشفير زمزم يقول قال:رسول الله:إذ أقبل رجل معتم بعمامه-فجعل ابن عباس لا يقول:قال رسول الله-إلا و قال الرجل:قال رسول الله.

فقال له ابن عباس:سألتك بالله من أنت؟قال:فكشف العمامه عن وجهه و قال:يا أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى-و من لم يعرفنى-فأنا جندب بن جناده البدرى أبو ذر الغفارى-سمعت رسول الله بهاتين و إلا فصمتا-و رأيته بهاتين و إلا فعميتا يقول:

على قائد البرره و قاتل الكفره،منصور من نصره،مخذول من خذله.

أما إنى صليت مع رسول الله يوما من الأيام صلاه الظهر-فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد-فرفع السائل يده إلى السماء و قال:اللهم اشهد أنى سألت فى مسجد رسول الله-فلم يعطنى أحد شيئا،و كان على راكعا فأومأ إليه بخنصره اليمنى،و كان يتختم فيها فأقبل السائل-حتى أخذ الخاتم من خنصره،و ذلك بعين النبى ص-فلما فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء-و قال:اللهم موسى سألك فقال:رب اشرح لى صدرى،و يسر لى أمرى،و احلل عقده من لسانى يفقهوا قولى،و اجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى،اشدد به أزرى،و أشركه فى أمرى.فأنزلت عليه قرآنا ناطقا: سنشد عضدك بأخيك،و نجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا.

اللهم و أنا محمد نبيك و صفيك،اللهم و اشرح لى صدرى و يسر لى أمرى، و اجعل لى وزيرا من أهلى عليا اشدد به ظهرى.

قال أبو ذر:فما استتم رسول الله ص الكلمه-حتى نزل عليه جبرئيل من عند الله تعالى-فقال:يا محمد اقرأ قال:و ما أقرأ- قال:قال:اقرأ: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا-اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ .

- و عن الجمع بين الصحاح السته،لزرين من الجزء الثالث فى تفسير سوره المائده

ص :۲۱

:قوله تعالی: «إِنَّما وَلِیُّکَمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ » :(الآیه)من صحیح النسائی عن ابن سلام:

قال أتیت رسول الله ص فقلنا:إن قومنا حادونا لما صدقنا الله و رسوله،و أقسموا أن لا یکلموننا فأنزل الله تعالی: «إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا-اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاهَ وَ هُمْ راکِعُونَ » (الآیه).

ثم أذن بلال لصلاه الظهر فقام الناس یصلون-فمن بین ساجد و راکع و سائل إذ سائل یسأل،و أعطی علی خاتمه و هو راکع-فأخبر السائل رسول الله ص فقرأ علینا رسول الله ص: «إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا-اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاهَ وَ هُمْ راکِعُونَ- وَ مَنْ یَتَوَلَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا-فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغالِبُونَ »

- و عن مناقب ابن المغازلی الشافعی،"فی تفسیر قوله تعالی: «إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ » (الآیه)":قال:أخبرنا محمد بن أحمد بن عثمان قال:أخبرنا أبو بکر أحمد بن إبراهیم بن شاذان البزاز إذنا قال:حدثنا الحسن بن علی العدوی قال:حدثنا سلمه بن شبیب قال:حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا مجاهد عن ابن عباس": فی قوله تعالی:

«إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا-اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاهَ وَ هُمْ راکِعُونَ »

-قال:نزلت فی علی.

- و عنه قال:أخبرنا أحمد بن محمد بن طاوان قال:أخبرنا أبو أحمد عمر بن عبد الله بن شوذب قال:حدثنا محمد بن العسکری الدقاق قال:حدثنا محمد بن عثمان بن أبی شیبه قال:حدثنا عباده قال:حدثنا عمر بن ثابت عن محمد بن السائب عن أبی صالح، عن ابن عباس قال: کان علی راکعا فجاءه مسکین فأعطاه خاتمه-فقال رسول الله:من أعطاک هذا؟فقال:أعطانی هذا الراکع-فأنزل الله هذه الآیه: «إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا (إلی آخر الآیه).

- و عنه قال:حدثنا أحمد بن محمد بن طاوان إذنا:أن أبا أحمد عمر بن عبد الله بن شوذب أخبرهم قال:حدثنا محمد بن جعفر بن محمد العسکری قال:حدثنا محمد بن عثمان قال:حدثنا إبراهیم بن محمد بن میمون قال:حدثنا علی بن عابس قال: دخلت أنا و أبو مریم علی عبد الله بن عطاء،قال أبو مریم:حدث علیا بالحدیث الذی حدثتنی عن

أبی جعفر،قال:کنت عند أبی جعفر جالسا-إذ مر علیه ابن عبد الله بن سلام-قلت:

جعلنی الله فداک،هذا ابن الذی عنده علم الکتاب؟قال:لا و لکنه صاحبکم علی بن أبی طالب-الذی أنزلت فیه آیات من کتاب الله عز و جل: «وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ، أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ، إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا » (الآیه).

و عن الخطیب الخوارزمی فی جواب مکاتبه معاویه إلی عمرو بن العاص قال عمرو بن العاص":لقد علمت یا معاویه ما أنزل فی کتابه-من الآیات المتلوات فی فضائله التی لا یشرکه فیها أحد-کقوله تعالی: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ، إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ ، أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ » ،و قد قال الله تعالی: «رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللّهَ » ،و قد قال الله تعالی لرسوله: «قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى »

- و عنه بإسناده إلی أبی صالح عن ابن عباس قال: أقبل عبد الله بن سلام و معه نفر من قومه-ممن قد آمن بالنبی ص فقالوا:یا رسول الله-إن منازلنا بعیده،و لیس لنا مجلس و لا متحدث دون هذا المجلس،و إن قومنا لما رأونا قد آمنا بالله و رسوله-و قد صدقناه رفضونا،و آلوا علی أنفسهم-أن لا یجالسونا و لا یناکحونا و لا یکلمونا،و قد شق ذلک علینا فقال لهم النبی ص: «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا-اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ ».

ثم إن النبی ص خرج إلی المسجد-و الناس بین قائم و راکع،و بصر بسائل،فقال له النبی:ص هل أعطاک أحد شیئا؟قال:نعم خاتم من ذهب،فقال له النبی ص:

من أعطاکه؟فقال:ذلک القائم-و أومأ بیده إلی علی بن أبی طالب-فقال النبی ص:

علی أی حال أعطاک؟قال:أعطانی و هو راکع،فکبر النبی ص ثم قرأ: «وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ-(وَ الَّذِينَ آمَنُوا)فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغالِبُونَ » -فأنشأ حسان بن ثابت یقول:

أبا حسن تفدیک نفسی و مهجتی

و کل بطیء فی الهدی و مسارع

أ یذهب مدحی و المحبین ضائعا

و ما المدح فی ذات الإله بضائع؟

فأنت الذی أعطیت إذ کنت راکعا

فدتک نفوس القوم یا خیر راکع

بخاتمک المیمون یا خیر سید

و یا خیر شار ثم یا خیر بائع

فأنزل فیک الله خیر ولایه

و بینها فی محکمات الشرائع

- و عن الحموينى بإسناده إلى أبى هدبه إبراهيم بن هدبه قال:نبأنا أنس بن مالك:

أن سائلا أتى المسجد و هو يقول:من يقرض الملى الوفى؟و على راكع يقول بيده خلفه للسائل:أن اخلع الخاتم من يدى،قال:فقال النبى ص:يا عمر وجبت،قال:

بأبى و أمى يا رسول الله ما وجبت؟قال(ص):وجبت له الجنه،و الله ما خلعه من يده حتى خلعه من كل ذنب و من كل خطيئه.

- و عنه بإسناده عن زيد بن على بن الحسين عن أبيه عن جده قال:سمعت عمار بن ياسر-رضى الله عنه-يقول: وقف لعلى بن أبى طالب سائل-و هو راكع فى صلاه التطوع-فنزع خاتمه و أعطاه السائل،فأتى رسول الله ص فأعلمه ذلك،فنزلت على النبى ص هذه الآيه: «إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا-اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ » -فقرأها رسول الله ص،ثم قال(ص):من كنت مولاه فعلى مولاه.

- و عن الحافظ أبى نعيم عن أبى الزبير عن جابر-رضى الله عنه-قال": جاء عبد الله بن سلام-و أتى معه قوم يشكون مجانبه الناس إياهم-منذ أسلموا فقال رسول الله ص:أبغوا إلى سائلا-فدخلنا المسجد فدنا سائل إليه فقال له:أعطاك أحد شيئا؟ قال:نعم-مررت برجل راكع فأعطانى خاتمه،قال:فاذهب فأرنى قال:فذهبنا فإذا على قائم، فقال:هذا؛فنزلت: «إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ » .

- و عنه عن موسى بن قيس الحضرمى عن سلمه بن كهيل قال": تصدق على بخاتمه و هو راكع فنزلت! «إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ » (الآيه).

- و عنه عن عوف بن عبيد بن أبى رافع عن أبيه عن جده قال: دخلت على رسول الله ص و هو نائم إذ يوحى إليه-و إذا حيه فى جنب البيت-فكرهت أن أدخلها و أوقظه- فاضطجعت بينه و بين الحيه-فإن كان شىء فى دونه،فاستيقظ و هو يتلو هذه الآيه:

«إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ »

-قال:الحمد لله فأتى إلى جانبى-فقال:ما اضطجعت هاهنا؟ قلت:لمكان هذه الحيه-قال:قم إليها فاقتلها فقتلتها.

ثم أخذ بيدى فقال:يا أبا رافع-سيكون بعدى قوم يقاتلون عليا حق على الله جهادهم،فمن لم يستطع جهادهم بيده فبلسانه،فمن لم يستطع بلسانه فبقلبه ليس وراء ذلك.

أقول:و الروايات فى نزول الآيتين فى قصه التصدق بالخاتم كثيره أخرجنا عده منها من كتاب غايه المرام،للبحرانى،و هى موجوده فى الكتب المنقول عنها،و قد اقتصرنا على ما نقل عليه من اختلاف اللحن فى سرد القصه.

و قد اشترك فى نقلها عده من الصحابه كأبى ذر و ابن عباس و أنس بن مالك و عمار و جابر و سلمه بن كهيل و أبى رافع و عمرو بن العاص،و على و الحسين و كذا السجاد و الباقر و الصادق و الهادى و غيرهم من أئمه أهل البيت(ع).

و قد اتفق على نقلها من غير رد أئمه التفسير المأثور كأحمد و النسائى و الطبرى و الطبرانى و عبد بن حميد و غيرهم من الحفاظ و أئمه الحديث و قد تسلم ورود الروايه المتكلمون،و أوردها الفقهاء فى مسأله الفعل الكثير من بحث الصلاه،و فى مسأله«هل تسمى صدقه التطوع زكاه»و لم يناقش فى صحه انطباق الآيه على الروايه فحول الأدب من المفسرين كالزمخشرى فى الكشاف،و أبى حيان فى تفسيره،و لا الرواه النقله و هم أهل اللسان.

فلا يعبأ بما ذكره بعضهم:أن حديث نزول الآيه فى قصه الخاتم موضوع مختلق، و قد أفرط بعضهم كشيخ الإسلام ابن تيميه فادعى إجماع العلماء على كون الروايه موضوعا؟ و هى من عجيب الدعاوى،و قد عرفت ما هو الحق فى المقام فى البيان المتقدم.

[سوره المائده (۵): الآيات ۵۷ الى ۶۶]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ اَلْكُفّٰارَ أَوْلِيٰاءَ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۵۷) وَ إِذٰا نٰادَيْتُمْ إِلَى اَلصَّلاٰةِ اِتَّخَذُوهٰا هُزُواً وَ لَعِباً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَعْقِلُونَ (۵۸) قُلْ يٰا أَهْلَ اَلْكِتٰابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّٰا إِلاّٰ أَنْ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْنٰا وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فٰاسِقُونَ (۵۹) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اَللّٰهِ مَنْ لَعَنَهُ اَللّٰهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ اَلْقِرَدَةَ وَ اَلْخَنٰازِيرَ وَ عَبَدَ اَلطّٰاغُوتَ أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكٰاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَوٰاءِ اَلسَّبِيلِ (۶۰) وَ إِذٰا جٰاؤُكُمْ قٰالُوا آمَنّٰا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا كٰانُوا يَكْتُمُونَ (۶۱) وَ تَرىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسٰارِعُونَ فِي اَلْإِثْمِ وَ اَلْعُدْوٰانِ وَ أَكْلِهِمُ اَلسُّحْتَ لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۶۲) لَوْ لاٰ يَنْهٰاهُمُ اَلرَّبّٰانِيُّونَ وَ اَلْأَحْبٰارُ عَنْ قَوْلِهِمُ اَلْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ اَلسُّحْتَ لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَصْنَعُونَ (۶۳) وَ قٰالَتِ اَلْيَهُودُ يَدُ اَللّٰهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا بَلْ يَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشٰاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيٰاناً وَ كُفْراً وَ أَلْقَيْنٰا بَيْنَهُمُ اَلْعَدٰاوَةَ وَ اَلْبَغْضٰاءَ إِلىٰ يَوْمِ اَلْقِيٰامَةِ كُلَّمٰا أَوْقَدُوا نٰاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اَللّٰهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي اَلْأَرْضِ فَسٰاداً وَ اَللّٰهُ لاٰ يُحِبُّ اَلْمُفْسِدِينَ (۶۴) وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ اَلْكِتٰابِ آمَنُوا وَ اِتَّقَوْا لَكَفَّرْنٰا عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْنٰاهُمْ جَنّٰاتِ اَلنَّعِيمِ (۶۵) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقٰامُوا اَلتَّوْرٰاةَ وَ اَلْإِنْجِيلَ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سٰاءَ مٰا يَعْمَلُونَ (۶۶)

ص: ۲۵

(بيان)

الآيات تنهى عن اتخاذ المستهزءين بالله و آياته من أهل الكتاب و الكفار أولياء

ص :۲۶

و تعد أمورا من مساوى صفاتهم و نقضهم مواثيق الله و عهوده و ما يلحق بها بما يناسب غرض السوره(الحث على حفظ العهود و المواثيق و ذم نقضها).

و كأنها ذات سياق متصل واحد و إن كان من الجائز أن يكون لبعض أجزائها سبب مستقل من حيث النزول.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ » «إلخ»قال الراغب: الهزء مزح فی خفيه،و قد يقال لما هو كالمزح(انتهى)،و قال:و لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصدا صحيحا،يلعب لعبا،(انتهى)،و إنما يتخذ الشیء هزؤا و يستهزئ به إذا اتخذ به على وصف لا يعتنى بأمره اعتناء جد لإظهار أنه مما لا ينبغی أن يلتفت إليه،و كذا الشیء يلعب به إذا كان مما لا يتخذ لواحد من الأغراض الصحيحه العقلائيه إلا أن يتخذ لبعض الشئون غير الحقيقيه فالهزؤ بالدين و اللعب به إنما هما لإظهار أنه لا يعدل إلا بعض الأغراض الباطله غير الصحيحه و غير الجديه،و لو قدروه دينا حقا أو قدروا أن مشرعه و الداعی إليه و المؤمنين به ذووا أقدام جد و صدق،و احترموا له و لهم مكانهم لما وضعوه ذاك الموضع فاتخاذهم الدين هزؤا و لعبا قضاء منهم بأن ليس له من الواقعيه و المكانه الحقيقيه شیء إلا أن يؤخذ به ليمزح به أو ليلعب به لعبا.

و من هنا يظهر أولا:أن ذكر اتخاذهم الدين هزؤا و لعبا فی وصف من نهى عن ولايتهم إنما هو للإشاره إلى عله النهی فإن الولايه التی من لوازمها الامتزاج الروحی و التصرف فی الشئون النفسيه و الاجتماعيه لا يلائم استهزاء الولی و لعبه بما يقدسه وليه و يحترمه و يراه أعز من كل شیء حتى من نفسه فمن الواجب أن لا يتخذ من هذا شأنه وليا،و لا يلقى أزمه التصرف فی الروح و الجسم إليه.

و ثانيا:ما فی اتخاذ وصف الإيمان فی الخطاب فی قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » من المناسبه لمقابلته بقوله: «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً » و كذلك ما فی إضافه الدين إليهم فی قوله: «دِينَكُمْ » .

و ثالثا:أن قوله: «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » بمنزله التأكيد لقوله: لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً » (إلخ)،بتكراره بلفظ أعم و أشمل فإن المؤمن و هو الآخذ بعروه الإيمان لا معنى لأن يرضى بالهزء و اللعب بما آمن به فهؤلاء إن

كانوا متلبسين بالإيمان-أى كان الدين لهم دينا-لم يكن لهم بد من تقوى الله فى أمرهم أى عدم اتخاذهم أولياء.

و من المحتمل أن يكون قوله: «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » إشاره إلى ما ذكره تعالى من نحو قوله قبيل آيات: «وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » و المعنى:

و اتقوا الله فى اتخاذهم أولياء إن لم تكونوا منهم،و المعنى الأول لعله أظهر.

قوله تعالى: «وَ إِذٰا نٰادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاٰةِ اتَّخَذُوهٰا هُزُواً وَ لَعِباً » (إلخ)تحقيق لما ذكر أنهم يتخذون دين الذين آمنوا هزوا و لعبا،و المراد بالنداء إلى الصلاه الأذان المشروع فى الإسلام قبل الصلوات المفروضه اليوميه،و لم يذكر الأذان فى القرآن الكريم إلا فى هذا الموضع-كما قيل-.

و الضمير فى قوله «اتَّخَذُوهٰا » راجع إلى الصلاه أو إلى المصدر المفهوم من قوله:

«إِذٰا نٰادَيْتُمْ

أعنى المناداه،و يجوز فى الضمير العائد إلى المصدر التذكير و التأنيث، و قوله: «ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَعْقِلُونَ » تذييل يجرى مجرى الجواب عن فعلهم و بيان أن صدور هذا الفعل أعنى اتخاذ الصلاه أو الأذان هزوا و لعبا منهم إنما هو لكونهم قوما لا يعقلون فلا يسعهم أن يتحققوا ما فى هذه الأركان و الأعمال العباديه الدينيه من حقيقه العبوديه و فوائد القرب من الله،و جماع سعاده الحياه فى الدنيا و العقبى.

قوله تعالى: «قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّٰا إِلاّٰ أَنْ آمَنّٰا بِاللّٰهِ » (إلى آخر الآيه)قال الراغب فى مفردات القرآن: نقمت الشيء(بالكسر)و نقمته(بالفتح) إذا أنكرته إما باللسان و إما بالعقوبه،قال تعالى: «وَ مٰا نَقَمُوا إِلاّٰ أَنْ أَغْنٰاهُمُ اللّٰهُ ، وَ مٰا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاّٰ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ ، هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّٰا » (الآيه)و النقمه :العقوبه قال تعالى: «فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنٰاهُمْ فِي الْيَمِّ » انتهى.

فمعنى قوله: «هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّٰا إِلاّٰ أَنْ آمَنّٰا » «إلخ»:هل تنكرون أو تكرهون منا إلا هذا الذى تشاهدونه و هو أنا آمنا بالله و ما أنزله و إنكم فاسقون؟نظير قول القائل:هل تكره منى إلا أنى عفيف و أنك فاجر،و هل تنكر منى إلا أنى غنى و أنك فقير؟إلى غير ذلك من موارد المقابله و الازدواج فالمعنى:هل تنكرون منا إلا أنا مؤمنون و أن أكثركم فاسقون.

و ربما قیل:إن قوله: «وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فٰاسِقُونَ » بتقدیر لام التعلیل و المعنی:

هل تنقمون منا إلا لأن أکثرکم فاسقون؟.

و قوله: «أَنْ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْنٰا وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ » فی معنی ما أنزل إلینا و إلیکم،و لم ینسبه إلیهم تعریضا بهم کأنهم إذا لم یفوا بما عاهدوا الله علیه و لم یعملوا بما تأمرهم به کتبهم فکتبهم لم تنزل إلیهم و لیسوا بأهلها.

و محصل المعنی:أنا لا نفرق بین کتاب و کتاب مما أنزله الله علی رسله فلا نفرق بین رسله،و فیه تعریض لهم أنهم یفرقون بین رسل الله و یقولون: نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ کما کانوا یقولون: آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهٰارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ ، قال تعالی: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً أُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ عَذٰاباً مُهِيناً» :النساء:۱۵۱.

قوله تعالی: «قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللّٰهِ مَنْ لَعَنَهُ اللّٰهُ » (إلی آخر الآیه)ذکروا أن هذا أمر منه تعالی لنبیه(ص)أن یخاطب أولئک المستهزءین اللاعبین بالدین علی طریق التسلیم أخذا بالنصفه فی التکلیم لیلزمهم أنهم إن نقموا من المؤمنین إیمانهم بالله و ما أنزله علی رسله فعلیهم أن ینقموا أنفسهم لأنهم شر مکانا و أضل عن سواء السبیل لابتلائهم باللعن الإلهی و المسخ بالقرده و الخنازیر و عباده الطاغوت فإذا لم ینقموا أنفسهم علی ما فیهم من أسباب النقمه فلیس لهم أن ینقموا من لم یبتل إلا بما هو دونه فی الشر،و هم المؤمنون فی إیمانهم علی تقدیر تسلیم أن یکون إیمانهم بالله و کتبه شرا،و لن یکون شرا.

فالمراد بالمثوبه مطلق الجزاء،و لعلها استعیرت للعاقبه و الصفه اللازمه کما یستفاد من تقیید قوله: «بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكَ مَثُوبَةً » بقوله: «عِنْدَ اللّٰهِ » فإن الذی عند الله هو أمر ثابت غیر متغیر و قد حکم به الله و أمر به،قال تعالی: «وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ بٰاقٍ» :النحل:۹۶،و قال تعالی: «لاٰ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ» :الرعد:۴۱،فهذه المثوبه مثوبه لازمه لکونها عند الله سبحانه.

و فی الکلام شبه قلب،فإن مقتضی استواء الکلام أن یقال:إن اللعن و المسخ

و عباده الطاغوت شر من الإيمان بالله و كتبه و أشد ضلالا،دون أن يقال:إن من لعنه الله و جعل منهم القرده و الخنازير و عبد الطاغوت شر مكانا و أضل إلا بوضع الموصوف مكان الوصف،و هو شائع فى القرآن الكريم كقوله تعالى: «وَ لٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ » (الآيه).

و بالجمله فمحصل المعنى أن إيماننا بالله و ما أنزله على رسله إن كان شرا عندكم فأنا أخبركم بشر من ذلك يجب عليكم أن تنقموه و هو النعت الذى فيكم.

و ربما قيل:إن الإشاره بقوله: «ذٰلِكَ » إلى جمع المؤمنين المدلول عليه بقوله:

«هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّٰا »

و على هذا فالكلام على استوائه من غير قلب،و المعنى هل أنبئكم بمن هو شر من المؤمنين لتنقموهم؟و هم أنتم أنفسكم،و قد ابتليتم باللعن و المسخ و عباده الطاغوت.

و ربما قيل:إن قوله: «مِنْ ذٰلِكَ » إشاره إلى المصدر المدلول عليه بقوله «هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّٰا » أى هل أنبئكم بشر من نقمتكم هذه مثوبه و جزاء؟هو ما ابتليتم به من اللعن و المسخ و غير ذلك.

قوله تعالى: «وَ إِذٰا جٰاؤُكُمْ قٰالُوا آمَنّٰا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ » (إلى آخر الآيه)يشير تعالى إلى نفاق قلوبهم و إضمارهم ما لا يرتضيه الله سبحانه فى لقائهم المؤمنين فقال:و إذا جاءوكم قالوا آمنا أى أظهروا الإيمان و الحال أنهم قد دخلوا عليكم مع الكفر و قد خرجوا من عندكم بالكفر أى هم على حاله واحده عند الدخول و الخروج و هو الكفر لم يتغير عنه و إنما يظهرون الإيمان إظهارا،و الحال أن الله يعلم ما كانوا يكتمونه سابقا من الغدر و المكر.

فقوله: «وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ » فى معنى قولنا: لم يتغير حالهم فى الكفر،و الضمير فى قوله: «هُمْ قَدْ خَرَجُوا » جىء به للتأكيد،و إفاده تمييزهم فى الأمر و تثبيت الكفر فيهم.

و ربما قيل:إن المعنى أنهم متحولون فى أحوال الكفر المختلفه.

قوله تعالى: «وَ تَرىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسٰارِعُونَ فِى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ » (إلى آخر الآيه)،الظاهر أن المراد بالإثم هو الخوض فى آيات الدين النازله على المؤمنين

و القول فی معارف الدین بما یوجب الکفر و الفسوق علی ما یشهد به ما فی الآیه التالیه من قوله: «عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ » .

و علی هذا فالأمور الثلاثه أعنی الإثم و العدوان و أکل السحت تستوعب نماذج من فسوقهم فی القول و الفعل،فهم یقترفون الذنب فی القول و هو الإثم القولی،و الذنب فی الفعل و هو إما فیما بینهم و بین المؤمنین و هو التعدی علیهم،و إما عند أنفسهم کأکلهم السحت،و هو الربا و الرشوه و نحو ذلک ثم ذم ذلک منهم بقوله: «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ثم أتبعه بتوبیخ الربانیین و الأحبار فی سکوتهم عنهم و عدم نهیهم عن ارتکاب هذه الموبقات من الآثام و المعاصی و هم عالمون بأنها معاص و ذنوب فقال:

لَوْ لاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ »

.

و ربما أمکن أن یستفاد من قوله: «عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ » عند تطبیقه علی ما فی الآیه السابقه: «يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ » حیث ترک العدوان فی الآیه الثانیه أن الإثم و العدوان شیء واحد،و هو تعدی حدود الله سبحانه قولا تجاه المعصیه الفعلیه التی أنموذجها أکلهم السحت.

فیکون المراد بقوله: «يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ » إراءه سیئه قولیه منهم و هی الإثم و العدوان،و سیئه أخری فعلیه منهم و هی أکلهم السحت.

و المسارعه مبالغه فی معنی السرعه و هی ضد البطء،و الفرق بین السرعه و العجله علی ما یستفاد من موارد استعمال الکلمتین أن السرعه أمس بعمل الأعضاء و العجله بعمل القلب،نظیر الفرق بین الخضوع و الخشوع،و الخوف و الخشیه،قال الراغب فی المفردات: السرعه ضد البطء،و یستعمل فی الأجسام و الأفعال،یقال:سرع (بضم الراء)فهو سریع و أسرع فهو مسرع،و أسرعوا صارت إبلهم سراعا نحو أبلدوا،و سارعوا و تسارعوا،انتهی.

و ربما قیل:إن المسارعه و العجله بمعنی واحد غیر أن المسارعه أکثر ما یستعمل فی الخیر،و أن استعمال المسارعه فی المقام-و إن کان مقام الذم و کانت العجله أدل علی الذم منها-إنما هو للإشاره إلی أنهم یستعملونها کأنهم محقون فیها،انتهی و لا یخلو عن بعد.

ص :۳۱

قوله تعالی: «وَ قالَتِ الْیَهُودُ یَدُ اللّهِ مَغْلُولَهٌ غُلَّتْ أَیْدِیهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ یَداهُ مَبْسُوطَتانِ یُنْفِقُ کَیْفَ یَشاءُ » کانت الیهود لا تری جواز النسخ فی الأحکام الدینیه، و لذا کانت لا تقبل بنسخ التوراه و تعیر المسلمین بنسخ الأحکام،و کذا کانت لا تری جواز البداء فی القضایا التکوینیه علی ما یتراءی من خلال الآیات القرآنیه کما تقدم الکلام فیه فی تفسیر قوله تعالی: «ما نَنْسَخْ مِنْ آیَهٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَیْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها»:

الآیهالبقره:۱۰۶،فی الجزء الأول من هذا الکتاب و فی موارد أخر.

و الآیه أعنی قوله تعالی: «وَ قالَتِ الْیَهُودُ یَدُ اللّهِ مَغْلُولَهٌ » تقبل الانطباق علی قولهم هذا غیر أن ظاهر قوله تعالی جوابا عنهم: «بَلْ یَداهُ مَبْسُوطَتانِ یُنْفِقُ کَیْفَ یَشاءُ » یأبی عن ذلک،و یدل علی أنهم إنما تکلموا بهذه الکلمه الأثیمه فی شیء من أمر الرزق أما فی خصوص المؤمنین لما فی عامتهم من الفقر الشامل و العسره و ضیق المعیشه،و أنهم إنما قالوا هذا القول استهزاء بالله سبحانه إیماء إلی أنه لا یقدر علی إغناء عباده المؤمنین به و إنجائهم من الفقر و المذله،لکن هذا الوجه لا یناسب وقوع الآیه فی سوره المائده إن کانت نازله فی مطاوی سائر آیاتها فإن المسلمین کانوا یوم نزولها علی خصب من العیش و سعه من الرزق و رفاهیه من الحال.

و إما أنهم إنما قالوها لجدب أو غلاء أصابهم فضاقت بذلک معیشتهم،و نکدت حالهم،و اختل نظام حیاتهم،کما ربما یظهر من بعض ما ورد فی أسباب النزول،و هذا الوجه أیضا یأباه سیاق الآیات فإن الظاهر أن الآیات إنما تتعرض لشتات أوصافهم فیما یعود إلی عدوانهم و مکرهم بالنسبه إلی المسلمین نقمه منهم لا ما صدر منهم من إثم القول عند أنفسهم.

و إما أنهم إنما تفوهوا بذلک لما سمعوا أمثال قوله تعالی: «مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً» :البقره:۲۴۵،و قوله تعالی: «وَ أَقْرِضُوا اللّهَ قَرْضاً حَسَناً» :المزمل-۲۰،فقالوا:ید الله مغلوله لا یقدر علی تحصیل ما ینفق فی حوائجه لترویج دینه و إحیاء دعوته.و قد قالوا ذلک سخریه و استهزاء علی ما یظهر من بعض آخر مما ورد فی أسباب النزول،و هذا الوجه أقرب إلی النظر.

و کیف کان فهذه النسبه أعنی نسبه غل الید و المغلوبیه عند بعض الحوادث مما

لاـ يأباه تعليمهم الـدينى و الآـراء الموجوده فى التوراه فالتوراه تجوز أن يكون الأمور معجزا لله سبحانه و صادا مانعا له من إنفاذ بعض ما يريده من مقاصده كالأقوياء من الإنسان،يشهد بذلك ما تقصه من قصص الأنبياء كآدم و غيره.

فعنـدهم من وجوه الاعتقـاد مـا يبيـح لهم أن ينسـبوا إليه تعـالى مـا لا يناسب ساحه قـدسه و كبرياء ذاته جلت عظمته و إن كانت الكلمه إنما صدرت منهم استهزاء فإن لكل فعل مبادئ فى الاعتقاد ينبعث إليه الإنسان منها و يتجرأ بها.

و أمـا قوله: غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا » فهو دعـاء عليهم بعـذاب مشابه لما نسـبوا إليه تعالى من النقص غير المناسب لساحه قـدسه،و هو مغلوليه اليـد و انسـلاب القـدره على مـا يحبه و يشاؤه،و على هـذا فقوله: «وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا » عطف تفسير على قوله: «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ » فإن مغلوليه أيديهم مصداق لعنه الله عليهم إذ القول من الله سبحانه فعل،و لعنه تعالى أحدا إنما هو تعذيبه بعذاب إما دنيوى أو أخروى فاللعن هو العذاب المساوى لغل أيديهم أو الأعم منه و من غيره.

و ربما احتمل كون قوله: «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ » (إلـخ)إخبارا عن وقوع كلمه العذاب و هو جزاء اجترائهم على الله سبحانه بقولهم: «يَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَةٌ » عليهم، و الوجه الأول أقرب من الفهم.

و أما قوله: «بَلْ يَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشٰاءُ » فهو جواب عن قولهم:

«يَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَةٌ »

مضروب فى قالب الإضراب.

و الجمله أعنى قوله: «يَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ » كنايه عن ثبوت القدره،و هو شائع فى الاستعمال.

و إنما قيل: «يَدٰاهُ » بصـيغه التثنيه مع كون اليهود إنما أتوا فى قولهم: «يَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَةٌ » بصـيغه الإفراد ليدل على كمال القدره كما ربما يستفاد من نحو قوله تعالى: «قٰالَ يٰا إِبْلِيسُ مٰا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰالِينَ» :ـص-٧٥ لمـا فيه من الإشـعار أو الـدلاله على إعمـال كمـال القـدره،و نحو قولهم:«لا يـدين بها لك»فإن ذلك مبالغه فى نفى كل قـدره و نعمه.

و ربما ذکروا للید معانی مختلفه فی اللغه غیر الجارحه کالقدره و القوه و النعمه و الملک و غیر ذلک، لکن الحق أن اللفظه موضوعه فی الأصل للجارحه،و إنما استعملت فی غیرها من المعانی علی نحو الاستعاره لکونها من الشئون المنتسبه إلی الجارحه نوعا من الانتساب کانتساب الإنفاق و الجود إلی الید من حیث بسطها،و انتساب الملک إلیها من حیث التصرف و الوضع و الرفع و غیر ذلک.

فما یثبته الکتاب و السنه لله سبحانه من الید یختلف معناه باختلاف الموارد کقوله تعالی: «بَلْ یَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ » (الآیه)،و قوله: «أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِیَدَیَّ» :_ص-۷۵ یراد به القدره و کمالها،و قوله: «بِیَدِکَ الْخَیْرُ» :آل عمران:۲۶، و قوله: «فَسُبْحٰانَ الَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ» :یس:۸۳،و قوله: «تَبٰارَکَ الَّذِی بِیَدِهِ الْمُلْکُ» :الملک:۱،إلی غیر ذلک یراد بها الملک و السلطه،و قوله:

«لاٰ تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَیِ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ» :الحجرات:۱ یراد بها الحضور و نحوه.

و أما قوله: «یُنْفِقُ کَیْفَ یَشٰاءُ » فهو بیان لقوله: «یَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ » .

قوله تعالی: «وَ لَیَزِیدَنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ طُغْیٰاناً وَ کُفْراً » هذه الجمله و ما یتلوها إلی آخر الآیه کلام مسرود لتوضیح قوله: «وَ قٰالَتِ الْیَهُودُ یَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَهٌ غُلَّتْ أَیْدِیهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا » علی ما یعطیه السیاق.

فأما قوله: «وَ لَیَزِیدَنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ » (إلخ)،فیشیر إلی أن اجتراءهم علی الله العظیم و تفوههم بمثل قولهم: «یَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَهٌ » لیس من المستبعد منهم فإن القوم متلبسون بالاعتداء و الکفر من قدیم أیامهم،و قد أورثهم ذلک البغی و الحسد،و لا یؤمن من هذه سجیته إذا رأی أن الله فضل غیره علیه بما لا یقدر قدره من النعمه أن یزداد طغیانا و کفرا.

و الیهود کانت تری لنفسها السیاده و التقدم علی الدنیا،و کانت تتسمی بأهل الکتاب،و تتباهی بالربانیین و الأحبار،و تفتخر بالعلم و الحکمه،و تسمی سائر الناس أمیین،فإذا رأت قرآنا نازلا علی قوم کانت تتذلل لعلمها و کتابها-کما کانت هی الحرمه المراعاه بینها و بین العرب فی الجاهلیه-ثم أمعنت فیه فوجدته کتابا إلهیا مهیمنا علی ما تقدم علیه من الکتب السماویه،و مشتملا علی الحق الصریح و التعلیم

العالی و الهدایه التامه ثم أحست بما یتعقبه من ذلتها و استکانتها فی نفس ما کانت تتعزز و تتباهی به و هو العلم و الکتاب.

لا جرم تستیقظ من رقدتها،و تطغی عادیتها،و یزید طغیانها و کفرها.

فنسبه زیاده طغیانهم و کفرهم إلی القرآن إنما هی بعنایه أن أنفسهم الباغیه الحاسده ثارت بالطغیان و الکفر بمشاهده نزول القرآن و إدراک ما یتضمنه من المعارف الحقه و الدعوه الظاهره.

علی أن الله سبحانه ینسب الهدایه و الإضلال فی کتابه إلی نفسه کثیرا کقوله:

«کُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَ هٰؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّکَ وَ مٰا کٰانَ عَطٰاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً» :الإسراء:٢٠ و قال فی خصوص القرآن: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ لاٰ یَزِیدُ الظّٰالِمِینَ إِلاّٰ خَسٰاراً» :الإسراء:٨٢و الإضلال أو ما یشبهه إنما یعد مذموما إذا کان إضلالا ابتدائیا،و أما ما کان منه من قبیل الجزاء إثر فسق و معصیه من الضال یوجب نزول السخط الإلهی علیه و یستدعی حلول ما هو أشد مما هو فیه من الضلال فلا ضیر فی الإضلال بهذا المعنی و لا ذم یلحقه کما یشیر إلیه قوله: «وَ مٰا یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِینَ» :البقره:٢۶،و قوله: «فَلَمّٰا زٰاغُوا أَزٰاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ» :الصف-۵.

و بالأخره یعود معنی زیاده القرآن طغیانهم و کفرهم إلی سلب التوفیق و عدم تعلق العنایه الإلهیه بردهم مما هم فیه من الطغیان و الکفر بآیات الله إلی التسلیم و الإیمان بإجابه الدعوه الحقه،و قد تقدم البحث عن هذا المعنی فی تفسیر قوله تعالی: «وَ مٰا یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِینَ» :البقره:٢۶ فی الجزء الأول من هذا الکتاب.

و لنرجع إلی أول الکلام فقوله: «وَ لَیَزِیدَنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ » (إلخ)،کأنه مسوق لرفع الاستبعاد و التعجب الناشئ من اجتراء هؤلاء المتسمین بأهل الکتاب،و المدعین أنهم أبناء الله و أحباؤه علی ربهم بمثل هذه الکلمه المهینه المزریه:(ید الله مغلوله).

و إن من المحتوم اللازم لهم هذه الزیاده فی الطغیان و الکفر التی هذه الکلمه من آثارها و سیتلوها آثار بعد آثار مشوهه،و هذا هو المستفاد من التأکید المدلول علیه بلام القسم و نون التأکید فی قوله: «لَیَزِیدَنَّ » .

و فی تعقیب الطغیان بالکفر من غیر عکس جری علی الترتیب الطبعی فإن

الکفر من آثار الطغیان و تبعاته.

قوله تعالی: «وَ أَلْقَیْنٰا بَیْنَهُمُ الْعَدٰاوَهَ وَ الْبَغْضٰاءَ إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ » ضمیر بینهم راجع إلی الیهود علی ما هو ظاهر وقوع الجمله فی سیاق الکلام علی الیهود خاصه و إن کانت الآیات بدأت الکلام فی أهل الکتاب عامه،و علی هذا فالمراد بالعداوه و البغضاء بینهم ما یرجع إلی الاختلاف فی المذاهب و الآراء،و قد أشار الله سبحانه إلیه فی مواضع من کلامه کقوله: «وَ لَقَدْ آتَیْنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ الْکِتٰابَ وَ الْحُکْمَ وَ النُّبُوَّهَ -إلی أن قال- فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ فِیمٰا کٰانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ» :الجاثیه:۱۷ و غیر ذلک من الآیات.

و العداوه کان المراد بها البغض الذی یستصحب التعدی فی العمل،و البغضاء هو مطلق ما فی القلب من حاله النفار و إن لم یستعقب التعدی فی العمل فیفید اجتماعهما معنی البغض الذی یوجب الظلم علی الغیر و البغض الذی یقصر عنه.

و فی قوله تعالی: «إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ » ما لا یخفی من الدلاله علی بقاء أمتهم إلی آخر الدنیا.

قوله تعالی: «کُلَّمٰا أَوْقَدُوا نٰاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّٰهُ » إیقاد النار إشعالها، و إطفاؤها إخمادها،و المعنی واضح،و من المحتمل أن یکون قوله: «کُلَّمٰا أَوْقَدُوا » (إلخ)بیانا لقوله: «وَ أَلْقَیْنٰا بَیْنَهُمُ الْعَدٰاوَهَ » (إلخ)فیعود المعنی إلی أنه کلما أثاروا حربا علی النبی ص و المؤمنین أطفأها الله بإلقاء الاختلاف بینهم.

و الآیه علی ما یدل علیه السیاق تسجل علیهم خیبه المسعی فی إیقاد النیران التی یوقدونها علی دین الله سبحانه،و علی المسلمین بما أنهم مؤمنون بالله و آیاته،و أما الحروب التی ربما أمکن أن یوقدوا نارها لا لأمر الدین الحق بل لسیاسه أو تغلب جنسی أو ملی فهی خارجه عن مساق الآیه.

قوله تعالی: «وَ یَسْعَوْنَ فِی الْأَرْضِ فَسٰاداً وَ اللّٰهُ لاٰ یُحِبُّ الْمُفْسِدِینَ » السعی هو السیر السریع،و قوله: «فَسٰاداً » مفعول له أی یجتهدون لإفساد الأرض،و الله لا یحب المفسدین فلا یخلیهم و أن ینالوا ما أرادوه من فساد الأرض فیخیب سعیهم، و الله أعلم.

فهذا كله بيان لكونهم غلت أيديهم و لعنوا بما قالوا،حيث إنهم غير نائلين ما قصدوه من إثاره الحروب على النبى ص و المسلمين،و ما اجتهدوا لأجله من فساد الأرض.

قوله تعالى: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ (إلخ)عود إلى حال أهل الكتاب عامه كما كان بدأ الكلام فيهم عامه،و ختم الكلام بتخليص القول فى ما فاتهم من نعمه السعاده فى الآخره و الدنيا،و هى جنه النعيم و نعمه الحياه السعيده.

و المراد بالتقوى بعد الإيمان التورع عن محارم الله و اتقاء الذنوب التى تحتم السخط الإلهى و عذاب النار،و هى الشرك بالله و سائر الكبائر الموبقه التى أوعد الله عليها النار،فيكون المراد بالسيئات التى وعد الله سبحانه تكفيرها الصغائر من الذنوب، و ينطبق على قوله سبحانه: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً» :النساء:٣١.

قوله تعالى: «وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » المراد بالتوراه و الإنجيل الكتابان السماويان اللذان يذكر القرآن أن الله أنزلهما على موسى و عيسى(ع)دون ما بأيدى القوم من الكتب التى يذكر أنه لعبت بها يد التحريف.

و الظاهر أن المراد بما أنزل إليهم من ربهم سائر الكتب المنسوبه إلى الأنبياء الموجوده عندهم كمزامير داود الذى يسميه القرآن بالزبور،و غيره من الكتب.

و أما احتمال أن يكون المراد به القرآن فيبعده أن القرآن نسخ بأحكامه شرائع التوراه و الإنجيل فلا وجه لعدهما معه و تمنى أن يكونوا أقاموهما مع القرآن الناسخ لهما، و القول بأن العمل بالقرآن عمل بهما أيضا،كما أن العمل بالأحكام الناسخه فى الإسلام عمل بمجموع شرائع الإسلام المتضمنه للناسخ و المنسوخ جميعا لكون دين الله واحدا لا يزاحم بعضه بعضا،غايه الأمر أن بعض الأحكام مؤجله موقوته من غير تناقض يدفعه أن الله سبحانه عبر عن هذا العمل بالإقامه و هى حفظ الشىء على ساق،و لا يلائم ذلك الأحكام المنسوخه بما هى منسوخه،فإقامه التوراه و الإنجيل إنما يصح حين كانت

الشریعتان لم تنسخا بشریعه أخری،و الإنجیل لم ینسخ شریعه التوراه إلا فی أمور یسیره.

علی أن قوله تعالی: «وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ » یعدهم منزلا إلیهم، و غیر معهود من کلامه تعالی أن یذکر أن القرآن نزل إلیهم.

فالظاهر أن المراد بما أنزل إلیهم من ربهم بعد التوراه و الإنجیل سائر الکتب و أقسام الوحی المنزله علی أنبیاء بنی إسرائیل کزبور داود و غیره،و المراد بإقامه هذه الکتب حفظ العمل العام بما فیها من شرائع الله تعالی،و الاعتقاد بما بین الله تعالی فیها من معارف المبدأ و المعاد من غیر أن یضرب علیها بحجب التحریف و الکتمان و الترک الصریح،فلو أقاموها هذه الإقامه لأکلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم.

و أما قوله تعالی: «لَأَکَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » فالمراد بالأکل التنعم مطلقا سواء کان بالأکل کما فی مورد الأغذیه أو بغیره کما فی غیره،و استعمال الأکل فی مطلق التصرف و التنعم من غیر مزاحم شائع فی اللغه.

و المراد من فوقهم هو السماء،و من تحت أرجلهم هو الأرض،فالجمله کنایه عن تنعمهم بنعم السماء و الأرض و إحاطه برکاتهما علیهم نظیر ما وقع فی قوله تعالی: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُریٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَیْهِمْ بَرَکٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ،وَ لٰکِنْ کَذَّبُوا فَأَخَذْنٰاهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ» :الأعراف:۹۶.

و الآیه من الدلیل علی أن لإیمان هذا النوع أعنی نوع الإنسان و أعماله الصالحه تأثیرا فی صلاح النظام الکونی من حیث ارتباطه بالنوع الإنسانی فلو صلح هذا النوع صلح نظام الدنیا من حیث إیفائه باللازم لحیاه الإنسان السعیده من اندفاع النقم و وفور النعم.

و یدل علی ذلک آیات أخری کثیره فی القرآن بإطلاق لفظها کقوله تعالی ظَهَرَ الْفَسٰادُ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِی النّٰاسِ لِیُذِیقَهُمْ بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ قُلْ سِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلُ کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُشْرِکِینَ :الروم-۴۲ و قوله تعالی وَ مٰا أَصٰابَکُمْ مِنْ مُصِیبَهٍ فَبِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ :الشوری-۳۰ إلی غیر ذلک و قد تقدم بعض ما یتعلق به من الکلام فی البحث عن أحکام الأعمال فی الجزء الثانی من هذا الکتاب.

قوله تعالی مِنْهُمْ أُمَّهٌ مُقْتَصِدَهٌ وَ کَثِیرٌ مِنْهُمْ سٰاءَ مٰا یَعْمَلُونَ الاقتصاد أخذ

القصد و هو التوسط فی الأمور فالأمه المقتصده هی المعتدله فی أمر الدین و التسلیم لأمر الله.

و الکلام مستأنف أرید به بیان حال جمیع ما نسب إلیهم من التعدی عن حدود الله و الکفر بآیات الله و نزول السخط و اللعن علی جماعتهم أن ذلک کله إنما تلبس به أکثرهم و هو المصحح لنسبه هذه الفظائع إلیهم و أن منهم أمه معتدله لیست علی هذا النعت و هذا من نصفه الکلام الإلهی حیث لا یضیع حقا من الحقوق و یراقب إحیاء أمر الحق و إن کان قلیلا.

و قد تعرض لذلک أیضا فی مطاوی الآیات السابقه لکن لا بهذه المثابه من التصریح کقوله وَ أَنَّ أَکْثَرَکُمْ فاسِقُونَ و قوله وَ تَری کَثِیراً مِنْهُمْ یُسارِعُونَ إلخ و قوله وَ لَیَزِیدَنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ طُغْیاناً وَ کُفْراً .

بحث روائی

- فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی وَ إِذا جاؤُکُمْ قالُوا آمَنّا الآیه-قال نزلت فی عبد الله بن أبی-لما أظهر الإسلام و قد دخلوا بالکفر.

أقول ظاهر السیاق أنها نازله فی أهل الکتاب لا فی المنافقین إلا أن تکون نزلت وحدها.

و فیه فی قوله تعالی وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ الآیه قال قال قد خرجوا به من الإیمان.

- و فی الکافی،بإسناده عن أبی بصیر عن عمر بن ریاح عن أبی جعفر(ع)قال:

قلت له بلغنی أنک تقول-من طلق لغیر السنه أنک لا تری طلاقه شیئا-فقال أبو جعفر(ع)ما أقول بل الله عز و جل یقوله-أما و الله لو کنا نفتیکم بالجور لکنا شرا منکم-إن الله یقول لَوْ لا یَنْهاهُمُ الرَّبّانِیُّونَ وَ الْأَحْبارُ-عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَکْلِهِمُ السُّحْتَ

- و فی تفسیر العیاشی،عن أبی بصیر قال: قلت لأبی عبد الله(ع):إن عمر بن

ریاح زعم أنک قلت:لا طلاق إلا ببینه؟قال:فقال:ما أنا قلته بل الله تبارک و تعالی یقول:أما و الله لو کنا نفتیکم بالجور لکنا أشر منکم!إن الله یقول: «لَوْ لاٰ یَنْهٰاهُمُ الرَّبّٰانِیُّونَ وَ الْأَحْبٰارُ » .

-و فی مجالس الشیخ،بإسناده عن ابن أبی عمیر عن هشام بن سالم عن أبی عبد الله (ع): فی قول الله تعالی: «وَ قٰالَتِ الْیَهُودُ یَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَهٌ » :فقال کانوا یقولون:قد فرغ من الأمر.

أقول:و روی هذا المعنی العیاشی فی تفسیره عن یعقوب بن شعیب و عن حماد عنه(ع).

- و فی تفسیر القمی،:قال": قالوا:قد فرغ الله من الأمر-لا یحدث غیر ما قدره فی التقدیر الأول،فرد الله علیهم فقال: «بَلْ یَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ یُنْفِقُ کَیْفَ یَشٰاءُ »أی یقدم و یؤخر،و یزید و ینقص و له البداء و المشیه.

أقول:و روی هذا المعنی الصدوق فی المعانی،بإسناده عن إسحاق بن عمار عمن سمعه عن الصادق(ع).

- و فی تفسیر العیاشی،عن هشام المشرقی عن أبی الحسن الخراسانی(ع)قال: إن الله کما وصف نفسه أحد صمد نور،ثم قال: «بَلْ یَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ » -فقلت له:أ فله یدان هکذا؟-و أشرت بیدی إلی یده-فقال:لو کان هکذا کان مخلوقا.

أقول:و رواه الصدوق فی العیون،بإسناده عن المشرقی عنه(ع) .

- و فی المعانی،بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سألت جعفرا(ع)فقلت:قوله عز و جل: «یٰا إِبْلِیسُ مٰا مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِیَدَیَّ » ؟قال:الید فی کلام العرب القوه و النعمه- قال: «وَ اذْکُرْ عَبْدَنٰا دٰاوُدَ ذَا الْأَیْدِ ، وَ السَّمٰاءَ بَنَیْنٰاهٰا بِأَیْدٍ -أی بقوه- وَ إِنّٰا لَمُوسِعُونَ » قال: «وَ أَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ » -قال:أی قواهم،و یقال:

لفلان عندی ید بیضاء أی نعمه.

- و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقٰامُوا التَّوْرٰاهَ وَ الْإِنْجِیلَ » (الآیه):

یعنی الیهود و النصاری- «لَأَکَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » -قال:قال:من فوقهم

المطر،و من تحت أرجلهم النبات.

- و فی تفسیر العیاشی،:فی قوله تعالی: «مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ » (الآیه)عن أبی الصهباء الکبری قال: سمعت علی بن أبی طالب دعا رأس الجالوت-و أسقف النصاری فقال:إنی سائلکما عن أمر و أنا أعلم به منکما فلا تکتما-ثم دعا أسقف النصاری فقال:

أنشدک بالله الذی أنزل الإنجیل علی عیسی،و جعل علی رجله البرکه،و کان یبرئ الأکمه و الأبرص،و أزال ألم العین،و أحیا المیت،و صنع لکم من الطین طیورا، و أنبأکم بما تأکلون و ما تدخرون؛فقال:دون هذا أصدق-

فقال علی(ع):بکم افترقت بنو إسرائیل بعد عیسی؟فقال:لا و الله و لا فرقه واحده-فقال علی(ع):کذبت و الله الذی لا إله إلا هو-لقد افترقت علی اثنین و سبعین فرقه-کلها فی النار إلا فرقه واحده-إن الله یقول: «مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ-وَ کَثِیرٌ مِنْهُمْ سٰاءَ مٰا یَعْمَلُونَ » فهذه التی تنجو.

- و فیه،عن زید بن أسلم،عن أنس بن مالک قال:کان رسول الله ص یقول:

تفرقت أمه موسی علی إحدی و سبعین فرقه،سبعون منها فی النار و واحده فی الجنه، و تفرقت أمه عیسی علی اثنتین و سبعین فرقه،إحدی و سبعون فی النار و واحده فی الجنه،و تعلو أمتی علی الفرقتین جمیعا بمله-واحده فی الجنه و اثنتان و سبعون فی النار، قالوا:من هم یا رسول الله؟قال:الجماعات،الجماعات.

- و فیه،:قال یعقوب بن یزید: کان علی بن أبی طالب(ع)إذا حدث هذا الحدیث-عن رسول الله ص تلا فیه قرآنا: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْکِتٰابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا- لَکَفَّرْنٰا عَنْهُمْ سَیِّئٰاتِهِمْ -إلی قوله- سٰاءَ مٰا یَعْمَلُونَ » ،و تلا أیضا: «وَ مِمَّنْ خَلَقْنٰا أُمَّةٌ یَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ یَعْدِلُونَ »یعنی أمه محمد ص.

[سوره المائده (۵): آیه ۶۷]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ وَ اَللّٰهُ یَعْصِمُکَ مِنَ اَلنّٰاسِ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلْکٰافِرِینَ (۶۷)

ص:۴۱

(بیان)

معنی الآیه فی نفسها ظاهر فإنها تتضمن أمر الرسول ص بالتبلیغ فی صوره التهدید،و وعده(ص)بالعصمه من الناس،غیر أن التدبر فی الآیه من حیث وقوعها موقعها الـذی وقعت فیه،و قد حففتها الآیات المتعرضه لحال أهل الکتاب و ذمهم و توبیخهم بما کانوا یتعاورونه من أقسام التعدی إلی محارم الله و الکفر بآیاته.و قد اتصلت بها من جانبیها الآیتان،أعنی قوله: «وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقٰامُوا التَّوْرٰاهَ وَ الْإِنْجِیلَ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَکَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » (الآیه)،و قوله تعالی:

«قُلْ یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لَسْتُمْ عَلیٰ شَیْءٍ حَتّٰی تُقِیمُوا التَّوْرٰاهَ وَ الْإِنْجِیلَ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ »

(الآیه).

ثم الإمعان فی التدبر فی نفس الآیه و ارتباط الجمل المنضوده فیها یزید الإنسان عجبا علی عجب.

فلو کانت الآیه متصله بما قبلها و ما بعدها فی سیاق واحد فی أمر أهل الکتاب لکان محصلها أمر النبی ص أشد الأمر بتبلیغ ما أنزله الله سبحانه فی أمر أهل الکتاب،و تعین بحسب السیاق أن المراد بما أنزل إلیه من ربه هو ما یأمره بتبلیغه فی قوله: «قُلْ یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لَسْتُمْ عَلیٰ شَیْءٍ حَتّٰی تُقِیمُوا التَّوْرٰاهَ وَ الْإِنْجِیلَ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ » (الآیه).

و سیاق الآیه یأباه فإن قوله: «وَ اللّٰهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النّٰاسِ » یدل علی أن هذا الحکم المنزل المأمور بتبلیغه أمر مهم فیه مخافه الخطر علی نفس النبی ص أو علی دین الله تعالی من حیث نجاح تبلیغه،و لم یکن من شأن الیهود و لا النصاری فی عهد النبی ص أن یتوجه إلیه من ناحیتهم خطر یسوغ له(ص)أن یمسک عن التبلیغ أو یؤخره إلی حین فیبلغ الأمر إلی حیث یحتاج إلی أن یعده الله بالعصمه منهم إن بلغ ما أمر به فیهم حتی فی أوائل هجرته(ص)إلی المدینه و عنده حده الیهود و شدتهم حتی انتهی إلی وقائع خیبر و غیرها.

علی أن الآیه لا تتضمن أمرا شدیدا و لا قولا حادا،و قد تقدم علیه تبلیغ ما هو أشد و أحد و أمر من ذلک علی الیهود،و قد أمر النبی ص بتبلیغ ما هو أشد

من ذلک کتبلیغ التوحید و نفی الوثنیه إلی کفار قریش و مشرکی العرب و هم أغلظ جانبا و أشد بطشا و أسفک للدماء،و أفتک من الیهود و سائر أهل الکتاب،و لم یهدده الله فی أمر تبلیغهم و لا آمنه بالعصمه منهم.

علی أن الآیات المتعرضه لحال أهل الکتاب معظم أجزاء سوره المائده فهی نازله فیها قطعا،و الیهود کانت عند نزول هذه السوره قد کسرت سورتهم،و خمدت نیرانهم،و شملتهم السخطه و اللعنه کلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله فلا معنی لخوف رسول الله ص منهم فی دین الله،و قد دخلوا یومئذ فی السلم فی حظیره الإسلام و قبلوا هم و النصاری الجزیه،و لا معنی لتقریره تعالی له خوفه منهم و اضطرابه فی تبلیغ أمر الله إلیهم،و هو أمر قد بلغ إلیهم ما هو أعظم منه،و قد وقف قبل هذا الموقف فیما هو أهول منه و أوحش.

فلا ینبغی الارتیاب فی أن الآیه لا تشارک الآیات السابقه علیها و اللاحقه لها فی سیاقها،و لا تتصل بها فی سردها،و إنما هی آیه مفرده نزلت وحدها.

و الآیه تکشف عن أمر قد أنزل علی النبی ص(إما مجموع الدین أو بعض أجزائه)و کان النبی ص یخاف الناس من تبلیغه و یؤخره إلی حین یناسبه،و لو لا مخافته و إمساکه لم یحتج إلی تهدیده بقوله: «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ » کما وقع فی آیات أول البعثه الخالیه عن التهدید کقوله تعالی: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ » إلی آخر سوره العلق،و قوله: «یٰا أَیُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ» :المدثر:۲،و قوله:

فَاسْتَقِیمُوا إِلَیْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَیْلٌ لِلْمُشْرِکِینَ :حم السجده:۶،إلی غیر ذلک.

فهو(ص)کان یخافهم و لم یکن مخافته من نفسه فی جنب الله سبحانه فهو أجل من أن یستنکف عن تفدیه نفسه أو یبخل فی شیء من أمر الله بمهجته فهذا شیء تکذبه سیرته الشریفه و مظاهر حیاته،علی أن الله شهد فی رسله علی خلاف ذلک کما قال تعالی: «مٰا کٰانَ عَلَی النَّبِیِّ مِنْ حَرَجٍ فِیمٰا فَرَضَ اللّٰهُ لَهُ سُنَّهَ اللّٰهِ فِی الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ کٰانَ أَمْرُ اللّٰهِ قَدَراً مَقْدُوراً الَّذِینَ یُبَلِّغُونَ رِسٰالاٰتِ اللّٰهِ وَ یَخْشَوْنَهُ وَ لاٰ یَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ حَسِیباً» :الأحزاب:۳۹ و قد قال تعالی فی أمثال هذه الفروض:

«فَلاٰ تَخٰافُوهُمْ وَ خٰافُونِ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ» :آل عمران-۱۷۵،و قد مدح الله سبحانه طائفه من عباده بأنهم لم یخشوا الناس فی عین أن الناس خوفوهم فقال: «الَّذِینَ قٰالَ لَهُمُ

النّاسُ إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكَمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ» :آل عمران:۱۷۳.

و ليس من الجائز أن يقال:إنه(ص)كان يخاف على نفسه أن يقتلوه فيبطل بذلك أثر الدعوه و ينقطع دابرها فكان يعوقه إلى حين ليس فيه هذه المفسده فإن الله سبحانه يقول له(ص): «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» :آل عمران:۱۲۸،لم يكن الله سبحانه يعجزه لو قتلوا النبى ص أن يحيى دعوته بأى وسيله من الوسائل شاء،و بأى سبب أراد.

نعم من الممكن أن يقدر لمعنى قوله: «وَ اللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ » أن يكون النبى ص يخاف الناس فى أمر تبليغه أن يتهموه بما يفسد به الدعوه فسادا لا تنجح معه أبدا فقد كان أمثال هذا الرأى و الاجتهاد جائزا له مأذونا فيه من دون أن يرجع معنى الخوف إلى نفسه بشىء.

و من هنا يظهر أن الآيه لم تنزل فى بدء البعثه كما يراه بعض المفسرين إذ لا معنى حينئذ لقوله تعالى: «وَ اللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ » إلا أن يكون النبى ص يماطل فى إنجاز التبليغ خوفا من الناس على نفسه أن يقتلوه فيحرم الحياه أو أن يقتلوه و يذهب التبليغ باطلا لا أثر له فإن ذلك كله لا سبيل إلى احتماله.

على أن المراد بما أنزل إليه من ربه لو كان أصل الدين أو مجموعه فى الآيه عاد معنى قوله: «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ » إلى نحو قولنا:يا أيها الرسول بلغ الدين و إن لم تبلغ الدين فما بلغت الدين.

و أما جعله من قبيل قول أبى النجم:

أنا أبو النجم و شعرى شعرى.

كما ذكره بعضهم أن معنى الآيه:و إن لم تبلغ الرساله فقد لزمك شناعه القصور فى التبليغ و الإهمال فى المسارعه إلى ايتمار ما أمرك به الله سبحانه،و أكده عليك كما أن معنى قول أبى النجم:إنى أنا أبو النجم و شعرى شعرى المعروف بالبلاغه المشهور بالبراعه.

فإن ذلك فاسد لأن هذه الصناعه الكلاميه إنما تصح فى موارد العام و الخاص و المطلق و المقيد و نظائر ذلك فيفاد بهذا السياق اتحادهما كقول أبى النجم:شعرى شعرى

أى لا ينبغى أن يتوهم على متوهم أن قريحتى كلت أو أن الحوادث أعيتنى أن أقول من الشعر ما كنت أقوله فشعرى الذى أقول اليوم هو شعرى الذى كنت أقوله بالأمس.

و أما قوله تعالى: «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ » فليس يجرى فيه مثل هذه العنايه فإن الرساله التى هى مجموع الدين أو أصله على تقدير نزول الآيه فى أول البعثه أمر واحد غير مختلف و لا متغير حتى يصح أن يقال:إن لم تبلغ هذه الرساله فما بلغت تلك الرساله أو لم تبلغ أصل الرساله فإن المفروض أنه أصل الرساله التى هى مجموع المعارف الدينيه.

فقد تبين أن الآيه بسياقها لا تصلح أن تكون نازله فى بدء البعثه و يكون المراد فيها بما أنزل إلى الرسول ص مجموع الدين أو أصله،و يتبين بذلك أنها لا تصلح أن تكون نازله فى خصوص تبليغ مجموع الدين أو أصله فى أى وقت آخر غير بدء البعثه فإن الإشكال إنما ينشأ من جهه لزوم اللغو فى قوله تعالى: «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ » كما مر.

على أن قوله: «يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » لا يلائم النزول فى أى وقت آخر غير بدء البعثه على تقدير إراده الرساله بمجموع الدين أو أصله،و هو ظاهر.

على أن محذور دلاله قوله: «وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّٰاسِ » على أن النبى ص كان يخاف الناس فى تبليغه على حاله.

فظهر أن ليس هذا الأمر الذى أنزل على النبى ص و أكدت الآيه تبليغه هو مجموع الدين أو أصله على جميع تقاديره المفروضه،فلنضع أنه بعض الدين،و المعنى:

بلغ الحكم الذى أنزل إليك من ربك و إن لم تفعل فما بلغت رسالته«إلخ»،و لازم هذا التقدير أن يكون المراد بالرساله مجموع ما حمله رسول الله ص من الدين و رسالته، و إلا فالمحذور السابق و هو لزوم اللغو فى الكلام على حاله إذ لو كان المراد بقوله:

«رِسٰالَتَهُ »

الرساله الخاصه بهذا الحكم كان المعنى:بلغ هذا الحكم و إن لم تبلغه فما بلغته،و هو لغو ظاهر.

فالمراد أن بلغ هذا الحكم و إن لم تبلغه فما بلغت أصل رسالته أو مجموعها، و هو معنى صحيح معقول،و حينئذ يرد الكلام نظير المورد الذى ورده قول أبى النجم:«أنا أبو النجم و شعرى شعرى».

و أما كون هذا الحكم بحيث لو لم يبلغ فكأنما لم تبلغ الرساله فإنما ذلك لكون المعارف و الأحكام الدينيه مرتبطه بعضها ببعض بحيث لو أخل بأمر واحد منها أخل بجميعها و خاصه فی التبليغ لكمال الارتباط،و هذا التقدير و إن كان فی نفسه مما لا بأس به لكن ذيل الآيه و هو قوله: «وَ اللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِی الْقَوْمَ الْكافِرِينَ » لا يلائمه فإن هذا الذيل يكشف عن أن قوما كافرين من الناس هموا بمخالفه هذا الحكم النازل أو كان المترقب من حالهم أنهم سيخالفونه مخالفه شديده،و يتخذون أی تدبير يستطيعونه لإبطال هذه الدعوه و تركه سدی لا يؤثر أثرا و لا ينفع شيئا و قد وعد الله رسوله أن يعصمه منهم،و يبطل مكرهم،و لا يهديهم فی كيدهم.

و لا يستقيم هذا المعنی مع أی حكم نازل فرض فإن المعارف و الأحكام الدينيه فی الإسلام ليست جميعا فی درجه واحده ففيها التی هی عمود الدين،و فيها الدعاء عند رؤيه الهلال،و فيها زنی المحصن و فيها النظر إلی الأجنبيه،و لا يصح فرض هذه المخافه من النبی ص و الوعد بالعصمه من الله مع كل حكم حكم منها كيفما كان بل فی بعض الأحكام.

فليس استلزام عدم تبليغ هذا الحكم لعدم تبليغ غيره من الأحكام إلا لمكان أهميته و وقوعه من الأحكام فی موقع لو أهمل أمره كان ذلك فی الحقيقه إهمالا لأمر سائر الأحكام،و صيرورتها كالجسد العادم للروح التی بها الحياه الباقيه و الحس و الحركه، و تكون الآيه حينئذ كاشفه عن أن الله سبحانه كان قد أمر رسوله ص بحكم يتم به أمر الدين و يستوی به علی عريشه القرار،و كان من المترقب أن يخالفه الناس و يقلبوا الأمر علی النبی ص بحيث تنهدم أركان ما بناه من بنيان الدين و تتلاشی أجزاؤه،و كان النبی ص يتفرس ذلك و يخافهم علی دعوته فيؤخر تبليغه إلی حين بعد حين ليجد له ظرفا صالحا و جوا آمنا عسی أن تنجح فيه دعوته،و لا يخيب مسعاه فأمره الله تعالی بتبليغ عاجل،و بين له أهميه الحكم،و وعده أن يعصمه من الناس، و لا يهديهم فی كيدهم،و لا يدعهم يقلبوا له أمر الدعوه.

و إنما يتصور تقليب أمر الدعوه علی النبی ص و إبطال عمله بعد انتشار الدعوه الإسلاميه لا من جانب المشركين و وثنيه العرب أو غيرهم كأن تكون الآيه نازله فی مكه قبل الهجره،و تكون مخافه النبی ص من الناس من جهه افترائهم عليه و اتهامهم إياه فی أمره كما حكاه الله سبحانه من قولهم: «مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ» »:الدخان:۱۴.

و قولهم: «شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ» » :«الطور:۳۰و قولهم: «ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» » :«الذاريات:۵۲ و قولهم: «إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّ رَجُلاً مَسْحُوراً» » :«الإسراء:۴۷ و قولهم: «إِنْ هٰذا إِلاّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ» » :«المدثر:۲۴ و قولهم: «أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً» » :«الفرقان:۵ و قولهم: «إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» » :«النحل:۱۰۳ و قولهم: «أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذا لَشَيْءٌ يُرادُ» » :«_ص:۶ إلى غير ذلک من أقاويلهم فيه(ص).

فهذه كلها ليست مما يوجب وهن قاعده الدين،و إنما تدل-إذا دلت-على اضطراب القوم فى أمرهم،و عدم استقامتهم فيه على أن هذه الافتراءات و المرامى لا تختص بالنبى ص حتى يضطرب عند تفرسها و يخاف وقوعها فسائر الأنبياء و الرسل يشاركونه فى الابتلاء بهذه البلايا و المحن،و مواجهه هذه المكاره من جمله أممهم كما حكاه الله تعالى عن نوح و من بعده من الأنبياء المذكورين فى القرآن.

بل إن كان شىء-و لا بد-فإنما يتصور بعد الهجره و استقرار أمر الدين فى المجتمع الإسلامى و المسلمون كالمعجون الخليط من صلحاء مؤمنين و قوم منافقين أولى قوه لا يستهان بأمرهم،و آخرين فى قلوبهم مرض و هم سماعون-كما نص عليه الكتاب العزيز-و هؤلاء كانوا يعاملون مع النبى ص-فى عين أنهم آمنوا به واقعا أو ظاهرا- معامله الملوک،و مع دين الله معامله القوانين الوضعيه القوميه كما يشعر بذلک طوائف من آيات الكتاب قد تقدم تفسير بعضها فى الأجزاء السابقه من هذا الكتاب (۱).

فكان من الممكن أن يكون تبليغ بعض الأحكام مما يوقع فى الوهم انتفاع النبى ص بتشريعه و إجرائه يستوجب أن يقع فى قلوبهم أنه ملک فى صوره النبوه و قانون ملكى فى هيئه الدين كما ربما وجد بعض شواهد ذلک فى مطاوى كلمات بعضهم (۲).

و هذه شبهه لو كانت وقعت هى أو ما يماثلها فى قلوبهم ألقت إلى الدين من الفساد و الضيعه ما لا يدفعه أى قوه دافعه،و لا يصلحه أى تدبير مصلح فليس هذا الحكم النازل المأمور بتبليغه إلا حكما فيه توهم انتفاع للنبى ص،و اختصاص له بمزيه من

۱- ۱) كآيات قصه أحد فى صوره آل عمران،و الآيات ال ۱۰۵-۱۲۶ من سوره النساء.

۲- ۲) كما يذكر عن أبى سفيان فى كلمات قالها فى مجلس عثمان حينما تم له أمر الخلافه.

المزايا الحيويه لا يشاركه فيها غيره من سائر المسلمين،نظير ما فی قصه زيد و تعدد الأزواج و الاختصاص بخمس الغنائم و نظائر ذلک.

غير أن الخصائص إذا كانت مما لا تمس فيه عامه المسلمين لم يكن من طبعها إثاره الشبهه فی القلوب فإن الازدواج بزوجه المدعو ابنا مثلا لم يكن يختص به و الازدواج بأكثر من أربع نسوه لو كان تجويزه لنفسه عن هوی بغير إذن الله سبحانه لم يكن يمنعه أن يجوز مثل ذلک لسائر المسلمين،و سيرته فی إيثار المسلمين علی نفسه فی ما كان يأخذه لله و لنفسه من الأموال و نظائر هذه الأمور لا تدع ريبا لمرتاب و لا يشتبه أمرها لمشتبه دون أن تزول الشبهه.

فقد ظهر من جميع ما تقدم أن الآيه تكشف عن حكم نازل فيه شوب انتفاع للنبی ص،و اختصاصه بمزيه حيويه مطلوبه لغيره أيضا يوجب تبليغه و العمل به حرمان الناس عنه فكان النبی ص يخاف إظهاره فأمره الله بتبليغه و شدد فيه، و وعده العصمه من الناس و عدم هدايتهم فی كيدهم إن كادوا فيه.

و هذا يؤيد ما وردت به النصوص من طرق الفريقين أن الآيه نزلت فی أمر ولايه علی(ع)،و أن الله أمر بتبليغها و كان النبی ص يخاف أن يتهموه فی ابن عمه،و يؤخر تبليغها وقتا إلی وقت حتی نزلت الآيه فبلغها بغدير خم،

- و قال فيه:

من كنت مولاه فهذا علی مولاه.

و كون ولايه أمر الأمه مما لا غنی للدين عنه ظاهر لا ستر عليه،و كيف يسوغ لمتوهم أن يتوهم أن الدين الذی يقرر بسعته لعامه البشر فی عامه الأعصار و الأقطار جميع ما يتعلق بالمعارف الأصليه،و الأصول الخلقيه، و الأحكام الفرعيه العامه لجميع حركات الإنسان و سكناته،فرادی و مجتمعين علی خلاف جميع القوانين العامه لا يحتاج إلی حافظ يحفظه حق الحفظ؟أو أن الأمه الإسلاميه و المجتمع الدينی مستثنی من بين جميع المجتمعات الإنسانيه مستغنيه عن وال يتولی أمرها و مدبر يدبرها و مجر يجريها؟ و بأی عذر يمكن أن يعتذر إلی الباحث عن سيره النبی الاجتماعيه؟حيث يری أنه (ص)كان إذا خرج إلی غزوه خلف مكانه رجلا يدير رحی المجتمع،

:و قد خلف عليا مكانه علی المدينه-عند مسيره إلی تبوک فقال:يا رسول الله أ تخلفنی علی النساء و الصبيان؟ فقال(ص):أ ما ترضی أن تكون منی بمنزله هارون من موسی-إلا أنه لا نبی بعدی؟

و کان(ص)ینصب الولاه الحکام فی ما بید المسلمین من البلاد کمکه و الطائف و الیمن و غیرها،و یؤمر رجالا علی السرایا و الجیوش التی یبعثها إلی الأطراف،و أی فرق بین زمان حیاته و ما بعد مماته دون أن الحاجه إلی ذلک بعد غیبته بالموت أشد، و الضروره إلیه أمس ثم أمس.

قوله تعالی: «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ » خاطبه(ص) بالرساله لکونها أنسب الصفات إلی ما تتضمنه الآیه من الأمر بالتبلیغ لحکم الله النازل فهو کالبرهان علی وجوب التبلیغ الذی تظهره الآیه و تقرعه سمع رسول الله ص فإن الرسول لا شأن له إلا تبلیغ ما حمل من الرساله فتحمل الرساله یفرض علیه القیام بالتبلیغ.

و لم یصرح باسم هذا الذی أنزل إلیه من ربه بل عبر عنه بالنعت و أنه شیء أنزل إلیه،إشعارا بتعظیمه و دلاله علی أنه أمر لیس فیه لرسول الله ص صنع،و لا له من أمره شیء لیکون کبرهان آخر علی عدم خیره منه(ص)فی کتمانه و تأخیر تبلیغه، و یکون له عذرا فی إظهاره علی الناس،و تلویحا إلی أنه(ص)مصیب فی ما تفرسه منهم و تخوف علیه،و إیماء إلی أنه مما یجب أن یظهر من ناحیته(ص)و بلسانه و بیانه.

قوله تعالی: «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ » المراد بقوله: «رِسٰالَتَهُ » و قرئ «رسالاته » کما تقدم مجموع رسالات الله سبحانه التی حملها رسوله ص،و قد تقدم أن الکلام یفید أهمیه هذا الحکم المرموز إلیه،و أن له من المکانه ما لو لم یبلغه کأن لم یبلغ شیئا من الرسالات التی حملها.

فالکلام موضوع فی صوره التهدید،و حقیقته بیان أهمیه الحکم،و أنه بحیث لو لم یصل إلی الناس،و لم یراع حقه کان کأن لم یراع حق شیء من أجزاء الدین فقوله:

«وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ »

جمله شرطیه سیقت لبیان أهمیه الشرط وجودا و عدما لترتب الجزاء الأهم علیه وجودا و عدما.

و لیست شرطیه مسوقه علی طبع الشرطیات الدائره عندنا فإنا نستعمل«إن» الشرطیه طبعا فیما نجهل تحقق الجزاء للجهل بتحقق الشرط، و حاشا ساحه النبی ص من أن یقدر القرآن فی حقه احتمال أن یبلغ الحکم النازل علیه من ربه و أن لا یبلغ،

و قد قال تعالی: «اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» :«الأنعام-۱۲۴.

فالجمله أعنی قوله: «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ » (إلخ)،إنما تفید التهدید بظاهرها و تفید إعلامه(ع)و إعلام غیره ما لهذا الحکم من الأهمیه،و أن الرسول معذور فی تبلیغه.

قوله تعالی: «وَ اللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ إِنَّ اللّهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ » قال الراغب: العصم (بالفتح فالسکون)الإمساک و الاعتصام الاستمساک-إلی أن قال- و العصام (بالکسر)ما یعتصم به أی یشد،و عصمه الأنبیاء حفظه إیاهم أولا بما خصهم به من صفاء الجوهر،ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمیه و النفسیه،ثم بالنصره و بتثبیت أقدامهم،ثم بإنزال السکینه علیهم و بحفظ قلوبهم و بالتوفیق قال تعالی: «وَ اللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ » .

و العصمه شبه السوار،و المعصم موضعها من الید،و قیل للبیاض بالرسغ عصمه تشبیها بالسوار،و ذلک کتسمیه البیاض بالرجل تحجیلا،و علی هذا قیل:غراب أعصم،انتهی.

و ما ذکره من معنی عصمه الأنبیاء حسن لا بأس به غیر أنه لا ینطبق علی الآیه «وَ اللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ » بل لو انطبق فإنما ینطبق علی مثل قوله: «وَ مَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً» :«النساء:۱۱۳.

و أما قوله: «وَ اللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ » فإن ظاهره أنها عصمه بمعنی الحفظ و الوقایه من شر الناس المتوجه إلی نفس النبی الشریفه أو مقاصده الدینیه أو نجاح تبلیغه و فلاح سعیه،و بالجمله المعنی المناسب لساحته المقدسه.

و کیف کان فالمتحصل من موارد استعمال الکلمه أنها بمعنی الإمساک و القبض فاستعماله فی معنی الحفظ من قبیل استعاره اللازم لملزومه فإن الحفظ یلزمه القبض.

و کان تعلیق العصمه بالناس من دون بیان أن العصمه من أی شأن من شئون الناس کتعدیاتهم بالإیذاء فی الجسم من قتل أو سم أو أی اغتیال،أو بالقول کالسب و الافتراء،أو بغیر ذلک کتقلیب الأمور بنوع من المکر و الخدیعه و المکیده و بالجمله

السكوت عن تشخيص ما يعصم منه لإفاده نوع من التعميم،و لكن الذى لا يعدو عنه السياق هو شرهم الذى يوجب انقلاب الأمر على النبى ص بحيث يسقط بذلك ما رفعه من أعلام الدين.

و الناس مطلق من وجد فيه معنى الإنسانيه من دون أن يعتبر شىء من خصوصياته الطبيعيه التكوينيه كالذكوره و الأنوثه أو غير الطبيعيه كالعلم و الفضل و الغنى و غير ذلك.و لذلك قل ما ينطبق على غير الجماعه،و لذلك أيضا ربما دل على الفضلاء من الإنسان إذا كان الفضل روعى فيه وجود معنى الإنسانيه كقوله تعالى: «إِذٰا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمٰا آمَنَ النّٰاسُ » أى الذين وجد فيهم معنى الإنسانيه،و هو ملاك درك الحق و تمييزه من الباطل.

و ربما كان دالا على نوع من الخسه و سقوط الحال،و ذلك إذا كان الأمر الذى يتكلم فيه مما يحتاج إلى اعتبار شىء من الفضائل الإنسانيه التى اعتبرت زائده على أصل معنى النوع كقوله: «وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ» » :«الروم:٣٠ و كقولك:

لا تثق بمواعيد الناس،و لا تستظهر بسوادهم نظرا منك إلى أن الوثوق و الاستظهار يجب أن يتعلقا بالفضلاء من الإنسان ذوى ملكه الوفاء بالعهد و الثبات على العزيمه لا على من ليس له إلا مجرد صدق اسم الإنسانيه،و ربما لم يفد شيئا من مدح أو ذم إذا تعلق الغرض بما لا يزيد على أصل معنى الإنسانيه كقوله تعالى: «يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثىٰ وَ جَعَلْنٰاكُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاكُمْ» » :«الحجرات:١٣.

و لعل قوله: «وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّٰاسِ » أخذ فيه لفظ الناس اعتبارا بسواد الأفراد الذى فيه المؤمن و المنافق و الذى فى قلبه مرض،و قد اختلطوا من دون تمايز، فإذا خيف خيف من عامتهم،و ربما أشعر به قوله: «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكٰافِرِينَ » فإن الجمله فى مقام التعليل لقوله: «وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّٰاسِ » و قد تقدم أيضا أن الآيه نزلت بعد الهجره و ظهور شوكه،الإسلام و كان السواد الأعظم من الناس مسلمين بحسب الظاهر و إن كان فيهم المنافقون و غيرهم.

فالمراد بالقوم الكافرين قوم هم فى الناس مذكورى النعت ممحوى الاسم وعد الله سبحانه أن يبطل كيدهم و يعصم رسوله ص من شرهم.

و الظاهر أيضا أن يكون المراد بالكفر الكفر بآيه من آيات الله و هو الحكم المراد بقوله: «مٰا أَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » ،كما فى قوله فى آيه الحج: «وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعٰالَمِينَ» » :آل عمران:٩٧،و أما الكفر بمعنى الاستكبار عن أصل الشهادتين فإنه مما لا يناسب مورد الآيه البته إلا على القول بكون المراد بقوله: «مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » مجموع رسالات الدين،و قد عرفت عدم استقامته.

و المراد بعدم هدايته تعالى هؤلاء القوم الكافرين عدم هدايته إياهم فى كيدهم و مكرهم،و منعه الأسباب الجاريه أن تنقاد لهم فى سلوكهم إلى ما يرومونه من الشر و الفساد نظير قوله تعالى: «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ» » :المنافقون:۶،و قوله تعالى: «وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ» » :البقره:٢۵٨،و قد تقدم البحث عنه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

و أما كون المراد بعدم الهدايه هو عدم الهدايه إلى الإيمان فغير صحيح البته لمنافاته أصل التبليغ و الدعوه فلا يستقيم أن يقال:أدعهم إلى الله أو إلى حكم الله و أنا لا أهديهم إليه إلا فى مورد إتمام الحجه محضا.

على أن الله سبحانه قد هدى و لا يزال يهدى كثيرين من الكفار بدليل العيان، و قد قال أيضا: «وَ اللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ» »:«البقره:٢١٣.

فتبين أن المراد بعدم هدايه الكافرين عدم تخليتهم لينالوا ما يهمون به من إبطال كلمه الحق و إطفاء نور الحكم المنزل فإن الكافرين و كذا الظالمين و الفاسقين يريدون بشامه أنفسهم و ضلال رأيهم أن يبدلوا سنه الله الجاريه فى الخلقه و سياقه الأسباب السالكه إلى مسبباتها و يغيروا مجارى الأسباب الحقه الظاهره عن سمه عصيان رب العالمين إلى غايتهم الفاسده مقاصدهم الباطله و الله رب العالمين لن يعجزه قواهم الصوريه التى لم يودعها فيهم و لم يقدرها فى بناهم إلا هو.

فهم ربما تقدموا فى مساعيهم أحيانا و نالوا ما راموه أوينات و استعلوا و استقام أمرهم برهه لكنه لا يلبث دون أن يبطل أخيرا و ينقلب عليهم مكرهم و لاـ يحيق المكر السيئ إلاـ بأهله،و كذلك يضرب الله الحق و الباطل فأما الباطل فيذهب جفاء، و أما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض.

و على هذا فقوله: «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكٰافِرِينَ » تفسير قوله: «وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ

مِنَ النّاسِ »

بالتصرف فی سعه إطلاقه،و یکون المراد بالعصمه عصمته(ص)من أن یناله الناس بسوء دون أن ینال بغیته فی تبلیغ هذا الحکم و تقریره بین الأمه کأن یقتلوه دون أن یبلغه أو یثوروا علیه و یقلبوا علیه الأمور أو یتهموه بما یرتد به المؤمنون عن دینه،أو یکیدوا کیدا یمیت هذا الحکم و یقبره بل الله یظهر کلمه الحق و یقیم الدین علی ما شاء و أینما شاء و متی ما شاء،و فیمن شاء قال تعالی: «إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ أَیُّهَا النّاسُ وَ یَأْتِ بِآخَرِینَ وَ کانَ اللّهُ عَلی ذلِکَ قَدِیراً » :«النساء:۱۳۳.

و أما أخذ الآیه أعنی قوله: «وَ اللّهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النّاسِ » بإطلاقه علی ما فیه من السعه و الشمول فمما ینافیه القرآن و المأثور من الحدیث و التاریخ القطعی،و قد نال (ص)من أمته أعم من کفارهم و مؤمنیهم و منافقیهم من المصائب و المحن و أنواع الزجر و الأذی ما لیس فی وسع أحد أن یتحمله إلا نفسه الشریفه،

-و قد قال(ص)-کما فی الحدیث المشهور-: ما أوذی نبی مثل ما أوذیت قط.

(بحث روائی)

-فی تفسیر العیاشی،عن أبی صالح،عن ابن عباس و جابر بن عبد الله قالا": أمر الله تعالی نبیه محمدا ص-أن ینصب علیا علما فی الناس لیخبرهم بولایته-فتخوف رسول الله ص أن یقولوا:حابی (۱)ابن عمه-و أن یطعنوا (۲)فی ذلک علیه.قال:فأوحی الله إلیه هذه الآیه: «یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ-وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللّهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النّاسِ » -فقام رسول الله ص بولایته یوم غدیر خم.

-و فیه،عن حنان بن سدیر،عن أبیه عن أبی جعفر(ع)قال: لما نزل جبرئیل علی عهد رسول الله ص فی حجه الوداع-بإعلان أمر علی بن أبی طالب(ع)- «یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ » -إلی آخر الآیه-قال:فمکث النبی ص ثلاثا حتی أتی الجحفه-فلم یأخذ بیده فرقا من الناس.

فلما نزل الجحفه یوم غدیر فی مکان یقال له«مهیعه»فنادی:الصلاه جامعه،

۱- ۱) جاءنا،خ ل.

۲- ۲) یطغوا،خ ل.

فـاجتمع النـاس-فقـال النبى ص:من أولى بكم من أنفسـكم؟فجهروا فقـالوا:الله و رسوله- ثم قال لهم الثانيه،فقالوا:الله و رسوله،ثم قال لهم الثالثه،فقالوا:الله و رسوله.

فأخـذ بيد على(ع)فقال:من كنت مولاه فعلى مولاه،اللهم وال من والاه و عاد من عاداه،و انصـر من نصـره،و اخذل من خذله-فإنه منى و أنا منه،و هو منى بمنزله هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى.

- و فيه،عن أبى الجارود،عن أبى جعفر(ع)قال: لما أنزل الله على نبيه ص:

«يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ-بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ-وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُکَ مِنَ النَّاسِ-إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْکافِرِينَ »

-قال:فأخـذ رسول الله ص بيـد على(ع) فقال:يا أيها الناس إنه لم يكن نبى من الأنبياء-ممن كان من قبلى-إلا و قـد عمر ثم دعاه فأجابه،و أوشك أن أدعى فأجيب،و أنا مسئول و أنتم مسئولون فما أنتم قائلون؟ قالوا:نشهد أنك قد بلغت و نصحت-و أديت ما عليك فجزاك الله أفضل ما جزى المرسلين،فقال:اللهم اشهد.

ثم قال:يا معشـر المسـلمين ليبلغ الشاهـد الغائب-أوصـى من آمن بى و صـدقنى بولايه على،ألا إن ولايه على ولايتى عهدا عهده إلى ربى-و أمرنى أن أبلغكموه،ثم قال:هل سمعتم؟-ثلاث مرات يقولها-فقال قائل:قد سمعنا يا رسول الله.

- و فى البصـائر،بإسـناده عن الفضـيل بن يسـار عن أبى جعفر(ع): فى قوله: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ-وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ » -قال:هى الولايه.

أقـول:و روى نزول الآيـه فى أمر الولايه و قصه الغـدير معه الكلينى فى الكـافى، بإسـناده،عن أبى الجـارود،عن أبى جعفر(ع)فى حـديث طويل، و روى هذا المعنى الصدوق فى المعانى،بإسـناده عن محمد بن الفيض بن المختار،عن أبيه عن أبى جعفر(ع) فى حديث طويل،و رواه العياشى أيضا عن أبى الجارود فى حديث طويل،و بإسناده عن عمرو بن يزيد عن أبى عبد الله(ع)مختصرا.

- و عن تفسـير الثعلبى،قال:قال جعفر بن محمـد*: معنى قوله: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ » -فى فضل على،،فلما نزلت هذه أخذ النبى ص بيد على فقال:من كنت مولاه فعلى مولاه

- و عنه،بإسناده عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: فى هذه الآيه قال:نزلت فى على بن أبى طالب،أمر الله النبى ص أن يبلغ فيه فأخذ بيد على فقال:من كنت مولاه فعلى مولاه-اللهم وال من والاه،و عاد من عاداه.

- و فى تفسير البرهان،عن إبراهيم الثقفى بإسناده عن الخدرى،و بريده الأسلمى و محمد بن على: نزلت يوم الغدير فى على.

- و من تفسير الثعلبى،فى معنى الآيه قال:قال أبو جعفر محمد بن على: معناه بلغ ما أنزل إليك من ربك فى على.

- و فى تفسير المنار،عن تفسير الثعلبى: أن هذا القول من النبى ص فى موالاه على شاع-و طار فى البلاد فبلغ الحارث بن النعمان الفهرى-فأتى النبى ص على ناقته، و كان بالأبطح فنزل و عقل ناقته،و قال للنبى ص-و هو فى ملإ من أصحابه-يا:محمد أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله-و أنك رسول الله؛فقبلنا منك-ثم ذكر سائر أركان الإسلام-ثم لم ترض بهذا حتى مددت بضبعى ابن عمك،و فضلته علينا،و قلت:

«من كنت مولاه فعلى مولاه»فهذا منك أم من الله؟فقال(ص):و الله الذى لا إله إلا هو هو أمر الله،فولى الحارث يريد راحلته،و هو يقول:اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك-فأمطر علينا حجاره من السماء-أو ائتنا بعذاب أليم.

فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله بحجر-فسقط على هامته و خرج من دبره، و أنزل الله تعالى: «سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ- لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ » الحديث.

أقول:قال فى المنار بعد نقل هذا الحديث ما لفظه:و هذه الروايه موضوعه، و سوره المعارج هذه مكيه،و ما حكاه الله من قول بعض كفار قريش: (اللّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ) كان تذكيرا بقول قالوه قبل الهجره،و هذا التذكير فى سوره الأنفال،و قد نزلت بعد غزوه بدر قبل نزول المائده ببضع سنين،و ظاهر الروايه أن الحارث بن النعمان هذا كان مسلما فارتد و لم يعرف فى الصحابه،و الأبطح بمكه و النبى ص لم يرجع من غدير خم إلى مكه بل نزل فيه منصرفه من حجه الوداع إلى المدينه،انتهى.

و أنت ترى ما فى كلامه من التحكم:أما قوله:[إن الروايه موضوعه،و سوره

المعارج هذه مكيه]فيعول فى ذلك على ما فى بعض الروايات عن ابن عباس و ابن الزبير أن سوره المعارج نزلت بمكه،و ليت شعرى ما هو المرجح لهذه الروايه على تلك الروايه،و الجميع آحاد؟سلمنا أن سوره المعارج مكيه كما ربما تؤيده مضامين معظم آياته فما هو الدليل على أن جميع آياتها مكيه؟فلتكن السوره مكيه،و الآيتان خاصه غير مكيتين كما أن سورتنا هذه أعنى سوره المائده مدنيه نازله فى آخر عهد رسول الله ص،و قد وضعت فيها الآيه المبحوث عنها أعنى قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » (الآيه)،و هو كعده من المفسرين مصرون على أنها نزلت بمكه فى أول البعثه،فإذا جاز وضع آيه مكيه(آيه: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ)فى سوره مدنيه(المائده)فليجز وضع آيه مدنيه(آيه: سَأَلَ سائِلٌ) فى سوره مكيه سوره المعارج.

و أما قوله:[و ما حكاه الله من قول بعض كفار قريش]إلى آخره،فهو فى التحكم كسابقه؛فهب إن سوره الأنفال نزلت قبل المائده ببضع سنين فهل يمنع ذلك أن يوضع عند التأليف بعض الآيات النازله بعدها فيها كما وضعت آيات الربا و آيه:

«وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ» » :«البقره:۲۸۱،و هى آخر ما نزل على النبى ص عندهم فى سوره البقره النازله فى أوائل الهجره و قد نزلت قبلها ببضع سنين.

ثم قوله:[إن آيه: «وَ إِذْ قالُوا اللّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ » ،الآيه»تذكير لما قالوه قبل الهجره]تحكم آخر من غير حجه لو لم يكن سياق الآيه حجه على خلافه فإن العارف بأساليب الكلام لا يكاد يرتاب فى أن هذا أعنى قوله: «اللّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ » لاشتماله على قوله: «إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ » بما فيه من اسم الإشاره و ضمير الفصل و الحق المحلى باللام و قوله: «مِنْ عِنْدِكَ » ليس كلام وثنى مشرك يستهزئ بالحق و يسخر منه،و إنما هو كلام من أذعن بمقام الربوبيه،و يرى أن الأمور الحقه تتعين من لدنه، و أن الشرائع مثلا تنزل من عنده،ثم إنه يتوقف فى أمر منسوب إلى الله تعالى يدعى مدع أنه الحق لا غيره،و هو لا يتحمل ذلك و يتحرج منه فيدعو على نفسه دعاء منزجر ملول سئم الحياه.

و أما قوله:[و ظاهر الروايه أن الحارث بن النعمان هذا كان مسلما فارتد و لم

يعرف فى الصحابه]تحكم آخر؛فهل يسع أحدا أن يدعى أنهم ضبطوا أسماء كل من رأى النبى ص و آمن به أو آمن به فارتد؟و إن يكن شىء من ذلک فليكن هذا الخبر من ذلک القبيل.

و أما قوله:[و الأبطح بمكه و النبى ص لم يرجع من غدير خم إلى مكه]فهو يشهد على أنه أخذ لفظ الأبطح اسما للمكان الخاص بمكه و لم يحمله على معناه العام و هو كل مكان ذى رمل،و لا دليل على ما حمله عليه بل الدليل على خلافه و هو القصه المسروده فى الروايه و غيرها،و ربما استفيد من مثل قوله:

نجوت و قد بل المرادى سيفه*

من ابن أبى شيخ الأباطح طالب

إن مكه و ما والاها كانت تسمى الأباطح.

قال فى مراصد الاطلاع: أبطح بالفتح ثم السكون و فتح الطاء و الحاء المهمله كل مسيل فيه رقاق الحصى فهو أبطح،و قال ابن دريد:الأبطح و البطحاء السهل المنبسط على وجه الأرض،و قال أبو زيد:الأبطح أثر المسيل ضيقا كان أو واسعا، و الأبطح يضاف إلى مكه و إلى منى لأن مسافته منهما واحده،و ربما كان إلى منى أقرب و هو المحصب،و هى خيف بنى كنانه،و قد قيل:إنه ذو طوى،و ليس به،انتهى.

على أن الروايه بعينها رواها غير الثعلبى و ليس فيه ذكر من الأبطح و هى ما يأتى من روايه المجمع من طريق الجمهور و غيرها.

و بعد هذا كله فالروايه من الآحاد،و ليست من المتواترات و لا مما قامت على صحتها قرينه قطعيه،و قد عرفت من أبحاثنا المتقدمه أنا لا نعول على الآحاد فى غير الأحكام الفرعيه على طبق الميزان العام العقلائى الذى عليه بناء الإنسان فى حياته، و إنما المراد بالبحث الآنف بيان فساد ما استظهر به من الوجوه التى استنتج منها أنها موضوعه.

- و فى المجمع،:أخبرنا السيد أبو الحمد قال:حدثنا الحاكم أبو القاسم الحسكانى قال:أخبرنا أبو عبد الله الشيرازى قال أخبرنا أبو بكر الجرجانى قال:أخبرنا أبو أحمد البصرى قال:حدثنا محمد بن سهل قال:حدثنا زيد بن إسماعيل مولى الأنصار قال:

حدثنا محمد بن أيوب الواسطى قال:حدثنا سفيان بن عيينه عن جعفر بن محمد الصادق

عن آبائه قال: لما نصب رسول الله ص عليا يوم غدير خم-قال:من كنت مولاه فهذا على مولاه،فقال (فطار،)ذلک فی البلاد-فقدم على النبی النعمان بن الحارث الفهری- فقال:أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله،و أنک رسول الله،و أمرتنا بالجهاد و بالحج و بالصوم و الصلاه و الزکاه فقبلناها،ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام-فقلت:

من کنت مولاه فعلی مولاه-فهذا شیء منک أو أمر من الله تعالی؟فقال:بلی و الله الذی لا إله إلا هو أن هذا من الله.

فولی النعمان بن الحارث و هو یقول:اللهم إن کان هذا هو الحق من عندک فأمطر علینا حجاره من السماء-فرماه الله بحجر على رأسه فقتله،فأنزل الله: «سَأَلَ سٰائِلٌ بِعَذٰابٍ وٰاقِعٍ » .

أقول:و هذا المعنى مروی فی الکافی،أیضا.

- و عن کتاب نزول القرآن،للحافظ أبی نعیم یرفعه إلى علی بن عامر عن أبی الحجاف، عن الأعمش،عن عطیه قال": نزلت هذه الآیه على رسول الله ص-فی علی بن أبی طالب- «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ » -و قد قال الله تعالی: «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ-وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلاٰمَ دِیناً » .

- و عن الفصول المهمه،للمالکی قال:روى الإمام أبو الحسن الواحدی فی کتابه المسمى بأسباب النزول رفعه بسنده إلى أبی سعید الخدری-رضی الله عنه-قال":

نزلت هذه الآیه: «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ » -یوم غدیر خم فی علی بن أبی طالب:.

أقول:و رواه فی فتح القدیر،عن ابن أبی حاتم و ابن مردویه و ابن عساکر عن أبی سعید الخدری و کذلک فی الدر المنثور .

و قوله:«بغدیر خم »هو بضم الخاء المعجمه و تشدید المیم مع التنوین اسم لغیطه على ثلاثه أمیال من الجحفه عندها غدیر مشهور یضاف إلى الغیطه،هکذا ذکره الشیخ محیی الدین النووی.

- و فی فتح القدیر،أخرج ابن مردویه عن ابن مسعود قال": کنا نقرأ على عهد

رسول الله ص: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ -إن عليا مولى المؤمنين وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ-وَ اللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ .

أقول:و هذه نبذه من الأخبار الداله على نزول قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » (إلخ)،فى حق على(ع)يوم غدير خم،و أما حديث الغدير أعنى

- قوله(ص): «من كنت مولاه فعلى مولاه» فهو حديث متواتر منقول من طرق الشيعه و أهل السنه بما يزيد على مائه طريق.

و قد روى عن جمع كثير من الصحابه منهم البراء بن عازب،و زيد بن أرقم، و أبو أيوب الأنصارى،و عمر بن الخطاب،و على بن أبى طالب،و سلمان الفارسى، و أبو ذر الغفارى،و عمار بن ياسر،و بريده،و سعد بن أبى وقاص،و عبد الله بن عباس، و أبو،هريره و جابر بن عبد،الله و أبو سعيد الخدرى،و أنس بن مالك،و عمران بن الحصين،و ابن أبى أوفى،و سعدانه،و امرأه زيد بن أرقم.

و قد أجمع عليه أئمه أهل البيت(ع)،و قد ناشد على(ع)الناس بالرحبه فى الحديث فقام جماعه من الصحابه حضروا المجلس،فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله ص يقوله يوم الغدير.

و فى كثير من هذه الروايات أن رسول الله ص قال:أيها الناس أ لستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟قالوا:بلى،قال:من كنت مولاه فعلى مولاه كما فى عده من الأخبار التى رواها أحمد بن حنبل فى مسنده أو رواها غيره،و قد أفردت لإحصاء طرقها و البحث فى متنها تأليف من أهل السنه و الشيعه بحثوا فيها بما لا مزيد عليه.

- و عن كتاب السمطين،للحموينى بإسناده عن أبى هريره قال:قال رسول الله ص:

ليله أسرى بى إلى السماء السابعه-سمعت نداء من تحت العرش:أن عليا آيه الهدى، و حبيب من يؤمن بى،بلغ عليا(ع)،فلما نزل النبى ص من السماء أنسى ذلك-فأنزل الله عز و جل: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ-وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ-وَ اللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ-إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » .

- و فى فتح القدير،:أخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله قال: لما غزا رسول الله ص بنى أنمار-نزل ذات الرقيع بأعلى نخل-فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلى رجليه-

فقال الوارث من بنی النجار:لأقتلن محمدا،فقال له أصحابه:کیف تقتله؟قال:أقول له:أعطنی سیفک فإذا أعطانیه قتلته به،فأتاه فقال:یا محمد أعطنی سیفک أشمه- فأعطاه إیاه-فرعدت یده حتی سقط السیف من یده-فقال رسول الله ص:حال الله بینک و بین ما ترید،فأنزل الله سبحانه: «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ » الآیه.

أقول:ثم ذکر فی فتح القدیر،أن ابن حبان أخرجه فی صحیحه و أخرجه أیضا ابن مردویه عن أبی هریره نحو هذه القصه و لم یسم الرجل،و أخرج ابن جریر من حدیث محمد بن کعب القرظی نحوه،و قصه غورث بن الحارث ثابته فی الصحیح،و هی معروفه مشهوره(انتهی)،و لکن الشأن تطبیق القصه علی المحصل من معنی الآیه، و لن تنطبق أبدا.

- و فی الدر المنثور،و فتح القدیر،و غیرهما عن ابن مردویه و الضیاء فی المختاره عن ابن عباس: أن رسول الله ص سئل:أی آیه أنزلت من السماء أشد علیک؟فقال:

کنت بمنی أیام موسم فاجتمع مشرکو العرب-و إفناء الناس فی الموسم فأنزل علی جبرئیل فقال: «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ » (الآیه).

قال:فقمت عند العقبه فنادیت:یا أیها الناس-من ینصرنی علی أن أبلغ رساله ربی و له الجنه؟أیها الناس قولوا:لا إله إلا الله-و أنا رسول الله إلیکم تفلحوا و تنجحوا- و لکم الجنه.

قال:فما بقی رجل و لا امرأه و لا صبی-إلا یرمون بالتراب و الحجاره،و یبزقون فی وجهی و یقولون:کذاب صابئ-فعرض علی عارض فقال:یا محمد-إن کنت رسول الله فقد آن لک أن تدعو علیهم-کما دعا نوح علی قومه بالهلاک،فقال النبی ص:اللهم اهد قومی فإنهم لا یعلمون.

فجاء العباس عمه فأنقذه منهم و جردهم عنه.

أقول:الآیه بتمامها لا ینطبق علی هذه القصه علی ما عرفت تفصیل القول فیه.

اللهم إلا أن تحمل الروایه علی نزول قطعه من الآیه-و هی قوله: «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ » -فی ذلک الیوم،و ظاهر الروایه یأباه،و نظیرها ما یأتی.

- و فی الدر المنثور،و فتح القدیر،:أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن أبی حاتم

و أبو الشيخ عن مجاهد قال: لما نزلت «بَلِّغْ مٰا أَنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ » -قال:یا رب إنما أنا واحد کیف أصنع؟یجتمع علی الناس فنزلت- «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ » .

- و فیها عن الحسن:أن رسول الله ص قال: إن الله بعثنی برسالته فضقت بها ذرعا،و عرفت أن الناس مکذبی-فوعدنی لأبلغن أو لیعذبنی فأنزل: «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ » .

أقول:الروایتان علی ما فیهما من القطع و الإرسال فیهما ما فی سابقتهما،و نظیرتهما فی هذا التشویش

- بعض ما ورد: فی أن رسول الله ص کان یحترس برجال-فلما نزلت الآیه فرقهم و قال(ع)-إن ربی وعدنی أن یعصمنی.

- و فی تفسیر المنار،:روی أهل التفسیر المأثور و الترمذی و أبو الشیخ و الحاکم و أبو نعیم و البیهقی و الطبرانی عن بضعه رجال من الصحابه": أن النبی ص کان یحرس فی مکه قبل نزول هذه الآیه-فلما نزلت ترک الحرس،و کان أبو طالب أول الناس اهتماما بحراسته،و حرسه العباس أیضا.

- و فیه،:و مما روی فی ذلک عن جابر و ابن عباس: أن النبی ص کان یحرس،و کان یرسل معه عمه أبو طالب-کل یوم رجالا من بنی هاشم حتی نزلت الآیه-فقال:یا عم إن الله قد عصمنی-لا حاجه لی إلی من یبعث.

أقول:و الروایتان-کما تری-تدلان علی أن الآیه نزلت فی أواسط إقامه النبی ص بمکه و أنه(ص)بلغ رسالته زمانا و اشتد علیه أمر إیذاء الناس و تکذیبهم حتی خاف علی نفسه منهم فترک التبلیغ و الدعوه فأمر ثانیا بالتبلیغ،و هدد من جانب الله سبحانه،و وعد بالعصمه،فاشتغل ثانیا بما کان یشتغل به أولا،و هذا شیء یجل عنه ساحه النبی ص.

- و فی الدر المنثور،و فتح القدیر،:أخرج عبد بن حمید و الترمذی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ و الحاکم و ابن مردویه و أبو نعیم و البیهقی کلاهما فی الدلائل عن عائشه قالت: کان رسول الله یحرس حتی نزلت: «وَ اللّٰهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النّٰاسِ » فأخرج رأسه من القبه-فقال:أیها الناس انصرفوا فقد عصمنی الله.

أقول:و الروایه-کما تری-ظاهره فی نزولها بالمدینه.

- و فی تفسیر الطبری،عن ابن عباس": فی قوله: «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ » - یعنی إن کتمت آیه أنزل إلیک لم تبلغ رسالته.

أقول:إن کان المراد به آیه معینه أی حکم معین مما أنزل إلی النبی ص فله وجه صحه،و إن کان المراد به التهدید فی أی آیه فرضت أو حکم قدر فقد عرفت فیما تقدم أن الآیه لا تلائمه بمضمونها.

[سوره المائده (۵): الآیات ۶۸ الی ۸۶]

اشاره

قُلْ یَا أَهْلَ اَلْکِتَابِ لَسْتُمْ عَلَی شَیْءٍ حَتَّی تُقِیمُوا اَلتَّوْرَاهَ وَ اَلْإِنْجِیلَ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ وَ لَیَزِیدَنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ طُغْیَاناً وَ کُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَی اَلْقَوْمِ اَلْکَافِرِینَ (۶۸) إِنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ اَلَّذِینَ هَادُوا وَ اَلصَّابِئُونَ وَ اَلنَّصَارَی مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاَ هُمْ یَحْزَنُونَ (۶۹) لَقَدْ أَخَذْنَا مِیثَاقَ بَنِی إِسْرَائِیلَ وَ أَرْسَلْنَا إِلَیْهِمْ رُسُلاً کُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَی أَنْفُسُهُمْ فَرِیقاً کَذَّبُوا وَ فَرِیقاً یَقْتُلُونَ (۷۰) وَ حَسِبُوا أَلاَّ تَکُونَ فِتْنَهٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا ثُمَّ تَابَ اَللَّهُ عَلَیْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا کَثِیرٌ مِنْهُمْ وَ اَللَّهُ بَصِیرٌ بِمَا یَعْمَلُونَ (۷۱) لَقَدْ کَفَرَ اَلَّذِینَ قَالُوا إِنَّ اَللَّهَ هُوَ اَلْمَسِیحُ اِبْنُ مَرْیَمَ وَ قَالَ اَلْمَسِیحُ یَا بَنِی إِسْرَائِیلَ اُعْبُدُوا اَللَّهَ رَبِّی وَ رَبَّکُمْ إِنَّهُ مَنْ یُشْرِکْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اَللَّهُ عَلَیْهِ اَلْجَنَّهَ وَ مَأْوَاهُ اَلنَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِینَ مِنْ أَنْصَارٍ (۷۲) لَقَدْ کَفَرَ اَلَّذِینَ قَالُوا إِنَّ اَللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَهٍ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ إِنْ لَمْ یَنْتَهُوا عَمَّا یَقُولُونَ لَیَمَسَّنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ (۷۳) أَ فَلاَ یَتُوبُونَ إِلَی اَللَّهِ وَ یَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اَللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۷۴) مَا اَلْمَسِیحُ اِبْنُ مَرْیَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ اَلرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّیقَهٌ کَانَا یَأْکُلاَنِ اَلطَّعَامَ اُنْظُرْ کَیْفَ نُبَیِّنُ لَهُمُ اَلْآیَاتِ ثُمَّ اُنْظُرْ أَنَّی یُؤْفَکُونَ (۷۵) قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللَّهِ مَا لاَ یَمْلِکُ لَکُمْ ضَرًّا وَ لاَ نَفْعاً وَ اَللَّهُ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۷۶) قُلْ یَا أَهْلَ اَلْکِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ غَیْرَ اَلْحَقِّ وَ لاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا کَثِیراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ اَلسَّبِیلِ (۷۷) لُعِنَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ بَنِی إِسْرَائِیلَ عَلَی لِسَانِ دَاوُدَ وَ عِیسَی اِبْنِ مَرْیَمَ ذٰلِکَ بِمَا عَصَوْا وَ کَانُوا یَعْتَدُونَ (۷۸) کَانُوا لاَ یَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْکَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا کَانُوا یَفْعَلُونَ (۷۹) تَرَی کَثِیراً مِنْهُمْ یَتَوَلَّوْنَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اَللَّهُ عَلَیْهِمْ وَ فِی اَلْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (۸۰) وَ لَوْ کَانُوا یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ اَلنَّبِیِّ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَا اِتَّخَذُوهُمْ أَوْلِیَاءَ وَ لٰکِنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (۸۱) لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ اَلنَّاسِ عَدَاوَهً لِلَّذِینَ آمَنُوا اَلْیَهُودَ وَ اَلَّذِینَ أَشْرَکُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّهً لِلَّذِینَ آمَنُوا اَلَّذِینَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَی ذٰلِکَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّیسِینَ وَ رُهْبَاناً وَ أَنَّهُمْ لاَ یَسْتَکْبِرُونَ (۸۲) وَ إِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَی اَلرَّسُولِ تَرَی أَعْیُنَهُمْ تَفِیضُ مِنَ اَلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ اَلْحَقِّ یَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاکْتُبْنَا مَعَ اَلشَّاهِدِینَ (۸۳) وَ مَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ مَا جَاءَنَا مِنَ اَلْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ یُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ اَلْقَوْمِ اَلصَّالِحِینَ (۸۴) فَأَثَابَهُمُ اَللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهَارُ خَالِدِینَ فِیهَا وَ ذٰلِکَ جَزَاءُ اَلْمُحْسِنِینَ (۸۵) وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیَاتِنَا أُولٰئِکَ أَصْحَابُ اَلْجَحِیمِ (۸۶)

(بیان)

الآیات فی نفسها تقبل الاتصال و الاتساق بحسب النظم،و لا تقبل الاتصال بقوله تعالی: «وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقٰامُوا التَّوْرٰاةَ وَ الْإِنْجِیلَ » (الآیه)مع الغض عن قوله تعالی:

«یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ »

(الآیه)و أما ارتباط قوله تعالی:

«یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ »

(الآیه)فقد عرفت الکلام فیه.

و الأشبه أن یکون هذه الآیات جاریه علی سیاق الآیات السابقه من أوائل السوره إلی هنا أعنی ارتباط مضامین الآیات آخذه من قوله تعالی: «وَ لَقَدْ أَخَذَ اللّٰهُ مِیثٰاقَ بَنِی إِسْرٰائِیلَ وَ بَعَثْنٰا مِنْهُمُ اثْنَیْ عَشَرَ نَقِیباً» :الآیه-۱۲ من السوره إلی آخر هذه الآیات المبحوث عنها باستثناء نزره مما تتخللها کآیه الولایه و آیه التبلیغ و غیرهما مما تقدم البحث عنه،و مثله الکلام فی اتصال آیات آخر السوره بهذه الآیات فإنها جمیعا یجمعها أنها کلام یتعلق بشأن أهل الکتاب.

قوله تعالی: «قُلْ یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لَسْتُمْ عَلیٰ شَیْءٍ حَتّٰی تُقِیمُوا التَّوْرٰاةَ وَ الْإِنْجِیلَ » (إلی آخر الآیه)،الإنسان یجد من نفسه خلال أعماله أنه إذا أراد إعمال قوه و شده فیما یحتاج إلی ذلک،وجب أن یعتمد علی مستوی یستوی علیه أو یتصل به کمن أراد أن یجذب أو یدفع أو یحمل أو یقیم شیئا ثقیلا فإنه یثبت قدمیه علی الأرض أولا ثم یصنع ما شاء لما یعلم أن لو لا ذلک لم یتیسر له ما یرید،و قد بحث عنه فی العلوم المربوطه به.

و إذا أجرينا هذا المعنى فى الأمور المعنويه كأفعال الإنسان الروحيه أو ما يتعلق من أفعال الجوارح بالأمور النفسيه كان ذلك منتجا أن صدور مهام الأفعال و عظائم الأعمال يتوقف على أس معنوى و مبنى قوى نفسى كتوقف جلائل الأمور على الصبر و الثبات و علو الهمه و قوه العزيمه و توقف النجاح فى العبوديه على حق التقوى و الورع عن محارم الله.

و من هنا يظهر أن قوله تعالى: «لَسْتُمْ عَلىٰ شَيْءٍ » كنايه عن عدم اعتمادهم على شىء يثبت عليه أقدامهم فيقدروا بذلك على إقامه التوراه و الإنجيل و ما أنزل إليهم من ربهم تلويحا إلى أن دين الله و حكمه لها من الثقل ما لا يتيسر حمله للإنسان حتى يعتمد على أساس ثابت و لا يمكنه إقامته بمجرد هوى من نفسه كما يشير تعالى إلى ذلك بالنسبه إلى القرآن الكريم بقوله: «إِنّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً» :المزمل:۵،و قوله: «لَوْ أَنْزَلْنا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللّٰهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» :الحشر:۲۱،و قوله: «إِنّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها» الآيه:الأحزاب:۷۲.

و قال فى أمر التوراه خطابا لموسى(ع): «فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها» :الأعراف:۱۴۵،و قال خطابا لبنى إسرائيل: «خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ» :البقره:۶۳ و قال خطابا ليحيى(ع): «يا يَحْيىٰ خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ» :مريم:۱۲.

فيعود المعنى إلى أنكم فاقدو العماد الذى يجب عليكم أن تعتمدوا عليه فى إقامه دين الله الذى أنزل إليكم فى كتبه و هو التقوى و الإنابه إلى الله بالرجوع إليه مره بعد أخرى و الاتصال به و الإيواء إلى ركنه بل مستكبرون عن طاعته و متعدون حدوده.

و يظهر هذا المعنى من قوله تعالى خطابا لنبيه و المؤمنين: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصّىٰ بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ » فجمع الدين كله فيما ذكره،ثم قال: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » فبين أن ذلك كله يرجع إلى إقامه الدين كلمه واحده من غير تفرق ثم قال: « كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ » و ذلك لكبر الاتفاق و الاستقامه فى اتباع الدين عليهم،ثم قال: «اللّٰهُ

يَجْتَبِی إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِی إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ » فأنبأ أن إقامه الدين لا يتيسر إلا بهدايه من الله،و لا يصلح لها إلا المتصف بالإنابه التی هی الاتصال بالله و عدم الانقطاع عنه بالرجوع إليه مره بعد أخرى،ثم قال: «وَ مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ » فذكر أن السبب فی تفرقهم و عدم إقامتهم للدين هو بغيهم و تعديهم عن الوسط العدل المضروب لهم«الشورى:١۴».

و قال أيضا فی نظيرتها من الآيات: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِی فَطَرَ النّٰاسَ عَلَيْهٰا لاٰ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ، مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاٰةَ وَ لاٰ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كٰانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمٰا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» :الروم:٣٢ فذكر فيها أيضا أن الوسيله إلى إقامه دين الفطره الإنابه إلى الله،و حفظ الاتصال بحضرته،و عدم الانقطاع عن سببه.

و قد أشار إلى هذه الحقيقه فی الآيات السابقه على هذه الآيه المبحوث عنها أيضا حيث ذكر أن الله لعن اليهود و غضب عليهم لتعديهم حدوده فألقى بينهم العداوه و البغضاء،و ذكر هذا المعنى فی غير هذا المورد فی خصوص النصارى بقوله: «فَأَغْرَيْنٰا بَيْنَهُمُ الْعَدٰاوَةَ وَ الْبَغْضٰاءَ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ» :المائده:١۴.

و قد حذر الله سبحانه المسلمين عن مثل هذه المصيبه المؤلمه التی سيحلها على أهل الكتاب من اليهود و النصارى،و أنبأهم أنهم لا يتيسر و لن يتيسر لهم إقامه التوراه و الإنجيل و ما أنزل إليهم من ربهم،و قد صدق جريان التاريخ ما أخبر به الكتاب من تشتت المذاهب فيهم و إلقاء العداوه و البغضاء بينهم،فحذر الأمه الإسلاميه أن يردوا موردهم فی الانقطاع عن ربهم،و عدم الإنابه إليه فی قوله: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً» :الروم:٣٠ فی عده آيات من السوره.

و قد تقدم البحث عن بعض الآيات الملوحه إلى ذلك فی ما تقدم من أجزاء الكتاب و سيأتی الكلام على بعض آخر منها إن شاء الله تعالى.

و أما قوله تعالى: «وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيٰاناً وَ كُفْراً » فقد تقدم البحث عن معناه،و قوله: «فَلاٰ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكٰافِرِينَ » تسليه منه تعالى لنبيه(ص)فی صوره النهی عن الأسى.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هٰادُوا وَ الصّٰابِئُونَ وَ النَّصٰارىٰ » (الآيه) ظاهرها أن الصابئون عطف على «الَّذِينَ آمَنُوا » بحسب موضعه و جماعه من النحويين يمنعون العطف على اسم إن بالرفع قبل مضى الخبر،و الآيه حجه عليهم.

و الآيه فى مقام بيان أن لا عبره فى باب السعاده بالأسماء و الألقاب كتسمى جمع بالمؤمنين و فرقه بالذين هادوا،و طائفه بالصابئين و آخرين بالنصارى،و إنما العبره بالإيمان بالله و اليوم الآخر و العمل الصالح،و قد تقدم البحث عن معنى الآيه فى تفسير سوره البقره الآيه ۶۲ فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: «لَقَدْ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ وَ أَرْسَلْنٰا إِلَيْهِمْ رُسُلاً » (إلى آخر الآيه)هذه الآيه و ما بعدها إلى عده آيات تتعرض لحال أهل الكتاب كالحجه على ما يشتمل عليه قوله تعالى: «قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لَسْتُمْ عَلىٰ شَيْءٍ حَتّٰى تُقِيمُوا التَّوْرٰاةَ وَ الْإِنْجِيلَ » (إلخ)،فإن هذه الجرائم و الآثام لا تدع للإنسان اتصالا بربه حتى يقيم كتب الله معتمدا عليه.

و يحتمل أن تكون الآيات مرتبطه بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هٰادُوا » (إلخ)،فيكون تصديقا بأن الأسماء و الألقاب لا تنفع شيئا فى مرحله السعاده إذ لو نفعت لصدت هؤلاء عن قتل الأنبياء و تكذيبهم و الهلاك بمهلكات الفتن و موبقات الذنوب.

و يمكن أن يكون هذه الآيات كالمبينه لقوله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هٰادُوا » (إلخ)،و هو كالمبين لقوله: «يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لَسْتُمْ عَلىٰ شَيْءٍ (الآيه)و المعنى ظاهر.

و قوله: «فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ » الظاهر أن كلمتى «فَرِيقاً » فى الموضعين مفعولان للفعلين بعدهما قدما عليهما للعنايه بأمرهما،و التقدير:كذبوا فريقا و يقتلون فريقا،و المجموع جواب قوله: «كُلَّمٰا جٰاءَهُمْ » (إلخ)،و المعنى نحو من قولنا: كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم أساءوا مواجهته و إجابته و جعلوا الرسل الآتين فريقين:فريقا كذبوا و فريقا يقتلون.

قال فى المجمع،:فإن قيل:لم عطف المستقبل على الماضى يعنى فى قوله: «فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ » ؟فجوابه:ليدل على أن ذلك من شأنهم ففيه معنى كذبوا و قتلوا و يكذبون و يقتلون مع أن قوله: «يَقْتُلُونَ » فأصله يجب أن يكون موافقا

لرءوس الآی،انتهی.

قوله تعالی: «وَ حَسِبُوا أَلاّٰ تَکُونَ فِتْنَهٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا » (إلخ)،متمم للکلام فی الآیه السابقه،و الحسبان هو الظن،و الفتنه هی المحنه التی تغر الإنسان أو هی أعم من کل شر و بلیه،و العمی هو عدم إبصار الحق و عدم تمییز الخیر من الشر، و الصمم عدم سماع العظه و عدم الإعباء بالنصیحه،و هذا العمی و الصمم معلولا حسبانهم أن لا تکون فتنه،و الظاهر أن حسبانهم ذلک معلول ما قدروا لأنفسهم من الکرامه بکونهم من شعب إسرائیل و أنهم أبناء الله و أحباؤه فلا یمسهم السوء و إن فعلوا ما فعلوا و ارتکبوا ما ارتکبوا.

فمعنی الآیه-و الله أعلم-أنهم لمکان ما اعتقدوا لأنفسهم من کرامه التهود ظنوا أن لا یصیبهم سوء أو لا یفتنون بما فعلوا فأعمی ذلک الظن و الحسبان أبصارهم عن إبصار الحق،و أصم ذلک آذانهم عن سماع ما ینفعهم من دعوه أنبیائهم.

و هذا مما یرجح ما احتملناه أن الآیات کالحجه المبینه لقوله: «إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هٰادُوا » (الآیه)فمحصل المعنی أن الأسماء و الألقاب لا تنفع أحدا شیئا فهؤلاء الیهود لم ینفعهم ما قدروا لأنفسهم من الکرامه بالتسمی بل أعماهم و أوردهم مورد الهلکه و الفتنه لما کذبوا أنبیاء الله و قتلوهم.

قوله تعالی: «ثُمَّ تٰابَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا کَثِیرٌ مِنْهُمْ وَ اللّٰهُ بَصِیرٌ بِمٰا یَعْمَلُونَ » التوبه من الله علی عباده رجوعه تعالی بالرحمه إلیهم،و هذا یدل علی أن الله سبحانه قد کان بعدهم من رحمته و عنایته و لذلک أخذهم الحسبان المذکور و لزمهم العمی و الصمم، لکن الله سبحانه رجع إلیهم ثانیه بالتوبه فرفع هذا الحسبان عن قلوبهم،و العمی و الصمم عن أبصارهم و آذانهم،فعرفوا أنفسهم بأنهم عباد لا کرامه لهم علی الله إلا بالتقوی،و أبصروا الحق و سمعوا عظه الله لهم بلسان أنبیائه فتبین لهم أن التسمی لا ینفع شیئا.

ثم عموا و صموا کثیر منهم،و إسناد العمی و الصمم إلی جمعهم أولا ـ ثم إلی کثیر منهم-بإتیان کثیر منهم بدلا من واو الجمع،أخذ بالنصفه فی الکلام بالدلاله علی أن إسناد العمی و الصمم إلی جمعهم من قبیل إسناد حکم البعض إلی الکل،و الواقع أن

المتصف بهاتين الصفتين كثير منهم لا كلهم أولا،و إيماء إلى أن العمى و الصمم المذكورين أولا شملا جميعهم على ما يدل عليه المقابله ثانيا،و أن التوبه الإلهيه لم يبطل أثرها و لم تذهب سدى بالمره بل نجا بالتوبه بعضهم فلم يأخذهم العمى و الصمم اللاحقان أخيرا ثالثا.

ثم ختم تعالى الآيه بقوله: «وَ اللّٰهُ بَصِيرٌ بِمٰا يَعْمَلُونَ » للدلاله على أن الله تعالى لا يغفله شيء،فغيره تعالى إذا أكرم قوما بكرامه ضرب ذلك على بصره بحجاب يمنعه أن يرى منهم السوء و المكروه،و ليس الله سبحانه على هذا النعت بل هو البصير لا يحجبه شيء عن شيء.

قوله تعالى: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ » و هذا كالبيان لكون النصارى لم تنفعهم النصرانيه و الانتساب إلى المسيح(ع)عن تعلق الكفر بهم إذ أشركوا بالله و لم يؤمنوا به حق إيمانه حيث قالوا:إن الله هو المسيح بن مريم.

و النصارى و إن اختلفوا فی كيفيه اشتمال المسيح بن مريم على جوهره الألوهيه بين قائل باشتقاق أقنوم المسيح و هو العلم من أقنوم الرب(تعالى)و هو الحياه،و ذلك الأبوه و البنوه،و قائل بأنه تعالى صار هو المسيح على نحو الانقلاب،و قائل بأنه حل فيه كما تقدم بيان ذلك تفصيلا فی الكلام على عيسى بن مريم(ع)فی تفسير سوره آل عمران فی الجزء الثالث من الكتاب.

لكن الأقوال الثلاثه جميعا تقبل الانطباق على هذه الكلمه(أن الله هو المسيح بن مريم)فالظاهر أن المراد بالذين تفوهوا بهذه الكلمه جميع النصارى الغالين فی المسيح(ع)لا خصوص القائلين منهم بالانقلاب.

و توصيف المسيح بابن مريم لا يخلو من دلاله أو إشعار بسبب كفرهم و هو نسبه الألوهيه إلى إنسان ابن إنسان مخلوقين من تراب،و أين التراب و رب الأرباب؟!.

قوله تعالى: «وَ قٰالَ الْمَسِيحُ يٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ » (إلى آخر الآيه)احتجاج على كفرهم و بطلان قولهم بقول المسيح(ع)نفسه؛فإن قوله(ع):

«اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ »

يدل على أنه عبد مربوب مثلهم،و قوله: «إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّٰهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » يدل على أن من يجعل لله شريكا فی ألوهيته فهو مشرك كافر محرم عليه الجنه.

و فی قوله تعالی حکایه عنه(ع): «فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْوَاهُ النّارُ وَ ما لِلظّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ » عنایه بإبطال ما ینسبونه إلی المسیح من حدیث التفدیه،و أنه (ع)باختیاره الصلب فدی بنفسه عنهم فهم مغفور لهم مرفوع عنهم التکالیف الإلهیه و مصیرهم إلی الجنه و لا یمسون نارا کما تقدم نقل ذلک عنهم فی تفسیر سوره آل عمران فی قصه عیسی(ع)فقصه التفدیه و الصلب إنما سیقت لهذا الغرض.

و ما تحکیه الآیه من قوله(ع)موجود فی متفرقات الأبواب من الأناجیل کالأمر بالتوحید، (۱)و إبطال عباده المشرک، (۲)و الحکم بخلود الظالمین فی النار (۳).

قوله تعالی: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ » أی أحد الثلاثه:الأب و الابن و الروح،أی هو ینطبق علی کل واحد من الثلاثه،و هذا لازم قولهم:إن الأب إله،و الابن إله،و الروح إله،و هو ثلاثه،و هو واحد یضاهئون بذلک نظیر قولنا:إن زید بن عمرو إنسان،فهناک أمور ثلاثه هی:زید و ابن عمرو و الإنسان، و هناک أمر واحد و هو المنعوت بهذه النعوت،و قد غفلوا عن أن هذه الکثره إن کانت حقیقیه غیر اعتباریه أوجبت الکثره فی المنعوت حقیقه،و أن المنعوت إن کان واحدا حقیقه أوجب ذلک أن تکون الکثره اعتباریه غیر حقیقیه فالجمع بین هذه الکثره العددیه و الوحده العددیه فی زید المنعوت بحسب الحقیقه مما یستنکف العقل عن تعقله.

و لذا ربما ذکر بعض الدعاه من النصاری أن مسأله التثلیث من المسائل المأثوره من مذاهب الأسلاف التی لا تقبل الحل بحسب الموازین العلمیه، و لم یتنبه أن علیه أن یطالب الدلیل علی کل دعوی یقرع سمعه سواء کان من دعاوی الأسلاف أو من دعاوی الأخلاف.

قوله تعالی: «وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاّ إِلهٌ واحِدٌ » (إلی آخر الآیه)رد منه تعالی لقولهم: «إِنَّ اللّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ » بأن الله سبحانه لا یقبل بذاته المتعالیه الکثره بوجه من الوجوه فهو تعالی فی ذاته واحد،و إذا اتصف بصفاته الکریمه و أسمائه الحسنی لم یزد

۱- ۱) الإصحاح ۱۲:۲۹(إنجیل مرقس).

۲- ۲) الإصحاح ۶:۲۴(إنجیل متی).

۳- ۳) الإصحاح ۲۵:۳۱،۱۳:۵۰-۴۷(إنجیل متی أیضا).

ذلك على ذاته الواحده شيئا و لا الصفه إذا أضيفت إلى الصفه أورث ذلك كثره و تعددا فهو تعالى أحدى الذات لا ينقسم لا فى خارج و لا فى وهم و لا فى عقل.

فليس الله سبحانه بحيث يتجزأ فى ذاته إلى شىء و شىء قط،و لا أن ذاته بحيث يجوز أن يضاف إليه شىء فيصير اثنين أو أكثر،كيف؟و هو تعالى مع هذا الشىء الذى تراد إضافته إليه تعالى فى وهم أو فرض أو خارج.

فهو تعالى واحد فى ذاته لكن لا بالوحده العدديه التى لسائر الأشياء المتكون منها الكثرات،و لا منعوت بكثره فى ذات أو اسم،أو صفه،كيف؟و هذه الوحده العدديه و الكثره المتألفه منها كلتاهما من آثار صنعه و إيجاده فكيف يتصف بما هو من صنعه؟.

و فى قوله تعالى: «وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاّٰ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ » من التأكيد فى إثبات التوحيد ما ليس فى غيره حيث سيق الكلام بنحو النفى و الاستثناء،ثم أدخل «مِنْ » على النفى لإفاده تأكيد الاستغراق،ثم جىء بالمستثنى و هو قوله: «إِلٰهٌ وٰاحِدٌ » بالتنكير المفيد للتنويع و لو أورد معرفه كقولنا«إلا الإله الواحد»لم يفد ما يرام من حقيقه التوحيد.

فالمعنى:«ليس فى الوجود شىء من جنس الإله أصلا إلا إله واحد نوعا من الوحده لا يقبل التعدد أصلا لا تعدد الذات و لا تعدد الصفات،لا خارجا و لا فرضا،و لو قيل:

و ما من إله إلا الله الواحد لم يدفع به قول النصارى(إن الله ثالث ثلاثه)فإنهم لا ينكرون الوحده فيه تعالى،و إنما يقولون:إنه ذات واحده لها تعين بصفاتها الثلاث، و هى واحده فى عين أنها كثيره حقيقه.

و لا يندفع ما احتملوه من المعنى إلا بإثبات وحده لا تتألف منه كثره أصلا، و هو الذى يتوخاه القرآن الكريم بقوله: «وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاّٰ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ » .

و هذا من لطائف المعانى التى يلوح إليها الكتاب الإلهى فى حقيقه معنى التوحيد و سنغور فى البحث المستوفى عنه فى بحث قرآنى خاص ثم فى بحث عقلى و آخر نقلى إيفاء لحقه.

قوله تعالى: «وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمّٰا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ »

تهديد لهم بالعذاب الأليم الأخروى الذى هو ظاهر الآيه الكريمه.

و لما كان القول بالتثليث الذى تتضمنه كلمه: «إِنَّ اللّٰهَ ثالِثُ ثَلاثَهٍ » ليس فى وسع عقول عامه الناس أن تتعقله فأغلب النصارى يتلقونه قولا مذهبيا مسلما بلفظه من غير أن يعقلوا معناه،و لا أن يطمعوا فى تعقله كما ليس فى وسع العقل السليم أن يعقله عقلا صحيحا،و إنما يتعقل كتعقل الفروض المحاله كالإنسان اللاإنسان،و العدد الذى ليس بواحد و لا كثير و لا زوج و لا فرد فلذلك تتسلمه العامه تسلما من غير بحث عن معناه،و إنما يعتقدون فى البنوه و الأبوه شبه معنى التشريف فهؤلاء فى الحقيقه ليسوا من أهل التثليث،و إنما يمضغون الكلمه مضغا،و ينتمون إليها انتماء بخلاف غير العامه منهم و هم الذين ينسب الله سبحانه إليهم اختلاف المذاهب و يقرر أن ذلك ببغيهم كما قال تعالى: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ -إلى أن قال:- وَ ما تَفَرَّقُوا إِلاّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ» :الشورى:١۴.

فالكفر الحقيقى الذى لا ينتهى إلى استضعاف-و هو الذى فيه إنكار التوحيد و التكذيب بآيات الله-إنما يتم فى بعضهم دون كلهم،و إنما أوعد الله بالنار الخالد الذين كفروا و كذبوا بآيات الله،قال: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولٰئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» :البقره:٣٩ إلى غير ذلك من الآيات،و قد مر الكلام فى ذلك فى تفسير قوله تعالى: «إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ» الآيه:النساء:٩٨.

و لعل هذا هو السر فى التبعيض الظاهر من قوله: «لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ » أو أن المراد به الإشاره إلى أن من النصارى من لا يقول بالتثليث،و لا يعتقد فى المسيح إلا أنه عبد الله و رسوله،كما كانت على ذلك مسيحيو الحبشه و غيرها على ما ضبطه التاريخ فالمعنى:لئن لم ينته النصارى عما يقولون(نسبه قول بعض الجماعه إلى جميعهم) ليمسن الذين كفروا منهم-و هم القائلون بالتثليث منهم-عذاب أليم.

و ربما وجهوا الكلام أعنى قوله: «لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ » بأنه من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر،و الأصل: ليمسنهم(انتهى)،و إنما عدل إلى وضع الموصول و صلته مكانه ليدل على أن ذلك القول كفر بالله،و أن الكفر سبب العذاب الذى توعدهم به.

و هـذا وجه لاـ بـأس به لـو لاـ أن الآـيه مصـدره بقوله: «لَقَـدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَـثَهٍ » و نظيره فى البعـد قول بعض آخر:إن«من»فى قوله «مِنْهُمْ » بيانيه فإنه قول من غير دليل.

قـوله تعـالى: «أَ فَلاَـ يَتُوبُـونَ إِلَى اللّهِ وَ يَسْـتَغْفِرُونَهُ وَ اللّهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ » تحضـيض على التـوبه و الاسـتغفار،و تـذكير بمغفره الله و رحمته،أو إنكار أو توبيخ.

قوله تعالى: «مَا الْمَسِـيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَهٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ » رد لقولهم: «إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَهٍ » أو لقولهم هذا و قولهم المحكى فى الآيه السابقه: «إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِـيحُ ابْنُ مَرْيَمَ » جميعا،و محصـله اشـتمال المسـيح على جوهره الأـلوهيه،بـأن المسـيح لا يفارق سائر رسل الله الـذين توفاهم الله من قبله كانوا بشـرا مرسـلين من غير أن يكونوا أربابا من دون الله سبحانه،و كذلك أمه مريم كانت صديقه تصدق بآيات الله تعالى و هى بشر،و قد كان هو و أمه جميعا يأكلان الطعام،و أكـل الطعـام مع مـا يتعقبـه مبنى على أسـاس الحـاجه الـتى هـو أول أمـاره مـن أمـارات الإمكـان و المصـنوعيه فقـد كـان المسيح(ع)ممكنا متولدا من ممكن،و عبدا و رسولا مخلوقا من أمه كانا يعبدان الله،و يجريان فى سبيل الحاجه و الافتقار من دون أن يكون ربا.

و ما بيـد القوم من كتب الإنجيل معترفه بـذلك تصـرح بكون مريم فتاه كانت تؤمن بالله و تعبـده،و تصـرح بأن عيسـى تولد منها كالإنسان من الإنسان،و تصرح بأن عيسى كان رسولا من الله إلى الناس كسائر الرسل و تصرح بأن عيسى و أمه مريم كانا يأكلان الطعام.

فهذه أمور صرحت بها الأناجيل،و هى حجج على كونه(ع)عبدا رسولا.

و يمكن أن تكون الآـيه مسوقه لنفى ألوهيه المسـيح و أمه كليهمـا على مـا يظهر من قوله تعـالى: «أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتَّخِـذُونِى وَ أُمِّى إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ» :المائـده:۱۱۶ أنه كـان هناك من يقول بألوهيتها كالمسـيح أو أن المراد به اتخاذها إلها كما ينسب إلى أهل الكتاب أنهم اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله،و ذلك بالخضوع لها و لهم بما لا يخضع لبشر بمثله.

و كيف كان فالآيه على هذا التقدير تنفى عن المسيح و أمه معا الألوهيه بأن المسيح كان رسولا كسائر الرسل،و أمه كانت صديقه،و هما معا كانا يأكلان الطعام،و ذلك كله ينافى الألوهيه.

و فى قوله تعالى: «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » حيث وصف الرسل بالخلو من قبله،و هو الموت تأكيد للحجه بكونه بشرا يجوز عليه الموت و الحياه كما جاز على الرسل من قبله.

قوله تعالى: «انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيٰاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنّٰى يُؤْفَكُونَ » الخطاب للنبى،ص و هو فى مقام التعجيب أى تعجب من كيفيه بياننا لهم الآيات،و هو أوضح بيان لأظهر آيه فى بطلان دعواهم ألوهيه المسيح،و كيفيه صرفهم عن تعقل هذه الآيات؛فإلى أى غايه يصرفون عنها،و لا تلتفت إلى نتيجتها-و هى بطلان دعواهم-عقولهم؟.

قوله تعالى: «قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً وَ اللّٰهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » كان الخضوع لأمر الربوبيه إنما انتشر بين البشر فى أقدم عهوده، و خاصه بين العامه منهم-و عامتهم كانوا يعبدون الأصنام-طمعا فى أن يدفع الرب عنهم الشر و يوصل إليهم النفع كما يتحصل من الأبحاث التاريخيه،و أما عباده الله لأنه الله عز اسمه فلم يكن يعدو الخواص منهم كالأنبياء و الربانيين من أممهم.

فأمر الله سبحانه رسوله أن يخاطبهم خطاب البشر الساذج الجارى على ما تلهمه فطرته الساذجه فى عباده الله كما خاطب الوثنيين و عباد الأصنام بذلك فيذكرهم أن الذى يضطر الإنسان بعباده الرب هو أنه يرى أزمه الخير و الشر و النفع و الضر بيده فيعبده لأنه يملك الضر و النفع طمعا فى أن يدفع عنه الضر و يوصل إليه الخير لعبادته له.

و كل ما هو دون الله تعالى لا يملك شيئا من ضر و لا نفع لأنه مملوك لله محضا مسلوب عنه القدره فى نفسه فكيف يسوغ تخصيصه بالعباده،و إشراكه مع ربه الذى هو المالك له و لغيره،و قد كان من الواجب أن يخص هو تعالى بالعباده،و لا يتعدى عنه إلى غيره لأنه هو الذى يختص به السمع و الإجابه فيسمع و يجيب المضطر إذ دعاه، و هو الذى يعلم حوائج عباده و لا يغفل عنها و لا يغلط فيها بخلاف غيره تعالى فإنه إنما

يملك ما ملكه الله،و يقوى على ما قواه الله سبحانه.

فقد تبين بهذا البيان:أولا:أن الحجه التى تشتمل عليها هذه الآيه غير الحجه التى تشتمل عليها الآيه السابقه و إن توقفتا معا على مقدمه مشتركه،و هى كون المسيح و أمه ممكنين محتاجين،فالآيه السابقه حجتها أن المسيح و أمه كانا بشرين محتاجين عبدين مطيعين لله سبحانه،و من كان حاله هذا الحال لم يصح أن يكون إلها معبودا، و حجه هذه الآيه:أن المسيح ممكن محتاج مملوك بنفسه لا يملك ضرا و لا نفعا،و من كان حاله هذا الحال لم يستقم ألوهيته و عبادته من دون الله.

و ثانيا:أن الحجه مأخوذه مما يدركه الفهم البسيط و العقل الساذج من جهه غرض الإنسان البسيط فى عبادته فإنه إنما يتخذ ربا و يعبده ليدفع عنه الضر و يجلب إليه النفع،و هذا إنما يملكه الله تعالى دون غيره،فلا غرض يتعلق بعباده غير الله فمن الواجب أن يرفض عبادته.

و ثالثا:أن قوله: «مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لاَ نَفْعاً » إنما أخذت فيه لفظه «مَا » دون لفظه«من»مع المسيح من أولى العقل لأن الحجه بعينها هى التى تقام على الوثنيين و عبده الأصنام التى لا شعور لها،و لا دخل فى كون المسيح(ع)من أولى العقل فى تمام الحجه فهى تامه فى كل معبود مفروض دون الله سبحانه.

على أن غيره تعالى و إن كان من أولى العقل و الشعور لا يملكون شيئا من العقل و الشعور من عند أنفسهم كسائر ما ينسب إليهم من شئون وجودهم؛قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ عِبٰادٌ أَمْثٰالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ، أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهٰا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهٰا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهٰا أَمْ لَهُمْ آذٰانٌ يَسْمَعُونَ بِهٰا قُلِ ادْعُوا شُرَكٰاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاٰ تُنْظِرُونِ» :الأعراف:۱۹۵.

و كذلك تقديم الضر على النفع فى قوله: «ضَرًّا وَ لاَ نَفْعاً » للجرى على وفق ما تدركه و تدعوا إليه الفطره الساذجه كما مر،فإن الإنسان بحسب الطبع يرى ما تلبس به من النعم الموجوده عنده ما دامت عنده مملوكه لنفسه لا تلتفت نفسه إلى إمكان فقدها و لا تتصور ألمه عند فقدها بخلاف المضار التى يجدها بالفعل،و النعم التى يفتقدها و يجد ألم فقدها،فإن الفطره تنبهها إلى الالتجاء إلى رب يدفع عنها الضر و الضير،و يجلب

إليها النعمه المسلوبه كما قال تعالى: «وَ إِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ الضُّرُّ دَعٰانٰا لِجَنْبِهِ أَوْ قٰاعِداً أَوْ قٰائِماً فَلَمّٰا كَشَفْنٰا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنٰا إِلىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ» :يونس:١٢،و قال تعالى:

«وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ رَحْمَةً مِنّٰا مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذٰا لِي» :حم السجده:٥٠، و قال تعالى: «وَ إِذٰا أَنْعَمْنٰا عَلَى الْإِنْسٰانِ أَعْرَضَ وَ نَأىٰ بِجٰانِبِهِ وَ إِذٰا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعٰاءٍ عَرِيضٍ» :حم السجده:٥١.

فتحصل أن مس الضر أبعث للإنسان إلى الخضوع للرب و عبادته من وجدان النفع، و لذلك قدم الله سبحانه الضر على النفع فى قوله: «مٰا لاٰ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً » و كذا فى سائر الموارد التى تماثله كقوله: «اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاٰ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لاٰ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً وَ لاٰ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لاٰ حَيٰاةً وَ لاٰ نُشُوراً» :الفرقان:٣.

و رابعا:أن مجموع الآيه: «أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ » إلى آخرها حجه على وجوب قصر العباده فى الله سبحانه من دون إشراك غيره معه و هى منحله إلى حجتين ملخصهما:

أن اتخاذ الإله و عباده الرب إنما هو لغرض دفع الضر و جلب النفع فيجب أن يكون الإله المعبود مالكا لذلك و لا يجوز عباده من لا يملك شيئا،و الله سبحانه هو السميع المجيب للدعوه العليم بكنه الحاجه من غير جهل دون غيره؛فوجب عبادته من غير إشراك غيره.

قوله تعالى: «قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لاٰ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ » خطاب آخر للنبى ص بأمره أن يدعو أهل الكتاب إلى عدم الغلو فى دينهم،و أهل الكتاب و خاصه النصارى مبتلون بذلك،و« الغالى »المتجاوز عن الحد بالإفراط،و يقابله «القالى»فى طرف التفريط.

و دين الله الذى يفسره كتبه المنزله يأمر بالتوحيد و نفى الشريك و ينهى عن اتخاذ الشركاء لله سبحانه،و قد ابتلى بذلك أهل الكتاب عامه اليهود و النصارى، و إن كان أمر النصارى فى ذلك أشنع و أفظع قال تعالى: «وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّٰهِ وَ قٰالَتِ النَّصٰارىٰ الْمَسِيحُ ابْنُ اللّٰهِ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوٰاهِهِمْ يُضٰاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قٰاتَلَهُمُ اللّٰهُ أَنّٰى يُؤْفَكُونَ، اتَّخَذُوا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وٰاحِداً لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ سُبْحٰانَهُ عَمّٰا يُشْرِكُونَ» التوبه:٣١.

و القول بأن عزيرا ابن الله و إن كان غير ظاهر اليوم عند اليهود لكن الآيه تشهد بأنهم كانوا يقولون ذلك فى عصر النزول.

و الظاهر أن ذلك كان لقبا تشريفيا يلقبونه به قبال ما خدمهم و أحسن إليهم فى إرجاعهم إلى أورشليم(بيت المقدس)بعد إساره بابل،و جمع لهم التوراه ثانيا بعد ضياعه فى قصه بخت نصر،و قد كانوا يعدون بنوه الله لقبا تشريفيا كما يتخذ النصارى اليوم الأبوه كذلك و يسمون الباباوات و البطارقه و القسيسين بالآباء(الباب و البابا:الأب)و قد قال تعالى: «وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصٰارىٰ نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ» :المائده:١٨.

بل الآيه الثانيه أعنى قوله: «اتَّخَذُوا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ » تدل على ذلك حيث اقتصر فيها على ذكر المسيح(ع)،و لم يذكر عزيرا فدل على دخوله فى عموم قوله: «أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ » و أنهم إنما كانوا يسمونه ابن الله كما يسمون أحبارهم أبناء الله،و قد خصوه بالذكر وحده شكرا لإحسانه إليهم كما تقدمت الإشاره إليه.

و بالجمله وضعهم بعض أنبيائهم و أحبارهم و رهبانهم موضع الربوبيه و خضوعهم لهم بما لا يخضع بمثله إلا لله سبحانه غلو منهم فى دينهم ينهاهم الله عن ذلك بلسان نبيه ص.

و تقييد الغلو فى الدين بغير الحق-و لا يكون الغلو إلا كذلك-إنما هو للتأكيد و تذكير لازم المعنى مع ملزومه لئلا يذهل عنه السامع و قد ذهل حين غلا أو كان كالذاهل.

و إطلاق الأب على الله سبحانه بتحليل معناه و تجريده عن وسمه نواقص الماده الجسمانيه أى من بيده الإيجاد و التربيه، و كذلك الابن بمعناه المجرد التحليلى و إن لم يمنعه العقل لكنه ممنوع شرعا لتوقيفيه أسماء الله سبحانه لما فى التوسع فى إطلاق الأسماء المختلفه عليه تعالى من المفاسد،و كفى مفسده فى إطلاق الأب و الابن ما لقيته الأمتان:

اليهود و النصارى و خاصه النصارى من أولياء الكنيسه خلال قرون متماديه و لن يزال الأمر على ذلك.

قوله تعالى: «وَ لاٰ تَتَّبِعُوا أَهْوٰاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ

سَوٰاءِ السَّبِيلِ »

ظاهر السياق أن المراد بهؤلاء القوم الذين نهوا عن اتباع أهوائهم هم المتبوعون المطاعون فی آرائهم و أوامرهم فيكون ضلالهم لمكان التزامهم بآرائهم؛ إضلالهم كثيرا هو اتباع غيرهم لهم،و ضلالهم عن سواء السبيل هو المتحصل لهم من ضلالهم و إضلالهم،و هو ضلال على ضلال.

و كذلك ظاهر السياق أن المراد بهم هم الوثنيه و عبده الأصنام فإن ظاهر السياق أن الخطاب إنما هو لجميع أهل الكتاب لا للمعاصرين منهم للنبی ص حتى يكون نهيا لمتأخريهم عن اتباع متقدميهم.

و يؤيده بل يدل عليه قوله تعالى: «وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّٰهِ،وَ قٰالَتِ النَّصٰارىٰ الْمَسِيحُ ابْنُ اللّٰهِ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوٰاهِهِمْ يُضٰاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ» :التوبه:٣٠.

فيكون ذلك حقيقه تحليليه تاريخيه أشار إليها القرآن الكريم هی أن القول بالأبوه و البنوه مما تسرب إلى أهل الكتاب من قبل من تقدمهم من الوثنيه، و قد تقدم فی الكلام على قصص المسيح(ع)فی سوره آل عمران فی الجزء الثالث من الكتاب أن هذا القول فی جمله من الأقوال و الآراء موجود عند الوثنيه البرهمنيه و البوذيه فی الهند و الصين،و كذلك مصر القديم و غيرهم،و إنما أخذ بالتسرب فی المله الكتابيه بيد دعاتها،فظهر فی زی الدين و كان الاسم لدين التوحيد و المسمى للوثنيه.

قوله تعالى: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِی إِسْرٰائِيلَ عَلىٰ لِسٰانِ دٰاوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ » إلى آخر الآيتين إخبار بأن الكافرين منهم ملعونون بلسان أنبيائهم،و فيه تعريض لهؤلاء الذين كفرهم الله فی هذه الآيات من اليهود ملعونين بدعوه أنبيائهم أنفسهم،و ذلك بسبب عصيانهم لأنبيائهم،و هم كانوا مستمرين على الاعتداء و قوله:

«كٰانُوا لاٰ يَتَنٰاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ »

«إلخ»بيان لقوله: «وَ كٰانُوا يَعْتَدُونَ » .

قوله تعالى: «تَرىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » «إلخ»،و هذا من قبيل الاستشهاد بالحس على كونهم معتدين فإنهم لو قدروا دينهم حق قدره لزموه و لم يعتدوه، و لازم ذلك أن يتولوا أهل التوحيد و يتبرءوا من الذين كفروا لأن أعداء ما يقدسه قوم أعداء لذلك القوم،فإذا تحابوا و توالوا دل ذلك على إعراض ذلك القوم و تركهم ما

كانوا يقدسونه و يحترمونه،و صديق العدو عدو،ثم ذمهم الله تعالى بقوله: «لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ » و هو ولايه الكفار عن هوى النفس،و كان جزاؤه و وباله «أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ » ،ففى الآيه وضع جزاء العمل و عاقبته موضع العمل كأن أنفسهم قدمت لهم جزاء العمل بتقديم نفس العمل.

قوله تعالى: «وَ لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَ لٰكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » أى و لو كان أهل الكتاب هؤلاء يؤمنون بالله و النبى محمد ص و ما أنزل إليه،أو نبى أنفسهم كموسى مثلا و ما أنزل إليه كالتوراه مثلا ما اتخذوا أولئك الكفار أولياء لأن الإيمان يجب سائر الأسباب،و لكن كثيرا منهم فاسقون متمردون عن الإيمان.

و فى الآيه وجه آخر احتملوه،و هو أن يرجع ضمائر قوله: «كَانُوا » و «يُؤْمِنُونَ » و «اتَّخَذُوهُمْ » فى قوله: «مَا اتَّخَذُوهُمْ » راجعه إلى الذين كفروا،و المعنى:و لو كان الذين كفروا أولئك الكفار الذين يتولاهم أهل الكتاب يؤمنون بالله و النبى و القرآن ما اتخذتهم أهل الكتاب أولياء،و إنما تولوهم لمكان كفرهم،و هذا وجه لا بأس به غير أن الإضراب فى قوله: «وَ لٰكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » لا يلائمه.

قوله تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا -إلى قوله- نَصَارىٰ » لما بين سبحانه فى الآيات السابقه الرذائل المشتركه بين أهل الكتاب عامه،و بعض ما يختص ببعضهم كقول اليهود: «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ » و قول النصارى: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ » ختم الآيات بما يختص به كل من الطائفين إذا قيس حالهم من المؤمنين و دينهم،و أضاف إلى حالهم حال المشركين ليتم الكلام فى وقع الإسلام من قلوب الأمم غير المسلمه من حيث قربهم و بعدهم من قبوله.

و يتم الكلام فى أن النصارى أقرب تلك الأمم موده للمسلمين و أسمع لدعوتهم الحقه.

و إنما عدهم الله سبحانه أقرب موده للمسلمين لما وقع من إيمان طائفه منهم بالنبى ص كما يدل عليه قوله فى الآيه التاليه: «وَ إِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ » «إلخ»، لكن لو كان إيمان طائفه تصحح هذه النسبه إلى جميعهم كان من الواجب أن تعد اليهود و المشركون كمثل النصارى و ينسب إليهما نظير ما نسب إليهم لمكان إسلام طائفه من

اليهود كعبد الله بن سلام و أصحابه،و إسلام عده من مشركى العرب و هم عامه المسلمين اليوم فتخصيص النصارى بمثل قوله: «وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ » «إلخ»،دون اليهود و المشركين يدل على حسن إقبالهم على الدعوه الإسلاميه و إجابه النبى ص مع أنهم على خيار بين أن يقيموا على دينهم و يؤدوا الجزيه،و بين أن يقبلوا الإسلام،أو يحاربوا.

و هذا بخلاف المشركين فإنهم لم يكن يقبل منهم إلا قبول الدعوه فكثره المؤمنين منهم لا يدل على حسن الإجابه،على ما كابد النبى ص من جفوتهم و لقاه المسلمون من أيديهم بقسوتهم و نخوتهم.

و كذلك اليهود و إن كانوا كالنصارى فى إمكان إقامتهم على دينهم و تأديه الجزيه إلى المسلمين لكنهم تمادوا فى نخوتهم،و تصلبوا فى عصبيتهم،و أخذوا بالمكر و المكيده، و نقضوا عهودهم،و تربصوا الدوائر على المسلمين،و مسوهم بأمر المس و آلمه.

و هذا الذى جرى من أمر النصارى مع النبى ص و الدعوه الإسلاميه،و حسن إجابتهم،و كذا من أمر اليهود و المشركين فى التمادى على الاستكبار و العصبيه جرى بعينه بعده(ص)على حذو ما جرى فى عهده فما أكثر من لبى الدعوه الإسلاميه من فرق النصارى خلال القرون الماضيه، و ما أقل ذلك من اليهود و الوثنيين!فاحتفاظ هذه الخصيصه فى هؤلاء و هؤلاء يصدق الكتاب العزيز فى ما أفاده.

و من المعلوم أن قوله تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا » من قبيل بيان الضابط العام فى صوره خطاب خاص نظير ما مر فى الآيات السابقه: «تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » و «تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ » .

قوله تعالى: «ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ » القسيس معرب«كشيش»و الرهبان جمع الراهب و قد يكون مفردا،قال الراغب: الرهبه و الرهب مخافه مع تحرز-إلى أن قال-و الترهب التعبد،و الرهبانيه غلو فى تحمل التعبد من فرط الرهبه،قال تعالى: «وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها » و الرهبان يكون واحدا و جمعا فمن جعله واحدا جمعه على رهابين،انتهى.

علل تعالى ما ذكره من كون النصارى أقرب موده و آنس قلوبا للذين آمنوا بخصال ثلاث يفقدها غيرهم من اليهود و المشركين،و هى أن فيهم علماء و أن فيهم رهبانا

ص :۸۰

و زهادا،و أنهم لا يستكبرون و ذلک مفتاح تهیؤهم للسعاده.

و ذلک أن سعاده حیاه الدین أن تقوم بصالح العمل عن علم به،و إن شئت فقل:

إن یذعن بالحق فیطبق عمله علیه؛فله حاجه إلی العلم لیدرک به حق الدین و هو دین الحق،و مجرد إدراک الحق لا یکفی للتهیؤ للعمل علی طبقه حتی ینتزع الإنسان من نفسه الهیئه المانعه عنه،و هو الاستکبار عن الحق بعصبیه و ما یشابهها،و إذا تلبس الإنسان بالعلم النافع و النصفه فی جنب الحق برفع الاستکبار تهیأ للخضوع للحق بالعمل به لکن بشرط عدم منافاه الجو لذلک فإن لموافقه الجو للعمل تأثیرا عظیما فی باب الأعمال فإن الأعمال التی یعتورها عامه المجتمع و ینمو علیها أفراده،و تستقر علیهم عادتهم خلفا عن سلف لا- یبقی للنفس فراغ أن تتفکر فی أمرها أو تتدبر و تدبر فی التخلص عنها إذا کانت ضاره مفسده للسعاده،و کذلک الحال فی الأعمال الصالحه إذا استقر التلبس بها فی مجتمع یصعب علی النفس ترکها،و لذا قیل:إن العاده طبیعه ثانیه،و لذا کان أیضا أول فعل مخالف حرجا علی النفس فی الغایه و هو عند النفس دلیل علی الإمکان، ثم لا یزال کلما تحقق فعل زاد فی سهوله التحقق و نقص بقدره من صعوبته.

فإذا تحقق الإنسان أن عملا کذا حق صالح و نزع عن نفسه أغراض العناد و اللجاج بإماته الاستکبار و الاستعلاء علی الحق کان من العون کل العون علی إتیانه أن یری إنسانا یرتکبه فتتلقی نفسه إمکان العمل.

و من هنا یظهر أن المجتمع إنما یتهیأ لقبول الحق إذا اشتمل علی علماء یعلمونه و یعلمونه،و علی رجال یقومون بالعمل به حتی یذعن العامه بإمکان العمل و یشاهدوا حسنه،و علی اعتیاد عامتهم علی الخضوع للحق و عدم الاستکبار عنه إذا انکشف لهم.

و لهذا علل الله سبحانه قرب النصاری من قبول الدعوه الحقه الدینیه بأن فیهم قسیسین و رهبانا و أنهم لا یستکبرون؛ففیهم علماء لا یزالون یذکرونهم مقام الحق و معارف الدین قولا،و فیهم زهاد یذکرونهم عظمه ربهم و أهمیه سعادتهم الأخرویه و الدنیویه عملا،و فیهم عدم الاستکبار عن قبول الحق.

و أما الیهود فإنهم و إن کان فیهم أحبار علماء لکنهم مستکبرون لا تدعهم رذیله

العناد و الاستعلاء أن يتهيئوا لقبول الحق.

و أما الذين أشركوا فإنهم يفقدون العلماء و الزهاد،و فيهم رذيله الاستكبار.

قوله تعالى: «وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ » «إلخ»، فاضت العين بالدمع سال دمعها بكثره،و مِنَ في قوله: «مِنَ الدَّمْعِ » للابتداء،و في قوله: «مِمّا » للنشوء،و في قوله: «مِنَ الْحَقِّ » بيانيه.

قوله تعالى: «وَ ما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللّهِ » «إلخ»،لفظه «يُدْخِلَنا» كأنها مضمنه معنى الجعل،و لذلك عدى بمع،و المعنى:يجعلنا ربنا مع القوم الصالحين مدخلا لنا فيهم.

و في هذه الأفعال و الأقوال التي حكاها الله تعالى عنهم تصديق ما ذكره عنهم أنهم أقرب موده للذين آمنوا،و تحقيق أن فيهم العلم النافع و العمل الصالح و الخضوع للحق حيث كان فيهم قسيسون و رهبان و هم لا يستكبرون.

قوله تعالى: «فَأَثابَهُمُ اللّهُ » إلى آخر الآيتين،« الإثابه »المجازاه،و الآيه الأولى ذكر جزائهم،و الآيه الثانيه فيها ذكر جزاء من خالفهم على طريق المقابله استيفاء للأقسام.

(بحث روائي)

- في معاني الأخبار،بإسناده عن الرضا عن آبائه،عن علي(ع): في قوله تعالى:

«كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ »

-معناه أنهما كانا يتغوطان:.

أقول:و رواه العياشي في تفسيره مرفوعا .

- و في الكافي،بإسناده عن أبي عبيده الحذاء،عن أبي عبد الله(ع): في قول الله عز و جل: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ- عَلى لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ » -قال:

الخنازير على لسان داود،و القرده على لسان عيسى بن مريم:.

أقول:و رواه القمي و العياشي عنه(ع)

،

- و روى بطرق أهل السنه عن مجاهد و قتاده و غيرهما": لعن القرده على لسان داود،و الخنازير على لسان عيسى بن مريم ، و يوافقه بعض روايات الشيعه كما يأتي.

- و فى المجمع،عن أبى جعفر(ع): أما داود فإنه لعن أهل أيله لما اعتدوا فى سبتهم،و كان اعتداؤهم فى زمانه فقال:اللهم ألبسهم اللعنه مثل الرداء،و مثل المنطقه على الخصرين؛فمسخهم الله قرده،و أما عيسى فإنه لعن الذين نزلت عليهم المائده-ثم كفروا بعد ذلك،قال:فقال أبو جعفر(ع):يتولون الملوك الجبارين،و يزينون لهم هواهم ليصيبوا من دنياهم.

أقول:و القرآن يؤيد كون أصحاب السبت ممسوخين إلى القرده قال تعالى:

«وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ» :البقره:۵۶ و قال تعالى: «وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ -إلى أن قال- وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ -إلى أن قال- فَلَمّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ» :الأعراف:۱۶۶.

- و فى الدر المنثور،:أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن مسعود قال:قال رسول الله ص: إن بنى إسرائيل لما عملوا الخطيئه-نهاهم علماؤهم تعزيرا-ثم جالسوهم و آكلوهم و شاربوهم-كأن لم يعملوا بالأمس خطيئه؛فلما رأى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، و لعنهم على لسان نبى من الأنبياء،ثم (قال،)رسول الله ص:و الله لتأمرن بالمعروف،و لتنهن عن المنكر،و لتأطرنهم على الحق أطرا-أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض-و ليلعننكم كما لعنهم.

- و فيه،:أخرج عبد بن حميد عن معاذ بن جبل قال:قال رسول الله ص: خذوا العطاء ما كان عطاء-فإذا كان رشوه عن دينكم فلا تأخذوا-و لن تتركوه يمنعكم من ذلك الفقر و المخافه-أن بنى يأجوج قد جاءوا،و إن رحى الإسلام سيدور-فحيثما دار القرآن فدوروا به،يوشك السلطان و القرآن أن يقتتلا و يتفرقا؛أنه سيكون عليكم ملوك يحكمون لكم بحكم و لهم بغيره-فإن أطعتموهم أضلوكم،و إن عصيتموهم قتلوكم.

قالوا:يا رسول الله كيف بنا إن أدركنا ذلك؟قال:تكونوا كأصحاب عيسى نشروا بالمناشير،و رفعوا على الخشب،موت فى طاعه خير من حياه فى معصيه-إن أول ما نقص فى بنى إسرائيل-أنهم كانوا يأمرون بالمعروف-و ينهون عن المنكر سنه

التعزير-فكان أحدهم إذا لقى صاحبه الذى كان يعيب عليه-آكله و شاربه و كأنه لم يعب عليه شيئا-فلعنهم الله على لسان داود،و ذلك بما عصوا و كانوا يعتدون.

و الذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف-و لتنهن عن المنكر-أو ليسلطن الله عليكم شراركم؛ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لكم.

و الذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف و لتنهن عن المنكر،و لتأخذن على يد الظالم فلتأطرنه عليه أطرا-أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض.

- و فيه،أيضا:أخرج ابن راهويه و البخارى فى الوحدانيات،و ابن السكن و ابن منده و الباوردى فى معرفه الصحابه،و الطبرانى و أبو نعيم و ابن مردويه عن ابن أبزى، عن أبيه:

قال: خطب رسول الله ص فحمد الله و أثنى عليه-ثم ذكر طوائف من المسلمين فأثنى عليهم خيرا،ثم قال:ما بال أقوام لا يعلمون جيرانهم و لا يفقهونهم، و لا يأمرونهم و لا ينهونهم؟و ما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم-و لا يتفقهون و لا يتفطنون؟و الذى نفسى بيده ليعلمن(جيرانهم،)أو ليتفقهن أو ليتفطنن أو لأعاجلنهم بالعقوبه فى دار الدنيا،ثم نزل و دخل بيته فقال أصحاب رسول الله ص:من يعنى بهذا الكلام؟قالوا:ما نعلم يعنى بهذا الكلام إلا الأشعريين فقهاء علماء،و لهم جيران جفاه جهله.

فاجتمع جماعه من الأشعريين فدخلوا على النبى ص-فقالوا:ذكرت طوائف من المسلمين بخير-و ذكرتنا بشر فما بالنا؟فقال رسول الله ص: لتعلمن جيرانكم- و لتفقهنهم و لتأمرنهم و لتنهنهم-أو لأعاجلنكم بالعقوبه فى دار الدنيا،فقالوا:يا رسول الله فأمهلنا سنه- ففى سنه ما نعلمهم و يتعلمون فأمهلهم سنه-ثم قرأ رسول الله ص:

«لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِی إِسْرائِيلَ-عَلىٰ لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ-ذٰلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ، كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ »

.

- و فى تفسير العياشى،عن محمد بن الهيثم التميمى عن أبى عبد الله(ع): فى قوله:

«كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ-لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ »

،قال:أما إنهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم-و لا يجالسون مجالسهم-و لكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا فى وجوههم

و أنسوا بهم.

- و فيه،أيضا:عن مروان،عن بعض أصحابه،عن أبی عبدالله(ع)قال:

ذکر النصاری و عداوتهم فقال:قول الله: «ذٰلِکَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّیسِینَ وَ رُهْبٰاناً وَ أَنَّهُمْ لاٰ یَسْتَکْبِرُونَ » ،قال:أولئک کانوا قوما بین عیسی و محمد-ینتظرون مجیء محمد ص.

أقول:ظاهر الآیه العموم دون الخصوص،و لعل المراد أن المدح إنما هو لهم ما لم یغیروا کما أن الذی مدح الله به المسلمین کذلک.

- و فی الدر المنثور،:أخرج عبد بن حمید و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ و ابن مردویه عن سعید بن جبیر": فی قوله: «ذٰلِکَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّیسِینَ وَ رُهْبٰاناً » -قال:

هم رسل النجاشی-الذین أرسل بإسلامه إسلام قومه؛کانوا سبعین رجلا-اختارهم من قومه الخیر فالخیر فی الفقه و السن.

- و فی لفظ": بعث من خیار أصحابه إلی رسول الله ص ثلاثین رجلا-فلما أتوا رسول الله ص دخلوا علیه-فقرأ علیهم سوره«یس»فبکوا حین سمعوا القرآن و عرفوا أنه الحق.

فأنزل الله فیهم: «ذٰلِکَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّیسِینَ وَ رُهْبٰاناً ، الآیه»و نزلت هذه الآیه فیهم أیضا: «الَّذِینَ آتَیْنٰاهُمُ الْکِتٰابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ یُؤْمِنُونَ -إلی قوله- أُولٰئِکَ یُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَیْنِ بِمٰا صَبَرُوا » .

- و فیه،:أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن ابن عباس قال":

کان رسول الله ص و هو بمکه-یخاف علی أصحابه من المشرکین-فبعث جعفر بن أبی طالب-و ابن مسعود و عثمان بن مظعون-فی رهط من أصحابه إلی النجاشی ملک الحبشه.

فلما بلغ المشرکین-بعثوا عمرو بن العاص فی رهط منهم،ذکروا أنهم سبقوا أصحاب النبی ص إلی النجاشی-فقالوا:إنه قد خرج فینا رجل سفه عقول قریش و أحلامها؛زعم أنه نبی،و أنه بعث إلیک رهطا-لیفسدوا علیک قومک-فأحببنا أن نأتیک و نخبرک خبرهم.

قال:إن جاءونی نظرت فیما یقولون،فلما قدم أصحاب رسول الله ص-فأتوا

إلى باب النجاشی-فقالوا: استأذن لأولياء الله-فقال:ائذن لهم فمرحبا بأولياء الله-فلما دخلوا عليه سلموا،فقال الرهط من المشركين:أ لم تر أيها الملک أنا صدقناک،و أنهم لم يحيوک بتحيتک التی تحيا بها؟فقال لهم:ما يمنعكم أن تحيونی بتحيتی؟قالوا:

إنا حييناک-بتحيه أهل الجنه و تحيه الملائكه.

فقال لهم:ما يقول صاحبكم فی عيسی و أمه؟قالوا:يقول:عبد الله و رسوله- و كلمه من الله و روح منه ألقاها إلى مريم،و يقول فی مريم:أنها العذراء الطيبه البتول؛ قال:فأخذ عودا من الأرض فقال:ما زاد عيسی و أمه على ما قال صاحبكم هذا العود،فكره المشركون قوله و تغير له وجوههم.

فقال:هل تقرءون شيئا مما أنزل عليكم؟قالوا:نعم،قال:فاقرءوا -فقرءوا-و حوله القسيسون و الرهبان و سائر النصاری-فجعلت طائفه من القسيسين و الرهبان- كلما قرءوا آيه انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق-قال الله: «ذٰلِکَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْبٰاناً-وَ أَنَّهُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ، وَ إِذٰا سَمِعُوا مٰا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ-تَرىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّٰا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ » .

- أقول:و روی القمی فی تفسيره،":القصه مفصله فی خبر طويل،و فی آخره:

و رجعوا إلى النجاشی-فأخبروه خبر رسول الله ص-و قرءوا عليه ما قرأ عليهم-فبكی النجاشی و بكی القسيسون،و أسلم النجاشی و لم يظهر للحبشه إسلامه،و خافهم على نفسه فخرج من بلاد الحبشه إلى النبی ص-فلما عبر البحر توفی ،الحديث-.

(كلام فی معنی التوحيد فی القرآن)

لا- يرتاب الباحث المتعمق فی المعارف الكليه أن مسأله التوحيد من أبعدها غورا، و أصعبها تصورا و إدراكا،و أعضلها حلا لارتفاع كعبها عن المسائل العامه العاميه التی تتناولها الأفهام،و القضايا المتداوله التی تألفها النفوس،و تعرفها القلوب.

و ما هذا شأنه تختلف العقول فی إدراكه و التصديق به للتنوع الفكری الذی فطر عليه الإنسان من اختلاف أفراده من جهه البنيه الجسميه و أداء ذلک إلى اختلاف أعضاء الإدراک فی أعمالها ثم تأثير ذلک الفهم و التعقل من حيث الحده و البلاده،

و الجوده و الرداءه،و الاستقامه و الانحراف.

فهذا كله مما لا شك فيه،و قد قرر القرآن هذا الاختلاف فى موارد من آياته الكريمه كقوله تعالى: «هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ» :الزمر:۹،و قوله تعالى: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» :النجم:۳۰،و قوله تعالى: «فَمَا لِهٰؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً» :النساء:۸۷،و قوله تعالى فى ذيل الآيه ۷۵ من المائده(و هى من جمله الآيات التى نحن فيها) :«انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » .

و من أظهر مصاديق هذا الاختلاف الفهمى اختلاف أفهام الناس فى تلقى معنى توحده تعالى لما فى أفهامهم من الاختلاف العظيم و النوسان الوسيع فى تقرير مسأله وجوده تعالى على ما بينهم من الاتفاق على ما تعطيه الفطره الإنسانيه بإلهامها الخفى و إشارتها الدقيقه.

فقد بلغ فهم آحاد من الإنسان فى ذلك أن جعل الأوثان المتخذه،و الأصنام المصنوعه من الخشب و الحجاره حتى من نحو الأقط و الطينه المعموله من أبوال الغنم شركاء لله،و قرناء له،يعبد كما تعبد هؤلاء،و يسأل كما تسأل هؤلاء،و يخضع له كما يخضع لها، و لم يلبث هذا الإنسان دون أن غلب هذه الأصنام عليه تعالى بزعمه،و أقبل عليها و تركه،و أمرها على حوائجه و عزله.

فهذا الإنسان قصارى ما يراه من الوجود له تعالى هو مثل ما يراه لآلهته التى خلقها بيده،أو خلقها إنسان مثله بيده،و لذلك كانوا يثبتون له تعالى من صفه الوحده مثل ما يصفون به كل واحد من أصنامهم،و هى الوحده العدديه التى تتألف منها الأعداد،قال تعالى: «وَ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ، أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ :ـص:۶.

فهؤلاء كانوا يتلقون الدعوه القرآنيه إلى التوحيد دعوه إلى القول بالوحده العدديه التى تقابل الكثره العدديه كقوله تعالى: «وَ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ» :البقره:۱۶۳ و قوله تعالى: «هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»

:المؤمن:۶۵ و غیر ذلک من الآیات الداعیه إلی رفض الآلهه الکثیره،و توجیه الوجه لله الواحد،و قوله تعالی: «وَ إِلٰهُنٰا وَ إِلٰهُکُمْ وٰاحِدٌ» :العنکبوت:۴۶ و غیره من الآیات الداعیه إلی رفض التفرق فی العباده للإله،حیث کانت کل أمه أو طائفه أو قبیله تتخذ إلها تختص به،و لا تخضع لإله الآخرین.

و القرآن ینفی فی عالی تعلیمه الوحده العددیه عن الإله جل ذکره،فإن هذه الوحده لا تتم إلا بتمیز هذا الواحد من ذلک الواحد بالمحدودیه التی تقهره،و المقدریه التی تغلبه،مثال ذلک ماء الحوض إذا فرقناه فی آنیه کثیره کان ماء کل إناء ماء واحدا غیر الماء الواحد الذی فی الإناء الآخر،و إنما صار ماء واحدا یتمیز عما فی الآخر لکون ما فی الآخر مسلوبا عنه غیر مجتمع معه،و کذلک هذا الإنسان إنما صار إنسانا واحدا لأنه مسلوب عنه ما للإنسان الآخر،و لو لا ذلک لم یأت للإنسانیه الصادقه علی هذا و ذاک أن تکون واحده بالعدد و لا کثیره بالعدد.

فمحمودیه الوجود هی التی تقهر الواحد العددی علی أن یکون واحدا ثم بانسلاب هذه الوحده من بعض الجهات تتألف کثره عددیه کما عنده عروض صفه الاجتماع بوجه.

و إذ کان الله سبحانه قاهرا غیر مقهور،و غالبا لا یغلبه شیء البته کما یعطیه التعلیم القرآنی لم تتصور فی حقه وحده عددیه و لا کثره عددیه، قال تعالی: «وَ هُوَ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» :الرعد:۱۶،و قال: «أَ أَرْبٰابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَیْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّٰ أَسْمٰاءً سَمَّیْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُکُمْ» :یوسف:۴۰،و قال: «وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» :ص:۶۵،و قال: «لَوْ أَرٰادَ اللّٰهُ أَنْ یَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفیٰ مِمّٰا یَخْلُقُ مٰا یَشٰاءُ سُبْحٰانَهُ هُوَ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» :الزمر:۴.

و الآیات بسیاقها-کما تری-تنفی کل وحده مضافه إلی کثره مقابله لها سواء کانت وحده عددیه کالفرد الواحد من النوع الذی لو فرض بإزائه فرد آخر کانا اثنین فإن هذا الفرد مقهور بالحد الذی یحده به الفرد الآخر المسلوب عنه المفروض قباله، أو کانت وحده نوعیه أو جنسیه أو أی وحده کلیه مضافه إلی کثره من سنخها کالإنسان الذی هو نوع واحد مضاف إلی الأنواع الکثیره الحاصله منه و من الفرس و البقر و الغنم و غیرها فإنه مقهور بالحد الذی یحده به ما یناظره من الأنواع الآخر،و إذ کان

تعـالى لاـ يقهره شـيء فى شـيء البته من ذاته و لاـ صـفته و لاـ فعله و هو القـاهر فوق كل شـيء فليس بمحـدود فى شـيء يرجع إليه،فهو موجود لاـ يشوبه عـدم،و حق لاـ يعرضه بطلان، و هو الحى لا يخالطه موت،و العليم لا يـدب إليه جهل،و القادر لا يغلبه عجز،و المالك و الملك من غير أن يملك منه شيء و العزيز الذى لا ذل له،و هكذا.

فله تعـالى من كـل كمـال محضه، و إن شـئت زياده تفهم و تفقه لهـذه الحقيقه القرآنيه فافرض أمرا متناهيا و آخر غير متناه تجد غير المتناهى محيطا بالمتناهى بحيث لا يـدفعه المتناهى عن كماله المفروض أى دفع،فرضـته بل غير المتناهى مسـيطر عليه بحيث لا يفقده المتناهى فى شـيء من أركان كماله،و غير المتناهى هو القائم على نفسه، الشـهيد عليه،المحيط به،ثم انظر فى ذلك إلى ما يفيده قوله تعالى: «أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، أَلاٰ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقٰاءِ رَبِّهِمْ أَلاٰ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ» :حم السجده:۵۴.

و هذا هو الذى يدل عليه عامه الآيات الواصـفه لصـفاته تعالى الواقعه فى سـياق الحصر أو الظاهر فيه كقوله تعالى: «اللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ» :طه:۸، و قـوله: «وَ يَعْلَمُـونَ أَنَّ اللّٰـهَ هُـوَ الْحَـقُّ الْمُـبِينُ» :النـور:۲۵،و قـوله: «هُـوَ الْحَيُّ لاٰـ إِلٰـهَ إِلاّٰـ هُـوَ» :المؤمن:۶۵،و قـوله: «وَ هُـوَ الْعَلِيمُ الْقَـدِيرُ» :الروم:۵۴،و قـوله: «أَنَّ الْقُـوَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعـاً» :البقره:۱۶۵،و قـوله: «لَهُ الْمُلْـكُ وَ لَهُ الْحَمْـدُ» :التغابن:۱،و قوله: «إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً» :يونس:۶۵،و قوله: «الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ» :البقره:۱۴۷،و قوله:

«أَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ إِلَى اللّٰهِ وَ اللّٰهُ هُوَ الْغَنِيُّ» :فاطر:۱۵، إلى غير ذلك من الآيات.

فالآيـات-كمـا ترى-تنادى بأعلى صوتها أن كل كمال مفروض فهو لله سـبحانه بالأصاله،و ليس لغيره شـيء إلا بتمليكه تعالى له ذلك من غير أن ينعزل عما يملكه و يملكه كما ننعزل نحن معاشر الخليقه عما ملكناه غيرنا.

فكلما فرضـنا شـيئا من الأشـياء ذا شيء من الكمال فى قباله تعالى ليكون ثانيا له و شريكا عاد ما بيده من معنى الكمال لله سبحانه محضا،و هو الحق الذى يملك كل شـيء،و غيره الباطل الذى لا يملك لنفسه شيئا قال تعالى: «لاٰ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً وَ لاٰ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لاٰ حَيٰاةً وَ لاٰ نُشُوراً» :الفرقان:۳.

و هذا المعنى هو الذى ينفى عنه تعالى الوحده العدديه إذ لو كان واحدا عدديا

أی موجودا محـدودا منعزل الذات عن الإحاطه بغیره من الموجودات صح للعقل أن یفرض مثله الثانی له سواء کان جائز التحقق فی الخـارج أو غیر جـائز التحقـق،و صـح عنـد العقـل أن یتصـف بـالکثره بـالنظر إلی نفسه و إن فرض امتنـاعه فی الواقع،و لیس کذلک.

فهو تعالی واحد بمعنی أنه من الوجود بحیث لا یحد بحد حتی یمکن فرض ثان له فیما وراء ذلک الحد و هذا معنی قوله تعالی: «قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَـدٌ، اللّٰهُ الصَّمَـدُ، لَمْ یَلِدْ وَ لَمْ یُولَدْ، وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ کُفُواً أَحَدٌ» :سوره التوحید-۴ فإن لفظ أحد إنما یستعمل استعمالا یدفع إمکان فرض العدد فی قباله یقال:«ما جاءنی أحد»و ینفی به أن یکون قد جاء الواحد و کذا الاثنان و الأکثر و قال تعالی: «وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِکِینَ اسْتَجٰارَکَ» :التوبه:۶ فشمل الواحد و الاثنین و الجماعه و لم یخرج عن حکمه عدد،و قال تعالی:

«أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ الْغٰائِطِ » فشمل الواحد و ما وراءه،و لم یشذ منه شاذ.

فاستعمال لفـظ أحـد فی قوله: «هُوَ اللّٰهُ أَحَـدٌ » فی الإثبات من غیر نفی و لا تقییـد بإضافه أو وصف یفیـد أن هویته تعالی بحیث یـدفع فرض من یمـاثله فی هـویته بـوجه سواء کـان واحـدا أو کـثیرا فهو محـال بحسب الفرض الصـحیح مع قطع النظر عن حـاله بحسب الخارج.

و لـذلک وصـفه تعـالی أولاـ بـأنه صـمد،و هو المصـمت الـذی لا جوف له و لا مکان خالیا فیه،و ثانیا بأنه لم یلـد،و ثالثا بأنه لم یولد،و رابعا بأنه لم یکن له کفوا أحد، و کل هذه الأوصاف مما یستلزم نوعا من المحدودیه و الانعزال.

و هذا هو السر فی عدم وقوع توصیفات غیره تعالی علیه حق الوقوع و الاتصاف قال تعالی: «سُبْحٰانَ اللّٰهِ عَمّٰا یَصِفُونَ إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِینَ» :الصافات:۱۶۰،و قـال تعـالی: «وَ لاٰ یُحِیطُونَ بِهِ عِلْماً» :طه:۱۱۰،فـإن المعـانی الکمالیه التی نصـفه تعالی بها أوصاف محدوده،و جلت ساحته سبحانه عن الحد و القید،

و هو الذی یرومه النبی ص فی کلمته المشهوره:لا أحصی ثناء علیک أنت کما أثنیت علی نفسک».

و هـذا المعنی من الوحـده هو الـذی یـدفع به تثلیث النصاری فإنهم موحـدون فی عین التثلیث لکن الـذی یذعنون به من الوحده وحـده عـددیه لا تنفی الکثره من جهه أخری فهم یقولون:إن الأقانیم(الأب و الابن و الروح)(الذات و العلم و الحیاه) ثلاثه و هی واحده کالإنسان الحی العالم فهو شیء واحد لأنه إنسان حی عالم و هو ثلاثه لأنه إنسان و حیاه و علم.

لکن التعلیم القرآنی ینفی ذلک لأنه یثبت من الوحده ما لا یستقیم معه فرض أی کثره و تمایز لا فی الذات و لا فی الصفات،و کل ما فرض من شیء فی هذا الباب کان عین الآخر لعدم الحد فذاته تعالی عین صفاته،و کل صفه مفروضه له عین الأخری، تعالی الله عما یشرکون،و سبحانه عما یصفون.

و لذلک تری أن الآیات التی تنعته تعالی بالقهاریه تبدأ أولا بنعت الوحده ثم تصفه بالقهاریه لتدل علی أن وحدته لا تدع لفارض مجال أن یفرض له ثانیا مماثلا بوجه فضلا عن أن یظهر فی الوجود،و ینال الواقعیه و الثبوت،قال تعالی: «أَ أَرْبٰابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَیْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّٰ أَسْمٰاءً سَمَّیْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُکُمْ» :یوسف:۴۰، فوصفه بوحده قاهره لکل شریک مفروض لا تبقی لغیره تعالی من کل معبود مفروض إلا الاسم فقط،و قال تعالی: «أَمْ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَکٰاءَ خَلَقُوا کَخَلْقِهِ فَتَشٰابَهَ الْخَلْقُ عَلَیْهِمْ قُلِ اللّٰهُ خٰالِقُ کُلِّ شَیْءٍ وَ هُوَ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» :الرعد:۱۶،قال تعالی: «لِمَنِ الْمُلْکُ الْیَوْمَ لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ» :المؤمن:۱۶،إذ ملکه تعالی المطلق لا یخلی مالکا مفروضا غیره دون أن یجعله نفسه و ما یملکه ملکا لله سبحانه،و قال تعالی: «وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» :ص:۶۵،و قال تعالی: «لَوْ أَرٰادَ اللّٰهُ أَنْ یَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفیٰ مِمّٰا یَخْلُقُ مٰا یَشٰاءُ سُبْحٰانَهُ هُوَ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» :الزمر:۴،فرتب القهاریه فی جمیع الآیات علی صفه الوحده.

(بحث روائی) [کلام فی معنی التوحید]

- فی التوحید،و الخصال،بإسناده عن المقدام بن شریح بن هانی عن أبیه قال: إن أعرابیا قام یوم الجمل إلی أمیر المؤمنین(ع)فقال:یا أمیر المؤمنین أ تقول:إن الله واحد؟قال:فحمل الناس علیه و قالوا:یا أعرابی أ ما تری ما فیه أمیر المؤمنین-من تقسم القلب؟فقال أمیر المؤمنین(ع):دعوه-فإن الذی یریده الأعرابی هو الذی نریده من القوم!.

ثم قال:یا أعرابی-إن القول فی أن الله واحد علی أربعه أقسام:فوجهان منها لا یجوزان علی الله عز و جل،و وجهان یثبتان فیه؛فأما اللذان لا یجوزان علیه فقول القائل:واحد یقصد به باب الأعداد،فهذا ما لا یجوز،لأن ما لا ثانی له لا یدخل فی

باب الأعداد-أ ما ترى أنه كفر من قال:إنه ثالث ثلاثه؟و قول القائل:هو واحد من الناس-يريد به النوع من الجنس-فهذا ما لا يجوز لأنه تشبيه،و جل ربنا و تعالى عن ذلك.

و أما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل:هو واحد ليس له فى الأشياء شبه،كذلك ربنا،و قول القائل:إنه عز و جل أحدى المعنى-يعنى به أنه لا ينقسم فى وجود و لا عقل و لا وهم،كذلك ربنا عز و جل:.

أقول:و رواه أيضا فى المعانى،بسند آخر عن أبى المقدام بن شريح بن هانى عن أبيه عنه(ع) .

- و فى النهج،: أول الدين معرفته،و كمال معرفته التصديق به،و كمال التصديق به توحيده،و كمال توحيده الإخلاص له،و كمال الإخلاص له نفى الصفات عنه-لشهاده كل صفه أنها غير الموصوف،و شهاده كل موصوف أنه غير الصفه،فمن وصف الله فقد قرنه،و من قرنه فقد ثناه،و من ثناه فقد جزأه،و من جزأه فقد جهله،و من جهله فقد أشار إليه،و من أشار إليه فقد حده،و من حده فقد عده (الخطبه).

أقول:و هو من أبدع البيان،و محصل الشطر الأول من الكلام أن معرفته تنتهى فى استكمالها إلى نفى الصفات عنه،و محصل الشطر الثانى المتفرع على الشطر الأول -أعنى قوله(ع):فمن وصف الله فقد قرنه(إلخ)-أن إثبات الصفات يستلزم إثبات الوحده العدديه المتوقفه على التحديد غير الجائز عليه تعالى،و تنتج المقدمتان أن كمال معرفته تعالى يستوجب نفى الوحده العدديه منه،و إثبات الوحده بمعنى آخر، و هو مراده(ع)من سرد الكلام.

أما مسأله نفى الصفات عنه فقد بينه(ع):«بقوله أول الدين معرفته»لظهور أن من لم يعرف الله سبحانه و لو بوجه لم يحل بعد فى ساحه الدين،و المعرفه ربما كانت مع عمل بما يرتبط به من الأفعال و ترتب آثار المعروف،و ربما كانت من غير عمل، و من المعلوم أن العلم فيما يتعلق نوع تعلق بالأعمال إنما يثبت و يستقر فى النفس إذا ترتب عليه آثاره العمليه،و إلا فلا يزال العلم يضعف بإتيان الأعمال المخالفه حتى يبطل أو يصير سدى لا أثر له،و من كلامه(ع)فى هذا الباب-

- و قد رواه فى النهج-: «العلم مقرون بالعمل فمن علم عمل،و العلم يهتف بالعمل فإن أجابه و إلا ارتحل عنه.

فالعلم و المعرفه بالشیء إنما یکمل إذا أخذ العارف معروفه صدقا،و أظهر ذلک فی باطنه و ظاهره،و جنانه و أرکانه بأن یخضع له روحا و جسما،و هو الإیمان المنبسط علی سره و علانیته،و هو قوله:«و کمال معرفته التصدیق به».

ثم هذا الخضوع المسمی بالتصدیق به و إن جاز تحققه مع إثبات الشریک للرب المخضوع له کما یخضع عبده الأصنام لله و لسائر آلهتهم جمیعا لکن الخضوع بشیء لا یتم من غیر انصراف عن غیره بالبداهه،فالخضوع لواحد من الآلهه فی معنی الإعراض عن غیره و الاستکبار فی الجمله عنه فلا یکمل التصدیق بالله و الخضوع لمقامه إلا بالإعراض عن عباده الشرکاء،و الانصراف عن دعوه الآلهه الکثیره،و هو قوله:«و کمال التصدیق به توحیده».

ثم إن للتوحید مراتب مختلفه بعضها فوق بعض،و لا یکمل حتی یعطی الإله الواحد حقه من الألوهیه المنحصره،و لا یقتصر علی مجرد تسمیته إلها واحدا بل ینسب إلیه کل ما له نصیب من الوجود و الکمال کالخلق و الرزق و الإحیاء و الإماته و الإعطاء و المنع،و أن یخص الخضوع و العباده به فلا یتذلل لغیره بوجه من الوجوه بل لا یرجی إلا رحمته،و لا یخاف إلا سخطه،و لا یطمع إلا فیما عنده،و لا یعکف إلا علی بابه.

و بعباره أخری أن یخلص له علما و عملا،و هو قوله(ع):«و کمال توحیده الإخلاص له».

و إذا استوی الإنسان علی أریکه الإخلاص،و ضمته العنایه الإلهیه إلی أولیاء الله المقربین لاحت علی بصیرته لوائح العجز عن القیام بحق المعرفه،و توصیفه بما یلیق بساحه کبریائه و عظمته فإنه ربما شاهد أن الذی یصفه تعالی به معان مدرکه مما بین یدیه من الأشیاء المصنوعه،و أمور ألفها من مشهوداته الممکنه،و هی صور محدوده مقیده یدفع بعضها بعضا،و لا تقبل الائتلاف و الامتزاج،انظر إلی مفاهیم الوجود و العلم و القدره و الحیاه و الرزق و العزه و الغنی و غیرها.

و المعانی المحدوده یدفع بعضها بعضا لظهور کون کل مفهوم خلوا عن المفهوم الآخر کمعنی العلم عن معنی القدره فإنا حین ما نتصور العلم نصرف عن القدره فلا نجد معناها فی معنی العلم،و إذا تصورنا معنی العلم و هو وصف من الأوصاف ننعزل عن

معنى الذات و هو الموصوف.

فهذه المفاهيم و العلوم و الإدراكات تقصر عن الانطباق عليه جل شأنه حق الانطباق،و عن حكايه ما هو عليه حق الحكايه؛فتمس حاجه المخلص فى وصفه ربه إلى أن يعترف بنقص لا علاج له،و عجز لا جابر دونه؛فيعود فينفى ما أثبته، و يتيه فى حيره لا مخلص منها،و هو

- قوله(ع): «و كمال الإخلاص له نفى الصفات عنه-لشهاده كل صفه أنها غير الموصوف،و شهاده كل موصوف أنها غير الصفه».

و هذا الذى فسرنا به هذا العقد

- من كلامه(ع) هو الذى يؤيده أول الخطبه حيث يقول:«الذى لا يدركه بعد الهمم،و لا يناله غوص الفطن،الذى ليس لصفته حد محدود،و لا نعت موجود،و لا وقت معدود،و لا أجل ممدود» على ما يظهر للمتأمل الفطن.

و أما

- قوله(ع): «فمن وصف الله فقد قرنه» (إلخ)،فهو توصل منه إلى المطلوب-و هو أن الله سبحانه لا حد له و لا عد-من طريق تحليل إثبات الوصف كما كان البيان الأول توصلا منه من طريق تحليل المعرفه إلى نفى الوصف.

فمن وصف الله فقد قرنه لما عرفت من المغايره بين الموصوف و الصفه،و الجمع بين المتغارين قرن،و من قرنه فقد ثناه لأخذه إياه موصوفا و صفه و هما اثنان،و من ثناه فقد جزأه إلى جزءين،و من جزأه فقد جهله بالإشاره إليه إشاره عقليه،و من أشار إليه فقد حده لكون الإشاره مستلزمه لانفصال المشار إليه عن المشير حتى تتوسط بينهما الإشاره التى هى إيجاد بعد ما بين المشير و المشار إليه-يبتدئ من الأول و ينتهى إلى الثانى-«و من حده فقد عده»و جعله واحدا عدديا لأن العدد لازم الانقسام و الانعزال الوجودى تعالى الله عن ذلك.

- و فى النهج،:من خطبه له(ع): «الحمد لله الذى لم يسبق له حال حالا-فيكون أولا قبل أن يكون آخرا،و يكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا،كل مسمى بالوحده غيره قليل،و كل عزيز غيره ذليل،و كل قوى غيره ضعيف،و كل مالك غيره مملوك، و كل عالم غيره متعلم،و كل قادر غيره يقدر و يعجز،و كل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات و يصمه كبيرها-و يذهب عنه ما بعد منها،و كل بصير غيره يعمى عن خفى الألوان و لطيف الأجسام،و كل ظاهر غيره باطن،و كل باطن غيره ظاهر».

ص :۹۴

أقول:بنـاء البيـان على كونه تعـالى غير محـدود و كون غيره محـدودا فإن هـذه المعانى و النعوت و كل ما كان من قبيلها إذا طرأ عليها الحـد كانت لها إضافه ما إلى غيرها، و يسـتوجب التحـدد حينئذ أن تنقطع و تزول عما أضـيفت إليه،و تتبدل إلى ما يقابلها من المعنى.

فالظهور إذا فرض محدودا كان بالنسبه إلى جهه أو إلى شيء دون جهه أخرى و شيء آخر،و صار الأمر الظاهر باطنا خفيا بالنسبه إلى تلك الجهه الأخرى و الشـيء الآخر،و العزه إذا أخذت بحد بطلت فيما وراء حدها فكانت ذله بالنسـبه إليه،و القوه إذا كانت مقيده تبدلت بالنسبه إلى ما وراء قيدها ضعفا،و الظهور بطون فى غير محله، و البطون ظهور فى الخارج عن مستواه.

و الملك إذا كان محدودا كان من يحده مهيمنا على هذا المالك؛فهو و ملكه تحت ملك غيره،و العلم إذا كان محدودا لم يكن من صاحبه لأن الشيء لا يحد نفسه،فكان بإفاضه الغير و تعليمه،و هكذا.

و الـدليل على أنه(ع)بنى بيانه على معنى الحـد قوله:«و كل سـميع غيره يصم عن لطيف الأصوات»(إلـخ)،فإنه و ما بعده ظاهر فى الإشاره إلى محدوديه المخلوقات،و السياق واحد.

و أمـا قوله(ع):«و كـل مسـمى بالوحـده غيره قليـل»-و الجمله هى المقصوده من نقـل الخطبه-فبنـاؤه على معنى الحـد ظـاهر فإن الوحـده العـدديه المتفرعه على محـدوديه المسـمى بالواحد لازمه تقسم المعنى و تكثره،و كلما زاد التقسم و التكثر أمعن الواحد فى القله و الضعف بالنسبه إلى الكثره الحادثه،فكل واحد عددى فهو قليل بالنسبه إلى الكثير الذى بإزائه و لو بالفرض.

و أمـا الواحـد الـذى لاـ حـد لمعناه و لا نهايه له فلا يحتمل فرض الكثره لعـدم احتماله طرو الحـد و عروض التميز و لا يشـذ عن وجوده شيء من معناه حتى يكثره و يقوى بضمه،و يقل و يضعف بعزله،بل كلما فرض له ثان فى معناه فإذا هو هو.

- و فى النهـج،:و من خطبه له(ع): «الحمـد لله الـدال على وجوده بخلقه،و بمحدث خلقه على أزليته،و باشـتباههم على أن لا شـبه له،لا يستلمه المشاعر،و لا يحجبه السواتر-

لافتراق الصانع و المصنوع،و الحاد و المحدود،و الرب و المربوب،الأحد لا بتأويل عدد، و الخالق لا بمعنى حركه و نصب،و السميع لا بأداه، و البصير لا بتفريق آله،و الشاهد لا بمماسه،و البائن لا بتراخى مسافه،و الظاهر لا برؤيه،و الباطن لا بلطافه؛بان من الأشياء بالقهر لها و القدره عليها،و بانت الأشياء منه بالخضوع له و الرجوع إليه،من وصفه فقد حده،و من حده فقد عده،و من عده فقد أبطل أزله».

أقول:أول كلامه(ع)مبنى على أن جميع المعانى و الصفات المشهوده فى الممكنات أمور محدوده لا تتم إلا بحاد يحدها و صانع يصنعها،و رب يربها،و هو الله سبحانه،و إذ كان الحد من صنعه فهو متأخر عنه غير لازم له،فقد تنزهت ساحه كبريائه عن هذه الحدود.

و إذا كان كذلک كان ما يوصف به من الصفات غير محدود بحد-و إن كان لفظنا قاصرا عنه،و المعنى غير واف به-فهو تعالى أحد لا بتأويل عدد يقضى بالمحدوديه، و على هذا النهج خلقه و سمعه و بصره و شهوده و غير ذلک.

و من فروع ذلک أن بينونته من خلقه ليس بمعنى الانفصال و الانعزال تعالى عن الاتصال و الانفصال،و الحلول و الانعزال،بل بمعنى قهره لها و قدرته عليها،و خضوعهم و رجوعهم إليه.

- و قوله(ع): «من وصفه فقد حده و من حده،فقد عده-و من عده،فقد أبطل أزله» فرع على إثبات الوحده العدديه إبطال الأزل لأن حقيقه الأزل كونه تعالى غير متناه فى ذاته و صفاته و لا محدود فإذا اعتبر من حيث إنه غير مسبوق بشىء يتقدم عليه كان هو أزله،و إذا اعتبر من حيث إنه غير ملحوق بشىء يتأخر عنه كان هو أبده،و ربما اعتبر من الجانبين فكان دواما.

و أما ما يظهر من عده من الباحثين أن معنى كونه تعالى أزليا أنه سابق متقدم على خلقه المحدث تقدما فى أزمنه غير متناهيه لا خبر فيها عن الخلق و لا أثر منهم فهو من أشنع الخطإ،و أين الزمان الذى هو مقدار حركه المتحركات و المشاركه معه تعالى فى أزله؟!.

- و فى النهج،:و من خطبه له(ع): «الحمد لله خالق العباد،و ساطح المهاد،

و مسبل الوهاد،و مخصب النجاد،ليس لأوليته ابتداء،و لا لأزليته انقضاء،هو الأول لم يزل،و الباقى بلا أجل،خرت له الجباه،و وحدته الشفاه،حد الأشياء عند خلقه لها إبانه له من شبهها،لا تقدره الأوهام بالحدود و الحركات،و لا بالجوارح و الأدوات،لا يقال:متى؟و لا يضرب له أمد بحتى، الظاهر لا يقال:مما؟و الباطن لا يقال:فيما؟لا شبح فيتقضى و لا محجوب فيحوى،لم يقرب من الأشياء بالتصادق، و لم يبعد عنها بافتراق،لا يخفى عليه من عباده شخوص لحظه،و لا كرور لفظه،و لا ازدلاف ربوه،و لا انبساط خطوه فى ليل داج،و لا غسق ساج،يتفيأ عليه القمر المنير،و تعقبه الشمس ذات النور فى الأفول و الكرور-و تقلب الأزمنه و الدهور-من إقبال ليل مقبل و إدبار نهار مدبر،قبل كل غايه و مده،و كل إحصاء و عده،تعالى عما ينحله المحددون من صفات الأقدار،و نهايات الأقطار،و تأثل المساكن،و تمكن الأماكن،فالحد لخلقه مضروب،و إلى غيره منسوب،لم يخلق الأشياء من أصول أزليه،و لا أوائل أبديه بل خلق ما خلق فأقام حده،و صور ما صور فأحسن صورته».

- و فى النهج،:من خطبه له(ع): «ما وحده من كيفه،و لا حقيقته أصاب من مثله،و لا إياه عنى من شبهه،و لا صمده من أشار إليه و توهمه،كل معروف بنفسه مصنوع،و كل قائم فى سواه معلول،فاعل لا باضطراب آله،مقدر لا يحول فكره، غنى لا باستفاده،لا تصحبه الأوقات،و لا ترفده الأدوات،سبق الأوقات كونه، و العدم وجوده،و الابتداء أزله،بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له،و بمضادته بين الأمور عرف أن لا ضد له،و بمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له؛ضاد النور بالظلمه،و الوضوح بالبهمه،و الجمود بالبلل،و الحرور بالصرد،مؤلف بين متعادياتها، مقارن بين متبايناتها،مقرب بين متباعداتها،مفرق بين متدانياتها،لا يشمل بحد، و لا يحسب بعد،و إنما تحد الأدوات أنفسها،و تشير الإله إلى نظائرها،منعتها«منذ» القدمه،و حمتها«قد»الأزليه،و جنبتها«لو لا»التكمله،بها تجلى صانعها للعقول،و بها امتنع عن نظر العيون،لا يجرى عليه السكون و الحركه،و كيف يجرى عليه ما هو أجراه؟و يعود فيه ما هو أبداه؟و يحدث فيه ما هو أحدثه؟إذا لتفاوتت ذاته، و لتجزأ كنهه،و لامتنع من الأزل معناه،و لكان له وراء إذا وجد له أمام،و لالتمس

التمام إذا لزمه النقصان،و إذا لقامت آيه المصنوع فيه،و لتحول دليلا بعد أن كان مدلولا عليه».

أقول:أول كلامه(ع)مسوق لبيان امتناع ذاته المقدسه عن الحد،و لزمه فى جميع ما عداه،و قد تقدم توضيحه الإجمالى فيما تقدم.

و قوله:«لا يشمل بحد و لا يحسب بعد»كالنتيجه لما تقدمه من البيان،و قوله:

«و إنما تحد الأدوات أنفسها،و تشير الإله إلى نظائرها»بمنزله بيان آخر لقوله:«لا يشمل بحد،إلخ»فإن البيان السابق إنما سيق من مسلك أن هذه الحدود المستقره فى المصنوعات مجعوله للذات المتعاليه متأخره عنها تأخر الفعل عن فاعله فلا يمكن أن تتقيد بها الذات إذ كان ذات و لا فعل.

و أما ما فى قوله:«و إنما تحد»«إلخ»،من البيان فهو مسوق من طريق آخر، و هو أن التقدير و التحديد الذى هو شأن هذه الأدوات و الحدود إنما هو بالمسانخه النوعيه كما أن المثقال الذى هو واحد الوزن مثلا توزن به الأثقال دون الألوان و الأصوات مثلا، و الزمان الذى هو مقدار الحركه إنما تحد به الحركات،و الإنسان مثلا إنما يقدر بما له من الوزن الاجتماعى المتوسط مثلا من يماثله فى الإنسانيه،و بالجمله كل حد من هذه الحدود يعطى لمحدوده شبيه معناه،و كل صفه إمكانيه كائنه ما كانت مبنيه على قدر و حد و ملزومه لأمد و نهايه،و كيف يمكن أن يحمل معناها المحدود على ذات أزليه أبديه غير متناهيه؟.

فهذا هو مراده(ع)،و لذلك أردفه بقوله:«منعتها منذ القدمه»«إلخ»، أى صدق كلمه«منذ»و كلمه«قد»الدالتين على الحدوث الزمانى،على الأشياء منعتها و حمتها أن تتصف بالقدمه،و كذلك صدق كلمه«لو لا»فى الأشياء و هى تدل على النقص و اقتران المانع جنبتها و بعدتها أن تكون كامله من كل وجه.

و قوله:«بها تجلى صانعها للعقول و بها امتنع من نظر العيون»الضميران للأشياء أى إن،الأشياء بما هى آيات له تعالى و الآيه لا ترى إلاـ ذا الآيه فهى كالمرائى لا تجلى إلا إياه تعالى فهو بها تجلى للعقول و بها أيضا امتنع عن نظر العيون إذ لا طريق إلى النظر إليه تعالى إلا هذه الآيات و هى محدوده لا تنال إلا مثلها لا ربها المحيط بكل شىء.

و هـذا المعنى بعينه هو الموجب لامتنـاعه عن نظر العيون فإنها آلات مركبه مبنيه على الحـدود لا تعمل إلا فى المحـدود،و جلت ساحه رب العزه عن الحد.

و قوله(ع):«لاـ يجرى عليه السـكون و الحركه»«إلـخ»،بمنزله العود إلى أول الكلاـم ببيان آخر يبين به أن هـذه الأفعال و الحوادث التى هى تنتهى إلى الحركه و السـكون لاـ تجرى عليه،و لاـ تعود فيه و لاـ تحـدث فإنهـا آثـاره التى تترتب على تأثيره فى غيره،و معنى تـأثير المـؤثر تـوجيهه أثره المتفرع على نفسه إلى غيره،و لاـ معنى لتـأثير الشـىء فى نفسه إلاـ بنـوع من التجزى و الـتركيب العـارض لـذاته كالإنسان مثلا يـدبر بنفسه بـدنه،و يضـرب بيـده على رأسه،و الطبيب يـداوى بطبه مرضه، فكل ذلك إنما يصـح لاختلاف فى الأجزاء أو الحيثيات،و لو لا ذلك لامتنع وقوع التأثير.

فالقوه الباصـره مثلا لا تبصـر نفسـها،و النار لا تحرق ذاتها،و هكـذا جميع الفواعل لا تفعل إلا فى غيرها إلا مع التركيب و التجزئه كما عرفت؛و هذا معنى قوله:

«إذا لتفاوتت ذاته،و لتجزأ كنهه،و لامتنع من الأزل معناه»«إلخ».

و قوله(ع):«و إذا لقامت آيه المصـنوع فيه،و لتحول دليلا بعـد أن كان مـدلولا عليه»أى إذا لزمه النقص من تطرق هـذه الحدود و الأقـدار عليه،و النقص من علاـئم المصـنوعيه و أمارات الإمكان كان(تعالى و تقـدس)مقارنا لما يـدل على كونه مصـنوعا و كان نفسـه كسـائر المصـنوعات دليلاـ على موجـود آخر أزلى كامـل الوجـود غير محـدود الـذات هـو الإلـه المنزه عـن كـل نقص مفروض،المتعالى عن أن تناله أيدى الحدود و الأقدار.

و اعلم أن ما يـدل عليه قوله-من كون الدلاله هى من شـئون المصـنوع الممكن- لا ينافى ما يستفاد من سائر كلامه و كلام سائر أئمه أهـل الـبيت(ع):أنه تعـالى معلوم بنفس ذاته،و غيره معلوم به،و أنه دال على ذاته،و هو الـدليل على مخلوقـاته فـإن العلم غير العلم و الـدلاله غير الـدلاله،و أرجو أن يوفقنى الله تعـالى لإيضاحه و بسط الكلام فيه فى بعض ما يرتبط به من الأبحاث الآتيه إن شاء الله العزيز.

- و فى التوحيـد،بإسـناده عـن أبى عبـد الله(ع)قـال: بينـا أمير المـؤمنين(ع) يخطـب على منـبر الكـوفه-إذ قـام إليـه رجـل يقـال له«ذعلب»ذرب اللسان،بليغ فى

الخطاب،شجاع القلب-فقال:یا أمیر المؤمنین هل رأیت ربک؟فقال:ویلک یا ذعلب لم أکن لأعبد ربا لم أره!.

فقال:یا أمیر المؤمنین کیف رأیته؟قال:یا ذعلب لم تره العیون بمشاهده الأبصار،و لکن رأته القلوب بحقائق الإیمان،ویلک یا ذعلب-إن ربی لطیف اللطافه فلا یوصف باللطف،عظیم العظمه لا یوصف بالعظم،کبیر الکبریاء لا یوصف بالکبر، جلیل الجلاله لا یوصف بالغلظ،قبل کل شیء لا یقال شیء قبله،و بعد کل شیء لا یقال له بعد،شاء الأشیاء لا بهمه،دراک لا بخدیعه،هو فی الأشیاء غیر متمازج بها و لا بائن،عنها-ظاهر لا بتأویل المباشره،متجل لا باستهلال رؤیه،بائن لا بمسافه، قریب لا بمداناه،لطیف لا بتجسم،موجود لا بعد عدم،فاعل لا باضطرار،مقدر لا بحرکه،مرید لا بهمامه،سمیع لا بآله،بصیر لا بأداه،لا تحویه الأماکن،و لا تصحبه الأوقات،و لا تحده الصفات،و لا تأخذه السنات،سبق الأوقات کونه، و العدم وجوده،و الابتداء أزله،بتشعیره المشاعر عرف أن لا مشعر له،و بتجهیره الجواهر عرف أن لا جوهر له،و بمضادته بین الأشیاء عرف أن لا ضد له،و بمقارنته بین الأشیاء عرف أن لا قرین له،ضاد النور بالظلمه،و الجسوء بالبلل،و الصرد بالحرور،مؤلف بین متعادیاتها،مفرق بین متدانیاتها،داله بتفریقها علی مفرقها، و بتألیفها علی مؤلفها،و ذلک قوله عز و جل: «وَ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ خَلَقْنٰا زَوْجَیْنِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ » ،ففرق بها بین قبل و بعد لیعلم أن لا قبل له و لا بعد،شاهده بغرائزها أن لا غریزه لمغرزها،مخبره بتوقیتها أن لا وقت لموقتها،حجب بعضها عن بعض لیعلم أن لا حجاب بینه و بین خلقه غیر خلقه،کان ربا و لا مربوب،و إلها إذ لا مألوه،و عالما إذ لا معلوم،و سمیعا إذ لا مسموع.ثم أنشأ یقول:

و لم یزل سیدی بالحمد معروفا

و لم یزل سیدی بالجود موصوفا

و کان إذ لیس نور یستضاء به

و لا ظلام علی الآفاق معکوفا

فربنا بخلاف الخلق کلهم

و کل ما کان فی الأوهام موصوفا

الأبیات.

أقول:و کلامه(ع)-کما تری-مسوق لبیان معنی أحدیه الذات فی جمیع ما یصدق علیه و یرجع إلیه،و أنه تعالی غیر متناهی الذات و لا محدودها،فلا یقابل

ذاته ذات و إلا لهدده بالتحديد و قهره بالتقدير،فهو المحيط بكل شيء،المهيمن على كل أمر،و لا يلحقه صفه تمتاز عن ذاته،فإن فى ذلك بطلان أزليته و عدم محدوديته.

و إن صفته تعالى الكماليه غير محدوده بحد يدفع الغير أو يدفعه الغير كما أن العلم فينا غير القدره لما بينهما من المدافعه مفهوما و مصداقا،و لا تدافع بينهما فيه تعالى،بل الصفه عين الصفه و عين كل صفه من صفاته العليا و الاسم عين كل اسم من أسمائه الحسنى.

بل إن هنالك ما هو ألطف معنى و أبعد غورا من ذلك و هو أن هذه المعانى و المفاهيم للعقل بمنزله الموازين و المكاييل يوزن و يكتال بها الوجود الخارجي و الكون الواقعي؛فهي حدود محدوده لا تنعزل عن هذا الشأن و إن ضممنا بعضها إلى بعض، و استمددنا من أحدها للآخر،لا يغترف بأوعيتها إلا ما يقاربها فى الحد،فإذا فرضنا أمرا غير محدود ثم قصدناه بهذه المقاييس المحدوده لم ننل منه إلا المحدود و هو غيره، و كلما زدنا فى الإمعان فى نيله زاد تعاليا و ابتعادا.

فمفهوم العلم مثلا هو معنى أخذناه من وصف محدود فى الخارج نعده كمالا لما يوجد له،و فى هذا المفهوم من التحديد ما يمنعه أن يشمل القدره و الحياه مثلا،فإذا أطلقناه عليه تعالى ثم عدلنا محدوديته بالتقييد فى نحو قولنا:علم لا كالعلوم فهب أنه يخلص من بعض التحديد لكنه بعد مفهوم لا ينعزل عن شأنه و هو عدم شموله ما وراءه(و لكل مفهوم وراء يقصر عن شموله)و إضافه مفهوم إلى مفهوم آخر لا يؤدى إلى بطلان خاصه المفهوميه،و هو ظاهر.

و هذا هو الذى يحير الإنسان اللبيب فى توصيفه تعالى بما يثبته له لبه و عقله،و هو المستفاد من قوله(ع):«لا تحده الصفات»و من قوله فيما تقدم من خطبته المنقوله:

«و كمال الإخلاص له نفى الصفات عنه»و قوله أيضا فى تلك الخطبه:«الذى ليس لصفته حد محدود،و لا نعت موجود»و أنت ترى أنه(ع)يثبت الصفه فى عين أنه ينفيها أو ينفى حدها،و من المعلوم أن إثباتها هى لا تنفك عن الحد فنفى الحد عنها إسقاط لها بعد إقامتها،و يئول إلى أن إثبات شيء من صفات الكمال فيه لا ينفى ما وراءها فتتحد الصفات بعضها مع بعض ثم تتحد مع الذات و لا حد،ثم لا ينفى ما وراءها مما لا مفهوم لنا نحكى عنه، و لا إدراك لنا يتعلق به فافهم ذلك.

و لو لا أن المفاهيم تسقط عند الإشراف على ساحه عظمته و كبريائه بالمعنى الذى تقدم لأمكن للعقل أن يحيط به بما عنده من المفاهيم العامه المبهمه كوصفه بأنه ذات لا كالذوات،و له علم لا كالعلوم،و قدره لا كقدره غيره،و حياه لا كسائر أقسام الحياه، فإن هذا النحو من الوصف لا يدع شيئا إلا أحصاه و أحاط به إجمالا فهل يمكن أن يحيط به سبحانه شىء؟أو أن الممنوع هو الإحاطه به تفصيلا،و أما الإحاطه الإجماليه فلا بأس بها؟و قد قال تعالى: «وَ لاٰ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً» :طه:١١٠،و قال: «أَلاٰ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ» :حم السجده:٥۴،و الله سبحانه لا يحيط به شىء من جهه من الجهات بنحو من أنحاء الإحاطه،و لا يقبل ذاته المقدسه إجمالا و تفصيلا حتى يتبعض فيكون لإجماله حكم و لتفصيله حكم آخر فافهم ذلك..

- و فى الإحتجاج،عنه(ع)فى خطبه: «دليله آياته،و وجوده إثباته،و معرفته توحيده،و توحيده تمييزه من خلقه،و حكم التمييز بينونه صفه لا بينونه عزله إنه رب خالق،غير مربوب مخلوق،ما تصور فهو بخلافه-ثم قال(ع):ليس بإله من عرف بنفسه،هو الدال بالدليل عليه،و المؤدى بالمعرفه إليه».

أقول:التأمل فيما تقدم يوضح أن الخطبه مسوقه لبيان كون وحدته تعالى وحده غير عدديه لصراحته فى أن معرفته تعالى عين توحيده أى إثبات وجوده عين إثبات وحدته،و لو كانت هذه الوحده عدديه لكانت غير الذات فكانت الذات فى نفسها لا تفى بالوحده إلا بموجب من خارج عن جهه ثبوت الذات.

و هذا من عجيب المنطق و أبلغ البيان فى باب التوحيد الذى يحتاج شرحه إلى مجال وسيع لا يسعه طراز البحث فى هذا الكتاب،و من ألطف المقاصد الموضوعه فيه قوله(ع):«وجوده إثباته»يريد به أن البرهان عليه نفس وجوده الخارجى أى أنه لا يدخل الذهن،و لا يسعه العقل.

قوله:«ما تصور فهو بخلافه»ليس المراد به أنه غير الصوره الذهنيه فإن جميع الأشياء الخارجيه على هذا النعت،بل المراد أنه تعالى بخلاف ما يكشف عنه التصور الذهنى أيا ما كان،فلا يحيط به صوره ذهنيه،و لا ينبغى لك أن تغفل عن أنه أنزه ساحه حتى من هذا التصور أعنى تصور أنه بخلاف كل تصور.

و قوله:«ليس بإله من عرف بنفسه»مسوق لبيان جلالته تعالى عن أن يتعلق

به معرفه،و قهره کل فهم و إدراک؛فإن کل من یتعلق بنفسه معرفتنا هو فی نفسه غیر نفسنا و معرفتنا ثم یتعلق به معرفتنا،لکنه تعالی محیط بنا و بمعرفتنا،قیم علی ذلک فلا معصم تعتصم به أنفسنا و لا معرفتنا عن إحاطه ذاته و شمول سلطانه حتی یتعلق به تعلق منعزل بمنعزل.

و بین(ع)ذلک بقوله:«هو الدال بالدلیل علیه و المؤدی بالمعرفه إلیه»أی أنه تعالی هو الدلیل یدل الدلیل علی أن یدل علیه،و یؤدی المعرفه إلی أن یتعلق به تعالی نوع تعلق لمکان إحاطته تعالی و سلطانه علی کل شیء،فکیف یمکن لشیء أن یهتدی إلی ذاته لیحیط به و هو محیط به و باهتدائه؟.

- و فی المعانی،بإسناده عن عمر بن علی عن علی(ع)قال:قال رسول الله ص:

«التوحید ظاهره فی باطنه،و باطنه فی ظاهره،ظاهره موصوف لا یری،و باطنه موجود لا یخفی،یطلب بکل مکان،و لم یخل عنه مکان طرفه عین،حاضر غیر محدود،و غائب غیر مفقود».

أقول:کلامه(ص)مسوق لبیان وحدته تعالی غیر العددیه المبنیه علی کونه تعالی غیر محدود بحد،فإن عدم المحدودیه هو الموجب لعدم انعزال ظاهر توحیده و توصیفه تعالی عن باطنه،و باطنه عن ظاهره فإن الظاهر و الباطن إنما یتفاوتان و ینعزل کل منهما عن الآخر بالحد فإذا ارتفع الحد اختلطا و اتحدا.

و کذلک الظاهر الموصوف إنما یحاط به،و الباطن الموجود إنما یخفی و یتحجب إذا تحددا فلم یتجاوز کل منهما حده المضروب له،و کذلک الحاضر إنما یکون محدودا مجموعا وجوده عند من حضر عنده،و الغائب یکون مفقودا لمکان المحدودیه،و لو لا ذلک لم یجتمع الحاضر بتمام وجوده عند من حضر عنده،و لم یستر الغائب حجاب الغیبه و لا ساتر دونه عمن غاب عنه،و هو ظاهر.

(بحث تاریخی) [کلام فی معنی التوحید]

القول بأن للعالم صانعا ثم القول بأنه واحد من أقدم المسائل الدائره بین متفکری هذا النوع تهدیه إلیه فطرته المرکوزه فیه،حتی أن الوثنیه المبنیه علی الإشراک،إذا

أمعنا فی حقیقه معناها وجدناها مبنیه علی أساس توحید الصانع،و إثبات شفعاء عنده؛ (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاّ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللّهِ زُلْفىٰ) و إن انحرفت بعد عن مجراها،و آل أمرها إلی إعطاء الاستقلال و الأصاله لآلهه دون الله.

و الفطره الداعیه إلی توحید الإله و إن کانت تدعو إلی إله واحد غیر محدود العظمه و الکبریاء ذاتا و صفه-علی ما تقدم بیانه بالاستفاده من الکتاب العزیز-غیر أن ألفه الإنسان و أنسه فی ظرف حیاته بالآحاد العددیه من جانب،و بلاء الملیین بالوثنیین و الثنویین و غیرهم لنفی تعدد الآلهه من جانب آخر سجل عددیه الوحده و جعل حکم الفطره المذکوره کالمغفول عنه.

و لذلک تری المأثور من کلمات الفلاسفه الباحثین فی مصر القدیم و الیونان و إسکندریه و غیرهم ممن بعدهم یعطی الوحده العددیه حتی صرح بها مثل الرئیس أبی علی بن سینا فی کتاب الشفاء،و علی هذا المجری یجری کلام غیره ممن بعده إلی حدود الألف من الهجره النبویه.

و أما أهل الکلام من الباحثین فاحتجاجاتهم علی التوحید لا تعطی أزید من الوحده العددیه أیضا فی عین أن هذه الحجج مأخوذه من الکتاب العزیز عامه؛فهذا ما یتحصل من کلمات أهل البحث فی هذه المسأله.

فالذی بینه القرآن الکریم من معنی التوحید أول خطوه خطیت فی تعلیم هذه الحقیقه من المعرفه،غیر أن أهل التفسیر و المتعاطین لعلوم القرآن من الصحابه و التابعین ثم الذین یلونهم أهملوا هذا البحث الشریف،فهذه جوامع الحدیث و کتب التفسیر المأثوره منهم لا تری فیها أثرا من هذه الحقیقه لا ببیان شارح،و لا بسلوک استدلالی.

و لم نجد ما یکشف عنها غطاءها إلا ما ورد فی کلام الإمام علی بن أبی طالب علیه أفضل السلام خاصه،فإن کلامه هو الفاتح لبابها،و الرافع لسترها و حجابها علی أهدی سبیل و أوضح طریق من البرهان،ثم ما وقع فی کلام الفلاسفه الإسلامیین بعد الألف الهجری،و قد صرحوا بأنهم إنما استفادوه من کلامه(ع).

و هذا هو السر فی اقتصارنا فی البحث الروائی السابق علی نقل نماذج من غرر کلامه(ع)الرائق،لأن السلوک فی هذه المسأله و شرحها من مسلک الإحتجاج

البرهانی لا یوجد فی کلام غیره(ع).

و لهذا بعینه ترکنا عقد بحث فلسفی مستقل لهذه المسأله فإن البراهین المورده فی هذا الغرض مؤلفه من هذه المقدمات المبینه فی کلامه لا تزید علی ما فی کلامه بشیء، و الجمیع مبنیه علی صرافه الوجود و أحدیه الذات جلت عظمته (۱).

[سوره المائده (۵): الآیات ۸۷ الی ۸۹]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تُحَرِّمُوا طَیِّبٰاتِ مٰا أَحَلَّ اَللّٰهُ لَکُمْ وَ لاٰ تَعْتَدُوا إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ اَلْمُعْتَدِینَ (۸۷) وَ کُلُوا مِمّٰا رَزَقَکُمُ اَللّٰهُ حَلاٰلاً طَیِّباً وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ اَلَّذِی أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۸۸) لاٰ یُؤٰاخِذُکُمُ اَللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِی أَیْمٰانِکُمْ وَ لٰکِنْ یُؤٰاخِذُکُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ اَلْأَیْمٰانَ فَکَفّٰارَتُهُ إِطْعٰامُ عَشَرَهِ مَسٰاکِینَ مِنْ أَوْسَطِ مٰا تُطْعِمُونَ أَهْلِیکُمْ أَوْ کِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِیرُ رَقَبَهٍ فَمَنْ لَمْ یَجِدْ فَصِیٰامُ ثَلاٰثَهِ أَیّٰامٍ ذٰلِکَ کَفّٰارَهُ أَیْمٰانِکُمْ إِذٰا حَلَفْتُمْ وَ اِحْفَظُوا أَیْمٰانَکُمْ کَذٰلِکَ یُبَیِّنُ اَللّٰهُ لَکُمْ آیٰاتِهِ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۸۹)

ص: ۱۰۵

۱- ۱) و للناقد البصیر و المتدبر أن یقضی عجبا من ما صدر من الهفوه من عده من العلماء الباحثین حیث ذکروا أن هذه الخطب العلویه الموضوعه فی نهج البلاغه موضوعه دخیله،و قد ذکر بعضهم أنها من وضع الشریف الرضی رحمه الله،و قد تقدم الکلام فی أطراف هذه السقطه. و لیت شعری کیف یسع للوضع و الدس أن یتسرب إلی موقف علمی دقیق لم یقو بالوقوف علیه أفهام العلماء حتی بعد ما فتح ع بابه و رفع ستره قرونا متمادیه إلی أن وفق لفهمه بعد ما سیر فی طریق الفکر المترقی مسیر ألف سنه،و لا أطاق حمله غیره من الصحابه و لا التابعون،بل کلام هؤلاء الرامین بالوضع ینادی بأعلی صوته أنهم کانوا یظنون أن الحقائق القرآنیه و الأصول العالیه العلمیه لیست إلا مفاهیم مبتذله عامیه و إنما تتفاضل باللفظ الفصیح و البیان البلیغ.

(بیان)

الآيات الثلاثه و عـده من الآيات الواقعه بعـدها إلى بضع و مائه من آيات السوره آيات مبينه لعده من فروع الأحكام،و هى جميعا كـالمتخلله بين الآيـات المتعرضه لقصـص المسـيح(ع)و النصـارى،و هى لكونهـا طوائف متفرقه نازله فى أحكام متنوعه كل منها ذات اسـتقلال و تمـام فى مـا تقصـده من المعنى يشـكل القضاء كونها نزلت دفعه أو صاحبت بقيه آيات السوره فى النزول إذ لا شاهد يشهد بذلك من مضامينها،و أما ما ورد من أسباب النزول فسيأتى بعض ما هو العمده منها فى البحث الروائى.

و كذلك القول فى هذه الآيات الثلاث المبحوث عنها فإن الآيه الثالثه مستقله فى معناها،و تستقل عنها الآيه الأولى و إن لم تخلو من نوع من المناسبه فبينهمـا بعض الارتبـاط من جهه أن من جمله مصـاديق لغو اليمين أن تتعلق بتحريم بعض الطيبات مما أحله الله تعالى، و لعل هذا هو الداعى لمن نقل عنه فى أسباب النزول أنه ذكر نزول الآيات جميعا فى اليمين اللاغيه.

هذا حال الآيه الأولى مع الثالثه،و أما الآيه الثانيه فكأنها من تمام الآيه الأولى كما يشـهد به بعض الشـهاده ذيلها أعنى قوله تعالى: «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِی أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ » بـل و صـدرها حيث يشـتمل على العطف،و على الأـمر بأكـل الحلال الطيب الـذى تنهى الآيه الأولى عن تحريمه و اجتنابه،و بذلك تلتئم الآيتان معنى و تتحدان حكما ذواتى سياق واحد.

قوله تعـالى: «یٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُحَرِّمُوا طَيِّبٰاتِ مٰا أَحَلَّ اللّٰهُ لَكُمْ » ،قال الراغب فى المفردات: الحرام الممنوع منه إما بتسـخير إلهى،و إما بمنع قهرى،و إما بمنع من جهه العقل أو جهه الشرع أو من جهه من يرتسم أمره،انتهى موضع الحاجه.

و قال أيضا:أصل الحل حل العقـده،و منه قوله عز و جل: «وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسٰانِی » ،و حللت:نزلت،أصـله من حل الأحمال عند النزول ثم جرد استعماله للنزول فقيل:حل حلولا و أحله غيره،قال عز و جل: «أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دٰارِهِمْ ، وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ الْبَوٰارِ » ،و يقـال:حـل الـدين وجب أداؤه،و الحلـه القـوم النـازلون و حى حلاـل مثلـه،و المحله مكـان النزول،و عن حـل العقـده أسـتعير قولهم:حل الشىء حلا

قال الله تعالى: «وَ كُلُوا مِمّا رَزَقَكَمُ اللّهُ حَلاٰلاً طَيِّباً » ،و قال تعالى: «هٰذٰا حَلاٰلٌ وَ هٰذٰا حَرٰامٌ » ،انتهى.

فالظاهر أن مقابله الحل الحرمه و كـذا التقابل بين الحل و الحرم أو الإحرام من جهه تخيل العقـد فى المنع الذى هو معنى الحرمه و غيرهـا ثم مقابلته بالحل المسـتعار لمعنى الجواز و الإباحه،و اللفظان أعنى الحل و الحرمه من الحقائق العرفيه قبل الإسـلام دون الشرعيه أو المتشرعه.

و الآيه أعنى قوله: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُحَرِّمُوا » «إلخ»،تنهى المؤمنين عن تحريم ما أحل الله لهم و تحريم،ما أحل الله هو جعله حرامـا كما جعله الله تعالى حلالا و ذلک إما بتشـريع قبال تشـريع،و إما بالمنع أو الامتناع بأن يترک شـيئا من المحللات بالامتناع عن إتيانه أو منع نفسه أو غيره من ذلک فإن ذلک كله تحريم و منع و منازعه لله سـبحانه فى سـلطانه و اعتداء عليه ينافى الإيمان بالله و آياته،و لذلک صدر النهى بقوله:

«يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا »

فإن المعنى:لا تحرموا ما أحل الله لكم و قد آمنتم به و سلمتم لأمره.

و يؤيده أيضا قوله فى ذيل الآيه التاليه: «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ » .

و إضـافه قوله: «طَيِّبٰاتِ » إلى قوله: «مٰا أَحَلَّ اللّٰهُ لَكُمْ » -مع أن الكلاـم تـام بـدونه-للإشـاره إلى تتميم سـبب النهى فـإن تحريم المؤمنين لمـا أحـل الله لهم على أنه اعتـداء منهم على الله فى سـلطانه،و نقض لإيمانهم بالله و تسـليمهم لأمره كـذلک هو خروج منهم عن حكم الفطره،فإن الفطره تسـتطيب هـذه المحللات من غير اسـتخباث،و قـد أخبر الله سـبحانه عن ذلک فيما نعت به نبيه ص و الشريعه التى جاء بها حيث قال:

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرٰاهِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهٰاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبٰاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبٰائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلاٰلَ الَّتِى كٰانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» :الأعراف:۱۵۷.

و بهذا الذى بينا يتأيد أولا:أن المراد بتحريم طيبات ما أحل الله هو الإلزام و الالتزام بترک المحللات.

و ثانيا:أن المراد بالحل مقابل الحرمه و يعم المباحات و المستحبات بل و الواجبات

قضاء لحق المقابله.

و ثالثا:أن إضافه الطيبات إلى ما أحل الله فى قوله: «طَيِّباتِ مٰا أَحَلَّ اللّٰهُ لَكُمْ » إضافه بيانيه.

و رابعا:أن المراد بالاعتداء فى قوله: «وَ لاٰ تَعْتَدُوا » هو الاعتداء على الله سبحانه فى سلطانه التشريعى،أو التعدى عن حدود الله بالانخلاع عن طاعته و التسليم له و تحريم ما أحله كما قال تعالى فى ذيل آيه الطلاق: «تِلْكَ حُدُودُ اللّٰهِ فَلاٰ تَعْتَدُوهٰا وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّٰهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ» :البقره:۲۲۹،و قوله فى ذيل آيات الإرث: «تِلْكَ حُدُودُ اللّٰهِ وَ مَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَ مَنْ يَعْصِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نٰاراً خٰالِداً فِيهٰا وَ لَهُ عَذٰابٌ مُهِينٌ» :النساء:۱۴،و الآيات-كما ترى-تعد الاستقامه و الالتزام بما شرعه الله طاعه له تعالى و لرسوله ممدوحه،و الخروج عن التسليم و الالتزام و الانقياد اعتداء و تعديا لحدود الله مذموما معاقبا عليه.

فمحصل مفاد الآيه النهى عن تحريم ما أحله الله بالاجتناب عنه و الامتناع من الاقتراب منه فإنه يناقض الإيمان بالله و آياته و يخالف كون هذه المحللات طيبات لا خباثه فيها حتى يجتنب عنها لأجلها،و هو اعتداء و الله لا يحب المعتدين.

قوله تعالى: «وَ لاٰ تَعْتَدُوا إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » قد عرفت أن ظاهر السياق أن المراد بالاعتداء هو التحريم المذكور فى الجمله السابقه عليه فقوله: «وَ لاٰ تَعْتَدُوا » يجرى مجرى التأكيد لقوله: «لاٰ تُحَرِّمُوا ،إلخ».

و أما ما ذكره بعضهم:أن المراد بالاعتداء تجاوز حد الاعتدال فى المحللات بالانكباب على التمتع بها و لاستلذاذ منها قبال تركها و اجتناب تناولها تقشفا و ترهبا فيكون معنى الآيه:لا تحرموا على أنفسكم ما أحل الله لكم من الطيبات المستلذه بأن تتعمدوا ترك التمتع بها تنسكا و تقربا إليه تعالى،و لا تعتدوا بتجاوز حد الاعتدال إلى الإسراف و الإفراط الضار بأبدانكم أو نفوسكم.

أو أن المراد بالاعتداء تجاوز المحللات الطيبه إلى الخبائث المحرمه،و يعود المعنى إلى أن لا تجتنبوا المحللات و لا تقترفوا المحرمات،و بعباره أخرى:لا تحرموا ما أحل

الله لكم،و لا تحللوا ما حرم الله عليكم.

فكل من المعنيين و إن كان فی نفسه صحيحا يدل عليه الكتاب بما لا غبار عليه لكن شيئا منهما لا ينطبق على الآيه بظاهر سياقها و سياق ما يتلوها من الآيه اللاحقه فما كل معنى صحيح يمكن تحميله على كل لفظ كيفما سيق و أينما وقع.

قوله تعالى: «وَ كُلُوا مِمّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلالاً طَيِّباً » إلى آخر الآيه،ظاهر العطف أعنى انعطاف قوله: «وَ كُلُوا » على قوله: «لا تُحَرِّمُوا » أن يكون مفاد هذه الآيه بمنزله التكرار و التأكيد لمضمون الآيه السابقه،و يؤيده سياق صدر الآيه من حيث اشتماله على قوله: «حَلالاً طَيِّباً » ،و هو يحاذی قوله فی الآيه السابقه: «طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللّهُ » ،و كذا ذيلها من حيث المحاذاه الواقعه بين قوله فيه: «وَ اتَّقُوا اللّهَ الَّذِی أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ » و قوله فی الآيه السابقه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » و قد مر بيانه.

و على هذا فقوله: «كُلُوا » «إلخ»،من قبيل ورود الأمر عقيب الحظر،و تخصيص قوله: «كُلُوا » بعد تعميم قوله: «لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ » «إلخ»،إما تخصيص بحسب اللفظ فقط،و المراد بالأكل مطلق التصرف فيما رزقه الله تعالى من طيبات نعمه،سواء كان بالأكل بمعنى التغذی أو بسائر وجوه التصرف،و قد تقدم مرارا أن استعمال الأكل بمعنى مطلق التصرف استعمال شائع ذائع.

و إما أن يكون المراد-و من الممكن ذلك-الأكل بمعناه الحقيقی،و يكون سبب نزول الآيتين تحريم بعض المؤمنين فی زمن النزول المأكولات الطيبه على أنفسهم فتكون الآيتان نازلتين فی النهی عن ذلك،و قد عمم النهی فی الآيه الأولى للأكل و غيره إعطاء للقاعده الكليه لكون ملاك النهی يعم محللات الأكل و غيرها على حد سواء.

و قوله: «مِمّا رَزَقَكُمُ اللّهُ » لازم ما استظهرناه من معنى الآيتين كونه مفعولا لقوله: «كُلُوا » و قوله: «حَلالاً طَيِّباً » حالين من الموصول و بذلك تتوافق الآيتان، و ربما قيل:إن قوله: «حَلالاً طَيِّباً » مفعول قوله: «كُلُوا » و قوله: «مِمّا رَزَقَكُمُ اللّهُ » متعلق بقوله: «كُلُوا » أو حال من الحلال قدم عليه لكونه نكره،أو كون قوله:

«حَلالاً »

وصفا لمصدر محذوف،و التقدير:رزقا حلالا طيبا إلى غير ذلك.

و ربما استدل بعضهم بقوله: «حَلالاً » على أن الرزق يشمل الحلال و الحرام

معا و إلا لغا القيد.

و الجواب:أنه ليس قيدا احترازيا لإخراج ما هو رزق غير حلال و لا طيب بل قيد توضيحى مساو لمقيده،و النكته فى الإتيان به بيان أن كونه حلالا طيبا لا يدع عذرا لمعتذر فى الاجتناب و الكف عنه على ما تقدم،و قد تقدم الكلام فى معنى الرزق فى ذيل الآيه ۲۷ من سوره آل عمران فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.

قوله تعالى: «لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمٰانِكُمْ وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمٰانَ » اللغو ما لا يترتب عليه أثر من الأعمال،و الأيمان جمع يمين و هو القسم و الحلف؛قال الراغب فى المفردات:و اليمين فى الحلف مستعار من اليد اعتبارا بما يفعله المعاهد و المحالف و غيره،قال تعالى: «أَمْ لَكُمْ أَيْمٰانٌ عَلَيْنٰا بٰالِغَةٌ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ ، وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ ، لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمٰانِكُمْ » انتهى،و التعقيد مبالغه فى العقد و قرئ:عقدتم بالتخفيف،و قوله: «فِي أَيْمٰانِكُمْ » متعلق بقوله: «لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ » أو بقوله: «بِاللَّغْوِ » و هو أقرب.

و التقابل الواقع بين قوله: «بِاللَّغْوِ فِي أَيْمٰانِكُمْ » و قوله: «بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمٰانَ » يعطى أن المراد باللغو فى الأيمان ما لا يعقد عليه الحالف،و إنما يجرى على لسانه جريا لعاده اعتادها أو لغيرها و هو قولهم-و خاصه فى قبيل البيع و الشرى-:لا و الله،بلى و الله،بخلاف ما عقد عليه عقدا بالالتزام بفعل أو ترك كقول القائل:و الله لأفعلن كذا، و و الله لأتركن كذا.

هذا هو الظاهر من الآيه،و لا ينافى ذلک أن يعد شرعا قول القائل:و الله لأفعلن المحرم الفلانى،و الله لأتركن الواجب الفلانى مثلا من لغو اليمين لكون الشارع ألغى اليمين فيما لا رجحان فيه،فإنما هو إلحاق من جهه السنه،و ليس من الواجب أن يدل القرآن على خصوص كل ما ثبت بالسنه بخصوصه.

و أما قوله: «وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمٰانَ » فلا يشمل إلا اليمين الممضاه شرعا لمكان قوله فى ذيل الآيه: «وَ احْفَظُوا أَيْمٰانَكُمْ » فإنه لا مناص عن شموله لهذه الأيمان بحسب إطلاق لفظه،و لا معنى للأمر بحفظ الأيمان التى ألغى الله سبحانه اعتبارها فالمتعين أن اللغو من الأيمان فى الآيه ما لا عقد فيه،و ما عقد عليه هو اليمين الممضاه.

قوله تعالی: «فَکَفّارَتُهُ إِطْعٰامُ عَشَرَهِ مَسٰاکِینَ -إلی قوله- أَوْ تَحْرِیرُ رَقَبَهٍ ، الکفاره هی العمل الذی یستر به مساءه المعصیه بوجه،من الکفر بمعنی الستر،قال تعالی: «نُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئٰاتِکُمْ» :النساء:۳۱،قال الراغب:و الکفاره ما یغطی الإثم و منه کفاره الیمین،انتهی.

و قوله: «فَکَفّٰارَتُهُ » تفریع علی الیمین باعتبار مقدر هو نحو من قولنا:فإن حنثتم فکفارته کذا،و ذلک لأن فی لفظ الکفاره دلاله علی معصیه تتعلق به الکفاره،و لیست هذه المعصیه هی نفس الیمین،و لو کان کذلک لم یورد فی ذیل الآیه قوله: «وَ احْفَظُوا أَیْمٰانَکُمْ » إذ لا معنی لحفظ ما فیه معصیه فالکفاره إنما تتعلق بحنث الیمین لا بنفسها.

و منه یظهر أن المؤاخذه المذکوره فی قوله: «وَ لٰکِنْ یُؤٰاخِذُکُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَیْمٰانَ » هی المؤاخذه علی حنث الیمین لا علی نفس إیقاعها،و إنما أضیفت إلی الیمین لتعلق متعلقها-أعنی الحنث-بها،فقوله: «فَکَفّٰارَتُهُ » متفرع علی الحنث المقدر لدلاله قوله: «یُؤٰاخِذُکُمْ ،إلخ،علیه،و نظیر هذا البیان جار فی قوله: «ذٰلِکَ کَفّارَهُ أَیْمٰانِکُمْ إِذٰا حَلَفْتُمْ » و تقدیره:إذا حلفتم و حنثتم.

و قوله: «إِطْعٰامُ عَشَرَهِ مَسٰاکِینَ مِنْ أَوْسَطِ مٰا تُطْعِمُونَ أَهْلِیکُمْ أَوْ کِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِیرُ رَقَبَهٍ » خصال ثلاث یدل التردید علی تعیین إحداها عند الحنث من غیر جمع،و یدل قوله بعده: «فَمَنْ لَمْ یَجِدْ فَصِیٰامُ ثَلاٰثَهِ أَیّٰامٍ » علی کون الخصال المذکوره تخییریه من غیر لزوم مراعاه الترتیب الواقع بینها فی الذکر،و إلا لغا التفریع فی قوله: «فَمَنْ لَمْ یَجِدْ » «إلخ»،و کان المتعین بحسب اقتضاء السیاق أن یقال:أو صیام ثلاثه أیام.

و فی الآیه أبحاث فرعیه کثیره مرجعها علم الفقه.

قوله تعالی: «ذٰلِکَ کَفّارَهُ أَیْمٰانِکُمْ إِذٰا حَلَفْتُمْ » تقدم أن الکلام فی تقدیر:إذا حلفتم و حنثتم،و فی قوله: «ذٰلِکَ کَفّارَهُ أَیْمٰانِکُمْ » و کذا فی قوله: «کَذٰلِکَ یُبَیِّنُ اللّٰهُ لَکُمْ » نوع التفات و رجوع من خطاب المؤمنین إلی خطاب النبی ص،و لعل النکته فیه أن الجملتین جمیعا من البیان الإلهی للناس إنما هو بوساطه النبی ص فکان فی ذلک حفظا لمقامه(ص)فی بیان ما أوحی إلیه للناس کما قال تعالی: «وَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الذِّکْرَ

لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ مٰا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» :النحل:۴۴.

قوله تعالى: «كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ آيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى يبين لكم بواسطه نبيه أحكامه لعلكم تشكرونه بتعلمها و العمل بها.

(بحث روائى)

- فى تفسير القمى،:فى قوله تعالى: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا-لاٰ تُحَرِّمُوا طَيِّبٰاتِ مٰا أَحَلَّ اللّٰهُ لَكُمْ » (الآيه)،:قال حدثنى أبى عن ابن أبى عمير،عن بعض رجاله،عن أبى عبد الله(ع)قال: نزلت هذه الآيه فى أمير المؤمنين(ع)-و بلال و عثمان بن مظعون- فأما أمير المؤمنين(ع)فحلف أن لا ينام بالليل أبدا،و أما بلال فإنه حلف أن لا يفطر بالنهار أبدا،و أما عثمان بن مظعون فإنه حلف أن لا ينكح أبدا.

فدخلت امرأه عثمان على عائشه، و كانت امرأه جميله فقالت عائشه:ما لى أراك متعطله؟فقالت:و لمن أتزين؟فوالله ما قربنى زوجتى منذ كذا و كذا-فإنه قد ترهب و لبس المسوح و زهد فى الدنيا.

فلما دخل رسول الله ص أخبرته عائشه بذلك-فخرج فنادى الصلاه جامعه- فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله و أثنى عليه،ثم قال:ما بال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات؟ألا إنى أنام بالليل و أنكح و أفطر بالنهار،فمن رغب عن سنتى فليس منى.

فقاموا هؤلاء فقالوا:يا رسول الله-فقد حلفنا على ذلك فأنزل الله عليه:

«لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمٰانِكُمْ-وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمٰانَ-فَكَفّٰارَتُهُ إِطْعٰامُ عَشَرَهِ مَسٰاكِينَ-مِنْ أَوْسَطِ مٰا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ-أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَهٍ-فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيٰامُ ثَلاٰثَهِ أَيّٰامٍ-ذٰلِكَ كَفّٰارَهُ أَيْمٰانِكُمْ إِذٰا حَلَفْتُمْ »

.

أقول:و فى انطباق قوله تعالى: «لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمٰانِكُمْ وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمٰانَ » (الآيه)،على حلفهم خفاء،و قد تقدم بعض الكلام فيه،و قد روى الطبرسى فى مجمع البيان،القصه عن أبى عبد الله(ع)و لم يذكر الذيل فليتأمل فيه.

- و فى الإحتجاج،عن الحسن بن على(ع)فى حديث: أنه قال لمعاويه و أصحابه:

أنشدکم بالله-أ تعلمون أن علیا أول من حرم الشهوات علی نفسه-من أصحاب رسول الله ص فأنزل الله: «یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تُحَرِّمُوا طَیِّبٰاتِ مٰا أَحَلَّ اَللّٰهُ لَکُمْ » .

- و فی المجمع،فی الآیه:قال المفسرون: جلس رسول الله ص یوما فذکر الناس- و وصف القیامه فرق الناس و بکوا- و اجتمع عشره من الصحابه-فی بیت عثمان بن مظعون الجمحی،و هم علی و أبو بکر و عبد الله بن مسعود-و أبو ذر الغفاری و سالم مولی أبی حذیفه- و عبد الله بن عمر و المقداد بن الأسود الکندی-و سلمان الفارسی و معقل بن مقرن،و اتفقوا علی أن یصوموا النهار،و یقوموا اللیل،و لا یناموا علی الفرش،و لا یأکلوا اللحم و لا الودک،و لا یقربوا النساء و الطیب،و یلبسوا المسوح،و یرفضوا الدنیا،و یسیحوا فی الأرض،و هم بعضهم أن یجب مذاکیره.

فبلغ ذلک رسول الله ص فأتی دار عثمان فلم یصادفه-فقال لامرأته أم حکیم بنت أبی أمیه-و اسمها حولاء و کانت عطاره-:أ حق ما بلغنی عن زوجک و أصحابه؟فکرهت أن تکذب رسول الله ص-و کرهت أن تبدی علی زوجها- فقالت:یا رسول الله إن کان أخبرک عثمان فقد صدقک-فانصرف رسول الله ص فلما دخل عثمان أخبرته بذلک.

فأتی رسول الله ص هو و أصحابه-فقال لهم رسول الله ص:أ لم أنبئکم أنکم اتفقتم علی کذا و کذا؟قالوا:بلی یا رسول الله و ما أردنا إلا الخیر،فقال رسول الله ص:إنی لم أومر بذلک،ثم قال:إن لأنفسکم علیکم حقا فصوموا و أفطروا، و قوموا و ناموا فإنی أقوم و أنام و أصوم و أفطر-و آکل اللحم و الدسم و آتی النساء، و من رغب عن سنتی فلیس منی.

ثم جمع الناس و خطبهم و قال:ما بال أقوام حرموا النساء و الطعام و الطیب- و النوم و شهوات الدنیا-أما إنی لست آمرکم أن تکونوا قسیسین و رهبانا-فإنه لیس فی دینی ترک اللحم-و لا النساء و لا اتخاذ الصوامع،و إن سیاحه أمتی الصوم،و رهبانیتهم الجهاد، اعبدوا الله و لا تشرکوا به شیئا،و حجوا،و اعتمروا،و أقیموا الصلاه، و آتوا الزکاه،و صوموا رمضان،و استقیموا یستقم لکم-فإنما هلک من کان قبلکم

بالتشدید-شددوا علی أنفسهم فشدد الله علیهم-فأولئک بقایاهم فی الدیارات و الصوامع- فأنزل الله الآیه.

أقول:و یظهر بالرجوع إلی روایات القوم أن هـذه الروایه إنما هی تلخیص للروایات المرویه فی هـذا الباب،و هی کثیره جـدا فقد أوردها بالجمع بین شتات مضامینها بإدخال بعضها فی بعض،و سبکها روایه واحده.

و أما نفس هذه الروایات علی کثرتها فلم یجتمع أسـماء هؤلاء الصـحابه فی واحده منها بل ذکر الأجمع منها لفظا هؤلاء الصحابه بلفظ عثمان بن مظعون و أصحابه؛و فی بعضها أناس من أصحاب النبی ص،و فی بعضها رجال من أصحاب النبی ص.

و کذلک ما وقع فی هذه الروایه من قول النبی ص و خطبته علی تفصیلها متفرقه الجمل فی الروایات،و کذلک الذی عقدوا علیه و هموا به من التروک لم تصرح الروایات بأنهم اتفقوا جمیعهم علی جمیعها بل صرح بعض الروایات باختلافهم فیما هموا به أو عقدوا علیه

- کما فی صحیح البخاری و مسلم عن عائشه: إن ناسا من أصحاب النبی ص سألوا أزواج النبی ص-عن عمله فی السر-فقال بعضهم:لا آکل اللحم،و قال بعضهم:لا أتزوج النساء،و قال بعضهم:لا أنام علی فراش-فبلغ ذلک النبی ص فقال:ما بال أقوام یقول أحدهم کذا و کذا؟لکنی أصوم و أفطر،و أنام و أقوم،و آکل اللحم، و أتزوج النساء-فمن رغب عن سنتی فلیس منی.

و لعل المراد بقوله فی الروایه:و اتفقوا علی أن یصوموا النهار«إلخ»،أن المجموع اتفقوا علی المجموع لا أن کل واحد منهم عزم علی الجمیع.و الروایات و إن کانت مختلفه فی مضامینها،و فیها الضعیف و المرسل و المعتبر لکن التأمل فی جمیعها یوجب الوثوق بأن رهطا من الصحابه عزموا علی هذا النوع من التزهد و التنسک،و أنه کان فیهم علی(ع)و عثمان بن مظعون،و أن النبی ص قال لهم:من رغب عن سنتی فلیس منی،و الله أعلم،فعلیک بالرجوع إلی التفاسیر الروائیه کتفسیر الطبری و الدر المنثور و فتح القدیر و أمثالها.

- و فی الدر المنثور،:أخرج الترمذی و حسنه و ابن جریر و ابن أبی حاتم و ابن عدی فی الکامل و الطبرانی و ابن مردویه عن ابن عباس": أن رجلا أتی النبی ص فقال:

یا رسول الله-إنی إذا أكلت اللحم-انتشرت للنساء و أخذتنی شهوتی،و إنی حرمت علی اللحم فنزلت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا-لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ » .

- و فيه،:أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عن زيد بن أسلم: أن عبد الله بن رواحه ضافه ضيف من أهله-و هو عند النبی ص-ثم رجع إلی أهله فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظارا له،فقال لامرأته:حبست ضيفی من أجلی هو حرام علی، فقالت امرأته:

هو علی حرام،قال الضيف:هو علی حرام،فلما رأی ذلک وضع يده و قال:كلوا بسم الله،ثم ذهب إلی النبی ص فأخبره،فقال النبی:ص قد أصبت فأنزل الله:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا-لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ »

.

أقول:من الممكن أن يكون السببان المذكوران فی الروايتين الأخيرتين من تطبيق الرواه،و هو شائع فی روايات أسباب النزول،و من الممكن أن يقع لنزول الآيه أسباب عديده.

- و فی تفسير العياشی،عن عبد الله بن سنان قال: سألته عن رجل قال لامرأته:

طالق،أو مماليكه أحرار إن شربت حراما و لا حلالا-فقال:أما الحرام فلا يقربه حلف أو لم يحلف،و أما الحلال فلا يتركه-فإنه ليس أن يحرم ما أحل الله-لأن الله يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا-لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ » -فليس عليه شیء فی يمينه من الحلال.

- و فی الكافی،بإسناده عن مسعده بن صدقه عن أبی عبد الله(ع)قال:سمعته يقول فی قول الله عز و جل: «لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ » -قال:«اللغو»قول الرجل:«لا و الله،و بلی و الله»و لا يعقد علی شیء:.

أقول:و روی العياشی فی تفسيره عن عبد الله بن سنان مثله،و عن محمد بن مسلم مثله و فيه: و لا يعقد عليها.

- و فی الدر المنثور،:أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: لما نزلت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا-لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ » -فی القوم الذين حرموا النساء و اللحم علی أنفسهم-قالوا:يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التی حلفنا عليها؟فأنزل الله: «لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ » .

ص:١١٥

أقول:و الروایه تشاکل ذیل الروایه الأولی التی أوردناها فی صدر البحث غیر أنها لا تنطبق علی ظاهر الآیه فإن الحلف علی ترک واجب أو مباح لا یخلو من عقد علیه، و قد قوبل فی الآیه قوله: «بِاللَّغْوِ فِی أَیْمٰانِکُمْ » بقوله: «بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَیْمٰانَ » و دل ذلک علی کون اللغو من الیمین ما لا عقد علیه،و هذا الظاهر إنما یوافق الروایه المفسره للغو الیمین بقول القائل:لا و الله،و بلی و الله،من غیر أن یعقد علی شیء،و أما الیمین الملغاه شرعا ففیها عقد علی ما حلف علیه فالمتعین أن یستند إلغاؤه إلی السنه دون الکتاب.

علی أن سیاق الآیه أدل دلیل علی أنها مسوقه لبیان کفاره الیمین و الأمر بحفظها استقلالا لا علی نحو التطفل کما هو لازم هذا التفسیر.

[سوره المائده (۵): الآیات ۹۰ الی ۹۳]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنَّمَا اَلْخَمْرُ وَ اَلْمَیْسِرُ وَ اَلْأَنْصٰابُ وَ اَلْأَزْلاٰمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ اَلشَّیْطٰانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۹۰) إِنَّمٰا یُرِیدُ اَلشَّیْطٰانُ أَنْ یُوقِعَ بَیْنَکُمُ اَلْعَدٰاوَهَ وَ اَلْبَغْضٰاءَ فِی اَلْخَمْرِ وَ اَلْمَیْسِرِ وَ یَصُدَّکُمْ عَنْ ذِکْرِ اَللّٰهِ وَ عَنِ اَلصَّلاٰهِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (۹۱) وَ أَطِیعُوا اَللّٰهَ وَ أَطِیعُوا اَلرَّسُولَ وَ اِحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمٰا عَلیٰ رَسُولِنَا اَلْبَلاٰغُ اَلْمُبِینُ (۹۲) لَیْسَ عَلَی اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ جُنٰاحٌ فِیمٰا طَعِمُوا إِذٰا مَا اِتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ ثُمَّ اِتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اِتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اَللّٰهُ یُحِبُّ اَلْمُحْسِنِینَ (۹۳)

(بیان)

الآیات متلائمه سیاقا فکأنها نزلت دفعه أو هی متقاربه نزولا،و الآیه الأخیره بمنزله دفع الدخل علی ما سنبینه تفصیلا،فهی جمیعا تتعرض لحال الخمر،و بعضها

يضيف إليها الميسر و الأنصاب و الأزلام.

و قد تقدم فى قوله تعالى: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا» :البقره-۲۱۹،فى الجزء الأول،و فى قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَ أَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ» :النساء-۴۳ فى الجزء الرابع من هذا الكتاب أن هاتين الآيتين مع قوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَنَ وَ الْإِثْمَ» :الأعراف:۳۳،و هذه الآيه المبحوث عنها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصَابُ وَ الْأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ -إلى قوله- فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » إذا انضم بعضها إلى بعض دلت سياقاتها المختلفه على تدرج الشارع فى تحريم الخمر.

لكن لا بمعنى السلوك التدريجى فى تحريمها من تنزيه و إعافه إلى كراهيه إلى تحريم صريح حتى ينتج معنى النسخ،أو من إبهام فى البيان إلى إيضاح أو كنايه خفيه إلى تصريح لمصلحه السياسه الدينيه فى إجراء الأحكام الشرعيه فإن قوله تعالى: وَ الْإِثْمَ آيه مكيه فى سوره الأعراف إذا انضم إلى قوله تعالى: «قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ » و هى آيه مدنيه واقعه فى سوره البقره أول سوره مفصله نزلت بعد الهجره أنتج ذلك حرمه الخمر إنتاجا صريحا لا يدع عذرا لمعتذر،و لا مجالا لمتأول.

بل بمعنى أن الآيات تدرجت فى النهى عنها بالتحريم على وجه عام و ذلك قوله تعالى: «وَ الْإِثْمَ » ،ثم بالتحريم الخاص فى صوره النصيحه و ذلك قوله: «قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » ،و قوله: «لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَ أَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » إن كانت الآيه ناظره إلى سكر الخمر لا إلى سكر النوم،ثم بالتحريم الخاص بالتشديد البالغ الذى يدل عليه قوله: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصَابُ وَ الْأَزْلاَمُ رِجْسٌ -إلى قوله- فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » الآيتان.

فهذه الآيات آخر ما نزل فى تحريم الخمر يدل على ذلك أقسام التأكيد المودعه فيها من «إِنَّمَا » و التسميه بالرجس،و نسبته إلى عمل الشيطان،و الأمر الصريح بالاجتناب، و توقع الفلاح فيه،و بيان المفاسد التى تترتب على شربها،و الاستفهام عن الانتهاء،ثم الأمر بإطاعه الله و رسوله و التحذير عن المخالفه،و الاستغناء عنهم لو خالفوا.

و یـدل على ذلک بعض الدلاله أیضا قوله تعالی فی ذیل الآیات: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ «إلخ»بما سـيأتی من الإیضاح.

قوله تعالی: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ ،إلی آخر الآیه»قـد تقدم الکلام فی أول السوره فی معنی الخمر و المیسـر و الأنصاب و الأزلام فالخمر ما یخمر العقل من کل مائع مسـکر عمل بالتخمیر،و المیسر هو القمار مطلقا،و الأنصاب هی الأصنام أو الحجاره التی کانت تنصب لذبح القرابین علیها و کانت تحترم و یتبرک بها،و الأزلام هی الأقداح التی کانت یستقسم بها،و ربما کانت تطلق علی السـهام التی کانت یتفاءل بها عنـد ابتـداء الأمور و العزیمه علیها کالخروج إلی سـفر و نحوه لکن اللفظ قد وقع فی أول السوره للمعنی الأول لوقوعه بین محرمات الأکل فیتأید بذلک کون المراد به هاهنا هو ذلک.

فإن قلت:المیسر بعمومه یشمل الأزلام بالمعنی الآخر الذی هو الاستقسام بالأقداح،و لا وجه لإیراد الخاص بعد العام من غیر نکته ظاهره فالمتعین حمل اللفظ علی سهام التفؤل و الخیره التی کان العمل بها معروفا عندهم فی الجاهلیه قال الشاعر:

فلئن جذیمه قتلت ساداتها

فنساؤها یضربن بالأزلام

و هو کما روی أنهم کانوا یتخذون أخشابا ثلاثه رقیقه کالسهام أحدها مکتوب علیه«افعل»و الثانی مکتوب علیه لا تفعل و الثالث غفل لا کتابه علیه فیجعلها الضارب فی خریطه معه و هی متشابه فإذا أراد الشـروع فی أمر یهمه کالسفر و غیر ذلک أخرج واحدا منهـا فـإن کـان الـذی علیه مکتوب«افعل»عزم علیه،و إن خرج الـذی مکتوب علیه«لا تفعل»ترکه،و إن خرج الثالث أعاد الضـرب حتی یخرج واحد من الأولین،و سمی استقساما لأن فیه طلب ما قسم له من رزق أو خیر آخر من الخیرات.

فالآیه تدل علی حرمته لأن فیه تعرضا لدعوی علم الغیب،و کذا کل ما یشاکله من الأعمال کأخذها الخیره بالسبحه و نحوها.

قلت:قد عرفت أن الآیه فی أول السوره: «وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاَمِ » ظاهره فی الاستقسام بالأقداح الذی هو نوح من القمار لوقوعه فی ضمن محرمات الأکل،و یتأید به أن ذلک هو المراد بالأزلام فی هذه الآیه.

و لو سلم عدم تأید هذه بتلک عاد إلی لفظ مشترک لا قرینه علیه من الکلام تبین المراد فیتوقف علی ما یشرحه من السنه،و قد وردت عده أخبار من أئمه أهل البیت (ع)فی جواز الأخذ بالخیره من السبحه و غیرها عند الحیره.

و حقیقته أن الإنسان إذا أراد أن یقدم علی أمر کان له أن یعرف وجه المصلحه فیه بما أغرز الله فیه من موهبه الفکر أو بالاستشاره ممن له صلاحیه المعرفه بالصواب و الخطإ،و إن لم یهده ذلک إلی معرفه وجه الصواب،و تردد متحیرا کان له أن یعین ما ینبغی أن یختاره بنوع من التوجه إلی ربه.

و لیس فی اختیار ما یختاره الإنسان بهذا النوع من الاستخاره دعوی علم الغیب و لا تعرض لما یختص بالله سبحانه من شئون الألوهیه،و لا شرک بسبب تشریک غیر الله تعالی إیاه فی تدبیر الأمور و لا أی محذور دینی آخر إذ لا شأن لهذا العمل إلا تعین الفعل أو الترک من غیر إیجاب و لا تحریم و لا أی حکم تکلیفی آخر،و لا کشف عما وراء حجب الغیب من خیر أو شر إلا أن خیر المستخیر فی أن یعمل أو یترک فیخرج عن الحیره و التذبذب.

و أما ما یستقبل الفعل أو الترک من الحوادث فربما کان فیه خیر و ربما کان فیه شر علی حد ما لو فعله أو ترکه عن فکر أو استشاره،فهو کالتفکر و الاستشاره طریق لقطع الحیره و التردد فی مقام العمل،و یترتب علی الفعل الموافق له ما کان یترتب علیه لو فعله عن فکر أو مشوره.

نعم ربما أمکن لمتوهم أن یتوهم التعرض لدعوی علم الغیب فیما ورد من التفؤل بالقرآن و نحوه فربما کانت النفس تتحدث معه بیمن أو شامه،و تتوقع خیرا أو شرا أو نفعا أو ضرا،لکن قد ورد فی الصحیح من طرق الفریقین:أن النبی ص کان یتفاءل بالخیر و یأمر به،و ینهی عن التطیر و یأمر بالمضی معه و التوکل علی الله تعالی.

فلا- مانع من التفؤل بالکتاب و نحوه فإن کان معه ما یتفأل به من الخیر و إلا مضی فی الأمر متوکلا علی الله تعالی،و لیس فی ذلک أزید مما یطیب به الإنسان نفسه فی الأمور و الأعمال التی یتفرس فیها السعاده و النفع،و سنستوفی البحث المتعلق بهذا المقام فی کلام موضوع لهذا الغرض بعینه.

ص :۱۱۹

فتبين أن ما وقع فی بعض التفاسير من حمل الأزلام علی سهم التفؤل و استنتاج حرمه الاستخاره بذلک مما لا ينبغی المصير إليه.

و أما قوله: «رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ » فالرجس الشیء القذر علی ما ذکره الراغب فی مفرداته فالرجاسه بالفتح کالنجاسه و القذاره هو الوصف الذی يبتعد و يتنزه عن الشیء بسببه لتنفر الطبع عنه.

و کون هذه المعدودات من الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام رجسا هو اشتمالها علی وصف لا تستبيح الفطره الإنسانيه الاقتراب منها لأجله،و ليس إلا أنها بحيث لا تشتمل علی شیء مما فيه سعاده إنسانيه أصلا سعاده يمکن أن تصفو و تتخلص فی حين من الأحيان کما ربما أومأ إليه قوله تعالی: «يَسْئَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ کَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنّاسِ وَ إِثْمُهُما أَکْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما» :البقره:۲۱۹، حيث غلب الإثم علی النفع و لم يستثن.

و لعله لذلک نسب هذه الأرجاس إلی عمل الشيطان و لم يشرک له أحدا،ثم قال فی الآيه التاليه: «إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَکُمُ الْعَداوَهَ وَ الْبَغْضاءَ فِی الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّکُمْ عَنْ ذِکْرِ اللّهِ وَ عَنِ الصَّلاهِ » .

و ذلک أن الله سبحانه عرف الشيطان فی کلامه بأنه عدو للإنسان لا يريد به خيرا البته قال تعالی: «إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ» :يوسف:۵،و قال:

«کُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ» :الحج:۴،و قال: «وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلاّ شَيْطاناً مَرِيداً، لَعَنَهُ اللّهُ» :النساء:۱۱۸،فأثبت عليه لعنته و طرده عن کل خير.

و ذکر أن مساسه بالإنسان و عمله فيه إنما هو بالتسويل و الوسوسه و الإغواء من جهه الإلقاء فی القلب کما قال تعالی حکايه عنه: «قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِی لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاّ عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قالَ هذا صِراطٌ عَلَیَّ مُسْتَقِيمٌ، إِنَّ عِبادِی لَيْسَ لَکَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاّ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغاوِينَ» :الحجر:۴۲،فهددهم إبليس بالإغواء فقط،و نفی الله سبحانه سلطانه إلا عن متبعيه الغاوين،و حکی عنه فيما يخاطب بنی آدم يوم القيامه قوله: «وَ ما کانَ لِی عَلَيْکُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاّ أَنْ دَعَوْتُکُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِی» :إبراهيم:۲۲،و قال فی نعت دعوته: «يا بَنِی آدَمَ لا يَفْتِنَنَّکُمُ

الشَّيْطانُ -إلى أن قال- إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاٰ تَرَوْنَهُمْ » فبين أن دعوته لا كدعوه إنسان إنسانا إلى أمر بالمشافهه بل بحيث يرعى الداعى المدعو من غير عكس.

و قد فصل القول فى جميع ذلك قوله تعالى: «مِنْ شَرِّ الْوَسْوٰاسِ الْخَنّٰاسِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النّٰاسِ» :الناس:۵،فبين أن الذى يعمل الشيطان بالتصرف فى الإنسان هو أن يلقى الوسوسه فى قلبه فيدعوه بذلك إلى الضلال.

فيتبين بذلك كله أن كون الخمر و ما ذكر بعدها رجسا من عمل الشيطان هو أنها منتهيه إلى عمل الشيطان الخاص به،و لا داعى لها إلى الإلقاء و الوسوسه الشيطانيه التى تدعو إلى الضلال،و لذلك سماها رجسا و قد سمى الله سبحانه الضلال رجسا فى قوله:

«وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمٰا يَصَّعَّدُ فِي السَّمٰاءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللّٰهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ، وَ هٰذٰا صِرٰاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً» :الأنعام:۱۲۶.

ثم بين معنى كونها رجسا ناشئا من عمل الشيطان بقوله فى الآيه التاليه: «إِنَّمٰا يُرِيدُ الشَّيْطٰانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدٰاوَةَ وَ الْبَغْضٰاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللّٰهِ وَ عَنِ الصَّلاٰةِ » أى إنه لا يريد لكم فى الدعوه إليها إلا الشر و لذلك كانت رجسا من عمله.

فإن قلت:ملخص هذا البيان أن معنى كون الخمر و أضرابها رجسا هو كون عملها أو شربها مثلا منتهيا إلى وسوسه الشيطان و إضلاله فحسب،و الذى تدل عليه عده من الروايات أن الشيطان هو الذى ظهر للإنسان و عملها لأول مره و علمه إياها.

قلت:نعم،و هذه الأخبار و إن كانت لا تتجاوز الآحاد بحيث يجب الأخذ بها إلا أن هناك أخبارا كثيره متنوعه وارده فى أبواب متفرقه تدل على تمثل الشيطان للأنبياء و الأولياء و بعض أفراد الإنسان من غيرهم كأخبار أخر حاكيه لتمثل الملائكه، و أخرى داله على تمثل الدنيا و الأعمال و غير ذلك و الكتاب الإلهى يؤيدها بعض التأييد كقوله تعالى: «فَأَرْسَلْنٰا إِلَيْهٰا رُوحَنٰا فَتَمَثَّلَ لَهٰا بَشَراً سَوِيًّا» :مريم:۱۷،و سنستوفى هذا البحث إن شاء الله تعالى فى تفسير سوره الإسراء فى الكلام على قوله تعالى: سُبْحٰانَ الَّذِي أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ» :الإسراء:۱،أو فى محل آخر مناسب لذلك.

و الذى يجب أن يعلم أن ورود قصه ما فى خبر أو أخبار لا يوجب تبدل آيه من الآيات مما لها من الظهور المؤيد بآيات أخر،و ليس للشيطان من الإنسان إلا التصرف

الفکری فیما کان له ذلک بمقتضی الآیات الشریفه،و لو أنه تمثل لواحد من البشر فعمل شیئا أو علمه إیاه لم یزد ذلک علی التمثل و التصرف فی فکره أو مساسه علما فانتظر ما سیوافیک من البحث.

و أما قوله تعالی: «فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ » فتصریح بالنهی بعد بیان المفسده لیکون أوقع فی النفوس ثم ترج للفلاح علی تقدیر الاجتناب،و فیه أشد التأکید للنهی لتثبیته أن لا رجاء لفلاح من لا یجتنب هذه الأرجاس.

قوله تعالی: «إِنَّمٰا یُرِیدُ الشَّیْطٰانُ أَنْ یُوقِعَ بَیْنَکُمُ الْعَدٰاوَهَ وَ الْبَغْضٰاءَ فِی الْخَمْرِ وَ الْمَیْسِرِ إلی آخر الآیه»قال الراغب فی المفردات: العدو التجاوز و منافاه الالتیام فتاره یعتبر بالقلب فیقال له:العداوه و المعاداه،و تاره بالمشی فیقال له:العدو،و تاره فی الإخلال بالعداله فی المعامله فیقال له:العدوان و العدو قال: «فَیَسُبُّوا اللّٰهَ عَدْواً بِغَیْرِ عِلْمٍ » و تاره بأجزاء المقر فیقال له:العدواء یقال:مکان ذو عدواء أی غیر متلائم الأجزاء فمن المعاداه یقال:رجل عدو و قوم عدو قال: «بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » و قد یجمع علی عدی(بالکسر فالفتح)و أعداء قال: «وَ یَوْمَ یُحْشَرُ أَعْدٰاءُ اللّٰهِ » ،انتهی.

و البغض و البغضاء خلاف الحب و الصد الصرف،و الانتهاء قبول النهی و خلاف الابتداء.

ثم إن الآیه-کما تقدم-مسوقه بیانا لقوله: «مِنْ عَمَلِ الشَّیْطٰانِ » أو لقوله:

«رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّیْطٰانِ »

أی إن حقیقه کون هذه الأمور من عمل الشیطان أو رجسا من عمل الشیطان إن الشیطان لا بغیه له و لا غایه فی الخمر و المیسر-اللذین قیل:إنهما رجسان من عمله فقط-إلا أن یوقع بینکم العداوه و البغضاء بتجاوز حدودکم و بغض بعضکم بعضا،و أن یصرفکم عن ذکر الله و عن الصلاه فی هذه الأمور جمیعا أعنی الخمر و المیسر و الأنصاب و الأزلام.

و قصر إیقاع العداوه و البغضاء فی الخمر و المیسر لکونهما من آثارهما الظاهره؛ أما الخمر فلأن شربها تهیج سلسله الأعصاب تهیجا یخمر العقل و یستظهر العواطف العصبیه؛فإن وقعت فی طریق الغضب جوزت للسکران أی جنایه فرضت و إن عظمت ما عظمت،و فظعت ما فظعت مما لا یستبیحه حتی السباع الضاریه،و إن وقعت

فی طریق الشهوه و البهیمیه زینت للإنسان أی شناعه و فجور فی نفسه أو ماله أو عرضه و کل ما یحترمه و یقدسه من نوامیس الدین و حدود المجتمع و غیر ذلک من سرقه أو خیانه أو هتک محرم أو إفشاء سر أو ورود فیما فیه هلاک الإنسانیه،و قد دل الإحصاء علی أن للخمر السهم الأوفر من أنواع الجنایات الحادثه و فی أقسام الفجورات الفظیعه فی المجتمعات التی دار فیها شربها.

و أما المیسر و هو القمار فإنه یبطل فی أیسر زمان مسعاه الإنسان التی صرفها فی اقتناء المال و الثروه و الوجاهه فی أزمنه طویله فیذهب به المال و ربما تبعه العرض و النفس و الجاه فإن تقمر و غلب و أحرز المال أداه ذلک إلی إبطال السیر المعتدل فی الحیاه و التوسع فی الملاهی و الفجور،و الکسل و التبطؤ عن الاشتغال بالمکسب و اقتناء مواد الحیاه من طرقها المشروعه،و إن کان هو المغلوب أداه فقدان المال و خیبه السعی إلی العداوه و البغضاء لقمیره الغالب،و الحسره و الحنق.

و هذه المفاسد و إن کانت لا تظهر للأذهان الساذجه البسیطه ذاک الظهور فی النادر القلیل و المره و المرتین لکن النادر یدعو إلی الغالب،و القلیل یهدی إلی الکثیر و المره تجر إلی المرات و لا تلبث إن لم تمنع من رأس أن تشیع فی الملإ،و تسری إلی المجتمع فتعود بلوی همجیه لا حکومه فیها إلا للعواطف الطاغیه و الأهواء المردیه.

فتبین من جمیع ما تقدم أن الحصر فی قوله: «إِنَّمٰا یُرِیدُ الشَّیْطٰانُ أَنْ یُوقِعَ بَیْنَکُمُ الْعَدٰاوَهَ وَ الْبَغْضٰاءَ فِی الْخَمْرِ وَ الْمَیْسِرِ وَ یَصُدَّکُمْ عَنْ ذِکْرِ اللّٰهِ وَ عَنِ الصَّلاٰهِ » راجع إلی مجموع المعدودات من حیث المجموع غیر أن الصد عن ذکر الله و عن الصلاه من شأن الجمیع، و العداوه و البغضاء یختصان بالخمر و المیسر بحسب الطبع.

و فی إفراز الصلاه عن الذکر فی قوله تعالی: «وَ یَصُدَّکُمْ عَنْ ذِکْرِ اللّٰهِ وَ عَنِ الصَّلاٰهِ » مع کون الصلاه من أفراد الذکر دلاله علی مزید الاهتمام بأمرها لکونها فردا کاملا من الذکر،

- و قد صح عن النبی ص:أنه قال: الصلاه عمود الدین ،و دلاله القرآن الکریم فی آیات کثیره جدا علی الاهتمام بأمر الصلاه بما لا مزید علیه مما لا یتطرق إلیه شک و فیها مثل قوله تعالی: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِینَ هُمْ فِی صَلاٰتِهِمْ خٰاشِعُونَ» (إلی آخر الآیات):المؤمنون:۲،و قوله تعالی: «وَ الَّذِینَ یُمَسِّکُونَ بِالْکِتٰابِ وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰهَ إِنّٰا لاٰ نُضِیعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِینَ» :الأعراف:۱۷۰،و قوله تعالی: «إِنَّ

الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً، إِلاَّ الْمُصَلِّينَ» الآيات:المعارج:۲۲ و قوله: «اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ» :العنكبوت:۴۵،و قال تعالى:

«فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ» :الجمعه:۹،يريد به الصلاه،و قال: «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي» :طه:۱۴،إلى غير ذلك من الآيات.

و قد ذكر سبحانه أولا ذكره و قدمه على الصلاه لأنها هى البغيه الوحيده من الدعوه الإلهيه،و هو الروح الحيه فى جثمان العبوديه،و الخميره لسعاده الدنيا و الآخره؛ يدل على ذلك قوله تعالى لآدم أول يوم شرع فيه الدين: «قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى، وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً،وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى» :طه:۱۲۴، و قوله تعالى: «وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ، قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَ لكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آباءَهُمْ حَتّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كانُوا قَوْماً بُوراً» :الفرقان:۱۸، و قوله تعالى: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياةَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» :النجم:۳۰.

فالذكر فى الآيات إنما هو ما يقابل نسيان جانب الربوبيه المستتبع لنسيان العبوديه و هو السلوك الدينى الذى لا سبيل إلى إسعاد النفس بدونه قال تعالى: «وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ» :الحشر:۱۹.

و أما قوله تعالى: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » فهو استفهام توبيخى فيه دلاله ما على أن المسلمين لم يكونوا ينتهون عن المناهى السابقه على هذا النهى،و الآيه أعنى قوله: «إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ ،«إلخ»كالتفسير يفسر بها قوله: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما » أى إن النفع الذى فرض فيهما مع الإثم ليس بحيث يمكن أن يفرز أحيانا من الإثم أو من الإثم الغالب عليه كالكذب الذى فيه إثم و نفع،و ربما أفرز نفعه من إثمه كالكذب لمصلحه إصلاح ذات البين.

و ذلك لمكان الحصر فى قوله: «إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ ،إلخ»بعد قوله: «رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ » فالمعنى أنها لا تقع إلا رجسا

من عمل الشيطان،و أن الشيطان لا يريد بها إلا إيقاع العداوه و البغضاء بينكم فی الخمر و الميسر و صدكم عن ذكر الله و عن الصلاه فلا يصاب لها مورد يخلص فيه النفع عن الإثم حتى تباح فيه،فافهم ذلك.

قوله تعالى: «أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا ،إلى آخر الآيه»تأكيد للأمر السابق باجتناب هذه الأرجاس أولا بالأمر بطاعه الله سبحانه و بيده أمر التشريع، و ثانيا بالأمر بطاعه الرسول و إليه الإجراء،و ثالثا بالتحذير صريحا.

ثم فی قوله: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمٰا عَلىٰ رَسُولِنَا الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ » تأكيد فيه معنى التهديد و خاصه لاشتماله على قوله: «فَاعْلَمُوا » فإن فيه تلويحا إلى أنكم إن توليتم و اقترفتم هذه المعاصی فكأنكم ظننتم أنكم كابرتم النبی ص فی نهيه عنها و غلبتموه، و قد جهلتم أو نسيتم أنه رسول من قبلنا ليس له من الأمر شیء إلا بلاغ مبين لما يوحی إليه و يؤمر بتبليغه،و إنما نازعتم ربكم فی ربوبيته.

و قد تقدم فی أول الكلام أن الآيات تشتمل على فنون من التأكيد فی تحريم هذه الأمور،و هی الابتداء بقوله: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ،ثم الإتيان بكلمه الحصر،ثم التوصيف بالرجس،ثم نسبتها إلى عمل الشيطان،ثم الأمر بالاجتناب صريحا،ثم رجاء الفلاح فی الاجتناب،ثم ذكر مفاسدها العامه من العداوه و البغضاء و الصرف عن ذكر الله و عن الصلاه،ثم التوبيخ على عدم انتهائهم،ثم الأمر بطاعه الله و رسوله و التحذير عن المخالفه،ثم التهديد على تقدير التولی بعد البلاغ المبين.

قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ جُنٰاحٌ فِيمٰا طَعِمُوا » إلى آخر الآيه الطعم و الطعام هو التغذی،و يستعمل فی المأكول دون المشروب،و هو فی لسان المدنيين البر خاصه،و ربما جاء بمعنى الذوق،و يستعمل حينئذ بمعنى الشرب كما يستعمل بمعنى الأكل قال تعالى: «فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّی وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّی» :البقره:۲۴۹،

- و فی بعض الروايات عن النبی ص:أنه قال فی ماء زمزم أنه طعام طعم و شفاء سقم.

و الآيه لا تصلح بسياقها إلا أن تتصل بالآيات السابقه فتكون دفع دخل تتعرض لحال المؤمنين ممن ابتلی بشرب الخمر قبل نزول التحريم أو قبل نزول هذه الآيات، و ذلك أن قوله فيها: «فِيمٰا طَعِمُوا » مطلق غير مقيد بشیء مما يصلح لتقييده،و الآيه

مسوقه لرفع الحظر عن هـذا الطعام المطلق،و قـد قيد رفع الحظر بقوله: «إِذٰا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا » و المتيقن من معنى هذا القيد -و قد ذكر فيه التقوى ثلاث مرات-هو التقوى الشديد الذى هو حق التقوى.

فنفى الجناح للمؤمنين المتقين عن مطلق ما طعموا(الطعام المحلل)إن كان لغرض إثبات المفهوم فى غيرهم أى إثبات مطلق المنع لغير أهـل التقوى من سائر المؤمنين و الكفـار نـاقضه أمثـال قوله تعـالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّٰهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبٰادِهِ وَ الطَّيِّبٰاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا خٰالِصَةً يَوْمَ الْقِيٰامَةِ» :الأعراف:٣٢، على أن من المعلوم من مذاق هذا الدين أنه لا يمنع أحدا عن الطيبات المحلله التى تضطر الفطره إلى استباحتها فى الحياه.

و إن لم تكن الآيه مسوقه لتحريمه على غير من ذكر عاد المعنى إلى مثل قولنا:

يجوز الطعام للـذين آمنوا و عملوا الصالحات بشـرط أن يتقوا ثم يتقوا ثم يتقوا،و من المعلوم أن الجواز لا يختص بالذين آمنوا و عملوا الصالحات بل يعمهم و غيرهم،و على تقدير اختصاصه بهم لا يشترط فيه هذا الشرط الشديد.

و لا يخلو عن أحد هذين الإشكالين جميع ما ذكروه فى توجيه الآيه بناء على حمل قوله: «فِيمٰا طَعِمُوا » على مطلق الطعام المحلل فـإن المعنى الـذى ذكروه لا يخرج عن حـدود قولنا:لا جناح على الـذين آمنوا و عملوا الصالحات إذا اتقوا المحرمات أن يطعموا المحللات،و لا يسلم هذا المعنى عن أحد الإشكالين كما هو واضح.

و ذكر بعضـهم:أن فى الآيه حـذفا،و التقـدير:ليس على الـذين آمنـوا و عملـوا الصالحـات جنـاح فيمـا طعموا و غيره إذا مـا اتقوا المحارم،و فيه أنه تقدير من غير دليل مع بقاء المحذور على حاله.

و ذكر بعضـهم:أن الإيمان و العمل الصالح جميعا ليس بشـرط حقيقى بل المراد بيان وجوب اتقاء المحارم فشرك معه الإيمان و العمل الصالح للدلاله على وجوبه،و فيه أن ظاهر الآيه أنها مسوقه لنفى الجناح فيما طعموا،و لا شـرط له من إيمان أو عمل صالح أو اتقاء محارم على ما تقدم،و ما أبعد المعنى الذى ذكره عن ظاهر الآيه.

و ذكر بعضهم:أن المؤمن يصح أن يطلق عليه أنه لا جناح عليه،و الكافر

مستحق للعقاب فلا يصح أن يطلق عليه هذا اللفظ،و فيه أنه لا يصح تخصيص المؤمنين بالذكر فليكن مثل قوله تعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ» :الأعراف:٣٢،و قوله: «قُلْ لا أَجِدُ فِى ما أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً» :الأنعام:١٤٥ حيث لم يذكر فى الخطاب مؤمن و لا كافر،أو مثل قوله: «يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى -إلى قوله- إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاكُمْ» :الحجرات:١٣ حيث وجه الخطاب إلى الناس الشامل للمؤمن و الكافر.

و ذكر بعضهم:أن الكافر قد سد على نفسه طريق معرفه التحريم و التحليل فلذلك خص المؤمن بالذكر،و فيه ما فى سابقه من الإشكال مع أنه لا يرفع الإشكال الناشئ من قوله: «إِذا مَا اتَّقَوْا » «إلخ».

فالذى ينبغى أن يقال:إن الآيه فى معنى الآيات السابقه عليها على ما هو ظاهر اتصالها بها،و هى متعرضه لحال من ابتلى من المسلمين بشرب الخمر و طعمها،أو بالطعم لشىء منها أو مما اقتناه بالميسر أو من ذبيحه الأنصاب كأنهم سألوا بعد نزول التحريم الصريح عن حال من ابتلى بشرب الخمر،أو بها و بغيرها مما ذكره الله تعالى فى الآيه قبل نزول التحريم من إخوانهم الماضين أو الباقين المسلمين لله سبحانه فى حكمه.

فأجيب عن سؤالهم أن ليس عليهم جناح إن كانوا من الذين آمنوا و عملوا الصالحات إن كانوا جارين على صراط التقوى بالإيمان بالله و العمل الصالح ثم الإيمان بكل حكم نازل على النبى ص ثم الإحسان بالعمل على طبق الحكم النازل.

و بذلك يتبين أن المراد بالموصول فى قوله: «فِيما طَعِمُوا » هو الخمر من حيث شربها أو جميع ما ذكر من الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام من حيث ما يصح أن يتعلق بها من معنى الطعم،و المعنى:ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما ذاقوه قبل نزول التحريم من خمر أو منها و من غيرها من المحرمات المذكوره.

و أما قوله: «إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا » فظاهر قوله: «إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ » إنه إعاده لنفس الموضوع المذكور فى قوله: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ جُناحٌ » للدلاله على

دخاله الوصف فى الحكم الذى هو نفى الجناح كقوله تعالى فى خطاب المؤمنين: «ذٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كٰانَ مِنْكَمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» :البقره:٢٣٢،و هو شائع فى اللسان.

و ظاهر قوله: «ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا » اعتبار الإيمان بعد الإيمان،و ليس إلا الإيمان التفصيلى بكل حكم حكم مما جاء به الرسول من عند ربه من غير رد و امتناع، و لازمه التسليم للرسول فيما يأمر به و ينهى عنه قال تعالى: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ» :الحديد:٢٨،و قال تعالى: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ لِيُطٰاعَ بِإِذْنِ اللّهِ -إلى أن قال- فَلاٰ وَ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ حَتّٰى يُحَكِّمُوكَ فِيمٰا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاٰ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» :النساء-٦٥،و الآيات فى هذا المعنى كثيره.

و ظاهر قوله: «ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا » إضافه الإحسان إلى الإيمان بعد الإيمان اعتبارا،و الإحسان هو إتيان العمل على وجه حسنه من غير نيه فاسده كما قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ إِنّٰا لاٰ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً» :الكهف:٣٠، و قال: «الَّذِينَ اسْتَجٰابُوا لِلّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مٰا أَصٰابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ» :آل عمران:١٧٢،أى يكون استجابتهم ابتغاء لوجه الله و تسليما لأمره لا لغرض آخر،و من الإحسان ما يتعدى إلى الغير،و هو أن يوصل إلى الغير ما يستحسنه،قال تعالى: «وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً» :البقره:٨٣،و قال:

«وَ أَحْسِنْ كَمٰا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ» :القصص:٧٧.

و المناسب لمورد الآيه هو المعنى الأول من معنيى الإحسان،و هو إتيان الفعل على جهه حسنه فإن التقوى الدينى لا يوفى حقه بمجرد الإيمان بالله و تصديق حقيه دينه ما لم يؤمن تفصيلا بكل واحد واحد من الأحكام المشرعه فى الدين فإن رد الواحد منها رد لأصل الدين،و لا أن الإيمان التفصيلى بكل واحد واحد يوفى به حق التقوى ما لم يحسن بالعمل بها و فى العمل بها بأن يجرى على ما يقتضيه الحكم من فعل أو ترك، و يكون هذا الجرى ناشئا من الانقياد و الاتباع لا عن نيه نفاقيه فمن الواجب على المتزود بزاد التقوى أن يؤمن بالله و يعمل صالحا،و أن يؤمن برسوله فى جميع ما جاء به،و أن يجرى فى جميع ذلك على نهج الاتباع و الإحسان.

و أما تكرار التقوى ثلاث مرات،و تقييد المراتب الثلاث جميعا به فهو لتأكيد

الإشاره إلی وجوب مقارنه المراتب جمیعا للتقوی الواقعی من غیر غرض آخر غیر دینی، و قد مر فی بعض المباحث السابقه أن التقوی لیس مقاما خاصا دینیا بل هو حاله روحیه تجامع جمیع المقامات المعنویه أی أن لکل مقام معنوی تقوی خاصا یختص به.

فتلخص من جمیع ما مر أن المراد بالآیه أعنی قوله: «لَیْسَ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ جُنٰاحٌ فِیمٰا طَعِمُوا » إلی آخر الآیه،أنه لا جناح علی الذین آمنوا و عملوا الصالحات فیما ذاقوه من خمر أو غیره من المحرمات المعدوده بشرط أن یکونوا ملازمین للتقوی فی جمیع أطوارهم و متلبسین بالإیمان بالله و رسوله،و محسنین فی أعمالهم عاملین بالواجبات و تارکین لکل محرم نهوا عنه فإن اتفق لهم أن ابتلوا بشیء من الرجس الذی هو من عمل الشیطان قبل نزول التحریم أو قبل وصوله إلیهم أو قبل تفقههم به لم یضرهم ذلک شیئا.

و هذا نظیر قوله تعالی فی آیات تحویل القبله فی جواب سؤالهم عن حال الصلوات التی صلوها إلی غیر الکعبه: «وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ لِیُضِیعَ إِیمٰانَکُمْ»: البقره:۱۴۳.

و سیاق هذا الکلام شاهد آخر علی کون هذه الآیه: «لَیْسَ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ جُنٰاحٌ ،إلخ»متصله بما قبلها من الآیات و أنها نازله مع تلک الآیات التی لسانها یشهد أنها آخر الآیات المحرمه للخمر نزولا،و أن بعض المسلمین کما یشعر به لسان الآیات-علی ما استفدناه-آنفا لم یکونوا منتهین عن شربها ما بین الآیات السابقه المحرمه و بین هذه الآیات.

ثم وقع السؤال بعد نزول هذه الآیات عن حال من ابتلی بذلک و فیهم من ابتلی به قبل نزول التحریم،و من ابتلی به قبل التفقه،و من ابتلی به لغیر عذر فأجیبوا بما یتعین به لکل طائفه حکم مسألته بحسب خصوص حاله،فمن طعمها و هو علی حال الإیمان و الإحسان،و لا یکون إلا من ذاقها من المؤمنین قبل نزول التحریم أو جهلا به فلیس علیه جناح،و من ذاقها علی غیر النعت فحکمه غیر هذا الحکم.

و للمفسرین فی الآیه أبحاث طویله،منها ما یرجع إلی قوله: «فِیمٰا طَعِمُوا » و قد تقدم خلاصه الکلام فی ذلک.

و منها ما يرجع إلى ذيل الآيه من حيث تكرر التقوى فيه ثلاث مرات،و تكرر الإيمان و تكرر العمل الصالح و ختمها بالإحسان.

فقيل:إن المراد بقوله: «إِذٰا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ » اتقوا المحرم و ثبتوا على الإيمان و الأعمال الصالحه،و بقوله: «ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا » ثم اتقوا ما حرم عليهم بعد كالخمر و آمنوا بتحريمه،و بقوله: «ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا » ثم استمروا و ثبتوا على اتقاء المعاصى و اشتغلوا بالأعمال الجميله.

و قيل:إن هذا التكرار باعتبار الحالات الثلاث:استعمال الإنسان التقوى و الإيمان بينه و بين نفسه،و بينه و بين الناس،و بينه و بين الله تعالى،و الإحسان على هذا هو الإحسان إلى الناس ظاهرا.

و قيل:إن التكرار باعتبار المراتب الثلاث:المبدإ و الوسط و المنتهى،و هو حق التقوى.

و قيل:التكرار باعتبار ما يتقى فإنه ينبغى أن تترك المحرمات توقيا من العقاب، و الشبهات تحرزا عن الوقوع فى الحرام،و بعض المباحات تحفظا للنفس عن الخسه، و تهذيبا عن دنس الطبيعه.

و قيل:إن الاتقاء الأول اتقاء عن شرب الخمر و الإيمان الأول هو الإيمان بالله، و الاتقاء الثانى هو إدامه الاتقاء الأول و الإيمان الثانى إدامه الإيمان الأول،و الاتقاء الثالث هو فعل الفرائض،و الإحسان فعل النوافل.

و قيل:إن الاتقاء الأول اتقاء المعاصى العقليه،و الإيمان الأول هو الإيمان بالله و بقبح هذه المعاصى،و الاتقاء الثانى اتقاء المعاصى السمعيه و الإيمان الثانى هو الإيمان بوجوب اجتناب هذه المعاصى،و الاتقاء الثالث يختص بمظالم العباد و ما يتعلق بالغير من الظلم و الفساد،و المراد بالإحسان الإحسان إلى الناس.

و قيل:إن الشرط الأول يختص بالماضى،و الشرط الثانى بالدوام على ذلك و الاستمرار على فعله،و الشرط الثالث يختص بمظالم العباد،إلى غير ذلك من أقوالهم.

و جميع ما ذكروه مما لا دليل عليه من لفظ الآيه أو غيرها يوجب حمل الآيه عليه، و هو ظاهر بالتأمل فى سياق القول فيها و الرجوع إلى ما قدمناه.

(بحث روائی)

-فی تفسیر العیاشی،عن هشام بن سالم عن أبی عبد الله(ع)قال:سمعته یقول:

بینا حمزه بن عبد المطلب و أصحاب له علی شراب لهم-یقال له السکرکه.قال:فتذاکروا الشریف فقال لهم حمزه:کیف لنا به؟ فقالوا:هذه ناقه ابن أخیک علی،فخرج إلیها فنحرها-ثم أخذ کبدها و سنامها فأدخل علیهم،قال:و أقبل علی(ع)فأبصر ناقته فدخله من ذلک،فقالوا له:عمک حمزه صنع هذا،قال:فذهب إلی النبی ص فشکا ذلک إلیه.

قال:فأقبل معه رسول الله ص فقیل لحمزه:هذا رسول الله ص بالباب، قال:فخرج حمزه و هو مغضب-فلما رأی رسول الله ص الغضب فی وجهه انصرف- قال:فقال له حمزه:لو أراد ابن أبی طالب أن یقودک بزمام فعل،فدخل حمزه منزله و انصرف النبی ص.

قال:و کان قبل أحد،قال:فأنزل الله تحریم الخمر-فأمر رسول الله ص بآنیتهم فأکفئت،قال:فنودی فی الناس بالخروج إلی أحد-فخرج رسول الله ص و خرج الناس و خرج حمزه-فوقف ناحیه من النبی ص قال-فلما تصافحوا حمل فی الناس حتی غیب فیهم ثم رجع إلی موقفه،فقال له الناس:الله الله یا عم رسول الله أن تذهب- و فی نفس رسول الله علیک شیء،قال:ثم حمل الثانیه حتی غیب فی الناس-ثم رجع إلی موقفه فقالوا له:الله الله یا عم رسول الله أن تذهب-و فی نفس رسول الله علیک شیء.

فأقبل إلی النبی ص فلما رآه نحوه-أقبل مقبلا إلیه فعانقه-و قبل رسول الله ص ما بین عینیه-ثم قال:احمل علی الناس فاستشهد حمزه،و کفنه رسول الله ص فی تمره.

ثم قال أبو عبد الله(ع):نحو من سریانی هذا،فکان إذا غطی وجهه انکشف رجلاه-و إذا غطی رجلاه انکشف وجهه-قال:فغطی بها وجهه،و جعل علی رجلیه إذخر.

قال فانهزم الناس و بقی علی(ع)-فقال له رسول الله ص ما صنعت؟قال:

ص:۱۳۱

يا رسول الله لزمت الأرض فقال:ذلک الظن بک،قال:و قال رسول الله ص:

أنجز لی يا رب ما وعدتنی-فإنک إن شئت لم تعبد.

- و عن الزمخشری فی ربيع الأبرار،قال: أنزل فی الخمر ثلاث آيات:« يَسْئَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ » -فکان المسلمون بين شارب و تارک-إلی أن شربها رجل فدخل فی صلاته فهجر فنزل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَ أَنْتُمْ سُکَارَیٰ » -فشربها من شربها من المسلمين حتی شربها عمر-فأخذ لحی بعير فشج رأس عبد الرحمن بن عوف،ثم قعد ينوح علی قتلی بدر بشعر الأسود بن يغفر:

و کأين بالقليب قليب بدر

من القنيات و الشرب الکرام

و کأين بالقليب قليب بدر

من السری المکامل بالسنام

أ يوعدنا ابن کبشه أن نحيی

و کيف حياه أصداء و هام

أ يعجز أن يرد الموت عنی

و ينشرنی إذا بليت عظامی

ألا من مبلغ الرحمن عنی

بأنی تارک شهر الصيام

فقل لله يمنعنی شرابی

و قل لله:يمنعنی طعامی

فبلغ ذلک رسول الله ص فخرج مغضبا يجر رداءه-فرفع شيئا کان فی يده ليضربه،فقال:أعوذ بالله من غضب الله و غضب رسوله-فأنزل الله سبحانه و تعالی:

«إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ

-إلی قوله- فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » فقال عمر:انتهینا.

- و فی الدر المنثور،:أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ و ابن مردویه و النحاس فی ناسخه عن سعد بن أبی وقاص قال": فی نزل تحریم الخمر؛صنع رجل من الأنصار طعاما فدعانا-فأتاه ناس فأكلوا و شربوا حتی انتشوا من الخمر،و ذلك قبل أن تحرم الخمر فتفاخروا-فقالت الأنصار:الأنصار:خیر،و قالت قریش:قریش خیر-فأهوی رجل بلحی جزور-فضرب علی أنفی ففزره-فكان سعد مفزور الأنف- قال:فأتیت النبی ص فذكرت ذلك له-فنزلت هذه الآیه: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَیْسِرُ ،إلی آخر الآیه».

أقول:و الروایات فی القصص التی أعقبت تحریم الخمر فی الإسلام كثیره من طرق الجمهور علی ما فیها من الاختلاف الشدید.

ص :۱۳۲

أما هؤلاء الذين ذكر منهم الشرب من الصحابه فلا شأن لنا فی البحث عنهم فيما نحن بصدده من البحث المرتبط بالتفسير غير أن هـذه الروايات تؤيد ما ذكرناه فی البيان السابق:أن فی الآيات إشعارا أو دلاله علی أن رهطا من المسلمين ما تركوا شرب الخمر بعد نزول آيه البقره حتی نزلت آيه المائده.

نعم ورد فی بعض الروايات أن عليا(ع)و عثمان بن مظعون كانا قد حرما الخمر علی أنفسهما قبل نزول التحريم،و قد ذكر فی الملل و النحل رجالا من العرب حرموا الخمر علی أنفسهم فی الجاهليه،و قد وفق الله سبحانه بعض هؤلاء أن أدرك الإسلام و دخل فيه،منهم عامر بن الظرب العدوانی،و منهم قيس بن عامر التميمی و قد أدرك الإسلام،و منهم صفوان بن أميه بن محرث الكنانی و عفيف بن معديكرب الكندی و الأسلوم اليامی و قد حرم الزنا و الخمر معا،و هؤلاء آحاد من الرجال جری كلمه الحق علی لسانهم،و أما عامتهم فی الجاهليه كعامه أهل الدنيا يومئذ إلا اليهود فقد كانوا يعتادون شربها من غير بأس حتی حرمها الله سبحانه فی كتابه.

و الذی تفيده آيات الكتاب العزيز أنها حرمت فی مكه قبل الهجره كما يدل عليه قوله تعالی: «قُلْ إِنَّمٰا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ» :الأعراف:۳۳ و الآيه مكيه،و إذا انضمت إلی قوله تعالی: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمٰا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنٰافِعُ لِلنّٰاسِ وَ إِثْمُهُمٰا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمٰا» :البقره:۲۱۹، و هی آيه مدنيه نازله فی أوائل الهجره لم يبق شك فی ظهور حرمتها للمسلمين يومئذ، و إذا تدبرنا فی سياق آيات المائده،و خاصه فيما يفيده قوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » و قوله:

«لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ جُنٰاحٌ فِيمٰا طَعِمُوا إِذٰا مَا اتَّقَوْا ،

الآيه»انكشف أن ما ابتلی به رهط منهم من شربها فيما بين نزول آيه البقره و آيه المائده إنما كان كالذنابه لسابق العاده السيئه نظير ما كان من النكاح فی ليله الصيام عصيانا حتی نزل قوله تعالی:

«أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيٰامِ الرَّفَثُ إِلىٰ نِسٰائِكُمْ هُنَّ لِبٰاسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِبٰاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللّٰهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتٰانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتٰابَ عَلَيْكُمْ» :البقره:۱۸۷.

فقد تبين أن فی هذه الروايات كلاما من وجهين:

أحدهما:من جهه اختلافها فی تاريخ تحريم الخمر فقد مر فی الروايه الأولی أنها

قبیل غزوه أحد،و فی بعض الروایات:أن ذلک بعد غزوه الأحزاب (1).لکن الأمر فی ذلک سهل فی الجمله لإمکان حملها علی کون المراد بتحریم الخمر فیها نزول آیه المائده و إن لم یوافقه لفظ بعض الروایات کل الموافقه.

و ثانیهما:من جهه دلالتها علی أن الخمر لم تکن بمحرمه قبل نزول آیه المائده أو أنها لم تظهر حرمتها قبلئذ للناس و خاصه للصحابه مع صراحه آیه الأعراف المحرمه للإثم و آیه البقره المصرحه بکونها إثما،و هی صراحه لا تقبل تأویلا.

بل من المستبعد جدا أن تنزل حرمه الإثم بمکه قبل الهجره فی آیه تتضمن جمل المحرمات أعنی قوله: «قُلْ إِنَّمٰا حَرَّمَ رَبِّیَ الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْیَ بِغَیْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِکُوا بِاللّٰهِ مٰا لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰاناً وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَی اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ»:

الأعراف:33،ثم یمر علیه زمان غیر یسیر،و لا یستفسر المؤمنون معناه من نبیهم و لا یستوضحه المشرکون و أکبر همهم النقض و الاعتراض علی کتاب الله مهما توهموا إلیه سبیلا.

بل المستفاد من التاریخ أن تحریم النبی ص للخمر کتحریمه الشرک و الزنا کان معروفا عند المشرکین یدل علی ذلک ما رواه ابن هشام فی السیره عن خلاد بن قره و غیره من مشایخ بکر بن وائل من أهل العلم:أن أعشی بنی قیس خرج إلی رسول الله ص یرید الإسلام فقال یمدح رسول الله ص:

أ لم تغتمض عیناک لیله أرمدا

و بت کما بات السلیم مسهدا

(القصیده).

فلما کان بمکه أو قریبا منها اعترضه بعض المشرکین من قریش فسأله عن أمره فأخبره أنه جاء یرید رسول الله ص لیسلم فقال له:یا أبا بصیر إنه یحرم الزنا فقال الأعشی:و الله إن ذلک لأمر ما لی فیه من إرب،فقال له:یا أبا بصیر فإنه یحرم الخمر فقال الأعشی:أما هذه فإن فی النفس منها لعلالات،و لکنی منصرف فأتروی منها عامی هذا ثم آتیه فأسلم فانصرف فمات فی عامه ذلک و لم یعد إلی رسول الله ص.

1- 1) روی ذلک الطبری فی تفسیره،و السیوطی فی الدر المنثور عنه و عن ابن المنذر عن قتاده

فلا یبقی لهذه لروایات إلا أن تحمل علی استفادتهم ذلک باجتهادهم فی الآیات مع الذهول عن آیه الأعراف،و للمفسرین فی تقریب معنی هذه الروایات توجیهات غریبه (۱).

و بعد اللتیا و التی فالکتاب نص فی تحریم الخمر فی الإسلام قبل الهجره،و لم تنزل آیه المائده إلا تشدیدا علی الناس لتساهلهم فی الانتهاء عن هذا النهی الإلهی و إقامه حکم الحرمه.

- و فی تفسیر العیاشی،:عن هشام عن الثقه رفعه عن أبی عبد الله(ع): أنه قیل له:روی عنکم:أن الخمر و الأنصاب و الأزلام رجال؟فقال:ما کان لیخاطب الله خلقه بما لا یعقلون.

- و فیه،:عن عبد الله بن سنان عن أبی عبد الله(ع)قال: أتی عمر بن الخطاب بقدامه بن مظعون-و قد شرب الخمر و قامت علیه البینه-فسأل علیا فأمره أن یجلده ثمانین جلده،فقال قدامه:یا أمیر المؤمنین لیس علی حد-أنا من أهل هذه الآیه: «لَیْسَ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ-جُناحٌ فِیما طَعِمُوا » -فقرأ الآیه حتی استتمها-فقال له علی (ع):کذبت لست من أهل هذه الآیه-ما طعم أهلها فهو حلال لهم،و لیس یأکلون و لا یشربون إلا ما یحل لهم.

أقول:و روی هذا المعنی أیضا عن أبی الربیع عنه(ع)،و رواه أیضا الشیخ فی التهذیب،بإسناده عن ابن سنان عنه(ع)،و هذا المعنی مروی من طرق أهل السنه أیضا.

و قوله(ع):[ما طعم أهلها فهو حلال لهم،إلخ]منطبق علی ما قررناه فی البیان السابق من معنی الآیه فراجع.

- و فی تفسیر الطبری،عن الشعبی قال": نزلت فی الخمر أربع آیات: «یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَیْسِرِ ،الآیه»فترکوها ثم نزلت: «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَکَراً وَ رِزْقاً حَسَناً » فشربوها- ثم نزلت الآیتان فی المائده: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَیْسِرُ » -إلی قوله- فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » .

۱- ۱) حتی بذکر بعضهم:أن الصحابه کانوا یتأولون آیه البقره:«قیل فیهما إثم»مع تصریح القرآن بحرمه الإثم قبل ذلک فی آیه الأعراف،بأن المراد به الإثم الخالص.

أقول:ظاهره نسخ آيه النحل لآيه البقره ثم نسخ آيتى المائده لآيه النحل، و أنت لا تحتاج فى القضاء على بطلانه إلى بيان زائد.

- و فى الكافى،و التهذيب،بإسنادهما عن أبى جعفر(ع)قال: ما بعث الله نبيا قط إلا و فى علم الله-أنه إذا أكمل دينه كان فيه تحريم الخمر،و لم يزل الخمر حراما و إنما ينقلون من خصله ثم خصله،و لو حمل ذلك جمله عليهم لقطع بهم دون الدين،قال:

و قال أبو جعفر(ع):ليس أحد أرفق من الله تعالى-فمن رفقه تبارك و تعالى أنه ينقلهم من خصله إلى خصله-و لو حمل عليهم جمله لهلكوا.

- و فى الكافى،بإسناده عن عمرو بن شمر عن أبى جعفر(ع)قال: لما أنزل الله عز و جل على رسوله ص: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصَابُ وَ الْأَزْلاَمُ رِجْسٌ-مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ » -قيل:يا رسول الله ما الميسر؟قال:كلما تقمرت به حتى الكعاب و الجوز،قيل:فما الأنصاب؟قال:ما ذبحوا لآلهتهم-قيل:فما الأزلام؟قال:

قداحهم التى يستقسمون بها.

- و فيه،:بإسناده عن عطاء بن يسار عن أبى جعفر(ع):قال:قال رسول الله ص: كل مسكر حرام،و كل مسكر خمر.

أقول:و الروايه مرويه من طرق أهل السنه أيضا عن عبد الله بن عمر عن النبى ص،و لفظها:كل مسكر خمر،و كل خمر حرام رواها البيهقى و غيره،و قد استفاضت الروايات عن أئمه أهل البيت(ع)بأن كل مسكر حرام،و أن كلما يقامر عليه فهو ميسر.

- و فى تفسير العياشى،:عن أبى الصباح عن أبى عبد الله(ع):قال: سألته عن النبيذ و الخمر بمنزله واحده هما؟قال:لا،إن النبيذ ليس بمنزله الخمر،إن الله حرم الخمر قليلها و كثيرها-كما حرم الميته و الدم و لحم الخنزير،و حرم النبى ص من الأشربه المسكر،و ما حرم رسول الله ص فقد حرم الله.

- و فى الكافى،و التهذيب،بإسنادهما عن موسى بن جعفر(ع)قال: إن الله لم يحرم الخمر لإثمها و لكن حرمها لعاقبتها،فما كان عاقبتها عاقبه الخمر فهو خمر،و فى روايه:

فما فعل فعل الخمر فهو خمر.

أقول:و الأخبار فی ذم الخمر و المیسر من طرق الفریقین فوق حد الإحصاء من أراد الوقوف علیها فعلیه بجوامع الحدیث.

[سوره المائده (۵): الآیات ۹۴ الی ۹۹]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لَیَبْلُوَنَّکُمُ اَللّٰهُ بِشَیْءٍ مِنَ اَلصَّیْدِ تَنٰالُهُ أَیْدِیکُمْ وَ رِمٰاحُکُمْ لِیَعْلَمَ اَللّٰهُ مَنْ یَخٰافُهُ بِالْغَیْبِ فَمَنِ اِعْتَدیٰ بَعْدَ ذٰلِکَ فَلَهُ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۹۴) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَقْتُلُوا اَلصَّیْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْکُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزٰاءٌ مِثْلُ مٰا قَتَلَ مِنَ اَلنَّعَمِ یَحْکُمُ بِهِ ذَوٰا عَدْلٍ مِنْکُمْ هَدْیاً بٰالِغَ اَلْکَعْبَهِ أَوْ کَفّٰارَهٌ طَعٰامُ مَسٰاکِینَ أَوْ عَدْلُ ذٰلِکَ صِیٰاماً لِیَذُوقَ وَبٰالَ أَمْرِهِ عَفَا اَللّٰهُ عَمّٰا سَلَفَ وَ مَنْ عٰادَ فَیَنْتَقِمُ اَللّٰهُ مِنْهُ وَ اَللّٰهُ عَزِیزٌ ذُو اِنْتِقٰامٍ (۹۵) أُحِلَّ لَکُمْ صَیْدُ اَلْبَحْرِ وَ طَعٰامُهُ مَتٰاعاً لَکُمْ وَ لِلسَّیّٰارَهِ وَ حُرِّمَ عَلَیْکُمْ صَیْدُ اَلْبَرِّ مٰا دُمْتُمْ حُرُماً وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ اَلَّذِی إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ (۹۶) جَعَلَ اَللّٰهُ اَلْکَعْبَهَ اَلْبَیْتَ اَلْحَرٰامَ قِیٰاماً لِلنّٰاسِ وَ اَلشَّهْرَ اَلْحَرٰامَ وَ اَلْهَدْیَ وَ اَلْقَلاٰئِدَ ذٰلِکَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ یَعْلَمُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ أَنَّ اَللّٰهَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۹۷) اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ شَدِیدُ اَلْعِقٰابِ وَ أَنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۹۸) مٰا عَلَی اَلرَّسُولِ إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ وَ اَللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا تُبْدُونَ وَ مٰا تَکْتُمُونَ (۹۹)

(بیان)

الآیات فی بیان حکم صید البر و البحر فی حال الإحرام.

ص: ۱۳۷

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِمَاحُكُمْ » البلاء هو الامتحان و الاختبار،و لام القسم و النون المشدده للتأكيد،و قوله:

بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ

يفيد التحقير ليكون تلقينه للمخاطبين عونا لهم على انتهائهم إلى ما سيواجههم من النهى فى الآيه الآتيه،و قوله: «تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِمَاحُكُمْ » تعميم للصيد من حيث سهوله الاصطياد كما فى فراخ الطير و صغار الوحش و البيض تنالها الأيدى فتصطاد بسهوله،و من حيث صعوبه الاصطياد ككبار الوحش لا تصطاد عاده إلا بالسلاح.

و ظاهر الآيه أنها مسوقه كالتوطئه لما ينزل من الحكم المشدد فى الآيه التاليه،و لذلك عقب الكلام بقوله: «لِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ » فإن فيه إشعارا بأن هناك حكما من قبيل المنع و التحريم ثم عقبه بقوله: «فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

قوله تعالى: «لِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ » لا يبعد أن يكون قوله:ليبلونكم الله ليعلم كذا كنايه عن أنه سيقدر كذا ليتميز منكم من يخاف الله بالغيب عمن لا يخافه لأن الله سبحانه لا يجوز عليه الجهل حتى يرفعه بالعلم،و قد تقدم البحث المستوفى عن معنى الامتحان فى تفسير قوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّهَ،» الآيه:آل عمران:

۱۴۲ فى الجزء الرابع من هذا الكتاب،و تقدم أيضا معنى آخر لهذا العلم.

و أما قوله: «مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ » فالظرف متعلق بالخوف،و معنى الخوف بالغيب أن يخاف الإنسان ربه و يحترز ما ينذره به من عذاب الآخره و أليم عقابه،و كل ذلك فى غيب من الإنسان لا يشاهد شيئا منه بظاهر مشاعره،قال تعالى: «إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ» :يس:۱۱،و قال: «وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّهُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ، هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوّابٍ حَفِيظٍ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ» :ق:۳۳،و قال: «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السّاعَهِ مُشْفِقُونَ» :الأنبياء:۴۹.

و قوله: «فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذٰلِكَ » أى تجاوز الحد الذى يحده الله بعد البلاء المذكور فله عذاب أليم.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ » «إلخ»، الحرم بضمتين جمع الحرام صفه مشبهه،قال فى المجمع:و رجل حرام و محرم بمعنى،و حلال

و محل کذلک،و أحرم الرجل دخل فی الشهر الحرام،و أحرم أیضا دخل فی الحرم، و أحرم أهل بالحج،و الحرم الإحرام،و منه الحدیث:کنت أطیب النبی لحرمه، و أصل الباب،المنع و سمیت النساء حرما لأنها تمنع،و المحروم الممنوع الرزق.

قال:و المثل و المثل و الشبه و الشبه واحد،قال:و النعم فی اللغه الإبل و البقر و الغنم،و إن انفردت الإبل قیل لها:نعم،و إن انفردت البقر و الغنم لم تسم نعما ذکره الزجاج.

قال:قال الفراء: العدل بفتح العین ما عادل الشیء من غیر جنسه،و العدل بالکسر المثل تقول:عندی عدل(بالکسر)غلامک أو شاتک إذا کانت شاه تعدل شاه أو غلام یعدل غلاما فإذا أردت قیمته من غیر جنسه فتحت و قلت:عدل،و قال البصریون:العدل و العدل فی معنی المثل کان من الجنس أو غیر الجنس.

قال:و الوبال ثقل الشیء فی المکروه،و منه قولهم:طعام وبیل و ماء وبیل إذا کانا ثقیلین غیر نامیین فی المال،و منه: «فَأَخَذْنٰاهُ أَخْذاً وَبِیلاً » أی ثقیلا شدیدا،و یقال لخشبه القصار:وبیل من هذا،انتهی.

و قوله: «لاٰ تَقْتُلُوا الصَّیْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ » نهی عن قتل الصید لکن یفسره بعض التفسیر قوله بعد: «أُحِلَّ لَکُمْ صَیْدُ الْبَحْرِ » هذا من جهه الصید،و یفسره من جهه معنی القتل قوله: «وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْکُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزٰاءٌ » «إلخ»،فقوله: «مُتَعَمِّداً » حال من قوله: «مَنْ قَتَلَهُ » و ظاهر التعمد ما یقابل الخطأ الذی هو القتل من غیر أن یرید بفعله ذلک کمن یرمی إلی هدف فأصاب صیدا،و لازمه وجوب الکفاره إذا کان قاصدا لقتل الصید سواء کان علی ذکر من إحرامه أو ناسیا أو ساهیا.

و قوله: «فَجَزٰاءٌ مِثْلُ مٰا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ یَحْکُمُ بِهِ ذَوٰا عَدْلٍ مِنْکُمْ هَدْیاً بٰالِغَ الْکَعْبَهِ » لظاهر معناه:فعلیه جزاء ذلک الجزاء مثل ما قتل من الصید،و ذلک الجزاء من النعم المماثله لما قتله یحکم به أی بذلک الجزاء المماثل رجلان منکم ذوا عدل فی الدین حال کون الجزاء المذکور هدیا یهدی به بالغ الکعبه ینحر أو یذبح فی الحرم بمکه أو بمنی علی ما یبینه السنه النبویه.

فقوله: «فَجَزٰاءٌ » بالرفع مبتدأ لخبر محذوف یدل علیه الکلام،و قوله: «مِثْلُ

مٰا قَتَلَ »

و قوله: «مِنَ النَّعَمِ » و قوله: «يَحْكُمُ بِهِ » «إلخ»،أوصاف للجزاء،و قوله:

«هَدْياً بٰالِغَ الْكَعْبَةِ »

موصوف و صفه،و الهدى حال من الجزاء تقدم،هذا،و قد قيل:غير ذلك.

و قوله: «أَوْ كَفّٰارَةٌ طَعٰامُ مَسٰاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذٰلِكَ صِيٰاماً » خصلتان أخريان من خصال كفاره قتل الصيد،و كلمه «أَوْ » لا يدل على أزيد من مطلق الترديد،و الشارح السنه،غير أن قوله: «أَوْ كَفّٰارَةٌ » حيث سمى طعام المساكين كفاره ثم اعتبر ما يعادل الطعام من الصيام لا يخلو من إشعار بالترتيب بين الخصال.

و قوله: «لِيَذُوقَ وَبٰالَ أَمْرِهِ » اللام للغايه،و هى و مدخولها متعلق بقوله:

«فَجَزٰاءٌ »

فالكلام يدل على أن ذلك نوع مجازاه.

قوله تعالى: «عَفَا اللّٰهُ عَمّٰا سَلَفَ وَ مَنْ عٰادَ فَيَنْتَقِمُ اللّٰهُ مِنْهُ ،إلى آخر الآيه»تعلق العفو بما سلف قرينه على أن المراد بما سلف هو ما تحقق من قتل الصيد قبل نزول الحكم بنزول الآيه فإن تعلق العفو بما يتحقق حين نزول الآيه أو بعده يناقض جعل الحكم و هو ظاهر،فالجمله لدفع توهم شمول حكم الكفاره للحوادث السابقه على زمان النزول.

و الآيه من الدليل على جواز تعلق العفو بما ليس بمعصيه من الأفعال إذا كان من طبعها اقتضاء النهى المولوى لاشتمالها على المفسده،و أما قوله: «وَ مَنْ عٰادَ فَيَنْتَقِمُ اللّٰهُ مِنْهُ وَ اللّٰهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقٰامٍ » فظاهر العود تكرر الفعل،و هذا التكرر ليس تكرر ما سلف من الفعل بأن يكون المعنى:و من عاد إلى مثل ما سلف منه من الفعل فينتقم الله منه لأنه حينئذ ينطبق على الفعل الذى يتعلق به الحكم فى قوله: «وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزٰاءٌ » «إلخ»و يكون المراد بالانتقام هو الحكم بالكفاره،و هو حكم ثابت بالفعل لكن ظاهر قوله: «فَيَنْتَقِمُ اللّٰهُ مِنْهُ » أنه إخبار عن أمر مستقبل لا عن حكم حال فعلى.

و هذا شاهد على أن المراد بالعود العود ثانيا إلى فعل تعلق به الكفاره،و المراد بالانتقام العذاب الإلهى غير الكفاره المجعوله.

و على هذا فالآيه بصدرها و ذيلها تتعرض لجهات مسأله قتل الصيد،أما ما وقع منه قبل نزول الحكم فقد عفا الله عنه،و أما بعد جعل الحكم فمن قتله فعليه جزاء

مثل ما قتل فی المره الأولی فإن عاد فینتقم الله منه و لا کفاره علیه،و علی هذا یدل معظم الأخبار المرویه عن أئمه أهل البیت(ع)فی تفسیر الآیه.

و لو لا هذا المعنی کان کالمتعین حمل الانتقام فی قوله: «فَیَنْتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ » علی ما یعم الحکم بوجوب الکفاره،و حمل العود علی فعل ما یماثل ما سلف منهم من قتل الصید أی و من عاد إلی مثل ما کانوا علیه من قتل الصید قبل هذا الحکم،أی و من قتل الصید فینتقم الله منه أی یؤاخذه بإیجاب الکفاره،و هذا-کما تری-معنی بعید من اللفظ.

قوله تعالی: «أُحِلَّ لَکُمْ صَیْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَکُمْ وَ لِلسَّیّارَهِ » إلی آخر الآیه،الآیات فی مقام بیان حکم الاصطیاد من بحر أو،بر و هو الشاهد علی أن متعلق الحل هو الاصطیاد فی قوله: «أُحِلَّ لَکُمْ صَیْدُ الْبَحْرِ » دون أکله،و بهذه القرینه یتعین قوله: «وَ طَعامُهُ » فی أن المراد به ما یؤکل دون المعنی المصدری الذی هو الأکل و المراد بحل طعام البحر حل أکله فمحصل المراد من حل صید البحر و طعامه جواز اصطیاد حیوان البحر و حل أکل ما یؤخذ منه.

و ما یؤخذ من طعام البحر و إن کان أعم مما یؤخذ منه صیدا کالعتیق من لحم الصید أو ما قذفته البحر من میته حیوان و نحوه إلا أن الوارد من أخبار أئمه أهل البیت(ع)تفسیره بالمملوح و نحوه من عتیق الصید،و قوله: «مَتاعاً لَکُمْ وَ لِلسَّیّارَهِ » کأنه حال من صید البحر و طعامه،و فیه شیء من معنی الامتنان.

و حیث کان الخطاب للمؤمنین من حیث کونهم محرمین کانت المقابله بینهم و بین السیاره فی قوه قولنا:متاعا للمحرمین و غیرهم.

و اعلم أن فی الآیات أبحاثا فرعیه کثیره معنونه فی الکتب الفقهیه من أرادها فلیراجعها.

قوله تعالی: «جَعَلَ اللّهُ الْکَعْبَهَ الْبَیْتَ الْحَرامَ قِیاماً لِلنّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْیَ وَ الْقَلائِدَ » ظاهر تعلیق الکلام بالکعبه ثم بیانه بالبیت بأنه بیت حرام،و کذا توصیف الشهر بالحرام ثم ذکر الهدی و القلائد اللذین یرتبط شأنهما بحرمه البیت،کل ذلک یدل علی أن الملاک فیما یبین الله سبحانه فی هذه الآیه من الأمر إنما هو الحرمه.

ص:۱۴۱

و القیام ما یقوم به الشیء،قال الراغب:و القیام و القوام اسم لما یقوم به الشیء أی یثبت کالعماد و السناد لما یعمد و یسند به کقوله: «وَ لاٰ تُؤْتُوا السُّفَهٰاءَ أَمْوٰالَکُمُ الَّتِی جَعَلَ اللّٰهُ لَکُمْ قِیٰاماً » أی جعلها مما یمسککم،و قوله: «جَعَلَ اللّٰهُ الْکَعْبَهَ الْبَیْتَ الْحَرٰامَ قِیٰاماً لِلنّٰاسِ » أی قواما لهم یقوم به معاشهم و معادهم،قال الأصم:قائما لا ینسخ،و قرئ:قیما بمعنی قیاما،انتهی.

فیرجع معنی قوله: «جَعَلَ اللّٰهُ الْکَعْبَهَ الْبَیْتَ الْحَرٰامَ قِیٰاماً لِلنّٰاسِ » إلی أنه تعالی جعل الکعبه بیتا حراما احترمه،و جعل بعض الشهور حراما،و وصل بینهما حکما کالحج فی ذی الحجه الحرام،و جعل هناک أمورا تناسب الحرمه کالهدی و القلائد کل ذلک لتعتمد علیه حیاه الناس الاجتماعیه السعیده.

فإنه جعل البیت الحرام قبله یوجه إلیه الناس وجوههم فی صلواتهم و یوجهون إلیه ذبائحهم و أمواتهم،و یحترمونه فی سیئ حالاتهم،فیتوحد بذلک جمعهم،و یجتمع به شملهم،و یحیی و یدوم به دینهم،و یحجون إلیه من مختلف الأقطار و أقاصی الآفاق فیشهدون منافع لهم،و یسلکون به طرق العبودیه.

و یهدی باسمه و بذکره و النظر إلیه و التقرب به و التوجه إلیه العالمون،و قد بینه الله تعالی بوجه آخر قریب من هذا الوجه بقوله: «إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنّٰاسِ لَلَّذِی بِبَکَّهَ مُبٰارَکاً وَ هُدیً لِلْعٰالَمِینَ» ، :-آل عمران:۹۶ و قد وافاک فی الآیه فی الجزء الثالث من هذا الکتاب من الکلام ما یتنور به المقام.

و نظیر ذلک الکلام فی کون الشهر الحرام قیاما للناس و قد حرم الله فیه القتال، و جعل الناس فیه فی أمن من حیث دمائهم و أعراضهم و أموالهم،و یصلحون فیه ما فسد أو اختل من شئون حیاتهم،و الشهر الحرام بین الشهور کالموقف و المحط الذی یستریح فیه المتطرق التعبان،و بالجمله البیت الحرام و الشهر الحرام و ما یتعلق بذلک من هدی و قلائد قیام للناس من عامه جهات معاشهم و معادهم،و لو استقرأ المفکر المتأمل جزئیات ما ینتفع به الناس انتفاعا جاریا أو ثابتا من برکات البیت العتیق و الشهر الحرام من صله الأرحام،و مواصله الأصدقاء،و إنفاق الفقراء،و استرباح الأسواق،و مواده الأقرباء و الأدانی،و معارفه الأجانب و الأباعد،و تقارب القلوب،و تطهر الأرواح،

و اشتداد القوی،و اعتضاد المله،و حیاه الدین،و ارتفاع أعلام الحق،و رایات التوحید أصاب برکات جمه و رأی عجبا.

و کان المراد من ذکر هذه الحقیقه عقیب الآیات الناهیه عن الصید هو دفع ما یتوهم أن هذه أحکام عدیمه أو قلیله الجدوی،فأی فائده لتحریم الصید فی مکان من الأمکنه أو زمان من الأزمنه؟و أی جدوی فی سوق الهدی و نحو ذلک؟و هل هذه الأحکام إلا مشاکله لما یوجد من النوامیس الخرافیه بین الأمم الجاهله الهمجیه؟.

فأجیب عن ذلک بأن اعتبار البیت الحرام و الشهر الحرام و ما یتبعهما من الحکم مبنی علی حقیقه علمیه و أساس جدی و هو أنها قیام یقوم به صلب حیاتهم.

و من هنا یظهر وجه اتصال قوله: «ذٰلِکَ لِتَعْلَمُوا » ،إلی آخر الآیه»بما قبله، و المشار إلیه بقوله: «ذٰلِکَ » إما نفس الحکم المبین فی الآیات السابقه الذی یوضح حکمه تشریعه قوله: «جَعَلَ اللّٰهُ الْکَعْبَهَ الْبَیْتَ الْحَرٰامَ قِیٰاماً لِلنّٰاسِ » «إلخ»،و إما بیان الحکم الموضح بقوله: «جَعَلَ اللّٰهُ الْکَعْبَهَ » «إلخ»،المدلول علیه بالمقام.

و المعنی علی التقدیر الأول أن الله جعل البیت الحرام و الشهر الحرام قیاما للناس و وضع ما یناسبهما من الأحکام لینتقلوا من حفظ حرمتهما و العمل بالأحکام المشرعه فیهما إلی أن الله علیم بما فی السماوات و الأرض و ما یصلح شئونها،فشرع ما شرع لکم عن علم من غیر أن یکون شیء من ذلک حکما خرافیا صادرا عن جهاله الوهم.

و المعنی علی التقدیر الثانی أنا بینا لکم هذه الحقیقه و هی جعل البیت الحرام و الشهر الحرام و ما یتبعهما من الأحکام قیاما للناس لتعلموا أن الله علیم بما فی السماوات و الأرض و ما یتبعها من الأحکام المصلحه لشئونها فلا تتوهموا أن هذه الأحکام المشرعه لاغیه من غیر جدوی أو أنها خرافات مختلقه.

قوله تعالی: «اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ شَدِیدُ الْعِقٰابِ وَ أَنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ ،إلی آخر الآیتین»تأکید للبیان و تثبیت لموقع الأحکام المذکوره،و وعید و وعد للمطیعین و العاصین،و فیه شائبه تهدید،و لذلک قدم توصیفه بشده العقاب علی توصیفه بالمغفره و الرحمه،و لذلک أیضا أعقب الکلام بقوله: «مٰا عَلَی الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ وَ اللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا تُبْدُونَ وَ مٰا تَکْتُمُونَ » .

(بحث روائی)

- فی الکافی،:بإسناده عن حماد بن عیسی و ابن أبی عمیر،عن معاویه بن عمار، عن أبی عبد الله(ع): فی قول الله عز و جل: «لَیَبْلُوَنَّکُمُ اللّهُ بِشَیْءٍ مِنَ الصَّیْدِ-تَنالُهُ أَیْدِیکُمْ وَ رِماحُکُمْ » ،قال:حشرت لرسول الله ص فی عمره الحدیبیه الوحوش-حتی نالتها أیدیهم و رماحهم.

أقول:و رواه العیاشی،عن معاویه بن عمار مرسلا،و روی هذا المعنی أیضا الکلینی فی الکافی،و الشیخ فی التهذیب،بإسنادهما إلی الحلبی عن الصادق(ع)،و العیاشی عن سماعه عنه(ع)مرسلا،و کذا القمی فی تفسیره مرسلا،و روی ذلک عن مقاتل بن حیان کما یأتی.

- و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی حاتم عن مقاتل بن حیان قال: أنزلت هذه الآیه فی عمره الحدیبیه-فکانت الوحوش و الطیر و الصید تغشاهم فی رحالهم-لم یروا مثله قط فیما خلا؛فنهاهم الله عن قتله-و هم محرمون لیعلم الله من یخافه بالغیب.

أقول:و الروایتان لا تنافیان ما قدمناه فی البیان السابق من عموم معنی الآیه.

- و فی الکافی،مسندا عن أحمد بن محمد رفعه: فی قوله تبارک و تعالی: تَنالُهُ أَیْدِیکُمْ وَ رِماحُکُمْ ،قال:ما تناله الأیدی البیض و الفراخ،و ما تناله الرماح فهو ما لا تصل إلیه الأیدی.

- و فی تفسیر العیاشی،بإسناده عن حریز،عن أبی عبد الله(ع)قال: إذا قتل الرجل المحرم حمامه ففیها شاه،فإن قتل فرخا ففیه جمل،فإن وطأ بیضه فکسرها فعلیه درهم،کل هذا یتصدق بمکه و منی،و هو قول الله فی کتابه: «لَیَبْلُوَنَّکُمُ اللّهُ بِشَیْءٍ مِنَ الصَّیْدِ تَنالُهُ أَیْدِیکُمْ » -البیض و الفراخ «وَ رِماحُکُمْ » الأمهات الکبار.

أقول:و رواه الشیخ فی التهذیب،عن حریز عنه(ع)مقتصرا علی الشطر الأخیر من الحدیث .

- و فی التهذیب،بإسناده عن ابن أبی عمیر،عن حماد،عن الحلبی،عن أبی عبد الله (ع)قال: المحرم إذا قتل الصید فعلیه جزاؤه-و یتصدق بالصید علی مسکین،فإن

عاد فقتل صيدا آخر لم يكن عليه جزاء-و ينتقم الله منه،و النقمه فى الآخره.

- و فيه،:عن الكلينى،عن ابن أبى عمير،عن بعض أصحابه،عن أبى عبد الله (ع)قال: إذا أصاب المحرم الصيد خطأ فعليه كفاره،فإن أصابه ثانيه متعمدا فهو ممن ينتقم الله منه،و لم يكن عليه كفاره.

- و فيه،:عن ابن أبى عمير،عن معاويه بن عمار قال: قلت لأبى عبد الله:محرم أصاب صيدا؟قال:عليه كفاره-قلت:فإن هو عاد؟قال:عليه كلما عاد كفاره.

أقول:الروايات-كما ترى-مختلفه،و قد جمع الشيخ بينها بأن المراد أن المحرم إذا قتل متعمدا فعليه كفاره و إن عاد متعمدا فلا كفاره عليه،و هو ممن ينتقم الله منه،و أما الناسى فكلما عاد فعليه كفاره.

- و فيه،:بإسناده عن زراره عن أبى جعفر(ع): فى قول الله عز و جل: «يَحْكُمُ بِهِ ذَوٰا عَدْلٍ مِنْكُمْ » -فالعدل رسول الله ص و الإمام من بعده-يحكم به و هو ذو عدل- فإذا علمت ما حكم الله به من رسول الله و الإمام-فحسبك و لا تسأل عنه.

أقول:و فى هذا المعنى عده روايات

- و فى بعضها: تلوت عند أبى عبد الله(ع):

«ذَوٰا عَدْلٍ مِنْكُمْ »

-فقال:ذو عدل منكم،هذا مما أخطأت به الكتاب ،و هو يرجع إلى القراءه كما هو ظاهر.

- و فى الكافى،عن الزهرى عن على بن الحسين(ع)قال: صوم جزاء الصيد واجب قال الله عز و جل: «وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزٰاءٌ مِثْلُ مٰا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ-يَحْكُمُ بِهِ ذَوٰا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بٰالِغَ الْكَعْبَهِ-أَوْ كَفّٰارَهٌ طَعٰامُ مَسٰاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذٰلِكَ صِيٰاماً » .

أ و تدرى كيف يكون عدل ذلك صياما يا زهرى؟قال:قلت:لا أدرى، قال:يقوم الصيد ثم تفض تلك القيمه على البر-ثم يكال ذلك البر أصواعا فيصوم لكل نصف صاع يوما.

- و فيه،بإسناده عن أحمد بن محمد،عن بعض رجاله،عن أبى عبد الله(ع)قال:

من وجب عليه هدى فى إحرامه-فله أن ينحره حيث شاء إلا فداء الصيد-فإن الله يقول:

«هَدْياً بٰالِغَ الْكَعْبَهِ »

.

- و فی تفسیر العیاشی،عن حریز،عن أبی عبد الله(ع)قال: «أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعٰامُهُ مَتٰاعاً لَكُمْ » -قال:مالحه الذی یأكلون؛و قال:فصل ما بینهما:كل طیر یكون فی الآجام یبیض فی البر-و یفرخ فی البر من صید البر،و ما كان من الطیر یكون فی البر و یبیض فی البحر و یفرخ-فهو من صید البحر.

- و فیه،:عن زید الشحام،عن أبی عبد الله (ع)قال: سألته عن قول الله:

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعٰامُهُ-مَتٰاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيّٰارَهِ »

قال:هی حیتان المالح،و ما تزودت منه أیضا و إن لم یكن مالحا فهو متاع.

أقول:و الروایات فی هذه المعانی كثیره عن أئمه أهل البیت(ع)من طرق الشیعه.

- و فی الدر المنثور،:أخرج ابن أبی شیبه عن معاویه بن قره،و أحمد عن رجل من الأنصار: أن رجلا أوطأ بعیره أدحی نعامه فكسر بیضها-فقال رسول الله ص:

علیك بكل بیضه صوم یوم أو إطعام مسكین:.

أقول:و روی هذا المعنی أیضا عن ابن أبی شیبه عن عبد الله بن ذكوان،عن النبی ص،و رواه أیضا عنه عن أبی الزناد عن عائشه عنه(ص) .

- و فیه،:أخرج أبو الشیخ و ابن مردویه من طریق أبی المهزم عن النبی ص قال:

فی بیض النعام ثمنه.

- و فیه،:أخرج ابن أبی حاتم عن أبی جعفر محمد بن علی: أن رجلا سأل علیا عن الهدی مما هو؟قال:من الثمانیه الأزواج فكأن الرجل شك-فقال علی:تقرأ القرآن؟ فكأن الرجل قال:نعم،قال:فسمعت الله یقول: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ-أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَهُ الْأَنْعٰامِ » ؟قال:نعم-قال سمعته یقول: «لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلىٰ مٰا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَهِ الْأَنْعٰامِ ، وَ مِنَ الْأَنْعٰامِ حَمُولَهً وَ فَرْشاً ،فكلوا من بهیمه الأنعام»؟ قال:نعم.

قال:فسمعته یقول: «مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ،... وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ»؟

قال:نعم؛قال:فسمعته يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ -إلى قوله- هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ » ؟قال الرجل:نعم.

فقال:إن قتلت ظبيا فما على؟قال:شاه؛قال على:هديا بالغ الكعبه؟قال الرجل:نعم-فقال على:قد سماه الله بالغ الكعبه كما تسمع.

- و فيه:،أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى": أن عمر بن الخطاب و عثمان بن عفان و على بن أبى طالب-و ابن عباس و زيد بن ثابت و معاويه-قضوا فيما كان من هدى-مما يقتل المحرم من صيد فيه جزاء-نظر إلى قيمه ذلك فأطعم به المساكين.

- و فيه:،أخرج ابن جرير عن أبى هريره قال:قال رسول الله ص: أحل لكم صيد البحر و طعامه متاعا لكم-قال:ما لفظه ميتا فهو طعامه.

أقول:و روى ما فى معناه عن بعض الصحابه أيضا لكن المروى من طرق أهل البيت عنهم(ع)خلافه كما تقدم.

- و فى تفسير العياشى،عن أبان بن تغلب قال: قلت لأبى عبد الله(ع): «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ » -قال جعل الله لدينهم و معايشهم.

أقول:و قد تقدم توضيح معنى الروايه.

[سوره المائده (۵): آیه ۱۰۰]

اشاره

قُلْ لاَ يَسْتَوِي اَلْخَبِيثُ وَ اَلطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ اَلْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اَللَّهَ يَا أُولِي اَلْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۰۰)

بيان

الآيه كأنها مستقله مفرده لعدم ظهور اتصالها بما قبلها و ارتباط ما بعدها بها فلا حاجه إلى التمحل فى بيان اتصالها بما قبلها،و إنما تشتمل على مثل كلى ضربه الله سبحانه لبيان خاصه يختص بها الدين الحق من بين سائر الأديان و السير العامه الدائره،و هى أن

الاعتبار بالحق و إن كان قليلا أهله و شارده فئته،و الركون إلى الخير و السعاده و إن أعرض عنه الأكثرون و نسيه الأقوون؛فإن الحق لا يعتمد فى نواميسه إلا على العقل السليم،و حاشا العقل السليم أن يهدى إلا إلى صلاح المجتمع الإنسانى فيما يشد أزره من أحكام الحياه و سبل المعيشه الطيبه سواء وافق أهواء الأكثرين أو خالف،و كثيرا ما يخالف؛فهو ذا النظام الكونى و هو محتد الآراء الحقه لا يتبع شيئا من أهوائهم،و لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات و الأرض.

قوله تعالى: «قُلْ لاٰ يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ » كان المراد بعدم استواء الخبيث و الطيب أن الطيب خير من الخبيث،و هو أمر بين فيكون الكلام مسوقا للكنايه،و ذلك أن الطيب بحسب طبعه و بقضاء من الفطره أعلى درجه و أسمى منزله من الخبيث؛فلو فرض انعكاس الأمر و صيروره الخبيث خيرا من الطيب لعارض يعرضه كان من الواجب أن يتدرج الخبيث فى الرقى و الصعود حتى يصل إلى حد يحاذى الطيب فى منزلته و يساويه ثم يتجاوزه فيفوقه فإذا نفى استواء الخبيث و الطيب كان ذلك أبلغ فى نفى خيريه الخبيث من الطيب.

و من هنا يظهر وجه تقديم الخبيث على الطيب،فإن الكلام مسوق لبيان أن كثره الخبيث لا تصيره خيرا من الطيب،و إنما يكون ذلك بارتفاع الخبيث من حضيض الرداءه و الخسه إلى أوج الكرامه و العزه حتى يساوى الطيب فى مكانته ثم يعلو عليه و لو قيل:لا يستوى الطيب و الخبيث كانت العنايه الكلاميه متعلقه ببيان أن الطيب لا يكون أردى و أخس من الخبيث،و كان من الواجب حينئذ أن يذكر بعده أمر قله الطيب مكان كثره الخبيث فافهم ذلك.

و الطيب و الخباثه على ما لهما من المعنى وصفان حقيقيان لأشياء حقيقيه خارجيه كالطعام الطيب أو الخبيث و الأرض الطيبه أو الخبيثه قال تعالى: «وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبٰاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِى خَبُثَ لاٰ يَخْرُجُ إِلاّٰ نَكِداً» :الأعراف:۵۸،و قال تعالى: «وَ الطَّيِّبٰاتِ مِنَ الرِّزْقِ» :الأعراف:۳۲،و إن أطلق الطيب و الخباثه أحيانا على شىء من الصفات الوضعيه الاعتباريه كالحكم الطيب أو الخبيث و الخلق الطيب أو الخبيث فإنما ذلك بنوع من العنايه.

هذا و لكن تفريع قوله: «فَاتَّقُوا اللّٰهَ يٰا أُولِى الْأَلْبٰابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » على

قوله: «لاٰ يَسْتَوِی الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ ،إلخ»و التقوى من قبيل الأفعال أو التروک،و طيبها و خباثتها عنائيه مجازيه،و إرسال الكلام أعنى قوله: «لاٰ يَسْتَوِی ،إلخ»إرسال المسلمات أقوى شاهد على أن المراد بالطيب و الخباثه إنما هو الخارجى الحقيقى منهما فيكون الحجه ناجحه،و لو كان المراد هو الطيب و الخبيث من الأعمال و السير لم يتضح ذاک الاتضاح فكل طائفه ترى أن طريقتها هى الطريقه الطيبه،و ما يخالف أهواءها و يعارض مشيئتها هو الخبيث.

فالقول مبنى على معنى آخر بينه الله سبحانه فى مواضع من كلامه،و هو أن الدين مبنى على الفطره و الخلقه،و أن ما يدعو إليه الدين هو الطيب من الحياه،و ما ينهى عنه هو الخبيث،و أن الله لم يحل إلا الطيبات و لم يحرم إلا الخبائث قال تعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِی فَطَرَ النّٰاسَ عَلَيْهٰا لاٰ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذٰلِکَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» :الروم:

۳۰،و قال: «وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبٰاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبٰائِثَ» :الأعراف:۱۵۷.

و قال: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّٰهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبٰادِهِ وَ الطَّيِّبٰاتِ مِنَ الرِّزْقِ» :الأعراف:۳۲.

فقد تحصل أن الكلام أعنى قوله: «لاٰ يَسْتَوِی الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَکَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ » ،مثل مضروب لبيان أن قواعد الدين ركبت على صفات تكوينيه فى الأشياء من طيب أو خباثه مؤثره فى سبيل السعاده و الشقاوه الإنسانيتين،و لا يؤثر فيها قله و لا كثره فالطيب طيب و إن كان قليلا،و الخبيث خبيث و إن كان كثيرا.

فمن الواجب على كل ذى لب يميز الخبيث من الطيب،و يقضى بأن الطيب خير من الخبيث،و أن من الواجب على الإنسان أن يجتهد فى إسعاد حياته،و يختار الخير على الشر أن يتقى الله ربه بسلوک سبيله،و لا يغتر بانكباب الكثيرين من الناس على خبائث الأعمال و مهلكات الأخلاق و الأحوال،و لا يصرفه الأهواء عن اتباع الحق بتوليه أو تهويل لعله يفلح بركوب السعاده الإنسانيه.

قوله تعالى: «فَاتَّقُوا اللّٰهَ يٰا أُولِی الْأَلْبٰابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » تفريع على المثل المضروب فى صدر الآيه،و محصل المعنى أن التقوى لما كان متعلقه الشرائع الإلهيه التى تبتنى هى أيضا على طيبات و خبائث تكوينيه فى رعايه أمرها سعاده الإنسان و فلاحه

على ما لا يرتاب فى ذلك ذو لب و عقل فيجب عليكم يا أولى الألباب أن تتقوا الله بالعمل بشرائعه لعلكم تفلحون.

[سوره المائده (۵): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۲]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيٰاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْهٰا حِينَ يُنَزَّلُ اَلْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اَللّٰهُ عَنْهٰا وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (۱۰۱) قَدْ سَأَلَهٰا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهٰا كٰافِرِينَ (۱۰۲)

(بيان)

الآيتـان غير ظـاهرتى الارتبـاط بمـا قبلهما،و مضـمونهما غنى عن الاتصال بشـىء من الكلام يبين منهما ما لا تسـتقلان بإفادته فلا حـاجه إلى مـا تجشـمه جمع من المفسـرين فى توجيه اتصالهمـا تـاره بما قبلهما،و أخرى بأول السوره،و ثالثه بالغرض من السوره فالصفح عن ذلك كله أولى.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيٰاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ » (الآيه) الإبداء الإظهار،و ساءه كذا خلاف سره.

و الآيه تنهى المؤمنين عن أن يسألوا عن أشـياء إن تبد لهم تسؤهم،و قد سكتت أولا عن المسئول من هو؟غير أن قوله بعد: «وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْهٰا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ » ،و كذا قوله فى الآيه التاليه: «قَدْ سَأَلَهٰا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهٰا كٰافِرِينَ » يدل على أن النبى ص مقصود بـالسؤال مسئول بمعنى أن الآيه سيقت للنهى عن سؤال النبى ص عن أشـياء من شأنهـا كيت و كيت،و إن كـانت العله المسـتفاده من الآيه الموجبه للنهى تفيـد شـمول النهى لغير مورد الغرض و هو أن يسأل الإنسان و يفحص عن كل ما عفاه العفو الإلهى،و ضرب دون الاطلاع عليه بالأسباب العاديه و الطرق

ص: ۱۵۰

المألوفه سترا فإن فى الاطلاع على حقيقه مثل هذه الأمور مظنه الهلاك و الشقاء كمن تفحص عن يوم وفاته أو سبب هلاكه أو عمر أحبته و أعزته أو زوال ملكه و عزته، و ربما كان ما يطلع عليه هو السبب الذى يخترمه بالفناء أو يهدده بالشقاء.

فنظام الحياه الذى نظمه الله سبحانه و وضعه جاريا فى الكون فأبدا أشياء و حجب أشياء لم يظهر ما أظهره إلا لحكمه،و لم يخف ما أخفاه إلا لحكمه أى إن التسبب إلى خفاء ما ظهر منها و التوسل إلى ظهور ما خفى منها يورث اختلال النظام المبسوط على الكون كالحياه الإنسانيه المبنيه على نظام بدنى مؤلف من قوى و أعضاء و أركان لو نقص واحد منها أو زيد شيء عليها أوجب ذلك فقدان أجزاء هامه من الحياه ثم يعتبر ذلك مجرى القوى و الأعضاء الباقيه،و ربما أدى ذلك إلى بطلان الحياه بحقيقتها أو معناها.

ثم إن الآيه أبهمت ثانيا أمر هذه الأشياء التى نهت عن السؤال عنها،و لم توضح من أمرها إلا أنها بحيث إن تبد لهم تسؤهم«إلخ»،و مما لا يرتاب فيه أن قوله: «إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ » نعت للأشياء،و هى جمله شرطيه تدل على تحقق وقوع الجزاء على تقدير وقوع الشرط،و لازمه أن تكون هذه أشياء تسؤهم إن أبدئت لهم فطلب إبدائها و إظهارها بالمسأله طلب للمساءه.

فيستشكل بأن الإنسان العاقل لا يطلب ما يسؤه،و لو قيل:لا تسألوا عن أشياء فيها ما إن تبد لكم تسؤكم،أو لا تسألوا عن أشياء لا تأمنون أن تسوءكم إن تبد لكم لم يلزم محذور.

و من عجيب ما أجيب به عن الإشكال أن من المقرر فى قوانين العربيه أن شرط«إن»مما لا يقطع بوقوعه،و الجزاء تابع للشرط فى الوقوع و عدمه فكان التعبير بقوله «إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ » دون«إذا أبديت لكم تسؤكم»دالا على أن احتمال إبدائها و كونها تسوء كاف فى وجوب الانتهاء عن السؤال عنها،انتهى موضع الحاجه.

و قد أخطأ فى ذلك،و ليت شعرى أى قانون من قوانين العربيه يقرر أن يكون الشرط غير مقطوع الوقوع؟ثم الجزاء بما هو جزاء متعلق الوجود بالشرط غير مقطوع الوقوع؟و هل يفيد قولنا:إن جئتنى أكرمتك إلا القطع بوقوع الإكرام على تقدير وقوع المجىء؟فقوله:إن التعبير بالشرط يدل على أن احتمال إبدائها و كونه يسوء كاف

فی وجوب الانتهاء،انتهی.إنما یصح لو کان مفاد الشرط فی الآیه هو النهی عن السؤال عن أشیاء یمکن أن تسوء إن أبدئت و لیس کذلک کما عرفت بل المفاد النهی عن السؤال أشیاء یقطع بمساءتها إن أبدئت،فالإشکال علی حاله.

و یتلو هذا الجواب فی الضعف قول بعضهم-علی ما فی بعض الروایات:أن المراد بقوله: «أَشْیٰاءَ إِنْ تُبْدَ لَکُمْ تَسُؤْکُمْ » ما ربما یهواه بعض النفوس من الاطلاع علی بعض المغیبات کالآجال و عواقب الأمور و جریان الخیر و الشر و الکشف عن کل مستور مما لا یخلو العلم به طبعا من أن یتضمن ما یسوء الإنسان و یحزنه کسؤال الرجل عن باقی عمره، و سبب موته،و حسن عاقبته، و عن أبیه من هو؟و قد کان دائرا بینهم فی الجاهلیه.

فالمراد بقوله: «لاٰ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْیٰاءَ إِنْ تُبْدَ لَکُمْ تَسُؤْکُمْ » هو النهی عن السؤال عن هذه الأمور التی لا یخلو انکشاف الحال فیها غالبا أن یشتمل علی ما یسوء الإنسان و یحزنه کظهور أن الأجل قریب،أو أن العاقبه وخیمه،أو أن أباه فی الواقع غیر من یدعی إلیه.

فهذه أمور یتضمن غالبا مساءه الإنسان و حزنه،و لا یؤمن من أن یجاب إذا سئل عنه النبی ص بما لا یرتضیه السائل فیدعوه الاستکبار النفسانی و أنفه العصبیه أن یکذب النبی ص فیما یجیب به فیکفر بذلک کما یشیر إلیه قوله تعالی فی الآیه التالیه:

«قَدْ سَأَلَهٰا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِکُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهٰا کٰافِرِینَ »

.

و هذا الوجه و إن کان سلیما فی بادئ النظر لکنه لا یلائم قوله تعالی: «وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْهٰا حِینَ یُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَکُمْ » سواء قلنا:إن مفاده تجویز السؤال عن هذه الأشیاء حین نزول القرآن،أو تشدید النهی عنه حین نزول القرآن بالدلاله علی أن المجیب-و هو النبی ص-فی غیر حال نزول القرآن فی سعه من أن لا یجیب عن هذه الأسئله رعایه لمصلحه السائلین؛لکنها أعنی الأشیاء المسئول عنها مکشوفه الحقیقه مرفوع عنها الحجاب لا محاله فلا تسألوا عنها حین ینزل القرآن البته.

أما عدم ملاءمته علی المعنی الأول فلأن السؤال عن هذه الأشیاء لما اشتمل علی المفسده بحسب طبعه فلا معنی لتجویزه حال نزول القرآن،و المفسده هی المفسده.

و أما علی المعنی الثانی فلأن حال نزول القرآن و إن کان حال البیان و الکشف

عن ما يحتاج إلى الكشف و الإبداء غير أن هذه الخصيصه مرتبطه بحقائق المعارف و شرائع الأحكام و ما يجرى مجراها،و أما تعيين أجل زيد و كيفيه وفاه عمرو، و تشخيص من هو أبو فلان؟و نحو ذلك فهى مما لا يرتبط به البيان القرآنى،فلا وجه لتذييل النهى عن السؤال عن أشياء كذا و كذا بنحو قوله: «وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ » و هو ظاهر.

فالأوجه فى الجواب ما يستفاد من كلام آخرين أن الآيه «قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ،إلخ»و كذا قوله: «وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ » تدل على أن المسئول عنها أشياء مرتبطه بالأحكام المشرعه كالخصوصيات الراجعه إلى متعلقات الأحكام مما ربما يستقصى فى البحث عنه و الإصرار فى المداقه عليه،و نتيجه ذلك ظهور التشديد و نزول التحريج كلما أمعن فى السؤال و ألح على البحث كما قصه الله سبحانه فى قصه البقره عن بنى إسرائيل حيث شدد الله سبحانه بالتضييق عليهم كلما بالغوا فى السؤال عن نعوت البقره التى أمروا بذبحها.

ثم إن قوله تعالى: «عَفَا اللّهُ عَنْها » الظاهر أنه جمله مستقله مسوقه لتعليل النهى فى قوله: «لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ » لا كما ذكروه:أنه وصف لأشياء،و أن فى الكلام تقديما و تأخيرا،و التقدير:لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها إن تبد لكم تسؤكم،«إلخ».

و هذا التعبير-أعنى تعديه العفو بعن-أحسن شاهد على أن المراد بالأشياء المذكوره هى الأمور الراجعه إلى الشرائع و الأحكام،و لو كانت من قبيل الأمور الكونيه كان كالمتعين أن يقال:عفاها الله.

و كيف كان فالتعليل بالعفو يفيد أن المراد بالأشياء هى الخصوصيات الراجعه إلى الأحكام و الشرائع و القيود و الشرائط العائده إلى متعلقاتها،و أن السكوت عنها ليس لأنها مغفول عنها أو مما أهمل أمرها بل لم يكن ذلك إلا تخفيفا من الله سبحانه لعباده و تسهيلا كما قال: «وَ اللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ » فما يقترحونه من السؤال عن خصوصياته تعرض منهم للتضييق و التحريج و هو مما يسوؤهم و يحزنهم البته فإن فى ذلك ردا للعفو الإلهى الذى لم يكن البته إلا للتسهيل و التخفيف،و تحكيم صفتى المغفره و الحلم الإلهيين.

فيرجع مفاد قوله: «لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ ،إلخ»إلى نحو قولنا:يا أيها الذين

ص :۱۵۳

آمنوا لا تسألوا النبی ص عن أشیاء مسكوت عنها فی الشریعه عفا الله عنها و لم یتعرض لبیانها تخفیفا و تسهیلا فإنها بحیث تبین لكم أن تسألوا عنها حین نزول القرآن،و تسوؤكم إن أبدئت لكم و بینت.

و قد تبین مما مر أولا:أن قوله تعالی: «وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْهٰا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ » من تتمه النهی كما عرفت،لا لرفع النهی عن السؤال حین نزول القرآن كما ربما قیل.

و ثانیا:أن قوله تعالی: «عَفَا اللّٰهُ عَنْهٰا » جمله مستقله مسوقه لتعلیل النهی عن السؤال فتفید فائده الوصف من غیر أن یكون وصفا بحسب التركیب الكلامی.

و ثالثا:وجه تذییل الكلام بقوله: «وَ اللّٰهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ » مع كون الكلام مشتملا علی النهی غیر الملائم لصفتی المغفره و الحلم فالاسمان یعودان إلی مفاد العفو المذكور فی قوله: «عَفَا اللّٰهُ عَنْهٰا » دون النهی الموضوع فی الآیه.

قوله تعالی: «قَدْ سَأَلَهٰا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهٰا كٰافِرِينَ » یقال:سأله و سأل عنه بمعنی،و «ثُمَّ » یفید التراخی بحسب الرتبه الكلامیه دونه بحسب الزمان.

و الباء فی قوله: «بِهٰا » متعلقه بقوله: «كٰافِرِينَ » علی ما هو ظاهر الآیه من كونها مسوقه للنهی عن السؤال عما یتعلق بقیود الأحكام و الشرائع المسكوت عنها عند التشریع؛ فالكفر كفر بالأحكام من جهه استلزامها تحرج النفوس عنها و تضیق القلوب من قبولها، و یمكن أن تكون الباء للسببیه و لا یخلو عن بعد.

و الآیه و إن أبهمت القوم المذكورین و لم یعرفهم لكن فی القرآن الكریم ما یمكن أن تنطبق علیه الآیه من القصص كقصه المائده من قصص النصاری و قصص أخری من قوم موسی و غیرهم.

(بحث روائی)

- فی الدر المنثور،:أخرج ابن جریر و أبو الشیخ و ابن مردویه عن أبی هریره قال:

خطبنا رسول الله ص فقال:یا أیها الناس كتب الله علیكم الحج-فقام عكاشه بن محصن الأسدی-فقال:أ فی كل عام یا رسول الله؟قال:أما إنی لو قلت:نعم لوجبت،و لو وجبت ثم تركتم لضللتم- اسكتوا عنی ما سكت عنكم-فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم-

و اختلافهم على أنبيائهم-فأنزل الله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا-لاَ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكَمْ تَسُؤْكُمْ » إلى آخر الآيه.

أقول:و روى القصه عن أبى هريره و أبى أمامه و غيرهما عده من الرواه،و رويت فى المجمع و غيره من كتب الخاصه،و هى تنطبق على ما قدمناه فى البيان المتقدم.

- و فيه،أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى: فى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ ،الآيه»قال:غضب رسول الله ص يوما من الأيام-فقام خطيبا فقال:سلونى-فإنكم لا تسألونى عن شىء إلا أنبأتكم به-فقام إليه رجل من قريش من بنى سهم-يقال له:عبد الله بن حذاقه-و كان يطعن فيه-فقال:يا رسول الله من أبى؟فقال:أبوك فلان-فدعاه لأبيه فقام إليه عمر فقبل رجله-و قال:يا رسول الله رضينا بالله ربا و لك نبيا-و بالقرآن إماما فاعف عنا عفا الله عنك-فلم يزل به حتى رضى فيومئذ قال:الولد للفراش و للعاهر الحجر،و أنزل عليه: «قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ » .

أقول:و الروايه مرويه بعده طرق على اختلاف فى متونها،و قد عرفت فيما تقدم أنها غير قابله الانطباق على الآيه.

- و فيه،أيضا:أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه عن ثعلبه الخشنى قال:فقال رسول الله ص: إن الله حد حدودا فلا تعتدوها،و فرض لكم فرائض فلا تضيعوها،و حرم أشياء فلا تنتهكوها،و ترك أشياء فى غير نسيان و لكن رحمه منه لكم-فاقبلوها و لا تبحثوا عنها.

- و فى المجمع،و الصافى،عن على(ع)قال: إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها-و حد لكم حدودا فلا تعتدوها،و نهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها،و سكت لكم عن أشياء-و لم يدعها نسيانا فلا تتكلفوها.

- و فى الكافى،بإسناده عن أبى الجارود قال:قال أبو جعفر(ع): إذا حدثتكم بشىء فاسألونى عنه من كتاب الله-،ثم قال فى بعض حديثه:إن رسول الله ص نهى عن القيل و القال،و فساد المال،و كثره السؤال-فقيل له:يا بن رسول الله أين هذا من كتاب الله؟قال:إن الله عز و جل يقول: «لاَ خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَهٍ أَوْ مَعْرُوفٍ-أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النّاسِ -و قال: «وَ لاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ-الَّتِى جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً » -و قال: «لاَ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ » .

- و فی تفسیر العیاشی،عن أحمد بن محمد قال: کتبت إلی أبی الحسن الرضا(ع) و کتب فی آخره:أ و لم تنهوا عن کثره المسائل؟فأبیتم أن تنتهوا،إیاکم و ذلک؛ فإنما هلک من کان قبلکم بکثره سؤالهم-فقال الله تبارک و تعالی: «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْیٰاءَ -إلی قوله تعالی- کٰافِرِینَ » .

[سوره المائده (۵): الآیات ۱۰۳ الی ۱۰۴]

اشاره

مٰا جَعَلَ اَللّٰهُ مِنْ بَحِیرَهٍ وَ لاٰ سٰائِبَهٍ وَ لاٰ وَصِیلَهٍ وَ لاٰ حٰامٍ وَ لٰکِنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا یَفْتَرُونَ عَلَی اَللّٰهِ اَلْکَذِبَ وَ أَکْثَرُهُمْ لاٰ یَعْقِلُونَ (۱۰۳) وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا إِلیٰ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ وَ إِلَی اَلرَّسُولِ قٰالُوا حَسْبُنٰا مٰا وَجَدْنٰا عَلَیْهِ آبٰاءَنٰا أَ وَ لَوْ کٰانَ آبٰاؤُهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ شَیْئاً وَ لاٰ یَهْتَدُونَ (۱۰۴)

(بیان)

قوله تعالی: مٰا جَعَلَ اللّٰهُ مِنْ بَحِیرَهٍ وَ لاٰ سٰائِبَهٍ وَ لاٰ وَصِیلَهٍ وَ لاٰ حٰامٍ ،هذه أصناف من الأنعام کان أهل الجاهلیه یرون لها أحکاما مبنیه علی الاحترام و نوع من التحریر، و قد نفی الله سبحانه أن یکون جعل من ذلک شیئا،فالجعل المنفی متعلق بأوصافها دون ذواتها فإن ذواتها مخلوقه لله سبحانه من غیر شک، و کذلک أوصافها من جهه أنها أوصاف فحسب،و إنما الذی تقبل الإسناد إلیه تعالی و نفیه هی أوصافها من جهه کونها مصادر لأحکام کانوا یدعونها لها فهی التی تقبل الإسناد و نفیه،فنفی جعل البحیره و أخواتها فی الآیه نفی لمشروعیه الأحکام المنتسبه إلیها المعروفه عندهم.

و هذه الأصناف الأربعه من الأنعام و إن اختلفوا فی معنی أسمائها و یتفرع علیه الاختلاف فی تشخیص أحکامها کما ستقف علیه،لکن من المسلم أن أحکامها مبنیه علی نوع من تحریرها و الاحترام لها برعایه حالها،ثلاثه منها و هی البحیره و السائبه و الحامی

من الإبل،و واحده و هی الوصیله من الشاه.

أما البحیره ففی المجمع،:أنها الناقه کانت إذا نتجت خمسه أبطن و کان آخرها ذکرا بحروا أذنها(أی شقوها شقا واسعا)و امتنعوا عن رکوبها و نحرها،و لا تطرد عن ماء و لا تمنع عن مرعی،فإذا لقیها المعیی لم ترکبها،عن الزجاج.

و قیل:إنهم کانوا إذا نتجت الناقه خمسه أبطن نظروا فی البطن الخامس فإن کان ذکرا نحروه فأکله الرجال و النساء جمیعا،و إن کانت أنثی شقوا أذنها فتلک البحیره ثم لا یجز لها وبر،و لا یذکر لها اسم الله إن ذکیت،و لا حمل علیها،و حرم علی النساء أن یذقن من لبنها شیئا،و لا أن ینتفعن بها،و کان لبنها و منافعها للرجال خاصه دون النساء حتی تموت فإذا ماتت اشترکت الرجال و النساء فی أکلها،عن ابن عباس،و قیل «إن البحیره بنت السائبه،عن محمد بن إسحاق».

و أما السائبه ففی المجمع، أنها ما کانوا یسیبونه فإن الرجل إذا نذر القدوم من سفر أو البرء من عله أو ما أشبه ذلک قال:ناقتی سائبه فکانت کالبحیره فی أن لا ینتفع بها،و أن لا تخلی عن ماء و لا تمنع من مرعی،عن الزجاج،و هو قول علقمه.

و قیل:هی التی تسیب للأصنام أی تعتق لها،و کان الرجل یسیب من ماله ما یشاء فیجیء به إلی السدنه-و هم خدمه آلهتهم- فیطعمون من لبنها أبناء السبیل و نحو ذلک عن ابن عباس و ابن مسعود.

و قیل:إن السائبه هی الناقه إذا تابعت بین عشر إناث لیس فیهن ذکر سیبت فلم ترکبوها،و لم یجزوا وبرها و لم یشرب لبنها إلا ضیف فما نتجت بعد ذلک من أنثی شق أذنها ثم تخلی سبیلها مع أمها،و هی البحیره،عن محمد بن إسحاق.

و أما الوصیله ففی المجمع،:و هی فی الغنم،کانت الشاه إذا ولدت أنثی فهی لهم، و إذا ولدت ذکرا جعلوه لآلهتهم،فإن ولدت ذکرا و أنثی قالوا:وصلت أخاها فلم یذبحوا الذکر لآلهتهم.عن الزجاج.

و قیل:کانت الشاه إذا ولدت سبعه أبطن فإن کان السابع جدیا ذبحوه لآلهتهم و لحمه للرجال دون النساء،و إن کان عناقا،استحیوها و کانت من عرض الغنم،و إن

ولدت فی البطن السابع جدیا و عناقا قالوا:إن الأخت وصلت أخاها لحرمته علینا فحرما جمیعا فکانت المنفعه و اللبن للرجال دون النساء،عن ابن مسعود و مقاتل.

و قیل:الوصیله الشاه إذا تأمت عشر إناث فی خمسه أبطن لیس فیها ذکر جعلت وصیله فقالوا: قد وصلت فکان ما ولدت بعد ذلک للذکور دون الإناث عن محمد بن إسحاق.

و أما الحامی ففی المجمع،:هو الذکر من الإبل کانت العرب إذا أنتجت من صلب الفحل عشره أبطن قالوا:قد حمی ظهره فلا یحمل علیه،و لا یمنع من ماء و لا من مرعی،عن ابن عباس و ابن مسعود،و هو قول أبی عبیده و الزجاج.

و قیل:إنه الفحل إذا لقح ولد ولده قیل:حمی ظهره فلا یرکب،عن الفراء.

و هذه الأسماء و إن اختلفوا فی تفسیرها إلا أن من المحتمل قریبا أن یکون ذلک الاختلاف ناشئا من اختلاف سلائق الأقوام فی سننهم؛فإن أمثال ذلک کثیره فی السنن الدائره بین الأقوام الهمجیه.

و کیف کان فالآیه ناظره إلی نفی الأحکام التی کانوا قد اختلقوها لهذه الأصناف الأربعه من الأنعام،ناسبین ذلک إلی الله سبحانه بدلیل قوله أولا: «مٰا جَعَلَ اللّٰهُ ،إلخ» و ثانیا: «وَ لٰکِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا یَفْتَرُونَ عَلَی اللّٰهِ الْکَذِبَ ،إلخ».

و لذلک کان قوله: «وَ لٰکِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا ،إلخ»بمنزله الجواب عن سؤال مقدر کأنه لما قیل: «مٰا جَعَلَ اللّٰهُ مِنْ بَحِیرَهٍ ،إلخ»سئل فقیل فما هذا الذی یدعیه هؤلاء الذین کفروا؟فأجیب بأنه افتراء منهم علی الله الکذب ثم زید فی البیان فقیل:

«وَ أَکْثَرُهُمْ لاٰ یَعْقِلُونَ »

و مفاده أنهم مختلفون فی هذا الافتراء فأکثرهم یفترون ما یفترون و هم لا یعقلون،و القلیل من هؤلاء المفترین یعقلون الحق و أن ما ینسبونه إلیه تعالی من الافتراء،و هم المتبوعون المطاعون لغیرهم المدیرون لأزمه أمورهم فهم أهل عناد و لجاج.

قوله تعالی: «وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا إِلیٰ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ ،إلی آخر الآیه»فی حکایه دعوتهم إلی ما أنزل الله إلی الرسول الذی شأنه البلاغ،فقط فالدعوه دعوه إلی الحق و هو الصدق الخالی عن الفریه،و العلم المبری من الجهل فإن الآیه السابقه تجمع الافتراء و عدم التعقل فی جانبهم فلا یبقی لما یدعون إلیه-أعنی جانب الله سبحانه-إلا الصدق و العلم.

لکنهم ما دفعوه إلا بالتقلید حیث قالوا:حسبنا ما وجدنا علیه آباءنا،و التقلید

و إن كان حقا فی بعض الأحیان و علی بعض الشروط و هو رجوع الجاهل إلی العالم،و هو مما استقر علیه سیر المجتمع الإنسانی فی جمیع أحكام الحیاه التی لا یتیسر فیها للإنسان أن یحصل العلم بما یحتاج إلی سلوكه من الطریق الحیوی،لكن تقلید الجاهل فی جهله بمعنی رجوع الجاهل إلی جاهل آخر مثله مذموم فی سنه العقلاء كما یذم رجوع العالم إلی عالم آخر بترك ما یستقل بعمله من نفسه و الأخذ بما یعلم غیره.

و لذلك رده تعالی بقوله: «أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا یَعْلَمُونَ شَیْئاً وَ لا یَهْتَدُونَ » و مفاده أن العقل-لو كان هناك عقل-لا یبیح للإنسان الرجوع إلی من لا علم عنده و لا اهتداء فهذه سنه الحیاه لا تبیح سلوك طریق لا تؤمن مخاطره،و لا یعلم وصفه لا بالاستقلال و لا باتباع من له به خبره.

و لعل إضافه قوله: «وَ لا یَهْتَدُونَ » إلی قوله: «لا یَعْلَمُونَ شَیْئاً » لتتمیم قیود الكلام بحسب الحقیقه،فإن رجوع الجاهل إلی مثله و إن كان مذموما لكنه إنما یذم إذا كان المسئول المتبوع مثل السائل التابع فی جهله لا یمتاز عنه بشیء،و أما إذا كان المتبوع نفسه یسلك الطریق بهدایه عالم خبیر به و دلالته فهو مهتد فی سلوكه،و لا ذم علی من اتبعه فی مسیره و قلده فی سلوك الطریق،فإن الأمر ینتهی إلی العلم بالآخره كمن یتبع عالما بأمر الطریق ثم یتبعه آخر جاهل به.

و من هنا یتضح أن قوله: «أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا یَعْلَمُونَ شَیْئاً » غیر كاف فی تمام الحجه علیهم لاحتمال أن یكون آباءهم الذین اتبعوهم بالتقلید مهتدین بتقلید العلماء الهداه فلا یجری فیهم حكم الذم،و لا تتم علیهم الحجه فدفع ذلك بأن آباءهم لا یعلمون شیئا و لا یهتدون،و لا مسوغ لاتباع من هذا حاله.

و لما تحصل من الآیه الأولی أعنی قوله: «ما جَعَلَ اللّٰهُ مِنْ بَحِیرَهٍ ،إلخ»أنهم بین من لا یعقل شیئا و هم الأكثرون،و من هو معاند مستكبر تحصل أنهم بمعزل من أهلیه توجیه الخطاب و إلقاء الحجه و لذلك لم تلق إلیهم الحجه فی الآیه الثانیه بنحو التخاطب بل سیق الكلام علی خطاب غیرهم و الصفح عن مواجهتهم فقیل: «أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا یَعْلَمُونَ شَیْئاً وَ لا یَهْتَدُونَ » .

و قد تقدم فی الجزء الأول من أجزاء هذا الكتاب بحث علمی أخلاقی فی معنی

التقليد يمكنك أن تراجعه.

و يتبين من الآيه أن الرجوع إلى كتاب الله و إلى رسوله-و هو الرجوع إلى السنه-ليس من التقليد المذموم فى شيء.

(بحث روائى)

- فى تفسير البرهان،عن الصدوق بإسناده إلى محمد بن مسلم،عن أبى عبد الله(ع):

فى قول الله عز و جل: «مٰا جَعَلَ اللّٰهُ مِنْ بَحِيرَهٍ وَ لاٰ سٰائِبَهٍ-وَ لاٰ وَصِيلَهٍ وَ لاٰ حٰامٍ » قال:

إن أهل الجاهليه كانوا-إذا ولدت الناقه ولدين فى بطن واحد-قالوا:وصلت،فلا يستحلون ذبحها و لا أكلها،و إذا ولدت عشرا جعلوها سائبه،و لا يستحلون ظهرها و لا أكلها،و الحام فحل الإبل لم يكونوا يستحلونه فأنزل الله:أنه لم يكن يحرم شيئا من ذلك.

قال:ثم قال ابن بابويه:

- و قد روى": أن البحيره الناقه إذا أنتجت خمسه أبطن-و إن كان الخامس ذكرا نحروه فأكله الرجال و النساء،و إن كان الخامس أنثى بحروا أذنها أى شقوها-و كانت حراما على النساء لحمها و لبنها-فإذا ماتت حلت للنساء،و السائبه البعير يسيب بنذر يكون على الرجل-أن سلمه الله من مرض أو بلغه منزله أن يفعل ذلك.

و الوصيله من الغنم،كانوا إذا ولدت شاه سبعه أبطن-فكان السابع ذكرا ذبح فأكل منه الرجال و النساء،و إن كان أنثى تركت فى الغنم و إن كان ذكرا و أنثى- قالوا:وصلت أخاها فلم تذبح-و كان لحمها حراما على النساء إلا أن تموت منها شيء- فيحل أكلها للرجال و النساء.

و الحام الفحل إذا ركب ولد ولده قالوا:قد حمى ظهره،قال:و قد يروى:

أن الحام هو من الإبل إذا أنتج عشره أبطن-قالوا:قد حمى ظهره فلا يركب و لا يمنع من كلاء و لا ماء.

أقول:و من طرق الشيعه و أهل السنه روايات أخر فى معانى هذه الأسماء:

البحيره و السائبه و الوصيله و الحام،و قد مر شطر منها فى الكلام المنقول عن الطبرسى فى مجمع البيان،فى البيان المتقدم.

و المتیقن من معانیها-کما عرفت-أن هذه الأصناف من الأنعام کانت فی الجاهلیه محرره نوعا من التحریر ذات أحکام مناسبه لذلک کحمایه الظهر و حرمه أکل اللحم و عدم المنع من الماء و الکلاء،و أن الوصیله من الغنم و الثلاثه الباقیه من الإبل.

- و فی المجمع،:روی ابن عباس عن النبی ص: أن عمرو بن لحی بن قمعه بن خندف کان قد ملک مکه،و کان أول من غیر دین إسماعیل،و اتخذ الأصنام و نصب الأوثان،و بحر البحیره،و سیب السائبه،و وصل الوصیله،و حمی الحامی.

- قال رسول الله ص: فلقد رأیته فی النار یؤذی أهل النار ریح قصبه،و یروی یجر قصبه فی النار.

أقول:و روی فی الدر المنثور،هذا المعنی بعده طرق عن ابن عباس و غیره.

- و فی الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و ابن أبی شیبه و عبد بن حمید و ابن جریر عن زید بن أسلم قال:قال رسول الله ص: إنی لأعرف أول من سیب السوائب،و نصب النصب،و أول من غیر دین إبراهیم،قالوا:من هو یا رسول الله؟قال:عمرو بن لحی أخو بنی کعب-لقد رأیته یجر قصبه فی النار یؤذی أهل النار ریح قصبه.

و إنی لأعرف من نحر النحائر،قالوا:من هو یا رسول الله؟قال:رجل من بنی مدلج کانت له ناقتان-فجذع آذانهما و حرم ألبانهما و ظهورهما-و قال:هاتان لله ثم احتاج إلیهما-فشرب ألبانهما و رکب ظهورهما.

قال:فلقد رأیته فی النار،و هما یقصمانه بأفواههما و یطئانه بأخفافهما.

- و فیه،:أخرج أحمد و عبد بن حمید و الحکیم الترمذی فی نوادر الأصول،و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و البیهقی فی الأسماء و الصفات،عن أبی الأحوص،عن أبیه قال: أتیت رسول الله ص فی خلقان من الثیاب-فقال لی:هل لک من مال؟قلت:

نعم؛قال:من أی المال؟قلت:من کل المال:من الإبل و الغنم و الخیل و الرقیق-قال:

فإذا آتاک الله فلیر علیک.

ثم قال:تنتج إبلک رافعه آذانها؟قلت:نعم و هل تنتج الإبل إلا کذلک؟

قال:فلعلك تأخذ موسى فتقطع آذان طائفه منها،و تقول:هذه بحر،و تشق آذان طائفه منها-و تقول:هذه الصرم؟قلت:نعم،قال:فلا تفعل إن كل ما آتاک الله لک حل،ثم قال: مَا جَعَلَ اللّٰهُ مِنْ بَحِيرَهٍ وَ لاٰ سٰائِبَهٍ وَ لاٰ وَصِيلَهٍ وَ لاٰ حٰامٍ .

[سوره المائده (۵): آیه ۱۰۵]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاٰ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اِهْتَدَيْتُمْ إِلَى اَللّٰهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۰۵)

(بيان)

الآيه تأمر المؤمنين أن يلزموا أنفسهم،و يلازموا سبيل هدايتهم و لا يوحشهم ضلال من ضل من الناس فإن الله سبحانه هو المرجع الحاكم على الجميع حسب أعمالهم، و الكلام مع ذلك لا يخلو عن غور عميق.

قوله تعالى: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاٰ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » لفظه «عَلَيْكُمْ » اسم فعل بمعنى ألزموا،و «أَنْفُسَكُمْ » مفعوله.

و من المعلوم أن الضلال و الاهتداء-و هما معنيان متقابلان- إنما يتحققان فى سلوك الطريق لا غير؛فالملازم لمتن الطريق ينتهى إلى ما ينتهى إليه الطريق،و هو الغايه المطلوبه التى يقصدها الإنسان السالک فى سلوكه،أما إذا استهان بذلك و خرج عن مستوى الطريق فهو الضلال الذى تفوت به الغايه المقصوده فالآيه تقدر للإنسان طريقا يسلكه و مقصدا يقصده غير أنه ربما لزم الطريق فاهتدى إليه أو فسق عنه فضل و ليس هناک مقصد يقصده القاصد إلا الحياه السعيده،و العاقبه الحسنى بلا ريب لكنها مع ذلک تنطق بأن الله سبحانه هو المرجع الذى يرجع إليه الجميع:

المهتدى و الضال.

فالثواب الذى يريده الإنسان فى مسيره بالفطره إنما هو عند الله سبحانه يناله المهتدون،و يحرم عنه الضلال،و لازم ذلک أن يكون جميع الطرق المسلوكه لأهل

الهدایه و الطرق المسلوکه لأهل الضلال تنتهی إلی الله سبحانه،و عنده سبحانه الغایه المقصوده و إن کانت تلک الطرق مختلفه فی إیصال الإنسان إلی البغیه و الفوز و الفلاح أو ضربه بالخیبه و الخسران،و کذلک فی القرب و البعد کما قال تعالی: «یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّکَ کادِحٌ إِلیٰ رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاقِیهِ» :الإنشقاق:۶ و قال تعالی: «أَلاٰ إِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» :المجادله:۲۲ و قال تعالی: «أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ کُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ الْبَوٰارِ» :إبراهیم:۲۸ و قال تعالی: «فَإِنِّی قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَةَ الدّٰاعِ إِذٰا دَعٰانِ فَلْیَسْتَجِیبُوا لِی وَ لْیُؤْمِنُوا بِی لَعَلَّهُمْ یَرْشُدُونَ» :البقره:۱۸۶ و قال تعالی: «وَ الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ فِی آذٰانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَیْهِمْ عَمًی أُولٰئِکَ یُنٰادَوْنَ مِنْ مَکٰانٍ بَعِیدٍ» :حم السجده:۴۴.

بین تعالی فی هذه الآیات أن الجمیع سائرون إلیه سبحانه سیرا لا مناص لهم عنه، غیر أن طریق بعضهم قصیر و فیه الرشد و الفلاح،و طریق آخرین طویل لا ینتهی إلی سعاده،و لا یعود إلی سالکه إلا الهلاک و البوار.

و بالجمله فالآیه تقدر للمؤمنین و غیرهم طریقین اثنین ینتهیان إلی الله سبحانه، و تأمر المؤمنین بأن یشتغلوا بأنفسهم و ینصرفوا عن غیرهم و هم أهل الضلال من الناس و لا یقعوا فیهم و لا یخافوا ضلالهم فإنما حسابهم علی ربهم لا علی المؤمنین و لیسوا بمسئولین عنهم حتی یهمهم أمرهم؛فالآیه قریبه المضمون من قوله تعالی: «قُلْ لِلَّذِینَ آمَنُوا یَغْفِرُوا لِلَّذِینَ لاٰ یَرْجُونَ أَیّٰامَ اللّٰهِ لِیَجْزِیَ قَوْماً بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ» :الجاثیه:۱۴ و نظیرها قوله تعالی: «تِلْکَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهٰا مٰا کَسَبَتْ وَ لَکُمْ مٰا کَسَبْتُمْ وَ لاٰ تُسْئَلُونَ عَمّٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ» :البقره:۱۳۴.

فعلی المؤمن أن یشتغل بما یهم نفسه من سلوک سبیل الهدی،و لا یهزهزه ما یشاهده من ضلال الناس و شیوع المعاصی بینهم و لا یشغله ذلک و لا یشتغل بهم فالحق حق و إن ترک و الباطل باطل و إن أخذ به کما قال تعالی: «قُلْ لاٰ یَسْتَوِی الْخَبِیثُ وَ الطَّیِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَکَ کَثْرَةُ الْخَبِیثِ فَاتَّقُوا اللّٰهَ یٰا أُولِی الْأَلْبٰابِ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ» :المائده:۱۰۰ و قال تعالی: «وَ لاٰ تَسْتَوِی الْحَسَنَةُ وَ لاَ السَّیِّئَةُ» :حم السجده:۳۴.

فقوله تعالی: «لاٰ یَضُرُّکُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَیْتُمْ » بناء علی ما مر مسوق سوق الکنایه

أريد به نهى المؤمنين عن التأثر من ضلال من ضل من الناس فيحملهم ذلك على ترك طريق الهدايه كأن يقولوا:إن الدنيا الحاضره لا تساعد الدين و لا تبيح التنحل بالمعنويات فإنما ذلك من السنن الساذجه و قد مضى زمنه و انقرض أهله،قال تعالى: «وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدىٰ مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا» » :القصص:۵۷.

أو يخافوا ضلالهم على هدى أنفسهم فيشتغلوا بهم و ينسوا أنفسهم فيصيروا مثلهم فإنما الواجب على المؤمن هو الدعوه إلى ربه و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و بالجمله الأخذ بالأسباب العاديه ثم إيكال أمر المسببات إلى الله سبحانه فإليه الأمر كله،فأما أن يهلك نفسه فى سبيل إنقاذ الغير من الهلكه فلم يؤمر به،و لا يؤاخذ بعمل غيره،و ما هو عليه بوكيل،و على هذا فتصير الآيه فى معنى قوله تعالى: «فَلَعَلَّکَ باخِعٌ نَفْسَکَ عَلىٰ آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً، إِنّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ إِنّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً» :الكهف:۸، و قوله تعالى: «وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتىٰ بَلْ لِلّٰهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللّٰهُ لَهَدَى النّاسَ جَمِيعاً» :الرعد:۳۱ و نحو ذلك.

و قد تبين بهذا البيان أن الآيه لا تنافى آيات الدعوه و آيات الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فإن الآيه إنما تنهى المؤمنين عن الاشتغال بضلال الناس عن اهتداء أنفسهم و إهلاك أنفسهم فى سبيل إنقاذ غيرهم و إنجائه.

على أن الدعوه إلى الله و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر من شئون اشتغال المؤمن بنفسه و سلوكه سبيل ربه،و كيف يمكن أن تنافى الآيه آيات الدعوه و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر أو تنسخها؟و قد عدهما الله سبحانه من مشخصات هذا الدين و أسسه التى بنى عليها كما قال تعالى: «قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللّٰهِ عَلىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي» :يوسف:۱۰۸ و قال تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» :آل عمران:۱۱۰.

فعلى المؤمن أن يدعو إلى الله على بصيره و أن يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر على سبيل أداء الفريضه الإلهيه و ليس عليه أن يجيش و يهلك نفسه حزنا أو يبالغ فى الجد فى تأثير ذلك فى نفوس أهل الضلال فذلك موضوع عنه.

و إذا كانت الآيه قدرت للمؤمنين طريقا فيه اهتداؤهم و لغيرهم طريقا من شأنه ضلال سالكيه،ثم أمر المؤمنين فى قوله: «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ » بلزوم أنفسهم كان فيه دلاله على أن نفس المؤمن هو الطريق الذى يؤمر بسلوكه و لزومه فإن الحث على الطريق إنما يلائم الحث على لزومه و التحذير من تركه لا على لزوم سألك الطريق كما نشاهده فى مثل قوله تعالى: «وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» :الأنعام:١٥٣.

فأمره تعالى المؤمنين بلزوم أنفسهم فى مقام الحث على التحفظ على طريق هدايتهم يفيد أن الطريق الذى يجب عليهم سلوكه و لزومه هو أنفسهم،فنفس المؤمن هو طريقه الذى يسلكه إلى ربه و هو طريق هداه،و هو المنتهى به إلى سعادته.

فالآيه تجلى الغرض الذى تؤمه إجمالا آيات أخرى كقوله تعالى: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ مٰا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ، وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللّٰهَ فَأَنْسٰاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ، لاٰ يَسْتَوِي أَصْحٰابُ النّٰارِ وَ أَصْحٰابُ الْجَنَّهِ أَصْحٰابُ الْجَنَّهِ هُمُ الْفٰائِزُونَ» :الحشر:٢٠.

فالآيات تأمر بأن تنظر النفس و تراقب صالح عملها الذى هو زادها غدا و خير الزاد التقوى فللنفس يوم و غد و هى فى سير و حركه على مسافه،و الغايه هو الله سبحانه و عنده حسن الثواب و هو الجنه فعليها أن تدوم على ذكر ربها و لا تنساه فإنه سبحانه هو الغايه، و نسيان الغايه يستعقب نسيان الطريق فمن نسى ربه نسى نفسه،و لم يعد لغده و مستقبل مسيره زادا يتزود به و يعيش باستعماله و هو الهلاك،و هذا معنى

- ما رواه الفريقان عن النبى ص: من عرف نفسه فقد عرف ربه.

و هذا المعنى هو الذى يؤيده التدبر التام و الاعتبار الصحيح فإن الإنسان فى مسير حياته إلى أى غايه امتدت لا هم له فى الحقيقه إلا خير نفسه و سعاده حياته و إن اشتغل فى ظاهر الأمر ببعض ما يعود نفعه إلى غيره،قال تعالى: «إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهٰا .

و ليس هناك إلا هذا الإنسان الذى يتطور طورا بعد طور،و يركب طبقا عن طبق من جنين و صبى و شاب و كهل و شيخ ثم الذى يديم الحياه فى البرزخ ثم يوم القيامه

ثم مـا بعـده من جنه أو نـار،فهـذه هی المسافه التی یقطعها الإنسان من موقفه فی أول تکونه إلی أن ینتهی إلی ربه،قال تعالی: «وَ أَنَّ إِلیٰ رَبِّکَ الْمُنْتَهیٰ» :النجم:۴۲.

و هو الإنسان لا یطأ موطأ فی مسیره و لا یسیر و لا یسری إلا بأعمال قلبیه هی الاعتقادات و نحوها و أعمال جوارحیه صالحه،أو طالحه و ما أنتجه عمله یوما کان هو زاده غدا فالنفس هو طریق الإنسان إلی ربه،و الله سبحانه هو غایته فی مسیره.

و هذا طریق اضطراری لا مناص للإنسان عن سلوکه کما یدل علیه قوله تعالی:

«یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّکَ کادِحٌ إِلیٰ رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاقِیهِ» :الإنشـقاق:۶ فهذا طریق ضـروری السلوک یشترک فیه المؤمن و الکافر و الملتفت المتنبه و الغافل العامه،و الآیه لا ترید الحث علی لزومه بمعنی البعث علی سلوکه ممن لا یسلکه.

و إنما ترید الآیه تنبیه المؤمنین علی هذه الحقیقه بعد غفلتهم عنها،فإن هذه الحقیقه کسائر الحقائق التکوینیه و إن کانت ثابته غیر متغیره بـالعلم و الجهـل لکن التفـات الإنسـان إلیهـا یؤثر فی عمله تـأثیرا بـارزا،و الأعمال التی تربی النفس الإنسانیه تربیه مناسـبه لسـنخها و إذا کان العمل ملائما لواقع الأمر مناسـبا لغایه الصنع و الإیجاد کانت النفس المستکمله بها سعیده فی جدها،غیر خائبه فی سعیها و لا خاسره فی صفقتها،و قد مر بیان ذلک فی مواضع کثیره من هذا الکتاب بما لا یبقی معه ریب.

و توضـیح ذلـک بما یناسب هـذا المقام أن الإنسان کغیره من خلق الله سـبحانه واقع تحت التربیه الإلهیه من دون أن یفوته تعالی شیء من أمره،و قد قال تعالی: «ما مِنْ دَابَّهٍ إِلاّٰ هُوَ آخِذٌ بِناصِیَتِها إِنَّ رَبِّی عَلیٰ صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ» :هود:۵۶ و هذه تربیه تکوینیه علی حد ما یربی الله سبحانه غیره من الأمور،فی مسیرها جمیعا إلیه تعالی،و قد قال:

«أَلاٰ إِلَی اللّٰهِ تَصِیرُ الْأُمُورُ» :الشوری:۵۳ و لاـ یتفـاوت الأـمر و لاـ یختلف الحال فی هـذه التربیه بین شـیء و شـیء فإن الصراط مستقیم،و الأمر متشابه مطرد،و قد قال تعالی أیضا: «ما تَریٰ فِی خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفٰاوُتٍ» :الملک:۳.

و قد جعل سـبحانه غایه الإنسان و ما ینتهی إلیه أمره و یسـتقر علیه عاقبته من حیث السعاده و الشقاوه و الفلاح و الخیبه مبنیه علی أحوال و أخلاـق نفسانیه مبنیه علی أعمال من الإنسان تنقسم تلک الأعمال إلی صالحه و طالحه و تقوی و فجور کما قال تعالی: «وَ نَفْسٍ

وَ مٰا سَوّٰاهٰا فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰاهٰا وَ قَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰاهٰا» :الشمس:

۱۰ فالآيات-كما ترى-تضع النفس المسواه فى جانب و هو مبدأ الحال،و الفلاح و الخيبه فى جانب و هو الغايه و منتهى المسير،ثم تبنى الغايتين أعنى الفلاح و الخيبه على تزكيه النفس و تدسيتها و ذلك مرحله الأخلاق،ثم تبنى الفضيله و الرذيله على التقوى و الفجور أعنى الأعمال الصالحه و الطالحه التى تنطق الآيات بأن الإنسان ملهم بها من جانب الله تعالى.

و الآيات فى بيانها لا تتعدى طور النفس بمعنى أنها تعتبر النفس هى المخلوقه المسواه و هى التى أضيف إليها الفجور و التقوى،و هى التى تزكى و تدسى،و هى التى يفلح فيها الإنسان و يخيب،و هذا كما عرفت جرى على مقتضى التكوين.

لكن هذه الحقيقه التكوينيه أعنى كون الإنسان فى حياته سائرا فى مسير نفسه لا يسعه التخطى عنها و لو بخطوه،و لا تركها و الخروج منها و لو لحظه،لا يتساوى حال من تنبه له و تذكر به تذكرا لازما لا يتطرق إليه نسيان،و حال من غفل عنه و نسى الواقع الذى لا مفر له منه،و قد قال تعالى: «هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ إِنَّمٰا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبٰابِ» :الزمر:۹.

و قال تعالى: «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدٰايَ فَلاٰ يَضِلُّ وَ لاٰ يَشْقىٰ، وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً،وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ أَعْمىٰ، قٰالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمىٰ وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً، قٰالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيٰاتُنٰا فَنَسِيتَهٰا وَ كَذٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسىٰ» :طه:۱۲۶.

و ذلك أن المتنبه إلى هذه الحقيقه حيثما يلتفت إلى حقيقه موقفه من ربه و نسبته إلى سائر أجزاء العالم وجد نفسه منقطعه عن غيره و قد كان يجدها على غير هذا النعت و مضروبا دونها الحجاب لا يمسها بالإحاطه و التأثير إلا ربها المدبر لأمرها الذى يدفعها من ورائها و يجذبها إلى قدامها بقدرته و هدايته،و وجدها خاليه بربها ليس لها من دونه من وال،و عند ذلك يفقه معنى قوله تعالى: «إِلَى اللّٰهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » بعد قوله: «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاٰ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » و معنى قوله تعالى:

«أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمٰاتِ لَيْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا» :الأنعام:۱۲۲.

و عنـد ذلک یتبـدل إدراک النفس و شـعورها،و یهاجر من موطن الشـرک إلی موقف العبودیه و مقام التوحید و لا یزال یعوض شرکا من توحیـد و توهما من تحقق و بعدا من قرب و اسـتکبارا شـیطانیا من تواضع رحمانی و اسـتغناء وهمیا من فقر عبودی إن أخذت بیدها العنایه الإلهیه و ساقها سائق التوفیق.

و نحن و إن کـان لاـ یسـعنا أن نفقه هـذه المعـانی حق الفقه لمکـان إخلادنـا إلی الأرض و اشـتغالنا عن الغوص فی أغوار هـذه الحقـائق التی یکشف عنهـا الـدین و یشـیر إلیها الکتاب الإلهی بما لا یعنینا من فضولات هـذه الحیاه الفانیه التی لا یعرفها الکلام الإلـهی فی بیانه إلا بأنها لعب و لهو کما قال تعالی: «وَ مَا الْحَیاهُ الـدُّنْیا إِلاّ لَعِبٌ وَ لَهْوٌ» :الأنعام:۳۲ و قال تعالی: «ذلِکَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» :النجم:۳۰.

إلا أن الاعتبار الصـحیح و البحث البالغ و التدبر الوافی یوصـلنا إلی التصدیق بکلیاتها إجمالا و إن قصـرنا عن إحصاء التفاصیل و الله الهادی.

و لعلنـا خرجنـا عن طـور الاختصـار فلنرجع إلی أول الکلاـم فنقول:و تسع الآـیه أن تحمـل علی الخطـاب الاجتمـاعی بـأن یکون المخـاطب بقوله: «یا أَیُّهَـا الَّذِینَ آمَنُوا » مجتمع المؤمنین فیکون المراد بقوله: «عَلَیْکُمْ أَنْفُسَـکُمْ » هو إصـلاح المؤمنین مجتمعهم الإسـلامی باتخاذ صـفه الاهتداء بالهدایه الإلهیه بأن یحتفظوا علی معارفهم الدینیه و الأعمال الصالحه و الشـعائر الإسـلامیه العامه کمـا قـال تعـالی: «وَ اعْتَصِـمُوا بِحَبْـلِ اللّهِ جَمِیعـاً وَ لاـ تَفَرَّقُوا» :آل عمران:۱۰۳ و قـد تقـدم فی تفسـیره أن المراد بهـذا الاعتصـام الاجتماعی الأخذ بالکتاب و السنه.

و یکون قوله: «لاـ یَضُـرُّکُمْ مَنْ ضَـلَّ إِذَا اهْتَـدَیْتُمْ » یراد به أنهم فی أمن من إضـرار المجتمعـات الضـاله غیر الإسـلامیه فلیس من الواجب علی المسلمین أن یبالغوا الجد فی انتشار الإسلام بین الطوائف غیر المسلمه أزید من الدعوه المتعارفه کما تقدم.

أو أنه لا یجوز لهـم أن ینسـلوا مما بأیدیهم من الهدی من مشاهده ما علیه المجتمعات الضاله من الانهماک فی الشهوات و التمتع من مزایـا العیش البـاطله فـإن الجمیع مرجعهم إلی الله فینبئهم بمـا کـانوا یعملون،و تجری الآـیه علی هـذا مجری قوله تعـالی: «لا یَغُرَّنَّکَ تَقَلُّبُ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی الْبِلادِ، مَتاعٌ قَلِیلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ» :آل عمران:۱۹۷،

و قوله: «وَ لاٰ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا» :طه:١٣١.

و هنا معنى آخر لقوله: «لاٰ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » من جهه أن المنفى فى الآيه هو الإضرار المنسوب إلى نفس الضالين دون شىء معين من صفاتهم أو أعمالهم فتفيد الإطلاق،و يكون المعنى نفى أن يكون الكفار ضارين للمجتمع الإسلامى بتبديله مجتمعا غير إسلامى بقوه قهريه فتكون الآيه مسوقه سوق قوله تعالى: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» :المائده:٣،و قوله: «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاّٰ أَذىً وَ إِنْ يُقٰاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبٰارَ» :آل عمران:١١١.

و قد ذكر جمع من مفسرى السلف أن مفاد الآيه هو الترخيص فى ترك الدعوه الدينيه و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر،و ذكروا أن الآيه خاصه تختص بزمان أو حال لا يوجد فيه شرط الدعوه و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر،و هو الأمن من الضرر و قد رووا فى ذلك روايات ستأتى الإشاره إليها فى البحث الروائى الآتى.

و لازم هذا المعنى أن يكون قوله: «لاٰ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » كنايه عن انتفاء التكليف أى لا تكليف عليكم فى ذلك و إلا فتضرر المجتمع الدينى من شيوع الضلال من كفر أو فسق مما لا يرتاب فيه ذو ريب.

لكن ذلك معنى بعيد لا يحتمله سياق الآيه فإن الآيه لو أخذت مخصصه لعمومات وجوب الدعوه و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فلسانها ليس لسان التخصيص، و إن أخذت ناسخه فآيات الدعوه و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر آبيه من النسخ، و للكلام تتمه ستوافيك.

(بحث روائى)

- فى الغرر و الدرر،للآمدى عن على(ع)قال: من عرف نفسه عرف ربه.:

أقول:و رواه الفريقان عن النبى أيضا،و هو حديث مشهور

،و قد ذكر بعض العلماء:أنه من تعليق المحال،و مفاده استحاله معرفه النفس لاستحاله الإحاطه العلميه

بالله سبحانه؛و رد أولا

- بقوله(ص)في روايه أخرى: أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه ،و ثانيا بأن الحديث فى معنى عكس النقيض لقوله تعالى: «وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللّٰهَ فَأَنْسٰاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » .

- و فيه،عنه(ع):قال: الكيس من عرف نفسه و أخلص أعماله.

أقول:تقدم فى البيان السابق معنى ارتباط الإخلاص و تفرعه على الاشتغال بمعرفه النفس.

- و فيه عنه(ع):قال: المعرفه بالنفس أنفع المعرفتين.

أقول:الظاهر أن المراد بالمعرفتين المعرفه بالآيات الأنفسيه و المعرفه بالآيات الآفاقيه، قال تعالى: «سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» :حم السجده:۵۳ و قال تعالى: «وَ فِي الْأَرْضِ آيٰاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ» :الذاريات:۲۱.

و كون السير الأنفسى أنفع من السير الآفاقى لعله لكون المعرفه النفسانيه لا تنفك عاده من إصلاح أوصافها و أعمالها بخلاف المعرفه الآفاقيه،و ذلك أن كون معرفه الآيات نافعه إنما هو لأن معرفه الآيات بما هى آيات موصله إلى معرفه الله سبحانه و أسمائه و صفاته و أفعاله ككونه تعالى حيا لا يعرضه موت،و قادرا لا يشوبه عجز، و عالما لا يخالطه جهل،و أنه تعالى هو الخالق لكل شىء،و المالك لكل شىء، و الرب القائم على كل نفس بما كسبت،خلق الخلق لا لحاجه منه إليهم بل لينعم عليهم بما استحقوه ثم يجمعهم ليوم الجمع لا ريب فيه ليجزى الذين أساءوا بما عملوا و يجزى الذين أحسنوا بالحسنى.

و هذه و أمثالها معارف حقه إذا تناولها الإنسان و أتقنها مثلت له حقيقه حياته، و أنها حياه مؤبده ذات سعاده دائمه أو شقوه لازمه،و ليست بتلك المتهوسه المنقطعه اللاهيه اللاغيه،و هذا موقف علمى يهدى الإنسان إلى تكاليف و وظائف بالنسبه إلى ربه و بالنسبه إلى أبناء نوعه فى الحياه الدنيا و الحياه الآخره،و هى التى نسميها بالدين، فإن السنه التى يلتزمها الإنسان فى حياته،و لا يخلو عنها حتى البدوى و الهمجى إنما يضعها و يلتزمها أو يأخذها و يلتزمها لنفسه من حيث إنه يقدر لنفسه نوعا من الحياه أى نوع كان،

ثم يعمل بما استحسنه من السنه لإسعاد تلك الحياه،و هذا من الوضوح بمكان.

فالحياه التى يقدرها الإنسان لنفسه تمثل له الحوائج المناسبه لها فيهتدى بها إلى الأعمال التى تضمن عاده رفع تلك الحوائج فيطبق الإنسان عمله عليها و هو السنه أو الدين.

فتخلص مما ذكرنا أن النظر فى الآيات الأنفسيه و الآفاقيه و معرفه الله سبحانه بها يهدى الإنسان إلى التمسك بالدين الحق و الشريعه الإلهيه من جهه تمثيل المعرفه المذكوره الحياه الإنسانيه المؤبده له عند ذلك،و تعلقها بالتوحيد و المعاد و النبوه.

و هذه هدايه إلى الإيمان و التقوى يشترك فيها الطريقان معا أعنى طريقى النظر إلى الآفاق و الأنفس فهما نافعان جميعا غير أن النظر إلى آيات النفس أنفع فإنه لا ـ يخلو من العثور على ذات النفس و قواها و أدواتها الروحيه و البدنيه و ما يعرضها من الاعتدال فى أمرها أو طغيانها أو خمودها و الملكات الفاضله أو الرذيله،و الأحوال الحسنه أو السيئه التى تقارنها.

و اشتغال الإنسان بمعرفه هذه الأمور و الإذعان بما يلزمها من أمن أو خطر و سعاده أو شقاوه لا ينفك من أن يعرفه الداء و الدواء من موقف قريب فيشتغل بإصلاح الفاسد منها،و الالتزام بصحيحها بخلاف النظر فى الآيات الآفاقيه فإنه و إن دعا إلى إصلاح النفس و تطهيرها من سفاسف الأخلاق و رذائلها،و تحليتها بالفضائل الروحيه لكنه ينادى لذلك من مكان بعيد،و هو ظاهر.

و للروايه معنى آخر أدق مستخرج من نتائج الأبحاث الحقيقيه فى علم النفس و هو أن النظر فى الآيات الآفاقيه و المعرفه الحاصله من ذلك نظر فكرى و علم حصولى بخلاف النظر فى النفس و قواها و أطوار وجودها و المعرفه المتجليه منها فإنه نظر شهودى و علم حضورى،و التصديق الفكرى يحتاج فى تحققه إلى نظم الأقيسه و استعمال البرهان، و هو باق ما دام الإنسان متوجها إلى مقدماته غير ذاهل عنها و لا ـ مشتغل بغيرها،و لذلك يزول العلم بزوال الإشراف على دليله و تكثر فيه الشبهات و يثور فيه الاختلاف.

و هذا بخلاف العلم النفسانى بالنفس و قواها و أطوار وجودها فإنه من العيان فإذا اشتغل الإنسان بالنظر إلى آيات نفسه،و شاهد فقرها إلى ربها،و حاجتها فى جميع أطوار وجودها،وجد أمرا عجيبا؛وجد نفسه متعلقه بالعظمه و الكبرياء متصله فى

وجودها و حياتها و علمها و قدرتها و سمعها و بصرها و إرادتها و حبها و سائر صفاتها و أفعالها بما لا يتناهى بهاء و سناء و جمالا و جلالا و كمالا من الوجود و الحياه و العلم و القدره، و غيرها من كل كمال.

و شاهد ما تقدم بيانه أن النفس الإنسانيه لا شأن لها إلا فى نفسها،و لا مخرج لها من نفسها،و لا شغل لها إلا السير الاضطرارى فى مسير نفسها،و أنها منقطعه عن كل شىء كانت تظن أنها مجتمعه معه مختلطه به إلا ربها المحيط بباطنها و ظاهرها و كل شىء دونها فوجدت أنها دائما فى خلاءٍ مع ربها و إن كانت فى ملاءٍ من الناس.

و عند ذلك تنصرف عن كل شىء و تتوجه إلى ربها و تنسى كل شىء و تذكر ربها فلا يحجبه عنها حجاب و لا تستتر عنه بستر و هو حق المعرفه الذى قدر لإنسان.

و هذه المعرفه الأحرى بها أن تسمى بمعرفه الله بالله،و أما المعرفه الفكريه التى يفيدها النظر فى الآيات الآفاقيه سواء حصلت من قياس أو حدس أو غير ذلك فإنما هى معرفه بصوره ذهنيه عن صوره ذهنيه،و جل الإله أن يحيط به ذهن أو تساوى ذاته صوره مختلقه اختلقها خلق من خلقه،و لا يحيطون به علما.

- و قد روى فى الإرشاد،و الإحتجاج،على ما فى البحار عن الشعبى عن أمير المؤمنين (ع)فى كلام له: إن الله أجل من أن يحتجب عن شىء أو يحتجب عنه شىء.

- و فى التوحيد،عن موسى بن جعفر(ع)فى كلام له: ليس بينه و بين خلقه حجاب غير خلقه- احتجب بغير حجاب محجوب-و استتر بغير ستر مستور لا إله إلا هو الكبير المتعال.

- و فى التوحيد،مسندا عن عبد الأعلى عن الصادق(ع)فى حديث: و من زعم أنه يعرف الله بحجاب أو بصوره أو بمثال-فهو مشرك لأن الحجاب و الصوره و المثال غيره،و إنما هو واحد موحد فكيف يوحد من زعم أنه يوحده بغيره-إنما عرف الله من عرفه بالله فمن لم يعرفه به-فليس يعرفه إنما يعرف غيره ،الحديث.و الأخبار المأثوره عن أئمه أهل البيت(ع)فى معنى ما قدمناه كثيره جدا لعل الله يوفقنا لإيرادها و شرحها فى ما سيأتى إن شاء الله العزيز من تفسير سوره الأعراف.

فقد تحصل أن النظر فى آيات الأنفس أنفس و أغلى قيمه و أنه هو المنتج لحقيقه المعرفه فحسب،و على هذا فعده(ع)إياها أنفع المعرفتين لا معرفه متعينه إنما هو

لأن العامه من الناس قاصرون عن نيلها،و قد أطبق الكتاب و السنه و جرت السيره الطاهره النبويه و سيره أهل بيته الطاهرين على قبول من آمن بالله عن نظر آفاقى و هو النظر الشائع بين المؤمنين فالطريقان نافعان جميعا لكن النفع فى طريق النفس أتم و أغزر.

- و فى الدرر و الغرر،عن على(ع)قال: العارف من عرف نفسه فأعتقها و نزهها عن كل ما يبعدها.

أقول:أى أعتقها عن إساره الهوى و رقيه الشهوات.

- و فيه،عنه(ع)قال: أعظم الجهل جهل الإنسان أمر نفسه.

- و فيه،عنه(ع):قال: أعظم الحكمه معرفه الإنسان نفسه.

- و فيه،عنه(ع):قال: أكثر الناس معرفه لنفسه أخوفهم لربه.

أقول:و ذلک لکونه أعلمهم بربه و أعرفهم به،و قد قال الله سبحانه: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .

- و فيه،عنه(ع):قال: أفضل العقل معرفه المرء بنفسه فمن عرف نفسه عقل، و من جهلها ضل.

- و فيه،عنه(ع):قال: عجبت لمن ينشد ضالته،و قد أضل نفسه فلا يطلبها.

- و فيه،عنه(ع)قال: عجبت لمن يجهل نفسه كيف يعرف ربه؟.

- و فيه،عنه(ع):قال: غايه المعرفه أن يعرف المرء نفسه.

أقول:و قد تقدم وجه كونها غايه المعرفه فإنها المعرفه حقيقه.

- و فيه،عنه(ع)قال: كيف يعرف غيره من يجهل نفسه.

- و فيه،عنه(ع):قال: كفى بالمرء معرفه أن يعرف نفسه،و كفى بالمرء جهلا أن يجهل نفسه.

- و فيه،عنه(ع):قال: من عرف نفسه تجرد.

أقول:أی تجرد عن علائق الدنیا،أو تجرد عن الناس بالاعتزال عنهم أو تجرد عن کل شیء بالإخلاص لله.

- و فیه،عنه(ع):قال: من عرف نفسه جاهدها و من جهل نفسه أهملها.

- و فیه،عنه(ع):قال: من عرف نفسه جل أمره.

- و فیه،عنه(ع):قال: من عرف نفسه کان لغیره أعرف-و من جهل نفسه کان بغیره أجهل.

- و فیه،عنه(ع):قال: من عرف نفسه فقد انتهی إلی غایه کل معرفه و علم.

- و فیه،عنه(ع):قال: من لم یعرف نفسه بعد عن سبیل النجاه،و خبط فی الضلال و الجهالات.

- و فیه،عنه(ع):قال: معرفه النفس أنفع المعارف.

- و فیه،عنه(ع):قال: نال الفوز الأکبر من ظفر بمعرفه النفس.

- و فیه،عنه(ع):قال: لا تجهل نفسک فإن الجاهل معرفه نفسه جاهل بکل شیء.

- و فی تحف العقول،عن الصادق(ع)فی حدیث: من زعم أنه یعرف الله بتوهم القلوب فهو مشرک،و من زعم أنه یعرف الله بالاسم دون المعنی-فقد أقر بالطعن لأن الاسم محدث،و من زعم أنه یعبد الاسم و المعنی-فقد جعل مع الله شریکا،و من زعم أنه یعبد بالصفه لا بالإدراک-فقد أحال علی غائب،و من زعم أنه یضیف الموصوف إلی الصفه-فقد صغر بالکبیر،و ما قدروا الله حق قدره.

قیل له:فکیف سبیل التوحید؟قال:باب البحث ممکن و طلب المخرج موجود- إن معرفه عین الشاهد قبل صفته،و معرفه صفه الغائب قبل عینه.

قیل:و کیف یعرف عین الشاهد قبل صفته؟قال:تعرفه و تعلم علمه،و تعرف نفسک به و لا تعرف نفسک من نفسک،و تعلم أن ما فیه له و به کما قالوا لیوسف: «إِنَّکَ لَأَنْتَ یُوسُفُ » -قال: «أَنَا یُوسُفُ وَ هٰذٰا أَخِی » - فعرفوه به و لم یعرفوه بغیره،و لا أثبتوه

من أنفسهم بتوهم القلوب ،الحديث.

أقول:قد أوضحنا فی ذيل

- قوله(ع) المعرفه بالنفس أنفع المعرفتين (الروايه الثانيه من الباب)أن الإنسان إذا اشتغل بآيه نفسه و خلا بها عن غيرها انقطع إلی ربه من كـل شـیء،و عقب ذلـك معرفه ربه معرفه بلاـ توسـيط وسـط،و علمـا بلاـ تسـبيب سـبب إذ الانقطـاع يرفع كـل حجـاب مضروب،و عند ذلك يذهل الإنسان بمشاهده ساحه العظمه و الكبرياء عن نفسه،و أحری بهذه المعرفه أن تسمی معرفه الله بالله.

و انكشف له عنـد ذلـك من حقيقه نفسه أنهـا الفقيره إلی الله سـبحانه المملوكه له ملكـا لا تسـتقل بشـیء دونه،و هـذا هو المراد بقوله(ع):«تعرف نفسك به،و لا تعرف نفسك بنفسك من نفسك،و تعلم أن ما فيه له و به».

و فی هذا المعنی

- ما رواه المسـعودی فی إثبات الوصـيه،عن أمير المؤمنين(ع)قال فی خطبه له: «فسـبحانك ملأت كل شـیء و باينت كل شیء- فأنت لا يفقدك شیء و أنت الفعال لما تشاء-تباركت يا من كل مدرك من خلقه،و كل محدود من صنعه.

-إلی أن قال-سـبحانك أی عين تقوم نصب بهاء نورك،و ترقی إلی نور ضياء قدرتك،و أی فهم يفهم ما دون ذلك إلا أبصار كشـفت عنهـا الأـغطيه،و هتكت عنها الحجب العميه،فرقت أرواحها علی أطراف أجنحه الأرواح،فناجوك فی أركانك، و ولجوا بين أنوار بهائك،و نظروا من مرتقی التربه إلی مستوی كبريائك،فسماهم أهل الملكوت زوارا،و دعاهم أهل الجبروت عمارا».

- و فی البحار،عن إرشاد الديلمی،-و ذكر بعد ذلك سندين لهذا الحديث-و فيه:

«فمن عمل برضائی ألزمه ثلاث خصال:أعرفه شكرا لا يخالطه الجهل-و ذكرا لا يخالطه النسيان،و محبه لا يؤثر علی محبتی محبه المخلوقين.

فـإذا أحبنی أحببته،و أفتـح عين قلبه إلی جلاـلی،و لاـ أخفی عليه خـاصه خلقی، و أنـاجيه فی ظلم الليل و نور النهار-حتی ينقطع حـديثه مع المخلوقين و مجالسـته معهم، و أسـمعه كلاـمی و كلام ملائكتی،و أعرفه السـر الـذی سترته عن خلقی،و ألبسه الحياء حتی يستحيی منه الخلق كلهم،و يمشی علی الأرض مغفورا له،و أجعل قلبه واعيا

ص:۱۷۵

و بصیرا،و لا أخفی علیه شیئا من جنه و لا نار،و أعرفه ما یمر علی الناس فی القیامه من الهول و الشده،و ما أحاسب به الأغنیاء و الفقراء-و الجهال و العلماء،و أنومه فی قبره و أنزل علیه منکرا و نکیرا حتی یسألاه،و لا یری غم الموت و ظلمه القبر و اللحد و هول المطلع،ثم أنصب له میزانه و أنشر دیوانه،ثم أضع کتابه فی یمینه فیقرؤه منشورا-ثم لا أجعل بینی و بینه ترجمانا،فهذه صفات المحبین.

یا أحمد اجعل همک هما واحدا،و اجعل لسانک لسانا واحدا،و اجعل بدنک حیا لا یغفل أبدا،من یغفل عنی لا أبالی بأی واد هلک».

و الروایات الثلاثه الأخیره و إن لم یکن من أخبار هذا البحث المعقود علی الاستقامه إلا أنا إنما أوردناها لیقضی الناقد البصیر بما قدمناه من أن المعرفه الحقیقیه لا تستوفی بالعلم الفکری حق استیفائها فإن الروایات تذکر أمورا من المواهب الإلهیه المخصوصه بأولیائه لا ینتجها السیر الفکری البته.

و هی أخبار مستقیمه صحیحه تشهد علی صحتها الکتاب الإلهی علی ما سنبین ذلک فیما سیوافیک من تفسیر سوره الأعراف إن شاء الله العزیز.

- و فی تفسیر القمی،: فی قوله تعالی: «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا عَلَیْکُمْ أَنْفُسَکُمْ » (الآیه)، قال:قال(ع):أصلحوا أنفسکم-و لا تتبعوا عورات الناس-و لا تذکروهم فإنه لا یضرکم ضلالتهم إذا أنتم صالحون.

أقول:و الروایه منطبقه علی ما قدمناه فی البیان السابق أن الآیه متوجهه إلی النهی عن التعرض لإصلاح حال الناس أزید من متعارف الدعوه و الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر،و لیست مسوقه للترخیص فی ترک فریضه الدعوه و الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر.

- و فی نهج البیان،عن:الصادق(ع)أنه قال: نزلت هذه الآیه فی التقیه.

أقول:مفاد الروایه أن الآیه خاصه بصوره التقیه من أهل الضلال فی الدعوه إلی الحق و الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر لمکان اشتراط ذلک شرعا بعدم التقیه،و قد تقدم فی البیان السابق أن ظاهر الآیه لا تساعد علی ذلک.

و قد روی فی الدر المنثور،عن مفسری السلف قول جمع منهم بذلک کابن مسعود و ابن عمر و أبی بن کعب و ابن عباس و مکحول،و ما روی فی ذلک من الروایات عن النبی ص غیر داله علی ذلک.

و هی ما

-عن الترمذی و صححه و ابن ماجه و ابن جریر و البغوی فی معجمه و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و أبی الشیخ و ابن مردویه و الحاکم و صححه و البیهقی فی الشعب عن أبی أمیه الشعبانی قال": أتیت أبا ثعلبه الخشنی فقلت له:کیف تصنع هذه الآیه؟قال:أیه آیه؟قال: (١)قوله: «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا عَلَیْکُمْ أَنْفُسَکُمْ -لاٰ یَضُرُّکُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَیْتُمْ » قال:أما و الله لقد سألت عنها خبیرا سألت عنها رسول الله ص- قال:بل ائتمروا بالمعروف و تناهوا عن المنکر-حتی إذا رأیت شحا مطاعا،و هوی متبعا،و دنیا مؤثره،و إعجاب کل ذی رأی برأیه-فعلیک بخاصه نفسک و دع عنک أمر العوام-فإن من ورائکم أیام الصبر،الصابر فیهن کالقابض علی الجمر،للعامل فیهن مثل أجر خمسین رجلا یعملون مثل عملکم.

أقول:و فی هذا المعنی ما رواه ابن مردویه عن معاذ بن جبل عنه(ص)، و الروایه إنما تدل علی أن الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر لم یرتفعا بالآیه.

-و فی الدر المنثور،:أخرج أحمد و ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردویه عن أبی عامر الأشعری: أنه کان فیهم شیء فاحتبس علی رسول الله ص-ثم أتاه فقال:ما حبسک؟قال:یا رسول الله قرأت هذه الآیه: «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا عَلَیْکُمْ أَنْفُسَکُمْ -لاٰ یَضُرُّکُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَیْتُمْ » قال:فقال له النبی ص:أین ذهبتم؟إنما هی:لا یضرکم من ضل من الکفار إذا اهتدیتم.

أقول:و الروایه کما تری تخص الأمر فی الآیه بالترخیص فی ترک دعوه الکفار إلی الحق و تصرفها عن الترخیص فی ترک الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر فی الفروع مع أن آیات وجوب الدعوه و ما یتبعها من آیات الجهاد و نحوها لا تقصر فی الإباء عن ذلک عن آیات الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر.

١- ١) قلت.ظ

- و فيه،:أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: ذكرت هذه الآيه عند رسول الله ص قول الله عز و جل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ -لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » -فقال نبى الله ص:لم يجىء تأويلها،لا يجىء تأويلها حتى يهبط عيسى بن مريم(ع).

أقول:و الكلام فى الروايه نظير الكلام فيما تقدم.

- و فيه،:أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن حذيفه": فى قوله: «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » قال:إذا أمرتم بالمعروف و نهيتم عن المنكر).

أقول:و هو معنى معتدل مآله إلى ما ذكرناه،و روى مثله عن سعيد بن المسيب.

(بحث علمى) [عرفان النفس فى تسعه فصول]

ملفق من إشارات تاريخيه و أبحاث أخر نفسيه و غير ذلك فى فصول:

١-لم يزل الإنسان فيما نعلم-حتى الإنسان الأولى-يقول فى بعض قوله:«أنا» و«نفسى»يحكى به عن حقيقه من الحقائق الكونيه و هو لا محاله يدرى ما يقول و يعلم ما يريد غير أن انصراف همه إلى تعبئه أركان الحياه البدنيه و اشتغاله بالأعمال الجسميه لرفع الحوائج الماديه يصرفه عن التعمق فى أمر هذه النفس المحكى عنها بقوله:«أنا» و«نفسى»و ربما ألقى ذلك فى وهمه أن ذلك هو البدن لا غير.

و ربما وجد الإنسان أن الفارق بين الحى و الميت بحسب ظهور الحس هو النفس الذى يتنفس به الإنسان ما دام حيا فإذا فقده أو سد عليه مجاريه عاد ميتا لا يشعر بشىء و بطل وجوده و انعدمت شخصيته و إنيته فأذعن أن النفس هو النفس(محركه) و هو الريح أو نوع خاص من الريح فسماه لذلك روحا،و قضى أن الإنسان هو المجموع من الروح و البدن.

أو رأى أن الحس و الحركه البدنيين كأنهما رهينا ما يحتبس فى البدن من الدم السارى فى أعضائه أو الجارى فى عروقه من شرائين و أورده و أن الحياه التى ترتحل الإنسانيه بارتحالها متعلقه بهذا المائع الأحمر وجودا و عدما فحكم بأن النفس هو الدم

فسمى النفس دما بل الدم نفسا سائله أو غير سائله.

و ربما دعا الإنسان ما يشاهده من أمر النطفه أن المنى حينما يلتقمه الرحم و يطرؤه التطور الكونى طورا بعد طور هو الذى يصير إنسانا،أن يذهب إلى أن النفس الإنسانيه هى الأجزاء الأصليه المجتمعه فى النطفه،و هى باقيه فى البنيه البدنيه مدى الحياه،و ربما ذهب الذاهب إلى أنها مصونه عن التغير و البطلان،و أن الإنسانيه باقيه ببقائها لا تنالها يد الحدثان و لا أنها تقبل البطلان و الانعدام مع أن النفس الإنسانيه لو كانت هذه الأجزاء المنعوته سواء اشترطنا فيها الاجتماع على هيئه خاصه أو لم نشترط استلزم ذلك القول بمحالات كثيره مذكوره فى محله.

فهذه الأقاويل و أمثالها لا تنافى ما يناله الإنسان و هو إنسان من حقيقه قوله:

«أنا»و«نفسى» و لا يخطئ فيه البته إذ ليس من البعيد أن نكون ندرك حقيقه من الحقائق الكونيه إجمالا إدراكا غير خاطئ ثم نأخذ فى البحث عن هويته و واقع أمره تفصيلا فنخطئ فيه عند ذاك؛فهناك موضوعات علميه كثيره كالمحسوسات الظاهريه أو الباطنيه نشاهدها مشاهده عيان-على الرغم من السوفسطائيين و الشكاكين-ثم العلماء لا يزالون يختلفون فى أمرها خلفا عن سلف.

و كذلك العامه من غير أهل البحث يشاهدون من أنفسهم ما يشاهده الخاصه من غير فرق البته و هم على جهل من أمر تفصيله عاجزون عن تفسير خصوصيات وجوده.

و بالجمله مما لا ريب فيه أن الإنسان فى جميع أحيان وجوده يشاهد أمرا غير خارج منه يعبر عنه بأنا و نفسى،و إذا لطف نظره و تعمق خائضا فيما يجده فى مشاهدته هذه وجده شيئا على خلاف ما يجده من الأمور الجسمانيه القابله للتغير و الانقسام و الاقتران بالمكان و الزمان،و وجده غير هذا البدن المادى المحكوم بأحكام الماده بأعضائه و أجزائه فإنه ربما نسى أى عضو من أعضائه أو غفل عن جميع بدنه و هو لا ينسى نفسه و لا يغفل عنها،دع عنك ما ربما تقوله:نسيت نفسى،غفلت عن نفسى،ذهلت عن نفسى فهذه مجازات عن عنايات نفسانيه مختلفه،أ لا ترى أنك تسند النسيان و الغفله و الذهول حينئذ إلى نفسك و تحكم بأن نفسك الشاعره شعرت بأمر و غفلت عن أمر تسميه نفسك كالبدن و نحوه؟.

و دع عنـك مـا ربما يتوهم أن المغمى عليه يغفل عن ذاته و نفسه فإن الـذى يجـده هـذا الإنسان بعـد انقضاء حال الإغماء أنه لا يـذكر شعوره بنفسه حـاله الإغمـاء لا أنه يـذكر أنه كان غير شاعر بها،و بين المعنيين فرق،و ربما يـذكر بعض المغمى عليهم من حاله إغمائه شيئا بشبه الرؤيا التى نذكرها من حال المنام.

و كيف كان لا ينبغى الارتياب فى أن الإنسان بما أنه إنسان لا يخلو عن هذا الشعور النفسى الذى يمثل له حقيقه نفسه التى يعبر عنها بأنا،و لو أنه استأنس قليل استيناس بما يشاهده من نفسه على انصراف من التقسم إلى مشاغله البدنيه و أمانيه الماديه قضى بمـا تقـدم أن نفسه أمر مغـاير لسـنخ المـاده و الماديـات لمـا يشاهـد من مغـايره خواص نفسه و آثارهـا لخواص الأمور الماديه و آثارها.

غير أن الاشتغال بالمشاغل اليوميه و صرف الهم إلى أمانى الحياه الماديه و رفع الحوائج البدنيه يدعوه إلى إهمال الأمر و الإذعان بشىء من تلك الآراء الساذجه الأبجديه و الوقف على إجمال المشاهده.

٢-الفرد العـادى من الإنسـان و إن كان شـغله هم الغـذاء و المسـكن و الملبس و المنكـح عن الغور فى حقيقه نفسه و البحث فى زوايـا ذاته،لكن الحوادث المختلفه الهـاجمه عليه فى خلال أيام حياته ربما لم تخل من عوامل توجهه إلى الانصـراف عن غيره و الخلوه بنفسه كالخوف الشديد الذى تنزعج به النفس عن كل شـىء و ترجع إلى نفسـها كالآخذه الممسكه عليها حذرا من الفناء و الزوال،و كالسـرور و الترح الموجب لانجـذاب النفس إلى ما تسـتلذ به،و كالغرام الشديد المنجر إلى الوله بالمحبوب المطلوب بحيث لا هم إلا همه،و كالاضطرار الشديد الذى ينقطع به الإنسان عن كل شىء إلى نفسه؛إلى غير ذلك من العوامل الاتفاقيه.

هـذه العوامل المختلفه و الأسـباب المتنوعه ربما أدى الإنسان واحـدا منها أو أزيـد من واحد إلى أن يتمثل عنده بعض ما لا يكاد تنـاله الحواس الظـاهره أو الفكره الخـاليه، كـالواقع فى مكان مظلم موحش أدهشه الخوف على نفسه فإنه يبصـر أشـياء مخوفه أو يسمع أصواتا هائله تهدده فى نفسه،و هو الذى ربما يسمونه غولا أو هاتفا أو جنا و نحو ذلك.

و ربما أحاط به الحب الشديد أو الحسره و الأسف الشديدان فحال بينه و بين

حواسه الظاهريه و ركز شعوره فيما يحبه أو يأسف عليه،فرأى فى حال المنام أو فى حال من اليقظه يشبه حاله المنام،أمورا مختلفه من الوقائع الماضيه أو الحوادث المستقبله أو خبايا و خفايا تخفى على حواس غيره.

و ربما كانت الإراده إذا شفعت باليقين و الإيمان الشديد و الإذعان الجازم تفعل أفعالا لا يقدر عليها الإنسان المتعارف،و لا أن الأسباب العاديه يسعها أن تهدى إلى ذلك.

فهذه حوادث جزئيه نادره-بالنسبه إلى عامه الحوادث العاديه-تحدث عن حدوث عوامل مختلفه مرت الإشاره إليها:أما أصل وقوعها فمما ليس كثير حاجه إلى تجشم الاستدلال عليه فكل منا لا يخلو من أن يذكر من نفسه أو من غيره ما يشهد به، و أما أن السبب الحقيقى العامل فيها ما هى؟فليس هاهنا محل الاشتغال به.

و الذى يهمنا التنبه عليه هو أن هذه الأمور جميعا تتوقف فى وقوعها على نوع من انصراف النفس عن الاشتغال بالأمور الخارجه عنها-و خاصه اللذائذ الجسمانيه- و انعطافها إلى نفسها؛و لذا كان الأساس فى جميع الارتياضات النفسانيه-على تنوعها و تشتتها الخارج عن الإحصاء-هو مخالفه النفس فى الجمله،و ليس إلا لأن انكباب النفس على مطاوعه هواها يصرفها عن الاشتغال بنفسها،و يهديها إلى مشتهياتها الخارجه؛ فيوزعها عليها و يقسم شعورها بينها،فتأخذ بها و تترك نفسها.

۳-لا ينبغى لنا أن نشك فى أن العوامل الداعيه إلى هذه الآثار النفسانيه كما تتم لبعض الأفراد موقتا و فى أحايين يسيره، ربما تتم لبعض آخر ثابته مستمره أو تمكث مكثا معتدا به فكثيرا ما نجد أشخاصا متزهدين عن الدنيا و لذائذها الماديه و مشتهياتها الفانيه لا هم لهم إلا ترويض النفس و الاشتغال بسلوك طريق الباطن.

و لا ينبغى لنا أن نشك فى أن هذه المشغله النفسيه ليست سنه مبتدعه فى زماننا هذا،فالنقل و الاعتبار يدلان على أنها كانت من السنن الدائره بين الناس،كلما رجعنا القهقرى فهى من السنن اللازمه للإنسانيه إلى أقدم عهودها التى نزلت فى هذه الأرض على ما نحسب.

۴-البحث عن حال الأمم و التأمل فى سننهم و سيرهم و تحليل عقائدهم و أعمالهم يفيد أن الاشتغال بمعرفه النفس على طرقها المختلفه للحصول على عجائب آثارها،كان

دائرا بينهم بل مهمه نفيسه تبذل دونها أنفس الأوقات و أغلى الأثمان منذ أقدم الأعصار.

و من الدليل عليه أن الأقوام الهمجيه الساكنه فى أطراف المعموره،كإفريقيه و غيرها و يوجد بينهم حتى اليوم بقايا من أساطير السحر و الكهانه و الإذعان بحقيقتهما و أصابتهما.

و الاعتبار الدقيق فيما نقل إلينا من المذاهب و الأديان القديمه كالبرهمانيه و البوذيه و الصائبه و المانويه و المجوسيه و اليهوديه و النصرانيه و الإسلام،كل ذلك يعطى أن المهمه معرفه النفس و الحصول على آثارها تسربا عميقا فيها و إن كانت مختلفه فى وصفها و تلقينها و تقويمها.

فالبرهمانيه-و هى مذهب هند القديم-و إن كانت تخالف الأديان الكتابيه فى التوحيد و أمر النبوه غير أنها تدعو إلى تزكيه النفس و تطهير السر و خاصه للبراهمه أنفسهم.

نقل عن البيرونى فى كتاب ما للهند من مقوله قال:عمر البرهمن بعد مضى سبع سنين منه منقسم لأربعه أقسام:

فأول القسم الأول هى السنه الثامنه يجتمع إليه البراهمه لتنبيهه و تعريفه الواجبات عليه،و توصيته بالتزامها و اعتناقها ما دام حيا.

قال:و قد دخل فى القسم الأول إلى (١)السنه الخامسه و العشرين من سنه إلى السنه الثامنه و الأربعين،فيجب عليه فيها أن يتزهد و يجعل الأرض وطاءه،و يقبل على تعلم«بيذ»و تفسيره علم الكلام و الشريعه من أستاذ يخدمه آناء ليله و نهاره،و يغتسل كل يوم ثلاث مرات،و يقدم قربان النار فى طرفى النهار،و يسجد لأستاذه بعد القربان، و يصوم يوما و يفطر يوما مع الامتناع عن اللحم أصلا،و يكون مقامه فى دار الأستاذ، و يخرج منها السؤال و الكديه من خمسه بيوت فقط كل يوم مره عند الظهيره أو المساء، فما وجد من صدقه وضعه بين يدى أستاذه ليتخير منه ما يريد ثم يأذن له فى الباقى فيتقوت بما فضل منه،و يحمل إلى النار حطبها،فالنار عندهم معظمه و الأنوار مقتربه.

و كذلك عند سائر الأمم فقد كانوا يرون تقبل القربان بنزول النار عليها،و لم يثنهم

ص:١٨٢

١- ١) من ظ.

عنها عباده أصنام أو كواكب أو بقر أو حمير أو صور.

قال:و أما القسم الثانى فهو من السنه الخامسه و العشرين إلى الخمسين أو إلى السبعين، و فيه يأذن له الأستاذ فى التأهل فيتزوج و يقصد النسل.و ذكر كيفيه معاشرته أهله و الناس و ارتزاقه و سيرته.

ثم قال:و أما القسم الثالث فهو من الخمسين إلى الخامسه و السبعين أو إلى التسعين، و فى هذا القسم يتزهد و يخرج من زخارى الحياه و يسلم زوجه إلى أولاده إن لم تصحبه إلى الصحارى،و يستمر خارج العمران على سيرته فى القسم الأول، و لا يستكن تحت سقف،و لا يلبس إلا ما يوارى سوأته من لحاء الشجر،و لا ينام إلا على الأرض بغير وطاء،و لا يتغذى إلا بالثمار و النبات و أصوله،و يطول الشعر و لا يدهن.

قال:و أما القسم الرابع فهو إلى آخر العمر يلبس فيه لباسا أحمر،و يأخذ بيده قضيبا،و يقبل على الفكر و تجريد القلب من الصداقات و العداوات،و يرفض الشهوه و الحرص و الغضب،و لا يصاحب أحدا البته.

فإن قصد موضعا ذا فضل طلبا للثواب لم يقم فى طريقه فى قريه أكثر من يوم، و فى بلد أكثر من خمسه أيام،و إن دفع له أحد شيئا لم يترك منه للغد بقيه،و ليس له إلا الدءوب على شرائط الطريق المؤدى إلى الخلاص و الوصول إلى المقام الذى لا رجوع فيه إلى الدنيا،ثم ذكر الأحكام العامه التى يجب على البرهمن العمل بها فى جميع عمره، انتهى موضع الحاجه من كلامه.

و أما سائر الفرق المذهبيه من الهنود كالجوكيه أصحاب الأنفاس و الأوهام (۱)و كأصحاب الروحانيات و أصحاب الحكمه و غيرهم،فلكل طائفه منهم رياضات شاقه عمليه لا تخلو عن العزله و تحريم اللذائذ الشهوانيه على النفس.

و أما البوذيه فبناء مذهبهم على تهذيب النفس و مخالفه هواها و تحريم لذائذها عليها للحصول على حقيقه المعرفه،و قد كان هذا هو الطريقه التى سلكها بوذا نفسه فى حياته، فالمنقول أنه كان من أبناء الملوك أو الرؤساء فرفض زخارف الحياه،و هجر أريكه

۱- ۱) و ليرجع فى تعرف حالهم إلى كتاب نفائس الفنون.

العرش إلى غابه موحشه لزمها فی ریعان شبابه،و اعتزل الناس،و ترک التمتع بمزایا الحیاه،و أقبل علی ریاضه نفسه و التفکر فی أسرار الخلقه حتی قذفت المعرفه فی قلبه و سنه إذ ذاک سته و ثلاثون و عند ذاک خرج إلی الناس فدعاهم إلی ترویض النفس و تحصیل المعرفه و لم یزل علی ذلک قریبا من أربع و أربعین سنه علی ما فی التواریخ.

و أما الصابئون و نعنی بهم أصحاب الروحانیات و أصنامها فهم و إن أنکروا أمر النبوه غیر أن لهم فی طریق الوصول إلی کمال المعرفه النفسانیه طرقا لا تختلف کثیرا عن طرق البراهمه و البوذیین،قالوا-علی ما فی الملل و النحل-:إن الواجب علینا أن نطهر نفوسنا عن دنس الشهوات الطبیعیه،و نهذب أخلاقنا عن علائق القوی الشهوانیه و الغضبیه حتی یحصل مناسبه ما بیننا و بین الروحانیات فنسأل حاجاتنا منهم،و نعرض أحوالنا علیهم،و نصبو فی جمیع أمورنا إلیهم،فیشفعون لنا إلی خالقنا و خالقهم و رازقنا و رازقهم،و هذا التطهیر لیس یحصل إلا باکتسابنا و ریاضتنا و فطامنا أنفسنا عن دنیئات الشهوات استمدادا من جهه الروحانیات،و الاستمداد هو التضرع و الابتهال بالدعوات،و إقامه الصلوات،و بذل الزکوات،و الصیام عن المطعومات و المشروبات، و تقریب القرابین و الذبائح،و تبخیر البخورات،و تعزیم العزائم فیحصل لنفوسنا استعداد و استمداد من غیر واسطه،انتهی.

و هؤلاء و إن اختلفوا فیما بین أنفسهم بعض الاختلاف فی العقائد العامه الراجعه إلی الخلق و الإیجاد لکنهم متفقو الرأی فی وجوب ترویض النفس للحصول علی کمال المعرفه و سعاده النشأه.

و أما المانویه من الثنویه فاستقرار مذهبهم علی کون النفس من عالم النور العلوی و هبوطها إلی هذه الشبکات المادیه المظلمه المسماه بالأبدان،و أن سعادتها و کمالها فی التخلص من دار الظلمه إلی ساحه النور إما اختیارا بالترویض النفسانی،و إما اضطرارا بالموت الطبیعی،معروف.

و أما أهل الکتاب و نعنی بهم الیهود و النصاری و المجوس فکتبهم المقدسه و هی العهد العتیق و العهد الجدید و أوستا مشحونه بالدعوه إلی إصلاح النفس و تهذیبها و مخالفه هواها.

و لا تزال کتب العهدین تذکر الزهد فی الدنیا و الاشتغال بتطهیر السر،و لا یزال

یتربی بینهم جم غفیر من الزهاد و تارکی الدنیا جیلا بعد جیل،و خاصه النصاری فإن من سننهم المتبعه الرهبانیه.

و قد ذکر أمر رهبانیتهم فی القرآن الشریف قال تعالی: «ذٰلِکَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّیسِینَ وَ رُهْبٰاناً وَ أَنَّهُمْ لاٰ یَسْتَکْبِرُونَ» :المائده:۸۲ و قال تعالی: «وَ رَهْبٰانِیَّهً ابْتَدَعُوهٰا مٰا کَتَبْنٰاهٰا عَلَیْهِمْ إِلاَّ ابْتِغٰاءَ رِضْوٰانِ اللّٰهِ فَمٰا رَعَوْهٰا حَقَّ رِعٰایَتِهٰا» :الحدید:۲۷،کما ذکر المتعبدون من الیهود فی قوله: «لَیْسُوا سَوٰاءً مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ أُمَّهٌ قٰائِمَهٌ یَتْلُونَ آیٰاتِ اللّٰهِ آنٰاءَ اللَّیْلِ وَ هُمْ یَسْجُدُونَ، یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ یَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ یُسٰارِعُونَ فِی الْخَیْرٰاتِ وَ أُولٰئِکَ مِنَ الصّٰالِحِینَ» :آل عمران:۱۱۴.

و أما الفرق المختلفه من أصحاب الارتیاضات و الأعمال النفسیه کأصحاب السحر و السیمیاء و أصحاب الطلسمات و تسخیر الأرواح و الجن و روحانیات الحروف و الکواکب و غیرها و أصحاب الإحضار و تسخیر النفوس،فلکل منهم ارتیاضات نفسیه خاصه تنتج نوعا من السلطه علی أمر النفس. (۱)

و جمله الأمر علی ما یتحصل من جمیع ما مر:أن الوجهه الأخیره لجمیع أرباب الأدیان و المذاهب و الأعمال هو تهذیب النفس بترک هواها و الاشتغال بتطهیرها من شوب الأخلاق و الأحوال غیر المناسبه للمطلوب.

۵-لعلک ترجع و تقول:إن الذی ثبت من سنن أرباب المذاهب و الطرق و سیرهم هو الزهد فی الدنیا و هو غیر مسأله معرفه النفس أو الاشتغال بأمر النفس بالمعنی الذی تقدم البحث عنه.

و بلفظ أوضح:الذی یندب إلیه الأدیان و المذاهب التی تدعو إلی العبودیه بنحو أن یتزهد الإنسان نوع تزهد فی الدنیا بإتیان الأعمال الصالحه و ترک الهوی و الآثام و رذائل الأخلاق لیتهیأ بذلک لأحسن الجزاء إما فی الآخره کما یصرح به الأدیان النبویه کالیهودیه و النصرانیه و الإسلام أو فی الدنیا کما استقر علیه دین الوثنیه و مذهب

۱- ۱) راجع فی ذلک کتاب السر المکتوم للرازی و الذخیره الإسکندریه و الکواکب السبعه للحکیم طمطم الهندی و رساله السکاکی فی التخسیر و الدر المکتوم لابن عربی و کتب الأرواح و الإحضار المعموله أخیرا و غیر ذلک،

التناسخ و غيرهما.

فالمتعبد على حسب الدستور الدينى يأتى بما ندب إليه من نوع التزهد من غير أن يخطر بباله أن هناك نفسا مجرده و أن لها نوعا من المعرفه،فيه سعادتها و كمال وجودها.

و كذلك الواحد من أصحاب الرياضات على اختلاف طرقها و سننها إنما يرتاض بما يرتاض من مشاق الأعمال و لا هم له فى ذلك إلا حيازه المقام الموعود فيها و التسلط على نتيجه العمل،كنفوذ الإراده مثلا و هو فى غفله من أمر النفس المذكور من حين يأخذ فى عمله إلى حين يختمه.

على أن فى هؤلاء من لا يرى فى النفس إلا أنها أمر مادى طبيعى كالدم أو الروح البخارى أو الأجزاء الأصليه،و من يرى أن النفس جسم لطيف مشاكل للبدن العنصرى حال فيه،و هو الحامل للحياه فكيف يسوغ القول بكون الجميع يرومون بذلك أمر معرفه النفس؟.

لكنه ينبغى لك أن تتذكر ما تقدم ذكره أن الإنسان فى جميع هذه المواقف التى يأتى فيها بأعمال تصرف النفس عن الاشتغال بالأمور الخارجيه و التمتعات المتفننه الماديه إلى نفسها للحصول على خواص و آثار لا توصل إليها الأسباب الماديه و العوامل الطبيعيه العاديه،لا يريد إلا الانفصال عن العلل و الأسباب الخارجيه،و الاستقلال بنفسه للحصول على نتائج خاصه لا سبيل للعوامل الماديه العاديه إليها.

فالمتدين المتزهد فى دينه يرى أن من الواجب الإنسانى أن يختار لنفسه سعادته الحقيقيه و هى الحياه الطيبه الأخرويه عند المنتحلين بالمعاد،و الحياه السعيده الدنيويه التى تجمع له الخير و تدفع عنه الشر عند المنكرين له كالوثنيه و أصحاب التناسخ،ثم يرى أن الاسترسال فى التمتعات الحيوانيه لا تحوز له سعادته،و لا تسلك به إلى غرضه؛ فلا محيص له عن رفض الهوى و ترك الانطلاق إلى كل ما تتهوسه نفسه بأسبابها العاديه فى الجمله،و الانجذاب إلى سبب أو أسباب فوق الأسباب الماديه العاديه بالتقرب إليه و الاتصال به،و أن هذا التقرب و الاتصال إنما يتأتى بالخضوع له و التسليم لأمره و ذلك أمر روحى نفسانى لا ينحفظ إلا بأعمال و تروك بدنيه،و هذه هى العباده الدينيه من صلاه و نسك أو ما يرجع إلى ذلك.

ص :١٨٦

فالأعمال و المجاهدات و الارتياضات الدينيه ترجع جميعا إلى نوع من الاشتغال بأمر النفس،و الإنسان يرى بالفطره أنه لا يأخذ شيئا و لا يترك شيئا إلا لنفع نفسه،و قد تقدم أن الإنسان لا يخلو،و لا لحظه من لحظات وجوده من مشاهده نفسه و حضور ذاته و أنه لا يخطئ فی شعوره هذا البته،و إن أخطأ فإنما يخطئ فی تفسيره بحسب الرأی النظری و البحث الفكری؛فظهر بهذا البيان أن الأديان و المذاهب على اختلاف سننها و طرقها لا تروم إلا الاشتغال بأمر النفس فی الجمله،سواء علم بذلك المنتحلون بها أم لم يعلموا.

و كذلك الواحد من أصحاب الرياضات و المجاهدات و إن لم يكن منتحلا بديلا و لا مؤمنا بأمر حقيقه النفس لا يقصد بنوع رياضته التی يرتاض بها إلا الحصول على نتيجتها الموعوده له،و ليست النتيجه الموعوده مرتبطه بالأعمال و التروك التی يأتی بها ارتباطا طبيعيا نظير الارتباط الواقع بين الأسباب الطبيعيه و مسبباتها،بل هو ارتباط إرادی غير مادی متعلق بشعور المرتاض و إرادته المحفوظين بنوع العمل الذی يأتی به، دائر بين نفس المرتاض و بين النتيجه الموعوده؛فحقيقه الرياضه المذكوره هی تأييد النفس و تكميلها فی شعورها و إرادتها للنتيجه المطلوبه،و إن شئت قلت:أثر الرياضه أن تحصل للنفس حاله العلم بأن المطلوب مقدور لها فإذا صحت الرياضه و تمت صارت بحيث لو أرادت المطلوب مطلقا أو أرادته على شرائط خاصه كإحضار الروح للصبی غير المراهق فی المرآه حصل المطلوب.

و إلى هذا الباب يرجع معنى

- ما روی: «أنه ذكر عند النبی ص:أن بعض أصحاب عيسى(ع)كان يمشی على الماء-فقال(ص):لو كان يقينه أشد من ذلك لمشى على الهواء» فالحديث-كما ترى-يؤمئ إلى أن الأمر يدور مدار اليقين بالله سبحانه و إمحاء الأسباب الكونيه عن الاستقلال فی التأثير،فإلى أی مبلغ بلغ ركون الإنسان إلى القدره المطلقه الإلهيه انقادت له الأشياء على قدره،فافهم ذلك.

و من أجمع القول فی هذا الشأن

- قول الصادق(ع): ما ضعف بدن عما قويت عليه النيه ،

- و قال(ص) فی الحديث المتواتر:«إنما الأعمال بالنيات».

فقد تبين أن الآثار الدينيه للأعمال و العبادات و كذلك آثار الرياضات و المجاهدات إنما تستقر الرابطه بينها و بين النفس الإنسانيه بشئونها الباطنيه،فالاشتغال بشیء منها

اشتغال بأمر النفس.

و من زعم أن رابطه السببيه و المسببيه إنما هى بين أجساد هذه الأعمال و بين الغايات الأخرويه مثلا من روح و ريحان و جنه نعيم،أو بينها و بين الغايات الدنيويه الغريبه التى لا تعمل الأسباب الطبيعيه فيها،كالتصرف فى إدراكات النفوس و أنواع إرادتها و التحريكات من غير محرك و الاطلاع على الضمائر و الحوادث المستقبله و الاتصال بالروحانيات و الأرواح و نحو ذلك،أو زعم أن العمل يستتبع الأثر من غير رابطه حقيقيه أو بمجرد إراده إلهيه من غير مخصص فقد غر نفسه.

۶-إياك أن يشتبه عليك الأمر فتستنتج من الأبحاث السابقه أن الدين هو العرفان و التصوف أعنى معرفه النفس كما توهمه بعض الباحثين من الماديين فقسم المسلك الحيوى الدائر بين الناس إلى قسمين:الماديه و العرفان و هو الدين.

و ذلك أن الذى يعقد عليه الدين أن للإنسان سعاده حقيقيه ليس ينالها إلا بالخضوع لما فوق الطبيعه و رفض الاقتصار على التمتعات الماديه،و قد أنتجت الأبحاث السابقه:

أن الأديان أيا ما كانت من حق أو باطل تستعمل فى تربيه الناس و سوقهم إلى السعاده التى تعدهم إياها و تدعوهم إليها إصلاح النفس و تهذيبها إصلاحا و تهذيبا يناسب المطلوب، و أين هذا من كون عرفان النفس هو الدين.

فالدين يدعو إلى عباده الإله سبحانه من غير واسطه أو بواسطه الشفعاء و الشركاء لأن فيها السعاده الإنسانيه و الحياه الطيبه التى لا بغيه للإنسان دونها،و لا ينالها الإنسان و لن ينالها إلا بنفس طاهره مطهره من ألواث التعلق بالماديات و التمتعات المرسله الحيوانيه،فمست الحاجه إلى أن يدرج فى أجزاء دعوته إصلاح النفس و تطهيرها ليستعد المنتحل به المتربى فى حجره للتلبس بالخير و السعاده،و لا يكون كمن يتناول الشىء بإحدى يديه و يدفعه بالأخرى،فالدين أمر و عرفان النفس أمر آخر وراءه،و إن استلزم الدين العرفان نوعا من الاستلزام.

و بنظير البيان يتبين أن طرق الرياضه و المجاهده المسلوكه لمقاصد متنوعه غريبه عن العاده أيضا غير عرفان النفس و إن ارتبط البعض بالبعض نحوا من الارتباط.

نعم لنا أن نقضى بأمر و هو أن عرفان النفس بأى طريق من الطرق فرض السلوك

إلیه إنما هو أمر مأخوذ من الدین کما أن البحث البالغ الحر یعطی أن الأدیان علی اختلافها و تشتتها إنما انشعبت هذه الانشعابات من دین واحد عریق تدعو إلیه الفطره الإنسانیه و هو دین التوحید.

فإنا إذا راجعنا فطرتنا الساذجه بالإغماض عن التعصبات الطارئه علینا بالوراثه من أسلافنا أو بالسرایه من أمثالنا،لم نرتب فی أن العالم علی وحدته فی کثرته و ارتباط أجزائه فی عین تشتتها ینتهی إلی سبب واحد فوق الأسباب،و هو الحق الذی یجب الخضوع لجانبه و ترتیب السلوک الحیوی علی حسب تدبیره و تربیته،و هو الدین المبنی علی التوحید.

و التأمل العمیق فی جمیع الأدیان و النحل یعطی أنها مشتمله نوع اشتمال علی هذا الروح الحی حتی الوثنیه،و الثنویه و إنما وقع الاختلاف فی تطبیق السنه الدینیه علی هذا الأصل و الإصابه و الإخطاء فیه؛فمن قائل مثلا:أنه أقرب إلینا من حبل الورید و هو معنا أینما کنا لیس لنا من دونه من ولی و لا شفیع فمن الواجب عبادته وحده من غیر إشراک،و من قائل:إن تسفل الإنسان الأرضی و خسه جوهره لا یدع له مخلصا إلی الاتصال بذاک الجناب،و أین التراب و رب الأرباب؟فمن الواجب أن نتقرب إلی بعض عباده المکرمین المتجردین عن جلباب المادہ الطاهرین المطهرین من ألواث الطبیعه و هم روحانیات الکواکب أو أرباب الأنواع أو المقربون من الإنسان و «مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِیُقَرِّبُونٰا إِلَی اللّٰهِ زُلْفیٰ» .

و إذ کانوا غائبین عن حواسنا متعالین عن جهاتنا کان من الواجب أن نجسدهم بالأنصاب و الأصنام حتی یتم بذلک أمر التقرب العبادی،و علی هذا القیاس فی سائر الأدیان و الملل فلا نجد فی متونها إلا ما هو بحسب الحقیقه نحو توجیه لتوحید الإله عز اسمه.

و من المعلوم أن السنن الدائره بین الناس و إن انشعبت أی انشعاب فرض و اختلفت أی اختلاف شدید فإنها تمیل إلی التوحد إذا رجعنا إلی سابق عهودها القهقری،و تنتهی بالأخره إلی دین الفطره الساذجه الإنسانیه و هو التوحید؛فدین التوحید أبو الأدیان و هی أبناء له صالحه أو طالحه.

ثم إن الـدين الفطرى إنمـا يعتبر أمر عرفـان النفس ليتوصـل به إلى السـعاده الإنسـانيه التى يـدعو إليها و هى معرفه الإله التى هى المطلوب الأـخير عنـده،و بعبـاره أخرى الـدين إنما يـدعو إلى عرفان النفس دعوه طريقيه لا غائيه فإن الـذوق الـدينى لا يرتضـى الاشـتغال بأمر إلا فى سبيل العبوديه،و إن الدين عند الله الإسـلام و لا يرضـى لعباده الكفر فكيف يرضى بعرفان النفس إذا استقل بالمطلوبيه؟.

و من هنـا يظهر أن العرفان ينتهى إلى أصل الـدين الفطرى إذ ليس هو بنفسه أمرا مسـتقلا يـدعو إليه الفطره الإنسانيه حتى ينتهى فروعه و أغصانه إلى أصل واحد هو العرفان الفطرى.

و يمكن أن يسـتأنس فى ذلـك بأمر آخر و هو أن الإنسانيه و إن انـدفعت بالفطره إلى الاجتماع و المـدنيه لإسـعاد الحياه،و أثبت النقل و البحث أن رجالا أو أقواما اجتماعيين دعوا إلى طرائق قوميه أو وضـعوا سـننا اجتماعيه،و أجروها بين أممهم كسنن القبائل و السـنه الملوكيه و الـديمقراطيه و نحوهـا،و لم يثبت بنقل أو بحث أن يـدعو إلى عرفان النفس و تهـذيب أخلاقها أحـد من غير أهل الدين فى طول التاريخ البشرى.

نعم من الممكن أن يكون بعض أصـحاب هذه الطرق غير الدينيه كأصـحاب السـحر و الأرواح و نحوهما إنما تنبه إلى هذا النوع من عرفـان النفس من غير طريق الـدين لكن لاـ من جهه الفطره إذ الفطره لا حكم لها فى ذلك كما عرفت بل من جهه مشاهـده بعض الآثـار النفسـانيه الغريبه على سبيـل الاتفـاق فتتوق نفسه إلى الظفر بمنزله نفسـانيه يملـك بهـا أعمالا عجيبه و تصـرفات فى الكون نادره تسـتغربها النفوس فيـدفعه هـذا التوقان إلى البحث عنه و السـلوك إليه ثم السـلوك بعـد السـلوك يمهد السبيل إلى المطلوب و يسهل الوعر منه.

۷-يحكى عن كثير من صـلحائنا من أهـل الـدين أنهم نالوا فى خلال مجاهـداتهم الـدينيه كرامات خارقه للعاده و حوادث غريبه اختصوا بهـا من بين أمثالهم كتمثل أمور لأبصارهم غائبه عن أبصار غيرهم،و مشاهـده أشـخاص أو وقائع لا يشاهـدها حواس من دونهم من الناس،و اسـتجابه للدعوه و شـفاء المريض الذى لا مطمع لنجاح المداواه فيه، و النجاه من المخاطر و المهالك من غير طريق العاده،و قد يتفق نظائر ذلك لغير أهل الصـلاح إذا كان ذا نيه صادقه و نفس منقطعه،فهؤلاء يرون ما يرون و هم على غفله من سببه القريب،و إنما يسندون ذلك إلى الله سبحانه من غير توسيط وسط،و استناد

الأمور إليه تعالى،و إن كان حقا لا محيص عن الاعتراف به لكن نفى الأسباب المتوسطه مما لا مطمع فيه.

و ربما أحضر الروحى روح أحد من الناس فى مرآه أو ماء و نحوه بالتصرف فى نفس صبى-على ما هو المتعارف-و هو كغيره يرى أن الصبى إنما يبصره بالبصر الحسى،و أن بين أبصار سائر الناظرين و بين الروح المحضر حجابا مضروبا لو كشف عنه لكانوا مثل الصبى فى الظفر بمشاهدته.

و ربما وجدوا الأرواح المحضره أنها تكذب فى أخبارها فيكون عجبا لأن عالم الأرواح عالم الطهاره و الصفاء لا سبيل للكذب و الفريه و الزور إليه.

و ربما أحضروا روح إنسان حى فيستنطقونه بأسراره و ضمائره و صاحب الروح فى حاله اليقظه مشغول بأشغاله و حوائجه اليوميه لا خبر عنده من أن روحه محضر مستنطق يبث من القول ما لا يرضى هو ببثه.

و ربما نوم الإنسان تنويما مغناطيسيا ثم لقن بعمل حتى ينعم بقبوله فإذا أوقظ و مضى لشأنه أتى بالعمل الذى لقنه على الشريطه التى أريد بها و هو غافل عما لقنوه و عن إنعامه بقبوله.

و بعض الروحيين لما شاهدوا صورا روحيه تماثل الصور الإنسانيه أو صور بعض الحيوان ظنوا أن هذه الصور فى عالم الماده و ظرف الطبيعه المتغيره،و خاصه بعض من لا يرى لغير الأمر المادى وجودا،حتى حاول بعض هؤلاء أن يخترع أدوات صناعيه يصطاد بها الأرواح،كل ذلك استنادا منهم إلى فرضيه افترضوها فى النفس:أنها مبدأ مادى أو خاصه لمبدإ مادى يفعل بالشعور و الإراده،مع أنهم لم يحلوا مشكله الحياه و الشعور حتى اليوم.

و نظير هذه الفرضيه فرضيه من يرى أن الروح جسم لطيف مشاكل للبدن العنصرى فى هيئاته و أشكاله لما وجدوا أن الإنسان يرى نفسه فى المنام و هو على هيئته فى اليقظه،و ربما يمثل لأرباب المجاهدات صور أنفسهم قبالا خارج أبدانهم و هى مشاكله للصوره البدنيه مشاكله تامه،فحكموا أن الروح جسم لطيف حال فى البدن العنصرى ما دام الإنسان حيا فإذا فارق البدن كان هو الموت.

و قـد فاتهم أن هذه صوره إدراكيه قائمه بشـعور الإنسان نظيره صورته التى يدركها من بدنه،و نظيره صور سائر الأشـياء الخارجه المنفصـله عن بدنه،و ربما تظهر هذه الصوره المنفصله لبعض أرباب المجاهده أكثر من واحده أو فى هيئه غير هيئه نفسه، و ربما يرى نفسه عين نفس غيره من أفراد النـاس،فـإذا لم يحكمـوا فى هـذه الصـور المـذكور أنهـا هى صـوره الروح فجـدير بهم أن لا يحكموا فى الصوره الواحده المشاكله التى تتراءى لأرباب المجاهدات أنها صوره الروح.

و حقيقه الأمر أن هؤلاء نالوا شيئا من معارف النفس و فاتهم معرفه حقيقتها كما هى فأخطئوا فى تفسير ما نالوه و ضلوا فى توجيه أمره،و الحق الـذى يهـدى إليه البرهان و التجربه أن حقيقه النفس التى هى هذا الشـعور المتعقل المحكى عنه بقولنا«إنا»أمر مغاير فى جـوهره لهـذه الأـمور المـاديه كمـا تقـدم،و أن أقسـام شـعوره و أنـواع إدراكـاته من حس أو خيـال أو تعقـل من جهه كونها مـدركات إنما هى متقرره فى عالمه و ظرفه غير الخواص الطبيعيه الحاصـله فى أعضاء الحس و الإدراك من البدن فإنها أفعال و انفعالات ماديه فاقده فى نفسـها للحياه و الشـعور،فهذه الأمور المشـهوده الخاصه بالصلحاء و أرباب المجاهدات و الرياضات غير خـارجه عن حيطه نفوسـهم،و إنمـا الشـأن فى أن هـذه المعلومـات و المعارف كيف اسـتقرت فى النفس و أين محلها منها؟و أن للنفس سـمه عليه لجميع الحوادث و الأمور المرتبطه بها ارتباطا ما،فجميع هـذه الأمور الغريبه المطاوعه لأهل الرياضه و المجاهده إنما ترتضع من إرادتهم و مشـيئتهم،و الإراده ناشـئه من الشـعور،فللشـعور الإنسانى دخل فى جميع الحوادث المرتبطه به و الأمور المماسه له.

٨-فمن الحرى أن نقسم المشـتغلين بعرفان النفس فى الجمله إلى طائفتين: إحداهما المشـتغلون بالاشـتغال بإحراز شـىء من آثار النفس الغريبه الخارجه عن حومه المتعارف من الأسـباب و المسـببات الماديه،كأصـحاب السـحر و الطلسمات و أصحاب تسخير روحانيات الكواكب و الموكلين على الأمور و الجن و أرواح الآدميين و أصحاب الدعوات و العزائم و نحو ذلك.

و الثانيه المشتغلون بمعرفه النفس بالانصراف عن الأمور الخارجه عنها و الانجذاب نحوها للغور فيها و مشاهده جوهرها و شئونها كالمتصوفه على اختلاف طبقاتهم و مسالكهم.

و ليس التصوف مما أبدعه المسلمون من عند أنفسهم لما أنه يوجد بين الأمم التى

تتقـدمهم فی النشوء کالنصاری و غیرهم حتی الوثنیه من البرهمانیه و البوذیه،ففیهم من یسـلک الطریقه حتی الیوم بل هی طریقه موروثه ورثوها من أسلافهم.

لکن لا بمعنی الأخذ و التقلید العادی کوراثه الناس ألوان المدنیه بعضـهم من بعض و أمه منهم متأخره من أمه منهم متقدمه کما جری علی ذلک عده من الباحثین فی الأدیان و المذاهب؛و ذلک لما عرفت فی الفصول السابقه أن دین الفطره یهدی إلی الزهد و الزهـد یرشـد إلی عرفـان النفس؛فاسـتقرار الـدین بین أمه و تمکنه من قلوبهم یعـدهم و یهیؤهم لأـن تنشـأ بینهم طریقه عرفـان النفس لا محاله،و یأخـذ بها بعض من تمت فی حقه العوامل المقتضـیه لـذلک،فمکث الحیاه الدینیه فی أمه من الأمم برهه معتدا بها ینشـئ بینهم هـذه الطریقه لا محاله صـحیحه أو فاسده و إن انقطعوا عن غیرهم من الأمم الدینیه کل الانقطاع،و ما هذا شأنه لا ینبغی أن یعد من السنن الموروثه التی یأخذها جیل عن جیل.

۹-ثم ینبغی أن نقسم أصحاب القسم الثانی من القسمین المتقدمین و هم أهل العرفان حقیقه إلی طائفتین:

فطائفه منهم یسلکون الطریقه لنفسها فیرزقون شیئا من معارفها من غیر أن یتم لهم تمام المعرفه لها لأنهم لما کانوا لا یریدون غیر النفس فهم فی غفله عن أمر صانعها و هو الله عز اسـمه الذی هو السـبب الحق الآخذ بناصیه النفس فی وجودها و آثار وجودها و کیف یسع الإنسان تمام معرفه شـیء مع الذهول عن معرفه أسباب وجوده و خاصه السبب الذی هو سبب کل سبب؟و هل هو إلا کمن یدعی معرفه السریر علی جهل منه بالنجار و قدومه و منشاره و غرضه فی صنعه إلی غیر ذلک من علل وجود السریر؟.

و من الحری بهذا النوع من معرفه النفس أن یسمی کهانه بما فی ذیله من الحصول علی شیء من علوم النفس و آثارها.

و طائفه منهم یقصدون طریقه معرفه النفس لتکون ذریعه لهم إلی معرفه الرب تعالی،و طریقتهم هذه هی التی یرتضیها الدین فی الجمله و هی أن یشتغل الإنسان بمعرفه نفسه بما أنها آیه من آیات ربه و أقرب آیه،و تکون النفس طریقا مسلوکا و الله سبحانه

هو الغايه التى يسلك إليها «وَ أَنَّ إِلىٰ رَبِّکَ الْمُنْتَهىٰ» .

و هؤلاء طوائف مختلفه ذووا مذاهب متشتته فى الأمم و النحل،و ليس لنا كثير خبره بمذاهب غير المسلمين منهم و طرائقهم التى يسلكونها،و أما المسلمون فطرقهم فيها كثيره ربما أنهيت بحسب الأصول إلى خمس و عشرين سلسله،تنشعب من كل سلسله منها سلاسل جزئيه أخر،و قد استندوا فيها إلا فى واحده إلى على عليه أفضل السلام، و هناك رجال منهم لا ينتمون إلى واحده من هذه السلاسل و يسمون الأويسيه(نسبه إلى أويس القرنى)و هناك آخرون منهم لا يتسمون باسم و لا يتظاهرون بشعار.

و لهم كتب و رسائل مسفوره ترجموا فيها عن سلاسلهم و طرقهم،و النواميس و الآداب التى لهم و عن رجالهم،و ضبطوا فيها المنقول من مكاشفاتهم،و أعربوا فيها عن حججهم و مقاصدهم التى بنوها عليها،من أراد الوقوف عليها فليراجعها.و أما البحث عن تفصيل الطرق و المسالك و تصحيح الصحيح و نقد الفاسد فله مقام آخر، و قد تقدم فى الجزء الخامس من هذا الكتاب بحث لا يخلو عن نفع فى هذا الباب،فهذه خلاصه ما أردنا إيراده من البحث المتعلق بمعنى معرفه النفس.

و اعلم أن عرفان النفس بغيه عمليه لا يحصل تمام المعرفه بها إلا من طريق السلوك العملى دون النظرى،و أما علم النفس الذى دونه أرباب النظر من القدماء فليس يغنى من ذلك شيئا،و كذلك فن النفس العملى الذى دونه المتأخرون حديثا فإنما هو شعبه من فن الأخلاق على ما دونه القدماء،و الله الهادى.

[سوره المائده (۵): الآيات ۱۰۶ الى ۱۰۹]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا شَهٰادَهُ بَيْنِكُمْ إِذٰا حَضَرَ أَحَدَكُمُ اَلْمَوْتُ حِينَ اَلْوَصِيَّهِ اِثْنٰانِ ذَوٰا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرٰانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي اَلْأَرْضِ فَأَصٰابَتْكُمْ مُصِيبَهُ اَلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمٰا مِنْ بَعْدِ اَلصَّلاٰهِ فَيُقْسِمٰانِ بِاللّٰهِ إِنِ اِرْتَبْتُمْ لاٰ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كٰانَ ذٰا قُرْبىٰ وَ لاٰ نَكْتُمُ شَهٰادَهَ اَللّٰهِ إِنّٰا إِذاً لَمِنَ اَلْآثِمِينَ (۱۰۶) فَإِنْ عُثِرَ عَلىٰ أَنَّهُمَا اِسْتَحَقّٰا إِثْماً فَآخَرٰانِ يَقُومٰانِ مَقٰامَهُمٰا مِنَ اَلَّذِينَ اِسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ اَلْأَوْلَيٰانِ فَيُقْسِمٰانِ بِاللّٰهِ لَشَهٰادَتُنٰا أَحَقُّ مِنْ شَهٰادَتِهِمٰا وَ مَا اِعْتَدَيْنٰا إِنّٰا إِذاً لَمِنَ اَلظّٰالِمِينَ (۱۰۷) ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهٰادَهِ عَلىٰ وَجْهِهٰا أَوْ يَخٰافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمٰانٌ بَعْدَ أَيْمٰانِهِمْ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ اِسْمَعُوا وَ اَللّٰهُ لاٰ يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلْفٰاسِقِينَ (۱۰۸) يَوْمَ يَجْمَعُ اَللّٰهُ اَلرُّسُلَ فَيَقُولُ مٰا ذٰا أُجِبْتُمْ قٰالُوا لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّٰمُ اَلْغُيُوبِ (۱۰۹)

(بیان)

الآیات الثلاث الأول فی الشهاده،و الأخیره لا تخلو عن اتصال ما بها بحسب المعنی.

قوله تعالی: «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا شَهٰادَهُ بَیْنِکُمْ » إلی آخر الآیتین،محصل مضمون الآیتین أن أحدهم إذا کان علی سفر فأراد أن یوصی فعلیه أن یشهد حین الوصیه شاهدین عدلین من المسلمین و إن لم یجد فشاهدین آخرین من غیر المسلمین من أهل الکتاب فإن ارتاب أولیاء المیت فی أمر الوصیه یحبس الشاهدان بعد الصلاه فیقسمان بالله علی صدقهما فیما یشهدان علیه و ترفع بذلک الخصومه،فإن اطلعوا علی أن الشاهدین کذبا فی شهادتهما أو خانا فی الأمر فیوقف شاهدان آخران مقام الشاهدین الأولین فیشهدان علی خلافهما و یقسمان بالله علی ذلک.

فهذا ما تفیده الآیتان بظاهرهما فقوله: «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا » خطاب للمؤمنین و الحکم مختص بهم «شَهٰادَهُ بَیْنِکُمْ إِذٰا حَضَرَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ حِینَ الْوَصِیَّهِ اثْنٰانِ ذَوٰا عَدْلٍ مِنْکُمْ » أی شهاده بینکم ذوی عدل منکم ففی جانب الخبر مضاف مقدر، أو شهداء بینکم ذوا عدل منکم،و المراد أن عدد الشهود اثنان فالمصدر-الشهاده- بمعنی اسم الفاعل کقولهم:رجل عدل و رجلان عدل.

و حضور الموت كنايه عن حضور داعى الوصيه فإن الناس بحسب الطبع لا يشتغلون بأمثال هذه الأمور من غير حضور أمر يوجب الظن بالموت،و هو عاده المرض الشديد الذى يشرف الإنسان به على الموت.

و قوله: «حِينَ الْوَصِيَّةِ » ظرف متعلق بالشهاده أى الشهاده حين الوصيه،و المراد بالعدل و هو مصدر-الاستقامه فى الأمر،و قرينه المقام تعطى أن المراد به الاستقامه فى أمر الدين،و يتعين بذلك أن المراد بقوله: «مِنْكُمْ » و قوله: «مِنْ غَيْرِكُمْ » المسلمون و غير المسلمين،دون القرابه و العشيره فإن الله سبحانه قابل بين قوله: «اثْنَانِ » و قوله:

«آخَرَانِ »

،ثم وصف الأول بقوله «ذَوَا عَدْلٍ » و قوله: «مِنْكُمْ » و لم يصف الثانى إلا بقوله: «مِنْ غَيْرِكُمْ » دون أن يصفه بالعداله،و الاتصاف بالاستقامه فى الدين و عدمه إنما يختلف فى المسلم و غير المسلم،و لا موجب لاعتبار العداله فى الشهود إذا كانوا قرابه أو من عشيره المشهود له و إلغائها إذا كان الشاهد أجنبيا.

و على هذا فقوله: «أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ » ترديد على سبيل الترتيب أى إن كان هناك نفر من المسلمين يستشهد اثنان منهم،و إن لم يكن إلا من غير المسلمين يستشهد باثنين منهم،كل ذلك بالاستفاده من قرينه المقام.

و هذه القرينه بعينها هى التى توجب أن يكون قوله: «إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ » قيدا متعلقا بقوله: «أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ » فإن المسلم لما كان بالطبع إنما يعيش فى مجتمع المسلمين لا تمس الحاجه فى الحضر عاده إلى الاستشهاد بشهيدين من غير المسلمين بخلاف حاله السفر و الضرب فى الأرض فإنها مظنه وقوع أمثال هذه الوقائع و الاضطرار و مسيس الحاجه إلى الانتفاع من غير المسلم بشهاده أو غيرها.

و قرينه المقام أعنى المناسبه بين الحكم و الموضوع بالذوق المتخذ من كلامه تعالى تدل على أن المراد من غير المسلمين أهل الكتاب خاصه لأن كلامه تعالى لا يشرف المشركين بكرامه.

و قوله تعالى: «تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ » أى توقفونهما،و الحبس الإيقاف، «فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ » أى الشاهدان «إِنِ ارْتَبْتُمْ » أى شككتم فيما يظهره الوصى من أمر الوصيه أو المال الذى تعلقت به الوصيه أو فى كيفيه الوصيه،و المقسم عليه هو قوله:

«لاٰ نَشْتَرِی بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ کٰانَ ذٰا قُرْبیٰ »

أی لا ـ نشتری بالشـهاده للوصـی فیمـا یـدعیه ثمنـا قلیلا و لو کان ذا قربی،و اشتراء الثمن القلیل بالشـهاده أن ینحرف الشاهـد فی شهادته عن الحق لغایه دنیویه من مال أو جاه أو عاطفه قرابه فیبذل شهادته بإزاء ثمن دنیوی، و هو الثمن القلیل.

و ذکر بعضـهم أن الضـمیر فی قوله: «مُصِیبَهُ » إلی الیمین أی لا نشتری بیمیننا ثمنا، و لازمه إجراء الیمین مرتین و الآیه بمعزل عن الدلاله علی ذلک.

و قوله: «وَ لاٰ نَکْتُمُ شَـهٰادَهَ اللّٰهِ » أی بالشهاده علی خلاف الواقع «إِنّٰا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِینَ » الحاملین للإثم،و الجمله معطوفه علی قوله: «لاٰ نَشْتَرِی بِهِ ثَمَناً کعطف التفسیر.

و إضافه الشهاده إلی الله فی قوله: «شَهٰادَهَ اللّٰهِ » إما لأن الواقع یشهده الله سبحانه کما شهده الشاهدان فهو شهادته سبحانه کما هو شهادتهما و الله أحق بالملک فهو شـهادته تعالی حقا و بالأصاله و شهادتهما تبعا،و قد قال تعالی: «وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً» :النساء:۷۹ و قال تعالی: «وَ لاٰ یُحِیطُونَ بِشَیْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ» :البقره:۲۵۵.

و إما لأن الشهاده حق مجعول لله علی عباده یجب علیهم أن یقیموها علی وجهها من غیر تحریف أو کتمان،و هذا کما یقال:دین الله،فینسب الدین إلیه تعالی مع أن العباد هم المتلبسون به،قال تعالی: «وَ أَقِیمُوا الشَّهٰادَهَ لِلّٰهِ» :الطلاق:۳ و قال:

«وَ لاٰ تَکْتُمُوا الشَّهٰادَهَ» :البقره:۲۸۳.

و قوله: «فَإِنْ عُثِرَ عَلیٰ أَنَّهُمَـا اسْـتَحَقّٰا إِثْماً » العثور علی الشـیء الحصول علیه و وجـدانه، و هـذه الآیه بیان و تفصـیل للحکم فی صوره ظهور خیانه الشاهدین و کذبهما فی شهادتهما.

و المراد باسـتحقاق الإـثم الاـجرام و الجنـایه یقـال:اسـتحق الرجـل أی أذنب، و اسـتحق فلاـن إثما علی فلان کنایه عن إجرامه و جنـایته علیه و لـذا عـدی بعلی فی قوله تعالی ذیلا: «اسْـتَحَقَّ عَلَیْهِمُ الْأَوْلَیٰانِ » أی أجرما و جنیا علیهم بالکـذب و الخیانه، و أصـل معنی قولنا:اسـتحق الرجل طلب أن یحق و یثبت فیه الإثم أو العقوبه فاستعماله الکنائی من قبیل إطلاق الطلب و إراده المطلوب و وضع الطریق موضع الغایه،و إنما

ذكر الإثم فى قوله: «اسْتَحَقّا إِثْماً » بالبناء على ما تقدم فى قوله: «إِنّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ » .

و قوله تعالى: «فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما » أى إن عثر على أن الشاهدين استحقا بالكذب و الخيانه فشاهدان آخران يقومان مقامهما فى اليمين على شهادتهما عليهما بالكذب و الخيانه.

و قوله: «مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ » فى موضع الحال أى حال كون هذين الجديدين من الذين استحق عليهم أى أجرم و جنى عليهم الشاهدان الأولان اللذين هما الأوليان الأقربان بالميت من جهه الوصيه كما ذكره الرازى فى تفسيره،و المراد بالذين استحق عليهم الأوليان أولياء الميت،و حاصل المعنى أنه إن عثر على أن الشاهدين أجرما على أولياء الميت بالخيانه و الكذب فيقوم شاهدان آخران من أولياء الميت الذين أجرم عليهم الشاهدان الأولان الأوليان بالموت قبل ظهور استحقاقهما الإثم.

هذا على قراءه «اسْتَحَقَّ » بالبناء للفاعل و هو قراءه عاصم على روايه حفص، و أما على قراءه الجمهور «اسْتَحَقَّ » بضم التاء و كسر الحاء بالبناء للمفعول فظاهر السياق أن يكون الأوليان مبتدأ خبره قوله: «فَآخَرانِ يَقُومانِ » «إلخ»،قدم عليه لتعلق العنايه به،و المعنى إن عثر على أنهما استحقا إثما فالأوليان بالميت هما آخران يقومان مقامهما من أوليائه المجرم عليهم.

و فى قراءه عاصم من طريق أبى بكر و حمزه و خلف و يعقوب «الأولين » جمع الأول مقابل الآخر،و هو بظاهره بمعنى الأولياء و المقدمين،وصف أو بدل من قوله:

«الَّذِينَ »

.

و قد ذكر المفسرون فى تركيب أجزاء الآيه وجوها كثيره جدا لو ضرب بعضها فى بعض للحصول على معنى تمام الآيه ارتقت إلى مئين من الصور،و قد ذكر الزجاج فيما نقل عنه:أنها أشكل آيه فى كتاب الله من حيث التركيب.

و الذى أوردناه من المعنى هو الظاهر من سياق اللفظ من غير تعسف فى الفهم، و أضربنا عن استقصاء ما ذكروه من المحتملات لأن تكثيرها لا يزيد اللفظ إلا إبهاما، و لا الباحث إلا حيره (۱).

۱- ۱) و على من يريد الاطلاع عليها أن يراجع الجزء السابع من تفسير روح المعانى للالوسى و مجمع البيان و تفسير الرازى و سائر المطولات.

و قد فرع على قوله: «فَآخَرانِ يَقُومانِ ،إلخ»تفريع الغايه على ذى الغايه قوله:

«فَيُقْسِمانِ بِاللّهِ »

أى الشاهدان الآخران من أولياء الميت «لَشَهادَتُنا » بما يتضمن كذبهما و خيانتهما «أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما » أى من شهاده الشاهدين الأولين بما يدعيان من أمر الوصيه «وَ مَا اعْتَدَيْنا » عليهما بالشهاده على خلاف ما شهدا عليه «إِنّا إِذاً لَمِنَ الظّالِمِينَ » .

قوله تعالى: «ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَهِ عَلىٰ وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ » الآيه فى مقام بيان حكمه التشريع و هى أن هـذا الحكم على الترتيب الذى قرره الله تعالى أحوط طريق إلى حيازه الواقع فى المقام،و أقرب من أن لا يجور الشاهدان فى شهادتهما و يخافا من أن يتغير الأمر عليهما برد شهادتهما بعد قبولها.

فإن الإنسان ذو هوى يـدعوه إلى التمتع بكل ما يسعه التمتع به و القبض على كل ما يتهوسه إذا لم يكن هناك مانع يصرفه عنه سواء كان ذلك منه عن حق يستحقه أو جورا،عـدلا أو ظلما و تعديا على غيره بإبطال حقه و الغلبه عليه،و إنما ينصرف الإنسان عن هـذا التعدى و التجاوز إما لمانع يمنعه من خارج بسياسه أو عقوبه أو فضيحه، و إما لرادع يردعه من نفسه؛و أقوى رادع نفسانى هو الاعتقاد بالله الذى إليه مرجع العباد و حساب الأعمال و القضاء الفصل و الجزاء المستوفى.

و إذا كان الواقع من أمر الوصيه بحسب فرض المقام مجهولا لا طريق إلى كشفه إلا شهاده من أشهدهما الميت من الشاهدين فأقوى ما يقرب شهادتهما من الصدق أن يؤخذ فى ذلك بأيمانهما بالله تعالى و هو اليمين،و أن يرد اليمين إلى الورثه الأولياء مع يمينهما على تقدير انكشاف كذبهما و خيانتهما عند الورثه،فهذان أعنى يمينهما أولا ثم رد اليمين إلى الورثه أقرب وسيله إلى صدقهما فى شهادتهما و خوفهما فضيحه رد اليمين،و الرادعان أقوى ما يردعهما من الانحراف.

ثم عقب تعالى القول بالموعظه و الإنذار فقال: «وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللّهُ لاٰ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ » و المعنى واضح.

قوله تعالى: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مٰا ذٰا أُجِبْتُمْ قٰالُوا لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّمُ الْغُيُوبِ » الآيه لا تأبى الاتصال بما قبلها فإن ظاهر قوله تعالى فى ذيل الآيه السابقه:

«وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ اسْمَعُوا »

،إلخ و إن كان مطلقا لكنه بحسب الانطباق على المورد نهى عن

الانحراف و الجور فی الشهاده و الاستهانه بأمر الیمین بالله فناسب أن یذکر فی المقام بما یجری بینه سبحانه و بین رسله یوم القیامه و هم شهداء علی أممهم و أفضل الشهداء،حیث یسألهم الله سبحانه عن الذی أجابهم به أممهم و هم أعلم الناس بأعمال أممهم و الشاهدون من عند الله علیهم فیجیبونه بقولهم: «لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ » .

فإذا کان الأمر علی هذه الوتیره،و کان الله سبحانه هو العالم بکل شیء حق العلم فجدیر بالشهود أن یخافوا مقام ربهم:و لا ینحرفوا عن الحق الذی رزقهم الله العلم به،و لا یکتموا شهاده الله فیکونوا من الآثمین و الظالمین و الفاسقین.

فقوله تعالی: «یَوْمَ یَجْمَعُ ،إلخ»ظرف متعلق بقوله فی الآیه السابقه: «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ ،إلخ»و ذکر جمع الرسل دون أن یقال:«یوم یقول الله للرسل»لمکان مناسبه مع جمع الشهداء للشهاده کما یشعر به قوله: «تَحْبِسُونَهُمٰا مِنْ بَعْدِ الصَّلاٰهِ فَیُقْسِمٰانِ بِاللّٰهِ » .

و أما نفیهم العلم یومئذ عن أنفسهم بقولهم: «لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ » فإثباتهم جمیع علوم الغیوب لله سبحانه علی وجه الحصر یدل علی أن المنفی لیس أصل العلم فإن ظاهر قولهم: «إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ » یدل علی أنه لتعلیل النفی،و من المعلوم أن انحصار جمیع علوم الغیب فی الله سبحانه لا یقتضی رفع کل علم عن غیره و خاصه إذا کان علما بالشهاده،و المسئول عنه أعنی کیفیه إجابه الناس لرسلهم من قبیل الشهاده دون الغیب.

فقولهم: «لاٰ عِلْمَ لَنٰا » لیس نفیا لمطلق العلم بل لحق العلم الذی لا یخلو عن التعلق بالغیب فإن من المعلوم أن العلم إنما یکشف لعالمه من الواقع علی قدر ما یتعلق بأمر من حیث أسبابه و متعلقاته،و الواقع فی العین مرتبط بجمیع أجزاء الخارج مما یتقدم علی الأمر الواقع فی الخارج و ما یحیط به مما یصاحبه زمانا فالعلم بأمر من الأمور الخارجیه بحقیقه معنی العلم لا یحصل إلا بالإحاطه بجمیع أجزاء الوجود ثم بصانعه المتعالی من أن یحیط به شیء،و هذا أمر وراء الطاقه الإنسانیه.

فلم یرزق الإنسان من العلم فی هذا الکون الذی یبهته التفکیر فی سعه ساحته، و تهوله النظره فی عظمه أجرامه و مجراته،و یطیر لبه الغور فی متون ذرأته،و یأخذه الدوار إذا أراد الجری بین هاتین الغایتین إلا الیسیر من العلم علی قدر ما یحتاج إلیه فی

مسير حياته كالشمعه الصغيره يحملها طارق الليل المظلم لا ينتفع من نورها إلا أن يميز ما يضع عليه قدمه من الأرض.

فما يتعلق به علم الإنسان ناشب بوجوده متعلق بواقعيته بأطراف ثم بأطراف أطراف و هكذا كل ذلك فى غيب من إدراك الإنسان فلا يتعلق العلم بحقيقه معنى الكلمه بشىء إلا إذا كان متعلقا بجميع الغيوب فى الوجود،و لا يسع ذلك لمخلوق محدود مقدر إنسانا أو غيره إلا لله الواحد القهار الذى عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو،قال الله تعالى: «وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ» :البقره:۲۱۶ فدل على أن من طبع الإنسان الجهل فلا يرزق من العلم إلا محدودا مقدرا كما قال تعالى: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» :الحجر:۲۱

- و هو قوله(ع):

حيث سئل عن عله احتجاب الله عن خلقه-فقال:لأنه بناهم بنيه على الجهل ،و قال تعالى: «وَ لاٰ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ» :البقره:۲۵۵ فدل على أن العلم كله لله،و إنما يحيط منه الإنسان بما شاء الله،و قال تعالى: «وَ مٰا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّٰ قَلِيلاً» :الإسراء:۸۵ فدل على أن هناك علما كثيرا لم يؤت الإنسان إلا قليلا منه.

فإذن حقيقه الأمر أن العلم حق العلم لا يوجد عند غير الله سبحانه،و إذ كان يوم القيامه يوما يظهر فيه الأشياء بحقائقها على ما تفيده الآيات الواصفه لأمره فلا مجال فيه إلا للكلام الحق كما قال تعالى: «لاٰ يَتَكَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ قٰالَ صَوٰاباً، ذٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ» :النبأ-۳۹ كان من الجواب الحق إذا ما سئل الرسل فقيل لهم:

«مٰا ذٰا أُجِبْتُمْ »

أن يجيبوا بنفى العلم عن أنفسهم لكونه من الغيب،و يثبتوه لربهم سبحانه بقولهم: «لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُيُوبِ » .

و هذا الجواب منهم(ع)نحو خضوع لحضره العظمه و الكبرياء و اعتراف بحاجتهم الذاتيه و بطلانهم الحقيقى قبال مولاهم الحق رعايه لأدب الحضور و إظهارا لحقيقه الأمر،و ليس جوابا نهائيا لا جواب بعده البته:

أما أولا-فلأن الله سبحانه جعلهم شهداء على أممهم كما ذكره فى قوله: «فَكَيْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ كُلِّ أُمَّهٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنٰا بِكَ عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِيداً» :النساء:۴۱ و قال:

«وَ وُضِعَ الْكِتٰابُ وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدٰاءِ» :الزمر:۶۹ و لا معنى لجعلهم شهداء

إلا ليشـهدوا على أممهم يوم القيامه بما هو حق الشـهاده يومئذ،فلا محاله هم سيشـهدون يومئذ كما قدر الله ذلك فقولهم يومئذ: «لاَ عِلْمَ لَنا » جرى على الأدب العبودى قبال الملك الحق الـذى له الأمر و الملك يومئذ،و بيان لحقيقه الحال و هو أنه هو يملك العلم لـذاته و لاـ يملـك غيره إلاـ مـا ملكه،و لاـ ضـير أن يجيبـوا بعـد هـذا الجواب بمـا لهم من العلم الموهوب المتعلق بـأحوال أممهم،و هذا مما يؤيد ما قدمناه فى البحث عن قوله تعالى:

«وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ،» الآيه:البقره:۱۴۳ فى الجزء الأـول من هـذا الكتـاب:أن هـذا العلم و الشهاده ليسا من نوع العلم و الشهاده المعروفين عندنا و أنهما من العلم المخصوص بالله الموهوب لطائفه من عباده المكرمين.

و أما ثانيا فلأن الله سبحانه أثبت العلم لطائفه من مقربى عباده يوم القيامه على ما له من الشأن،قال تعالى: «وَ قٰالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمٰانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتٰابِ اللّٰهِ إِلىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ» :الروم:۵۶ و قـال تعـالى: «وَ عَلَى الْأَعْرٰافِ رِجٰالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمٰاهُمْ» :الأعراف:۴۶ و قال تعالى: «وَ لاٰ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفٰاعَةَ إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» :الزخرف:۸۷ و عيسى بن مريم(ع)ممن تعمه الآيه و هو رسول فهو ممن يشهد بالحق و هم يعلمون،و قال تعالى: «وَ قٰالَ الرَّسُولُ يٰا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً» :الفرقان:۳۱ و المراد بـالرسول رسول الله ص و الـذى تحكيه الآيه من قوله هو بعينه جواب لما تشتمل عليه هذه الآيه من السؤال أعنى قوله تعالى: «فَيَقُولُ مٰا ذٰا أُجِبْتُمْ » فظهر أن قول الرسل(ع):«لا علم لنا» ليس جوابا نهائيا كما تقدم.

و أما ثالثا فلأن القرآن يذكر السؤال عن المرسلين و المرسل إليهم جميعا كما قال تعالى: «فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ :الأعراف:۶ ثم ذكر عن الأـمم المرسل إليهم جوابات كثيره عن سؤالات كثيره،و الجواب يسـتلزم العلم كما أن السؤال يقرره،و قال أيضا فيهم: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» :ق:۲۲،و قال أيضا: «وَ لَوْ تَرىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نٰاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنٰا أَبْصَرْنٰا وَ سَمِعْنٰا فَارْجِعْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً إِنّٰا مُوقِنُونَ» :السجده:۱۲ إلى غير ذلـك من الآيـات الكـثيره،و إذا كـانت الأـمم-و خـاصه المجرمـون منهـم-على علـم فى هــذا اليوم فكيـف يتصـور أن يعــدمه الرســل الكرام(ع)فالمصير إلى ما قدمناه.

(كلام فى معنى الشهاده)

الاجتماع المدنى الدائر بيننا و التفاعل الواقع فى عامه جهات الحياه الأرضيه بين قوانا الفعاله يسوقنا-و لا محيص-إلى أنواع الاختلافات و الخصومات فالذى يختص بالتمتع به أحدنا ربما أحب الآخر أن يشاركه فيه أو يختص به هو مكانه فتاقت إليه نفسه و نازعته فى ذلك فأدى إلى تنبه الإنسان لوجوب اعتبار القضاء و الحكم ليرتفع به هذه الخصومات.

و أول ما يحتاج إليه القضاء أن تحفظ القضايا و الوقائع على النحو الذى وقعت و تضبط ضبطا لا يتطرق إليه التغير و التبدل ليقع عليه قضاء القاضى،هذا مما لا شك فيه.

و يتأتى ذلك بأن يستشهد على الواقعه بأن يطلع عليها إنسان فيتحملها ثم يؤدى ما تحمله عند اللزوم و الاقتضاء أو يضبط بوجه آخر كالكتابه أو أدوات أخر معموله لذلك اهتدى الإنسان إلى التوصل بها.

و تفارق الشهاده سائر أسباب الحفظ و الضبط أولا بأن غير الشهاده من الأسباب أمور غير عامه فإن أعمها و أعرفها الكتابه و هى لم تستوعب الإنسانيه حتى اليوم فكيف بغيرها و هذا بخلاف الشهاده و التحمل.

و ثانيا بأن الشهاده و هو البيان اللسانى من نفس الشاهد عن تحمله و حفظه أبعد من عروض الخلل و أمنع جانبا من طرو أنواع الآفات بالقياس إلى الكتابه و غيره من أسباب الحفظ و الضبط.

و لذلك نرى أن الشهاده لا تتجافى عن اعتبارها أمه من الأمم فى مجتمعاتهم على اختلافها الفاحش فى السنن الاجتماعيه و السلائق القوميه و المليه و التقدم و التأخر فى الحضاره و التوحش،فهى لا تخلو عن اعتبار ما عندهم.

و الاعتبار فيها بالواحد من القوم المعدود فردا من الأمه و جزءا من الجماعه،و لذلك لا يعبأ بشهاده الصبى غير المميز و لا بشهاده المجنون الذى لا يدرى ما يقول مثلا،و لذلك

أیضا لا یعبأ بعض الأمم الهمجیه بشهاده النسوان لما لم یعدوا المرأه جزء من المجتمع، و علی ذلک کانت تجری أغلب السنن الاجتماعیه فی الأمم القدیمه کالروم و الیونان و غیرهم.

و الإسلام و هو دین الفطره یعتبر الشهاده و یعطیها وحدها من بین سائر الأسباب الحجیه،و أما سائر الأسباب فلا عبره بها إلا مع إفاده العلم،قال تعالی: «وَ أَقِیمُوا الشَّهٰادَهَ لِلّٰهِ» :الطلاق:٢ و قال تعالی: «وَ لاٰ تَکْتُمُوا الشَّهٰادَهَ وَ مَنْ یَکْتُمْهٰا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ» :البقره:٢٨٣ و قال تعالی: «وَ الَّذِینَ هُمْ بِشَهٰادٰاتِهِمْ قٰائِمُونَ» :المعارج:٣٣.

و قد اعتبر الإسلام فی عامه الموارد غیر مورد الزنا من العدد فی الشهداء اثنین لتأیید أحدهما الآخر قال تعالی: «وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِیدَیْنِ مِنْ رِجٰالِکُمْ فَإِنْ لَمْ یَکُونٰا رَجُلَیْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتٰانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدٰاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدٰاهُمٰا فَتُذَکِّرَ إِحْدٰاهُمَا الْأُخْریٰ وَ لاٰ یَأْبَ الشُّهَدٰاءُ إِذٰا مٰا دُعُوا وَ لاٰ تَسْئَمُوا أَنْ تَکْتُبُوهُ صَغِیراً أَوْ کَبِیراً إِلیٰ أَجَلِهِ ذٰلِکُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّٰهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهٰادَهِ وَ أَدْنیٰ أَلاّٰ تَرْتٰابُوا»: » البقره:٢٨٢،فأفاد أن ما بینته الآیه و اعتبرته من أحکام الشهاده-و منها ضم الواحد إلی آخر لیکونا اثنین- أکثر مطابقه للقسط و قیام الشهاده و رفع الریب.

ثم لما کان الإسلام فی تشخیصه فرد المجتمع و بعباره أخری فی اعتباره الواحد الذی یتکون منه المجتمع الإنسانی یعد المرأه جزءا مشمولا للحکم أشرکها مع الرجل فی إعطاء حق إقامه الشهادات إلا أنه لما اعتبر فی المجتمع الذی کونه أن یکون مبنیا علی التعقل دون العواطف و المرأه إنسان عاطفی أعطاها من الحق و الوزن نصف ما للرجل، فشهاده امرأتین اثنتین تعدل شهاده رجل واحد کما یشیر إلیه قوله تعالی فی الآیه السابقه:

«أَنْ تَضِلَّ إِحْدٰاهُمٰا فَتُذَکِّرَ إِحْدٰاهُمَا الْأُخْریٰ » ،و قد مر فی الجزء الرابع من هذا الکتاب من الکلام فی حقوق المرأه فی الإسلام ما ینفع فی المقام،و للشهاده أحکام کثیره فرعیه مبسوطه فی الفقه خارجه من غرضنا فی هذا البحث.

(کلام فی العداله)

کثیرا ما یعثر الباحث فی الأحکام الإسلامیه فی خلال أبحاثه بلفظ العداله و ربما وجد للفظ تعریفات مختلفه و تفسیرات متنوعه حسب اختلاف الباحثین و مسالکهم.

لكن الـذى يلائم مقامنا هذا من البحث-و هو بحث قرآنى-فى تحليل معناها و كيفيه اعتبارها بالتطبيق على الفطره التى عليها بنى الإسلام أن نسلك طريقا آخر من البحث فنقول:

إن للعداله و هى الاعتدال و التوسط بين النمطين:العالى و الدانى، و الجانبين:

الإفراط و التفريط قيمه حقيقيه و وزنا عظيما فى المجتمعات الإنسانيه،و الوسط العدل هو الجزء الجوهرى الـذى يركن إليه التركيب و التأليف الاجتماعى فإن الفرد العالى الشريف الذى يتلبس بالفضائل العاليه الاجتماعيه،و يمثل بغيه الاجتماع النهائيه لا يجود منه الزمان إلا بالنزر القليل و الواحد بعد الواحد،و من المعلوم أنه لا يتألف المجتمع بالفرد النادر،و لا تتم به كينونته و إن كان هو العضو الرئيس فى جثمانه حيثما وجد.

و الفرد الـدنىء الخسيس الـذى لا يقوم بالحقوق الاجتماعيه،و لا يتحقق فيه القـدر المتوسط من أمانى المجتمع ممن لا داعى له يـدعوه إلى رعـايه الأصول العـامه الاجتماعيه التى بها حياه المجتمع،و لا رادع له يردعه عن اقتحام الآثام الاجتماعيه التى تهلك الاجتمـاع و تبطـل التجـاذب الواجب بين أجزائه،و بـالجمله لا اعتمـاد على جزئيته فى بنيه الاجتمـاع و لا وثوق بتأثيره الحسن و نصيحته الصالحه.

و إنما الحكم لأفراد المجتمع المتوسـطين الذين تقوم بهم بنيه المجتمع و تتحقق فيهم مقاصده و مآربه،و تظهر بهم آثاره الحسـنه التى لم تأتلف أجزاؤه و أعضاؤه إلا للحصول عليها و التمتع بها.

هذا كله مما لا يرتاب فيه الإنسان الاجتماعى عند أول ما يجيل نظره فى هذا الباب.

فمن الضـرورى عنده أنه على حاجه شديده فى حياته الاجتماعيه إلى أفراد فى المجتمع يعتمد على سـلوكهم الاجتماعى متلبسين بالاعتـدال فى الأمور و الاحتراز عن الاسترسال فى نقض القوانين و مخالفه السـنن و الآداب الجاريه من غير مبالاه و انقباض فى أبواب كثيره كالحكومه و القضاء و الشهادات و غيرها فى الجمله.

و هـذا الحكم الضـرورى أو القريب من الضـرورى عنـد الفطره هو الـذى يعتبره الإسـلام فى الشاهد،قال تعالى: «وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلّهِ ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» :الطلاق:٢،و قال تعالى: «شَهادَةُ

بَيْنِكُمْ إِذٰا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّهِ اثْنٰانِ ذَوٰا عَدْلٍ مِنْكُمْ»: »

«المائده:۱۰۶ و الخطاب فی الآیتین للمؤمنین فاشتراط کون الشاهدین ذوی عدل منهم مفاده کونهما ذوی حاله معتدله متوسطه بالنسبه إلی مجتمعهم الدینی،و أما بالقیاس إلی المجتمع القومی و البلدی فالإسلام لا یعبأ بأمثال هذه الروابط غیر الدینیه،و ظاهر أن محصل کونهما علی حاله معتدله بالقیاس إلی المجتمع الدینی هو کونهما ممن یوثق بدینه غیر مقترفین ما یعد من المعاصی الکبیره الموبقه فی الدین،قال تعالی: «إِنْ تَجْتَنِبُوا کَبٰائِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئٰاتِکُمْ وَ نُدْخِلْکُمْ مُدْخَلاً کَرِیماً» :النساء:۳۱،و قد تکلمنا فی معنی الکبائر فی ذیل الآیه فی الجزء الرابع من هذا الکتاب.

و علی هذا المعنی جری کلامه تعالی فی قوله: «وَ الَّذِینَ یَرْمُونَ الْمُحْصَنٰاتِ ثُمَّ لَمْ یَأْتُوا بِأَرْبَعَهِ شُهَدٰاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمٰانِینَ جَلْدَهً وَ لاٰ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهٰادَهً أَبَداً وَ أُولٰئِکَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ، إِلاَّ الَّذِینَ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ» » :النور:۵ و نظیر الآیه السابقه الشارطه للعداله قوله تعالی: «مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدٰاءِ» :البقره:۲۸۲ فإن الرضا المأخوذ فی الآیه هو الرضا من المجتمع الدینی،و من المعلوم أن المجتمع الدینی بما هو دینی لا یرضی أحدا إلا إذا کان علی نوع من السلوک یوثق به فی أمر الدین.

و هذا هو الذی نسمیه فی فن الفقه بملکه العداله و هی غیر ملکه العداله بحسب اصطلاح فن الأخلاق فإن العداله الفقهیه هی الهیئه النفسانیه الرادعه عن ارتکاب الکبائر بحسب النظر العرفی و التی فی فن الأخلاق هی الملکه الراسخه بحسب الحقیقه.

و الذی استفدناه من معنی العداله هو الذی یستفاد من مذهب أئمه أهل البیت (ع)علی ما ورد من طرقهم:

- ففی الفقیه،بإسناده عن ابن أبی یعفور قال: قلت لأبی عبد الله(ع) بم تعرف عداله الرجل بین المسلمین-حتی تقبل شهادته لهم و علیهم؟فقال:إن تعرفوه (۱)بالستر و العفاف-و کف البطن و الفرج و الید و اللسان،و یعرف باجتناب الکبائر التی أوعد

۱- ۱) أن یعرفوه-خ

الله تعالی علیها النار-من شرب الخمر و الزنا و الربا و عقوق الوالدین-و الفرار من الزحف و غیر ذلک.

و الدلاله علی ذلک کله أن یکون ساترا لجمیع عیوبه-حتی یحرم علی المسلمین تفتیش ما وراء ذلک من عثراته و عیوبه،و یجب علیهم تزکیته و إظهار عدالته بین الناس،و یکون منه التعاهد للصلوات الخمس إذا واظب علیهن-و حفظ مواقیتهن بحضور جماعه من المسلمین-و أن لا یتخلف عن جماعتهم فی مصلاهم إلا من عله.

فإذا کان کذلک لازما لمصلاه عند حضور الصلوات الخمس-فإذا سئل عنه فی قبیلته و محلته قالوا:ما رأینا منه إلا خیرا،مواظبا علی الصلوات،متعاهدا لأوقاتها فی مصلاه؛فإن ذلک یجیز شهادته و عدالته بین المسلمین-و ذلک أن الصلاه ستر و کفاره للذنوب،و لیس یمکن الشهاده علی الرجل بأنه یصلی-إذا کان لا یحضر مصلاه و لا یتعاهد جماعه المسلمین.

و إنما جعل الجماعه و الاجتماع إلی الصلاه-لکی یعرف من یصلی ممن لا یصلی-و من یحفظ مواقیت الصلاه ممن یضیع،و لو لا ذلک لم یکن لأحد أن یشهد علی آخر بصلاح لأن من لا یصلی لا صلاح له بین المسلمین-فإن رسول الله ص هم بأن یحرق قوما فی منازلهم-بترکهم الحضور لجماعه المسلمین-و قد کان منهم من یصلی فی بیته فلم یقبل منه ذلک-فکیف تقبل شهاده أو عداله بین المسلمین-ممن جری الحکم من الله عز و جل و من رسوله فیه الحرق فی جوف بیته بالنار؟و

- قد کان یقول(ص) .لا صلاه لمن لا یصلی فی المسجد مع المسلمین إلا من عله.

أقول:و رواه فی التهذیب،مع زیاده ترکناها،و الستر و العفاف کلاهما بمعنی الترک علی ما فی الصحاح،و الروایه-کما تری-تجعل أصل العداله أمرا معروفا بین المسلمین و تبین أن الأثر المترتب علیه الدال علی هذه الصفه النفسیه هو ترک محارم الله و الکف عن الشهوات الممنوعه،و معرف ذلک اجتناب الکبائر من المعاصی،ثم تجعل الدلیل علی ذلک کله حسن الظاهر بین المسلمین علی ما بینه(ع)تفصیلا.

- و فیه،عن عبد الله بن المغیره عن أبی الحسن الرضا(ع)قال: من ولد علی الفطره- و عرف بالصلاح فی نفسه جازت شهادته.

- و فيه،:روی سماعه عن أبی بصير عن أبی عبد الله(ع):قال: لا بأس بشهاده الضعيف إذا كان عفيفا صائنا.

- و فی الكافی،بإسناده عن علی بن مهزيار عن أبی علی بن راشد قال: قلت لأبی جعفر(ع):إن مواليك قد اختلفوا فأصلی معهم جميعا؟فقال لا تصل إلا خلف من تثق بدينه.

أقول:دلاله الروايات علی ما قدمناه ظاهره،و فيها أبحاث أخر خارجه عن غرضنا فی المقام.

(كلام فی اليمين)

حقيقه معنی قولك:«لعمری إن كذا و كذا،و حياتی إن الأمر علی ما أخبرته» أنك تعلق ما أخبرت به من الخبر و تقيده نوع تقييد فی صدقه بعمرك و حياتك التی لها مكانه و احترام عندك بحيث يتلازمان فی الوجود و العدم،و لو كنت كاذبا فی خبرك أبطلت مكانه حياتك و احترامها عندك فسقطت بذلك عن مستوی الإنسانيه الداعيه إلی الاحترام لأمر الحياه.

و معنی قولك:«أقسمك بالله أن تفعل كذا أو تترك كذا»إنك ربطت أمرك أو نهيك بالمكانه و العزه التی لله عز اسمه عند المؤمنين بحيث تكون مخالفه الأمر أو معصيه النهی استهانه بمقامه تعالی و إذهابا لحرمه الإيمان به.

و كذا معنی قولك:«و الله لأفعلن كذا»وصل خاص بين عزيمتك علی ما عزمت عليه من الأمر و بين ما لله سبحانه عندك من المكانه و الحرمه بحسب إيمانك به بحيث يكون فسخك عزيمتك و نقضك همتك إبطالا-لما له سبحانه من المكانه عندك،و الغرض من ذلك أن تكون علی رادع من فسخ العزيمه و نقض الهمه فالقسم إيجاد ربط خاص بين شیء من الخبر أو الإنشاء و بين شیء آخر ذی مكانه و شرف بحيث يبطل المربوط إليه ببطلان المربوط بحسب الدعوی،و حيث كان المربوط إليه ذا مكانه و شرف عند الجاعل مثلا لا يرضی بإذهاب مكانته و الإهانه بمقامه فهو صادق فی خبره أو مطاع فيما يأمر به أو ينهی عنه،أو ماض فی عزيمته من غير فسخ لا محاله،و نتيجته التأكيد البالغ.

و يوجد فی اللغات نوع آخر من جعل الربط يقابل القسم و هو ربط الخبر مثلا بما لا قيمه له و لا شرافه عند المخبر ليدل بذلک علی الاستهانه بما يخبر به أو بلغه من الخبر و يعد نوعا من الشتم و هو فی اللغه العربيه نادر جدا.

و الحلف و اليمين-فيما نعلم-من العادات الدائره فی ألسنه الناس الموروثه جيلا بعد جيل،و لا يختص بلغه دون لغه،و هو الدليل علی أنه ليس من الشئون اللغويه اللفظيه بل إنما يهدی الإنسان إليه حياته الاجتماعيه فی موارد يتنبه علی وجوب الالتجاء إليه و الاستفاده منه.

و لم تزل اليمين دائرا بين الأمم ربما يبنی عليه و يركن إليه فی موارد متفرقه غير مضبوطه تحدث فی مجتمعاتهم لأغراض متنوعه لدفع التهمه و رفع الفريه و تطييب النفس و تأييد الخبر حتی اعتنی بأمره القوانين المدنيه و أعطتها وجهه قانونيه فی بعض من الموارد كحلف الرؤساء و أولياء الأمور عند تقلد المناصب الهامه و إشغال المقامات العظيمه العاليه و غير ذلک.

و قد اعتنی الإسلام بشأن اليمين اعتناء تاما إذا وقع علی الله سبحانه خاصه، و ليس ذلک إلا فی ظل العنايه برعايه حرمه المقام الربوبی و وقايه ساحته تعالی أن يواجه بما يأباه ناموس الربوبيه و العبوديه،و لذلک وضعت كفاره خاصه عند حنث اليمين، و كره الإكثار من الحلف بالله عز شأنه،قال تعالی: «لا يُؤاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِی أَيْمانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَهِ مَساكِينَ،» الآيه:المائده:٨٩ و قال تعالی: «وَ لا تَجْعَلُوا اللّهَ عُرْضَهً لِأَيْمانِكُمْ» » :البقره:٢٢۴.

و اعتبر اليمين فی موارد من القضاء خلت عن البينه،قال تعالی: «فَيُقْسِمانِ بِاللّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَ مَا اعْتَدَيْنا» » الآيه:«المائده:١٠٧

- و من كلامه(ص):

البينه علی المدعی و اليمين علی من أنكر.

و حقيقه اعتبار اليمين الاكتفاء بدلاله نفس الإيمان فيما لا دليل سواه،و ذلک أن المجتمع الدينی مبنی علی إيمان الأفراد بالله،و الإنسان المؤمن هو الجزء من هذا المركب المؤلف،و هو المنبع الذی ينبع منه السنن المتبعه و الأحكام الجاريه،و بالجمله

جميع الآثار البارزه فى القوم الناشئه من حالتهم الدينيه كما أن المجتمع غير الدينى مبنى على إيمان الأفراد بمقاصدهم القوميه،و منها تنشأ السنن و القوانين المدنيه و الآداب و الرسوم الدائره بينهم.

فإذا كان كذلك و صح الاعتماد فى جميع الشئون الاجتماعيه و الاتكاء فى عامه لوازم الحياه على إيمان الأفراد بطرق مختلفه كان من الجائز أن يعتمد على إيمانهم فى ما لا دليل آخر يعتمد عليه،و هو اليمين فيما لا بينه عليه بأن يربط المنكر ما ينكره من دعوى المدعى و يقيده بإيمانه بحيث يزول اعتبار إيمانه بالله ببطلان إنكاره و ظهور كذبه فيما أظهره و أخبر به.

فإيمانه بسبب ما عقده باليمين بمنزله مال الرهن الذى يجعل تحت تسلط الدائن و يراعى فى عوده إلى سلطه راهن صدق وعده و تأديته الدين إلى أجل و إلا ذهب المال و بقى صفر اليد.

كذلك الحالف يعتبر مرهون الإيمان بما حلف عليه ما لم يظهر خلافه و إذا ظهر الخلاف عاد صفر الكف من الإيمان ساقطا عن درجه الاعتبار محروما من التمتع بثمره الإيمان و هى فى المجتمع الدينى جميع المزايا الاجتماعيه،و رجع مطرودا من المجتمع المتلائم الأجزاء؛لا سماء تظله و لا أرض تقله.

و يتأيد هذا البيان بما يروى من تظاهر الناس على مقت المتخلفين عن السنن الدينيه كالصلاه مع الجماعه و الشخوص فى الجهاد و نحوهما فى زمن النبى ص حين كان تمام السلطه و الحكومه للدين على الأهواء.

و أما فى أمثال هذه الأعصار التى ضعف فيها نفوذ الدين و تسرب الهوى فى القلوب و انعقد بيننا مجتمع مؤتلف من المقاصد الدينيه على وهن فى بنيتها و إعراض من الناس عنها و من مقاصد المدنيه الحديثه و يجمعها الاسترسال فى التمتعات الماديه على شيد فى أساسها و إقبال عام من عامه الناس إليها ثم أخذ التنازع و التشاجر الشديد بين الدواعى الدينيه و المدنيه الطارقه و لا يزال يغلب هذا و ينهزم ذاك،و انثلمت وحده النظام الواجب انبساطه على مستوى المجتمع،و بدا الهرج و المرج فى الروحيات فحينئذ لا يكاد ينفع اليمين و لا ما هو أقوى من ذلك و أحفظ لحقوق الناس، و زال الاعتماد لا على الأسباب

ص :٢١٠

الدينيه الموجوده عند المجتمع فحسب بل عليها و على النواميس الحديثه جميعا.

غير أن الله سبحانه لا ينسخ أحكامه و لا يغمض عن شرائعه بتولى الناس عنها و سأمهم منها؛و أن الدين عند الله الإسلام و لا يرضى لعباده الكفر،و لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات و الأرض،و إنما الإسلام دين متعرض لجميع شئون الحياه الإنسانيه شارح لها مبين لأحكامها ذو أجزاء متلائمه متناسبه متلازمه تعيش بروح التوحيد الواحد إذا اعتل بعض أجزائه اعتل الجميع،و إذا فسد بعضها أثر ذلك فى عمل الجميع كالواحد من الإنسان بعينه.

فإذا فسد بعض أجزائه أو اعتل كان من الواجب إبقاء السالم منها على سلامته و علاج المعتل و إصلاح الفاسد،و لم يكن من الجائز إبقاء المعتل على علته و الفاسد على فساده،و الإعراض عن السالم.

و الإسلام و إن كان مله حنيفيه سهله سمحه ذات مراتب مختلفه وسيعه يقدر تكاليفه على قدر ما يستطاع من إتيانها و إجرائها،يتمدد حبلها الموصول من حاله اجتماعيه آمنه تتضمن شرائعها و قوانينها جمعاء من غير استثناء إلى حاله انفراديه اضطراريه تكتفى فيها من الصلاه بالإشاره لكن التنزل من مرتبه من مراتبها إلى ما هى دونها مشروطه بالاضطرار النافى للتكليف و المبيح للتوسع،قال تعالى: «مَنْ كَفَرَ بِاللّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَ لٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ -إلى أن قال- ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» :«النحل:١١٠.

و أما بناء الحياه على التمتع المادى ثم التعلل فى رفض ما يناقضه من المواد الدينيه بأنه لا يوافق السنه الجاريه فى الدنيا الحاضره فإنه جرى على المنطق المادى دون منطق الدين.

و من البحث المتعلق بهذا الباب ما فى قول بعض:(إن الحلف بغير الله من الشرك بالله)فينبغى أن يستفهم هذا القائل ما ذا يريد بهذا الشرك الذى ذكره؟

فإن أراد به أن فى اليمين بغير الله إعظاما للمقسم به و إجلالا لأمره لابتناء معنى القسم على ذلك ففيه نوع خضوع و عباده له و هو الشرك فما كل إعظام شركا إلا إعطاء عظمه الربوبيه المستقله التى يستغنى بها عن غيره.

و قـد أقسم الله تعـالى بكثير من خلقه كالسـماء و الأرض و الشـمس و القمر و الكنس الخنس من الكواكب و بالنجم إذا هوى،و أقسم بالجبل و البحر و التين و الزيتون و الفرس و أقسم بالليل و النهار و الصبح و الشفق و العصر و الضحى و يوم القيامه،و أقسم بـالنفس،و أقسم بالكتـاب و القرآن العظيم و حيـاه النبى ص و بالملائكه إلى غير ذلك فى آيات كثيره و لا يسـتقيم قسم إلا عن إعظام.

فمـا المـانع من أن نجرى على مـا جرى عليه كلامه تعالى من إعظامها بالعظمه الموهوبه و نقتصـر على ذلك،و لو كان ذلك من الشرك لكان كلامه تعالى أولى بالتحرز منه و أحرى برعايته.

و أيضـا قـد عظم الله تعالى أمورا كثيره فى كلامه كالقرآن و العرش و خلق النبى ص قال تعالى: «وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ» :الحجر:٨٧و قال: «وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»:

التوبه:١٢٩، و قـال: «وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» :ن:۴،و جعـل لأنبيائه و رسـله و المؤمنين حقوقا على نفسه و عظمها و احترمها،قال تعـالى: «وَ لَقَـدْ سَـبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَـلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ» :الصافات:١٧٢،و قـال: «وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْـرُ الْمُؤْمِنِينَ» :الروم:۴٧ فمـا المـانع من أن نعظمها و نجرى على ما جرى عليه كلامه فى مطلق القسم،و أن نقسـمه تعالى بشـىء مما أقسم به أو بحق من الحقوق التى جعلها لأوليائه على نفسه؟نعم اليمين الشـرعى الـذى له آثار شـرعيه فى باب اليمين أو القضاء لا ينعقد بغير الله سبحانه كما بين فى الفقه و ليس كلامنا فيه.

و إن أراد به أن مطلق الإعظـام كيفمـا كان لا يجوز فى غير الله حتى إعظامها بما عظمها الله تعالى فهو مما لا دليل عليه بل القاطع من الدليل على خلافه.

و ربمـا قيـل:إن فى الإقسـام بحق النبى ص و سـائر الأوليـاء و التقرب إليهم و الاستشـفاع بهم بأى وجه كان عباده و إعطاء سـلطه غيبيه لها.و الكلام فيه كالكلام فى سابقه:فإن أريـد بهـذه السـلطه الغيبيه السـلطه المسـتقله الخاصه بالله فلا يذعن بها مسـلم مؤمن بكتاب الله فى غيره تعالى،و إن أريـد بها مطلق السـلطه غير الماديه و لو كان بإذن الله فما الـدليل على امتناع أن يتصف بها بعض عباد الله كأوليائه مثلا بإذنه،و قد نص القرآن الشريف على كثير من السلطات الغيبيه فى الملائكه كما قال: «حَتّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَ هُمْ لا يُفَرِّطُونَ» :الأنعام:۶١،و قال: «قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ

الْمَوْتِ» :السجده:۱۱ و قال: «وَ النّازِعاتِ غَرْقاً، وَ النّاشِطاتِ نَشْطاً، وَ السّابِحاتِ سَبْحاً، فَالسّابِقاتِ سَبْقاً، فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً» :النازعات:۵،و قال: «مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ» :البقره:۹۷ و الآيات فى هذا الباب كثيره جدا.

و قال فى إبليس و جنوده: «إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» :الأعراف:۲۷ و قد نزلت فى شفاعه الأنبياء و غيرهم فى الآخره،و آياتهم المعجزه فى الدنيا آيات كثيره.

و ليت شعرى ما الفرق بين الآثار الماديه التى يثبتها هؤلاء فى الموضوعات من غير استنكاف و بين آثار غير الماديه التى يسمونها بالسلطه الغيبيه؟فإن كان إثبات التأثير لغير الله ممنوعا لم يكن فرق بين الأثر المادى و غيره و إن كان جائزا بإذن الله سبحانه كان الجميع فيه سواء.

(بحث روائى)

- فى الكافى،عن على بن إبراهيم عن رجاله رفعه قال: خرج تميم الدارى و ابن بندى و ابن أبى ماريه فى سفر،و كان تميم الدارى مسلما-و ابن بندى و ابن أبى ماريه نصرانيين، و كان مع تميم الدارى-خرج له فيه متاع و آنيه منقوشه بالذهب-و قلاده أخرجها إلى بعض أسواق العرب للبيع.

فاعتل تميم الدارى عله شديده-فلما حضره الموت-دفع ما كان معه إلى ابن بندى و ابن أبى ماريه-و أمرهما أن يوصلاه إلى ورثته فقدما المدينه،و قد أخذا من المتاع الآنيه و القلاده،و أوصلا سائر ذلك إلى ورثته،فافتقد القوم الآنيه و القلاده-فقال أهل تميم لهما:هل مرض صاحبنا مرضا طويلا أنفق فيه نفقه كثيره؟فقالا:لا ما مرض إلا أياما قلائل،قالوا:فهل سرق منه شىء فى سفره هذا؟قالا:لا،فقالوا:فهل اتجر تجاره خسر فيها؟قالا:لا،قالوا:فقد افتقدنا أفضل شىء كان معه:آنيه منقوشه بالذهب مكلله بالجواهر و قلاده،فقالا:ما دفعه إلينا فقد أديناه إليكم.

فقدموهما إلى رسول الله ص-و أوجب رسول الله ص عليهما اليمين-فحلفا فخلا عنهما،ثم ظهرت تلك الآنيه و القلاده عليهما-فجاء أولياء تميم إلى رسول الله ص-

فقالوا:یا رسول الله-قد ظهر علی ابن بندی و ابن أبی ماریه-ما ادعیناه علیهما،فانتظر رسول الله ص من الله عز و جل الحکم فی ذلک.

فأنزل الله تبارک و تعالی: «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا شَهٰادَهُ بَیْنِکُمْ-إِذٰا حَضَرَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ حِینَ الْوَصِیَّهِ اثْنٰانِ ذَوٰا عَدْلٍ مِنْکُمْ-أَوْ آخَرٰانِ مِنْ غَیْرِکُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِی الْأَرْضِ » فأطلق الله عز و جل-شهاده أهل الکتاب علی الوصیه فقط-إذا کان فی سفر و لم یجد المسلمین.

ثم قال: «فَأَصٰابَتْکُمْ مُصِیبَهُ الْمَوْتِ-تَحْبِسُونَهُمٰا مِنْ بَعْدِ الصَّلاٰهِ-فَیُقْسِمٰانِ بِاللّٰهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاٰ نَشْتَرِی بِهِ ثَمَناً-وَ لَوْ کٰانَ ذٰا قُرْبیٰ وَ لاٰ نَکْتُمُ شَهٰادَهَ اللّٰهِ-إِنّٰا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِینَ » ،فهذه الشهاده الأولی التی حلفها رسول الله ص «فَإِنْ عُثِرَ عَلیٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقّٰا إِثْماً » أی أنهما حلفا علی کذب «فَآخَرٰانِ یَقُومٰانِ مَقٰامَهُمٰا » یعنی من أولیاء المدعی «مِنَ الَّذِینَ اسْتَحَقَّ عَلَیْهِمُ الْأَوْلَیٰانِ » الأولین- «فَیُقْسِمٰانِ بِاللّٰهِ » -أی یحلفان بالله أنهما أحق بهذه الدعوی منهما و أنهما قد کذبا فیما حلفا بالله- «لَشَهٰادَتُنٰا أَحَقُّ مِنْ شَهٰادَتِهِمٰا وَ مَا اعْتَدَیْنٰا-إِنّٰا إِذاً لَمِنَ الظّٰالِمِینَ » .

فأمر رسول الله ص أولیاء تمیم الداری-أن یحلفوا بالله علی ما أمرهم به فحلفوا- فأخذ رسول الله ص القلاده و الآنیه-من ابن بندی و ابن أبی ماریه-و ردهما إلی أولیاء تمیم الداری- «ذٰلِکَ أَدْنیٰ أَنْ یَأْتُوا بِالشَّهٰادَهِ عَلیٰ وَجْهِهٰا-أَوْ یَخٰافُوا أَنْ تُرَدَّ أَیْمٰانٌ بَعْدَ أَیْمٰانِهِمْ »).

أقول:و أورده القمی فی تفسیره مثله

و فیه بعد قوله: «تَحْبِسُونَهُمٰا مِنْ بَعْدِ الصَّلاٰهِ : یعنی صلاه العصر،و قوله(ع)«الأولین»الظاهر أنه بصیغه التثنیه و المراد بهما الشاهدان الأولان تفسیرا لقوله تعالی: «الْأَوْلَیٰانِ » و ظاهره علی قراءته(ع) «اسْتَحَقَّ » بالبناء للفاعل کما نسبت إلی علی(ع)،و قد قدمنا فی البیان السابق أنه أوضح المعانی المحتمله علی هذه القراءه.

- و فی الدر المنثور،:أخرج الترمذی و ضعفه و ابن جریر و ابن أبی حاتم و النحاس فی ناسخه و أبو الشیخ و ابن مردویه و أبو نعیم فی المعرفه من طریق أبی النضر و هو الکلبی عن باذان مولی أم هانی عن ابن عباس عن تمیم الداری": فی هذه الآیه: «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا-شَهٰادَهُ بَیْنِکُمْ إِذٰا حَضَرَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ » -قال:بریء الناس منهما غیری و غیر عدی بن بداء،و کانا نصرانیین یختلفان إلی الشام قبل الإسلام-فأتیا الشام لتجارتهما،و قدم علیهما مولی لبنی سهم-یقال له:بدیل بن أبی مریم بتجاره،و معه جام من فضه یرید

به الملک و هو عظم تجارته،فمرض فأوصى إليهما و أمرهما أن يبلغا ما ترک أهله- قال تميم:فلما مات أخذنا ذلک الجام فبعناه بألف درهم-ثم اقتسمناه أنا و عدى بن بداء-فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما کان معنا-و فقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا:ما ترک غير هذا و ما دفع إلينا غيره.

قال تميم:فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ص المدينه-تأثمت من ذلک فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر-و أديت إليهم خمسمائه درهم،و أخبرتهم أن عند صاحبى مثلها فأتوا به رسول الله ص-فسألهم البينه فلم يجدوا-فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه-فحلف فأنزل الله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ -إلى قوله- أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ » -فقام عمرو بن العاص و رجل آخر-فحلفا فنزعت الخمسمائه درهم من عدى بن بداء.

أقول:و الروايه على ضعفها لا تنطبق على الآيه تمام الانطباق و هو ظاهر،و روى عن ابن عباس و عن عكرمه ما يقرب من روايه القمى السابقه.

- و فيه،:أخرج الفاريابى و عبد بن حميد و أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن على بن أبى طالب: أنه کان يقرأ: «مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ » بفتح التاء.

- و فيه،:أخرج ابن مردويه و الحاکم و صححه،عن على بن أبى طالب: أن النبى ص قرأ: «الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ » .

- و فيه،:أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال": هذه الآيه منسوخه.

أقول:و لا دليل على ما فى الروايه من حديث النسخ.

- و فى الکافى،عن محمد بن إسماعيل عن الفضل بن شاذان و على بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبى عمير عن هشام بن الحکم عن أبى عبد الله(ع): فى قول الله تبارک و تعالى:

«أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ »

قال:إذا کان الرجل فى بلد ليس فيه مسلم-جازت شهاده من ليس بمسلم على الوصيه.

أقول:و معنى الروايه مستفاد من الآيه.

- و فيه،بإسناده عن يحيى بن محمد قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله عز

و جل: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكَمْ-إِذٰا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ-حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنٰانِ ذَوٰا عَدْلٍ مِنْكَمْ أَوْ آخَرٰانِ مِنْ غَيْرِكُمْ » ؟قال:«اللـذان منكم»مسلمان«و اللـذان من غيركم»من أهل الكتاب،فإن لم يجدوا من أهل الكتاب فمن المجوس-لأن رسول الله ص سن فى المجوس-سنه أهل الكتاب فى الجزيه.

و ذلك إذا مات الرجل فى أرض غربه-فلم يجد مسلمين-أشهد رجلين من أهل الكتاب يحبسان بعد العصر-فيقسمان بالله عز و جل «لاٰ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً-وَ لَوْ كٰانَ ذٰا قُرْبىٰ وَ لاٰ نَكْتُمُ شَهادَةَ اللّٰهِ-إِنّٰا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ » -قال:و ذلك إذا ارتاب ولى الميت فى شهادتهما،فإن عثر على أنهما شهدا بالباطل-فليس له أن ينقض شهادتهما حتى يجىء بشاهدين-فيقومان مقام الشاهدين الأولين- «فَيُقْسِمٰانِ بِاللّٰهِ لَشَهادَتُنٰا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِمٰا-وَ مَا اعْتَدَيْنٰا إِنّٰا إِذاً لَمِنَ الظّٰالِمِينَ » -فإن فعل ذلك نقض شهاده الأولين،و جازت شهاده الآخرين يقول الله عز و جل: «ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلىٰ وَجْهِهٰا-أَوْ يَخٰافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمٰانٌ بَعْدَ أَيْمٰانِهِمْ » .

أقول:و الروايه-كما ترى-توافق ما تقدم من معنى الآيه،و فى معناها روايات أخر فى الكافى،و تفسير العياشى،عن أبى عبد الله و أبى الحسن(ع).

و فى بعض الروايات تفسير قوله: «أَوْ آخَرٰانِ مِنْ غَيْرِكُمْ » بالكافرين،و هو أعم من أهل الكتاب كما رواه فى الكافى،عن أبى الصباح الكنانى عن أبى عبد الله.

- و فى تفسير العياشى،عن أبى أسامه عنه(ع)أيضا: فى الآيه:ما «آخَرٰانِ مِنْ غَيْرِكُمْ » ؟قال:

هما كافران-قلت: «ذَوٰا عَدْلٍ مِنْكُمْ » ؟فقال:مسلمان ،و الروايه السابقه المقيده بأهل الكتاب و إن لم تصلح لتقييد هذا الإطلاق بحسب صناعه الإطلاق و التقييد لكونهما متوافقين إيجابيين لكن سياق الروايه الأولى يصلح لتفسير إطلاق الثانيه بما يوافق التقييد.

- و فى تفسير البرهان،عن الصدوق بإسناده إلى أبى زيد عياش بن يزيد بن الحسن عن أبيه يزيد بن الحسن قال:حدثنى موسى بن جعفر(ع)قال:قال الصادق(ع):

فى قول الله عز و جل: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللّٰهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مٰا ذٰا أُجِبْتُمْ قٰالُوا لاٰ عِلْمَ لَنٰا » -قال:

يقولون لا علم لنا بسواك-قال و قال:الصادق(ع):القرآن كله تقريع و باطنه تقريب.

قال صاحب البرهان:قال ابن بابویه:یعنی بذلک أنه من وراء آیات التوبیخ و الوعید آیات الرحمه و الغفران.

أقول:و ما نقله عن الصدوق رحمه الله فی معنی قوله(ع):«القرآن کله تقریع و باطنه تقریب»لا ینطبق علیه لا بالنظر إلی صدر الروایه فإن کون معنی قول الرسل(ع): «لاٰ عِلْمَ لَنٰا » أنه لا علم لنا بسواک غیر مرتبط بکون القرآن مشتملا علی نوعین من الآیات:آیات الوعد و آیات الوعید.

و لا بالنظر إلی سیاق نفس الجمله أعنی قوله:«القرآن کله تقریع و باطنه تقریب» فإن الکلام ظاهر فی أن القرآن کله تقریع و کله تقریب،و إنما یختلف الأمر بحسب الباطن و الظاهر فباطنه تقریب و ظاهره تقریع،لا أن القرآن منقسم إلی قسمین فقسم منه آیات التقریع و وراءه القسم الآخر و هو آیات التقریب.

و التأمل فی کلامه(ع)مع ملاحظه صدر الروایه یعطی أن مراده(ع)من التقریع بالنظر إلی مقابله التقریب لازم معناه و هو التبعید المقابل للتقریب،و القرآن کله معارف و حقائق فظاهره تبعید الحقائق بعضها من بعض و تفصیل أجزائها،و باطنه تقریب البعض من البعض و إحکامها و توحیدها،و یعود محصل المراد إلی أن القرآن بحسب ظاهره یعطی حقائق من المعارف مختلفه بعضها بائن منفصل من بعض لکنها علی کثرتها و بینونتها و ابتعاد بعضها من بعض بحسب الباطن یقترب بعضها من بعض و تلتئم شتی معانیها حتی تتحد حقیقه واحده کالروح الساری فی الجمیع،و لیست إلا حقیقه التوحید قال الله تعالی: «کِتٰابٌ أُحْکِمَتْ آیٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ» :هود:۱.

و یظهر حینئذ انطباقه علی ما ذکره(ع)فی صدر الروایه أن معنی قول الرسل: «لاٰ عِلْمَ لَنٰا » أن لا علم لنا بسواک فإن الإنسان أو أی عالم فرض إنما یعلم ما یعلم بالله بمعنی أن الله سبحانه هو المعلوم بذاته و غیره معلوم به،و بعباره أخری إذا تعلق العلم بشیء فإنما یتعلق أولا بالله سبحانه علی ما یلیق بساحه قدسه و کبریائه ثم یتعلق من جهته بذلک الشیء لما أن الله سبحانه عنده علم کل شیء یرزق منه لمن یشاء من عباده علی قدر ما یشاء کما قال تعالی: «وَ لاٰ یُحِیطُونَ بِشَیْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ وَسِعَ

كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ» :البقره:۲۵۵ و قد تقدم روايه عبد الأعلى مولى آل سام عن الصادق(ع)و غيره من الروايات فى هذا المعنى.

و على هذا فمعنى قولهم: «لا عِلْمَ لَنا» بسواك إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّمُ الْغُيُوبِ » على تفسيره (ع)أنه لا علم لنا بشىء من دونك و إنما نعلم ما نعلم من جهه علمنا بك لأن العلم كله لك و إذا كان كذلك فأنت أعلم به منا لأن الذى نعلمه من شىء هو علمك الذى أحطنا بشىء منه بمشيئتك و رزقك.

و على هذا يتجلى معنى آخر لقوله: «إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّمُ الْغُيُوبِ » هو أرفع منالا مما تقدم من المعنى،و هو أن كل شىء من الخليقه لما كان منفصل الوجود عن غيره كان فى غيب منه لما أن وجوده محدود مقدر لا يحيط إلا بما شاء الله أن يحيط به،و الله سبحانه هو المحيط بكل شىء،العالم بكل غيب لا يعلم شىء شيئا إلا من جهته تعالى و تقدس عن كل نقص.

و على هذا فتقسيم الأمور إلى غيب و شهاده تقسيم بالحقيقه إلى غيب شاء الله إحاطتنا به و غيب مستور عنا،و ربما تؤيد هذا المعنى بظاهر قوله تعالى: «عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً، إِلاّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ» :الجن:۲۷ بالنظر إلى ما تفيده إضافه الغيب إلى الضمير،و عليك بإجاده التأمل فى هذا المقام.

- و فى تفسير العياشى،عن يزيد الكناسى عن أبى جعفر(ع): فى قوله تعالى: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ ،الآيه»قال:يقول:ما ذا أجبتم فى أوصيائكم الذين خلفتم على أمتكم؟قال:فيقولون:لا علم لنا بما فعلوا من بعدنا.

أقول:و رواه القمى فى تفسيره عن محمد بن مسلم عنه(ع) .

و فى الكافى،عن يزيد عن أبى عبد الله(ع)ما فى معناه،و هو من الجرى أو من قبيل الباطن.

[سوره المائده (۵): الآيات ۱۱۰ الى ۱۱۱]

اشاره

إِذْ قالَ اَللّهُ يا عِيسَى اِبْنَ مَرْيَمَ اُذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ اَلْقُدُسِ تُكَلِّمُ اَلنّاسَ فِي اَلْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ اَلْكِتابَ وَ اَلْحِكْمَةَ وَ اَلتَّوْراةَ وَ اَلْإِنْجِيلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ اَلطِّينِ كَهَيْئَةِ اَلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَ تُبْرِئُ اَلْأَكْمَهَ وَ اَلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ اَلْمَوْتى بِإِذْنِي وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ (۱۱۰) وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى اَلْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنّا وَ اِشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (۱۱۱)

(بيان)

الآيتان و كذا الآيات التاليه لها القاصه قصه نزول المائده و التاليه لها المخبره عما سيسأل الله عيسى بن مريم(ع)عن اتخاذ الناس إياه و أمه إلهين من دون الله سبحانه و ما يجيب به عن ذلك،كلها مرتبطه بغرض السوره الذى افتتحت به،و هو الدعوه إلى الوفاء بالعهد و الشكر للنعمه و التحذير عن نقض العهود و كفران النعم الإلهيه و بذلك يتم رجوع آخر السوره إلى أولها و تحفظ وحده المعنى المراد.

قوله تعالى: «إِذْ قٰالَ اللّٰهُ يٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ -إلى قوله -وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتىٰ بِإِذْنِي » الآيه تعد عده من الآيات الباهره الظاهره بيده(ع)إلا أنها تمتن بها عليه و على أمه جميعا،و هى مذكوره بهذا اللفظ تقريبا فيما يحكيه تعالى من تحديث الملائكه مريم عند بشارتها بعيسى(ع)فى سوره آل عمران،قال تعالى: «إِذْ قٰالَتِ الْمَلاٰئِكَةُ يٰا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ -إلى أن قال- وَ يُكَلِّمُ النّٰاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً -إلى أن قال- وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرٰاةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ رَسُولاً إِلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ،أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّٰهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتىٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ» (الآيات)

:آل عمران:۴۵ ۵۰.

و التأمل فی سیاق الآیات یوضح الوجه فی عد ما ذکره من الآیات المختصه ظاهرا بالمسیح نعمه علیه و علی والدته جمیعا کما تشعر به آیات آل عمران فإن البشاره إنما تکون بنعمه،و الأمر علی ذلک فإن ما اختص به المسیح(ع)من آیه و موهبه کالولاده من غیر أب و التأیید بروح القدس و خلق الطیر و إبراء الأکمه و الأبرص و إحیاء الموتی بإذن الله سبحانه فهی بعینها کرامه لمریم کما أنها کرامه لعیسی(ع)فهما معا منعمان بالنعمه الإلهیه کما قال تعالی: «نِعْمَتِی عَلَیْکَ وَ عَلیٰ وٰالِدَتِکَ » .

و إلی ذلک یشیر تعالی بقوله: «وَ جَعَلْنٰاهٰا وَ ابْنَهٰا آیَهً لِلْعٰالَمِینَ» :الأنبیاء:۹۱ حیث عدهما معا آیه واحده لا آیتین.

و قوله: «إِذْ أَیَّدْتُکَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُکَلِّمُ النّٰاسَ » الظاهر أن التأیید بروح القدس هو السبب المهیئ له لتکلیم الناس فی المهد،و لذلک وصل قوله «تُکَلِّمُ النّٰاسَ » من غیر أن یفصله بالعطف إلی الجمله السابقه إشعارا بأن التأیید و التکلیم معا أمر واحد مؤلف من سبب و مسبب،و اکتفی فی موارد من کلامه بذکر أحد الأمرین عن الآخر کقوله فی آیات آل عمران المنقوله آنفا: «وَ یُکَلِّمُ النّٰاسَ فِی الْمَهْدِ وَ کَهْلاً » ،و قوله: «وَ آتَیْنٰا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ الْبَیِّنٰاتِ وَ أَیَّدْنٰاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» :البقره:۲۵۳.

علی أنه لو کان المراد بتأییده بروح القدس مسأله الوحی بوساطه الروح لم یختص بعیسی بن مریم(ع)و شارکه فیها سائر الرسل مع أن الآیه تأبی ذلک بسیاقها.

و قوله: «وَ إِذْ عَلَّمْتُکَ الْکِتٰابَ وَ الْحِکْمَهَ وَ التَّوْرٰاهَ وَ الْإِنْجِیلَ من الممکن أن یستفاد منه أنه(ع)إنما تلقی علم ذلک کله بتلق واحد عن أمر إلهی واحد من غیر تدریج و تعدد کما أنه أیضا ظاهر جمع الجمیع و تصدیرها بإذ من غیر تکرار لها .

و کذلک قوله: «إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّینِ کَهَیْئَهِ الطَّیْرِ بِإِذْنِی فَتَنْفُخُ فِیهٰا فَتَکُونُ طَیْراً بِإِذْنِی وَ تُبْرِئُ الْأَکْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِی » ظاهر السیاق من جهه عدم تکرار لفظه «إِذْ » أن خلق الطیر و إبراء الأکمه و الأبرص کانا متقارنین زمانا،و أن تذییل خلق الطیر بذکر الإذن من غیر أن یکتفی بالإذن المذکور فی آخر الجمله إنما هو لعظمه أمر الخلق بإفاضه

الحیاه فتعلقت العنایه به فاختص بذکر الإذن بعده من غیر أن ینتظر فیه آخر الکلام صونا لقلوب السامعین من أن یخطر فیها أن غیره تعالی یستقل دونه بإفاضه الحیاه أو تلبث فیها هذه الخطره و لو لحظات یسیره،و الله أعلم.

و قوله: «وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتیٰ بِإِذْنِی » إخراج الموتی کنایه عن إحیائها،و فیه عنایه ظاهره بأن الإحیاء الذی جری علی یدیه(ع)کان إحیاء لموتی مقبورین بإفاضه الحیاه علیهم و إخراجهم من قبورهم إلی حیاه دنیویه،و فی اللفظ دلاله علی الکثره،و قد تقدم فی الکلام علی آیات آل عمران بقیه ما یتعلق بهذه الآیات من الکلام فراجع ذلک.

قوله تعالی: «وَ إِذْ کَفَفْتُ بَنِی إِسْرٰائِیلَ عَنْکَ » إلی آخر الآیه.فیه دلاله علی أنهم قصدوه بشر فکفهم الله عن ذلک فینطبق علی ما ذکره الله فی سوره آل عمران فی قصصه(ع)بقوله: «وَ مَکَرُوا وَ مَکَرَ اللّٰهُ وَ اللّٰهُ خَیْرُ الْمٰاکِرِینَ » .

قوله تعالی: «وَ إِذْ أَوْحَیْتُ إِلَی الْحَوٰارِیِّینَ » الآیه،الآیه منطبقه علی آیات سوره آل عمران بقوله: «فَلَمّٰا أَحَسَّ عِیسیٰ مِنْهُمُ الْکُفْرَ قٰالَ مَنْ أَنْصٰارِی إِلَی اللّٰهِ قٰالَ الْحَوٰارِیُّونَ نَحْنُ أَنْصٰارُ اللّٰهِ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ اشْهَدْ بِأَنّٰا مُسْلِمُونَ» :آل عمران:۵۲.

و من هنا یظهر أن هذا الإیمان الذی ذکره فی الآیه بقوله: «وَ إِذْ أَوْحَیْتُ إِلَی الْحَوٰارِیِّینَ أَنْ آمِنُوا بِی وَ بِرَسُولِی قٰالُوا آمَنّٰا ،الآیه غیر إیمانهم الأول به(ع)فإن ظاهر قوله فی آیه آل عمران: «فَلَمّٰا أَحَسَّ عِیسیٰ مِنْهُمُ الْکُفْرَ » أنه کان فی أواخر أیام دعوته و قد کان الحواریون و هم السابقون الأولون فی الإیمان به ملازمین له.

علی أن ظاهر قوله فی آیه آل عمران: «قٰالَ مَنْ أَنْصٰارِی إِلَی اللّٰهِ قٰالَ الْحَوٰارِیُّونَ نَحْنُ أَنْصٰارُ اللّٰهِ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ اشْهَدْ بِأَنّٰا مُسْلِمُونَ » أن الدعوه إنما سیقت لأخذ المیثاق علی نصره دین الله لا أصل الإیمان بالله،و لذلک ختم الآیه بقولهم: «وَ اشْهَدْ بِأَنّٰا مُسْلِمُونَ » و هو التسلیم لأمر الله بإقامه دعوته و تحمل الأذی فی جنبه،و کل ذلک بعد أصل الإیمان بالله طبعا.

فتبین أن المراد بقوله: «وَ إِذْ أَوْحَیْتُ إِلَی الْحَوٰارِیِّینَ ،إلخ»قصه أخذ المیثاق من الحواریین،و فی الآیه أبحاث أخر مرت فی تفسیر سوره آل عمران.

(بحث روائی)

- فی المعانی،بإسناده عن أبی یعقوب البغدادی قال: قال ابن السکیت لأبی الحسن الرضا(ع):لما ذا بعث الله موسی بن عمران- بیده البیضاء و العصا و آله السحر،و بعث عیسی بآله الطب،و بعث محمدا ص بالکلام و الخطب؟.

فقال أبو الحسن(ع):إن الله تعالی لما بعث موسی(ع)-کان الأغلب علی أهل عصره السحر-فأتاهم من عند الله تعالی-بما لم یکن عند القوم و فی وسعهم مثله،و بما أبطل به سحرهم،و أثبت به الحجه علیهم؛و إن الله تعالی بعث عیسی-فی وقت ظهرت فیه الزمانات-و احتاج الناس إلی الطب-فأتاهم من عند الله تعالی بما لم یکن عندهم مثله،و بما أحیا لهم الموتی،و أبرأ الأکمه و الأبرص بإذن الله،و أثبت به الحجه علیهم؛و إن الله تعالی بعث محمدا ص فی وقت-کان الأغلب علی أهل عصره الخطب و الکلام و الشعر- فأتاهم من کتاب الله و الموعظه و الحکمه-بما أبطل به قولهم،و أثبت به الحجه علیهم.

قال ابن السکیت ما رأیت مثلک الیوم قط-فما الحجه علی الخلق الیوم؟فقال:

العقل یعرف به الصادق علی الله-فیصدقه و الکاذب علی الله فیکذبه،قال ابن السکیت:

هذا و الله هو الجواب.

- و فی الکافی،عن محمد بن یحیی عن أحمد بن محمد عن الحسن بن محبوب عن أبی جمیله عن أبان بن تغلب و غیره عن أبی عبد الله(ع): أنه سئل هل کان عیسی بن مریم أحیا أحدا بعد موته-بأکل و رزق و مده و ولد؟فقال:نعم-إنه کان له صدیق مواخ له فی الله تبارک و تعالی،و کان عیسی(ع)یمر به و ینزل علیه،و إن عیسی غاب عنه حینا- ثم مر به لیسلم علیه فخرجت علیه أمه فسألها عنه-فقالت له:مات یا رسول الله، فقال:أ تحبین أن تراه؟قالت:نعم.فقال:إذا کان غدا أتیتک-حتی أحییه لک بإذن الله تعالی.

فلما کان من الغد أتاها فقال لها:انطلقی معی إلی قبره فانطلقا-حتی أتیا قبره فوقف علیه عیسی(ع)-ثم دعا الله عز و جل فانفرج القبر فخرج ابنها حیا-فلما رأته أمه و رءاها بکیا فرحمهما عیسی(ع)-فقال له عیسی:أ تحب أن تبقی مع أمک

فی الدنیا؟فقال:یا رسول الله-بأکل و رزق و مده أم بغیر أکل و رزق و مده؟ فقال له عیسی(ع):بأکل و رزق و مده-تعمر عشرین سنه و تزوج و یولد لک،قال:

نعم إذا.

قال:فدفعه عیسی(ع)إلی أمه فعاش عشرین سنه و ولد له.

- و فی تفسیر العیاشی،عن محمد بن یوسف الصنعانی عن أبیه قال: سألت أبا جعفر (ع)- «إِذْ أَوْحَیْتُ إِلَی الْحَوٰارِیِّینَ » قال:ألهموا.

أقول:و استعمال الوحی فی مورد الإلهام جاء فی القرآن فی غیر مورد کقوله تعالی: «وَ أَوْحَیْنٰا إِلیٰ أُمِّ مُوسیٰ أَنْ أَرْضِعِیهِ» :القصص:۷،و قوله تعالی:

«وَ أَوْحیٰ رَبُّکَ إِلَی النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِی مِنَ الْجِبٰالِ بُیُوتاً» :النحل:۶۸ و قوله فی الأرض: «بِأَنَّ رَبَّکَ أَوْحیٰ لَهٰا» :الزلزال:۵.

[سوره المائده (۵): الآیات ۱۱۲ الی ۱۱۵]

اشاره

إِذْ قٰالَ اَلْحَوٰارِیُّونَ یٰا عِیسَی اِبْنَ مَرْیَمَ هَلْ یَسْتَطِیعُ رَبُّکَ أَنْ یُنَزِّلَ عَلَیْنٰا مٰائِدَهً مِنَ اَلسَّمٰاءِ قٰالَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۱۲) قٰالُوا نُرِیدُ أَنْ نَأْکُلَ مِنْهٰا وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنٰا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنٰا وَ نَکُونَ عَلَیْهٰا مِنَ اَلشّٰاهِدِینَ (۱۱۳) قٰالَ عِیسَی اِبْنُ مَرْیَمَ اَللّٰهُمَّ رَبَّنٰا أَنْزِلْ عَلَیْنٰا مٰائِدَهً مِنَ اَلسَّمٰاءِ تَکُونُ لَنٰا عِیداً لِأَوَّلِنٰا وَ آخِرِنٰا وَ آیَهً مِنْکَ وَ اُرْزُقْنٰا وَ أَنْتَ خَیْرُ اَلرّٰازِقِینَ (۱۱۴) قٰالَ اَللّٰهُ إِنِّی مُنَزِّلُهٰا عَلَیْکُمْ فَمَنْ یَکْفُرْ بَعْدُ مِنْکُمْ فَإِنِّی أُعَذِّبُهُ عَذٰاباً لاٰ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ اَلْعٰالَمِینَ (۱۱۵)

(بيان)

الآيات تذكر قصه نزول المائده؟؟؟؟؟على المسيح(ع)و أصحابه،و هى و إن لم تصرح بأن الله أنزلها عليهم غير أن الآيه الأخيره تتضمن الوعد المنجز منه بإنزالها من غير تقييد و قد وصف تعالى نفسه بأنه لا يخلف الميعاد.

و قول بعضهم:(إنهم استقالوا عيسى(ع)بعد ما سمعوا الوعيد الشديد من الله تعالى لمن يكفر منهم بعد نزول المائده)قول من غير دليل من كتاب أو حديث يعتمد عليه.

و قد نقل ذلك عن جمع من المفسرين،و ممن يذكر منهم:المجاهد و الحسن،و لا حجه فى قولهما و لا قول غيرهما و لو عد قولهما روايه كانت من الموقوفات التى لا حجيه لها لضعفها على أنها معارضه بغيرها من الروايات الداله على نزولها،على أنها لو صحت لم تكن إلا من الآحاد التى لا يعتمد عليها فى غير الأحكام.

و ربما يستدل على عدم نزولها بأن النصارى لا يعرفونها و كتبهم المقدسه خاليه عن حديثها،و لو كانت نازله لتوفرت الدواعى على ذكره فى كتبهم و حفظه فيما بينهم بسيره مستمره كما تحفظوا على العشاء الربانى لكن الخبير بتاريخ شيوع النصرانيه و ظهور الأناجيل لا يعبأ بأمثال هذه الأقاويل فلا كتبهم مكتوبه محفوظه على التواتر إلى زمن عيسى(ع)،و لا هذه النصرانيه الحاضره تتصل بزمنه حتى ينتفع بها فيها يعتورونه يدا بيد،أو فيما لا يعرفونه مما ينسب إلى الدعوه العيسويه أو يتعلق بها.

نعم وقع فى بعض الأناجيل إطعام المسيح تلاميذه و جماعه من الناس بالخبز و السمك القليلين على طريق الإعجاز،غير أن القصه لا تنطبق على ما قصه القرآن فى شىء من خصوصياته،

-ورد فى إنجيل يوحنا،الإصحاح السادس ما هذا نصه":

(۱)«بعد هذا مضى يسوع إلى عبر بحر الجليل و هو بحر طبريه(۲) و تبعه جمع كثير لأنهم أبصروا آياته التى كان يصنعها فى المرضى(۳)فصعد يسوع إلى جبل و جلس هناك مع تلاميذه(۴)و كان الفصح عند اليهود قريبا(۵)فرفع يسوع عينيه-و نظر أن جمعا كثيرا مقبل إليه-فقال لفيلبس من أين نبتاع خبزا ليأكل هؤلاء(۶)و إنما قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ما هو مزمع أن يفعل(۷)أجابه فيلبس لا يكفيهم خبز بمأتى دينار-

لیأخذ كل واحد منهم شیئا یسیرا(۸)قال له واحد من تلامیذه و هو أندراوس أخو سمعان بطرس(۹)هنا غلام معه خمسه أرغفه شعیر و سمكتان-و لكن ما هذا لمثل هؤلاء- (۱۰)فقال یسوع اجعلوا الناس یتكئون-و كان فی المكان عشب كثیر فاتكأ الرجال- و عددهم نحو خمسه آلاف(۱۱)و أخذ یسوع الأرغفه و شكر-و وزع على التلامیذ و التلامیذ أعطوا المتكئین-و كذلك من السمكتین بقدر ما شاءوا(۱۲)فلما شبعوا قال لتلامیذه- أجمعوا الكسر الفاضله لكی لا یضیع شیء(۱۳)فجمعوا و ملئوا اثنتی عشره قفه من الكسر-من خمسه أرغفه الشعیر التی فضلت عن الآكلین(۱۴)فلما رأى الناس الآیه التی صنعها یسوع-قالوا إن هذا هو بالحقیقه النبی الآتی إلى العالم(۱۵)و أما یسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن یأتوا و یختطفوه-لیجعلوه ملكا انصرف أیضا إلى الجبل وحده».

ثم إن التدبر فی هذه القصه بما لها من سیاق مسرود فی كلامه تعالى یهدی إلى جهه أخرى من البحث فإن السؤال المذكور فی أولها بظاهره خال عن رعایه الأدب و الواجب حفظه فی جنب الله سبحانه،و قد انتهى الكلام إلى وعید منه تعالى لمن یكفر بهذه الآیه وعیدا لا یوجد له نظیر فی شیء من الآیات التی اختص الله سبحانه بها أنبیاءه أو اقترحها أممهم علیهم كاقتراح أمم نوح و هود و صالح و شعیب و موسى و محمد ص.

فهل كان ذلك لكون الحواریین و هم السائلون أساءوا الأدب فی سؤالهم؟لأن لفظهم لفظ من یشك فی قدره الله سبحانه؛ففی اقتراحات الأمم السابقه علیهم من الإهانه بمقام ربهم و السخریه و الهزء بأنبیائهم و كذا ما توجد حكایته فی القرآن من طواغیت قوم النبی ص و الیهود المعاصرین له ما هو أوقح من ذلك و أشنع!.

أو أنهم لكونهم مؤمنین قبل السؤال و النزول لو كفروا بعد النزول و مشاهده الآیه الباهره استحقوا هذا الوعید على هذه الشده؟فالكفر بعد مشاهده الآیه الباهره و إن كان عتوا و طغیانا كبیرا لكنه لا یختص بهم،ففی سائر الأمم أمثال لهم فی ذلك و لم یوعدوا بمثل هذا الوعید قط حتى الذین ارتدوا منهم بعد التمكن فی مقام القرب و التحقق بآیات الله سبحانه كالذی یذكره الله سبحانه فی قوله: «وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ الَّذِی آتَیْنٰاهُ آیٰاتِنٰا فَانْسَلَخَ مِنْهٰا فَأَتْبَعَهُ الشَّیْطٰانُ فَكٰانَ مِنَ الْغٰاوِینَ» :الأعراف:۱۷۵.

و الـذی یمکن أن یقـال فی المقـام أن هـذه القصه بمـا صـدر به من السؤال یمتاز بمعنی یختص به من بین سائر معجزات الأنبیاء التی أتوا بها لاقتراح من أممهم أو لضرورات أخر تدعو إلی ذلک.

و ذلـک أن الآیـات المعجزه التی یقصـها الکلام الإلـهی إمـا آیـات آتاهـا الله الأنبیاء حین بعثهم لتکون حجه مؤیـده لنبوتهم أو رسالتهم کما أوتی موسـی(ع)الید البیضاء و العصا،و أوتی عیسـی(ع)إحیاء الموتی و خلق الطیر و إبراء الأکمه و الأبرص،و أوتی محمـد ص القرآن،و هـذه آیـات أوتیت لحاجه الـدعوه إلی الإیمان و إتمام الحجه علی الکفار لیهلک من هلک عن بینه و یحیا من حی عن بینه.

و إما آیات معجزه أتی بها الأنبیاء و الرسل لاقتراح الکفار علیهم کناقه صالـح، و یلحق بها المخوفات و المعذبات المستعمله فی الدعوه کآیات موسـی(ع)علی قوم فرعون من الجراد و القمل و الضـفادع و غیر ذلک فی سبع آیات،و طوفان نوح،و رجفه ثمود و صرصر عاد و غیر ذلک،و هذه أیضا آیات متعلقه بالمعاندین الجاحدین.

و إمـا آیـات أراهـا الله المؤمنین لحاجه مستها،و ضـروره دعت إلیها،کانفجار العیون من الحجر و نزول المن و السـلوی علی بنی إسـرائیل فی الـتیه،و رفع الطـور فـوق رءوسـهم و شـق البحر لنجـاتهم مـن فرعـون و عمله،فهـذه آیـات واقعه لإرهـاب العاصـین المستکبرین أو کرامه للمؤمنین لتتم کلمه الرحمه فی حقهم من غیر أن یکونوا قد اقترحوها.

و من هـذا البـاب المواعیـد التی وعـدها الله فی کتابه المؤمنین کرامه لرسوله(ص) کوعـد فتـح مکه و مقت المشـرکین من کفار قریش و غلبه الروم إلی غیر ذلک.

فهـذه أنواع الآیـات المقتصه فی القرآن و المـذکوره فی التعلیم الإلـهی،و أمـا اقتراح الآـیه بعـد نزول الآیه فهو من التهوس یعـده التعلیم الإلـهی من الهجر الـذی لاـ یعبأ به کـاقتراح أهـل الکتاب أن ینزل النبی ص علیهم کتابا من السـماء مع وجود القرآن بین أیدیهم،قال تعالی: «یَسْئَلُکَ أَهْلُ الْکِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَیْهِمْ کِتاباً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسی أَکْبَرَ مِنْ ذلِکَ فَقالُوا أَرِنَا اللّهَ جَهْرَهً - إلی أن قال- لکِنِ اللّهُ یَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَیْکَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِکَهُ یَشْهَدُونَ وَ کَفی بِاللّهِ شَهِیداً» :النساء:۱۶۶.

و كما سأل المشركون النبى ص إنزال الملائكه أو إراءه ربهم تعالى و تقدس قال تعالى: «وَ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً» :الفرقان:٢١ و قال تعالى: «وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً، أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَ قالَ الظّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلّا رَجُلًا مَسْحُوراً، انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا» :الفرقان:

٩ إلى غير ذلك من الآيات الكثيره.

و ليس ذلك كله إلا لأن عنوان نزول الآيه هو ظهور الحق و تمام الحجه فإذا نزلت فقد ظهر الحق و تمت الحجه فلو أعيد سؤال نزول الآيه و قد نزلت و حصل الغرض فلا عنوان له إلا العبث بآيات الله و اللعب بالمقام الربوبى و التذبذب فى القبول،و فيه أعظم العتو و الاستكبار.

و هذا لو صدر عن المؤمنين لكان الذنب فيه أكثف و الإثم فيه أعظم فما ذا يصنع المؤمن بنزول الآيه السماويه و هو مؤمن و خاصه إذا كان ممن شاهد آيات الله فآمن عن مشاهدتها؟و هل هو إلا أشبه شىء بما يقترحه أرباب الهوى و المترفون فى مجالس الأنس و حفل التفكه من المشعوذين أو أصحاب الرياضات العجيبه أن يطيبوا عيشهم بإتحافهم بأعجب ما يقدرون عليه من الشعبذه و الأعمال الغريبه؟.

و الذى يفيده ظاهر قوله تعالى: «إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً » أنهم اقترحوا على المسيح((ع))أن يريهم آيه خاصه و هم حواريوه المختصون به و قد رأوا تلك الآيات الباهره و الكرامات الظاهره فإنه((ع))لم يرسل إلى قومه إلا بالآيات المعجزه كما يعطيه قوله تعالى: «وَ رَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ،» الخ:آل عمران:٤٩.

و كيف يتصور فى من آمن بالمسيح((ع))أن لا يعثر منه على آيه و هو((ع)) بنفس وجوده آيه خلقه الله من غير أب و أيده بروح القدس يكلم الناس فى المهد و كهلا و لم يزل مكرما بآيه بعد آيه حتى رفعه الله إليه و ختم أمره بأعجب آيه.

ص :٢٢٧

فاقتراحهم آیه اختاروها لأنفسهم بعد هاتیک الآیات علی کثرتها من قبیل اقتراح الآیه بعد الآیه و قد رکبوا أمرا عظیما و لذلک وبخهم عیسی((ع))بقوله: «اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ » .

و لذلک بعینه وجهوا ما اقترحوا علیه و فسروا قولهم ثانیا بما یکسر سوره ما أوهمه إطلاق کلامهم،و یزیل عنه تلک الحده فقالوا: «نُرِیدُ أَنْ نَأْکُلَ مِنْهٰا وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنٰا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنٰا وَ نَکُونَ عَلَیْهٰا مِنَ الشّٰاهِدِینَ » فضموا إلی غرض الأکل أغراضا أخر یوجه اقتراحهم،یریدون به أن اقتراحهم هذا لیس من قبیل التفکه بالأمور العجیبه و العبث بآیات الإلهیه بل له فوائد مقصوده:من کمال علمهم و إزاله خطرات السوء من قلوبهم و شهادتهم علیها.

لکنهم مع ذلک لم یترکوا ذکر إراده الأکل و منه کانت الخطیئه و لو قالوا:

«نرید أن نأکل منها فتطمئن قلوبنا،إلخ»لم یلزمهم ما لزمهم إذ قالوا: «نُرِیدُ أَنْ نَأْکُلَ مِنْهٰا وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنٰا ،إلخ»فإن الکلام الأول یقطع جمیع منابت التهوس و المجازفه دون الثانی.

و لما ألحوا علیه أجابهم عیسی(ع)إلی ما اقترحوا علیه و التمسوه و سأل ربه أن یکرمهم بها،و هی معجزه مختصه فی نوعها بأمته لأنها الآیه الوحیده التی نزلت إلیهم عن اقتراح فی أمر غیر لازم ظاهرا و هو أکل المؤمنین منها،و لذلک عنونها(ع) عنوانا یصلح به أن یوجه الوجه بسؤاله إلی ساحه العظمه و الکبریاء فقال: «اللّٰهُمَّ رَبَّنٰا أَنْزِلْ عَلَیْنٰا مٰائِدَهً مِنَ السَّمٰاءِ تَکُونُ لَنٰا عِیداً لِأَوَّلِنٰا وَ آخِرِنٰا » فعنونها بعنوان العیدیه، و العید عند قوم هو الیوم الذی نالوا فیه موهبه أو مفخره مختصه بهم من بین الناس، و کان نزول المائده علیهم منعوتا بهذا النعت.

و لما سأل عیسی ربه ما سأل-و حاشاه أن یسأل إلا ما یعلم أن من المرجو استجابته و أن ربه لا یمقته و لا یفضحه،و حاشا ربه أن یرده خائبا فی دعائه-استجاب له ربه دعاءه غیر أنه شرط فیها لمن یکفر بها عذابا یختص به من بین جمیع الناس کما أن الآیه آیه خاصه بهم لا یشارکهم فی نوعها غیرهم من الأمم فقال الله سبحانه« إِنِّی مُنَزِّلُهٰا عَلَیْکُمْ فَمَنْ یَکْفُرْ بَعْدُ مِنْکُمْ فَإِنِّی أُعَذِّبُهُ عَذٰاباً لاٰ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعٰالَمِینَ » ،هذا.

قوله تعالى: «إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ » «إِذْ » ظرف متعلق بمقدر و التقدير اذكر إذ قال«إلخ»،أو ما يقرب منه،و ذهب بعضهم إلى أنه متعلق بقوله فى الآيه السابقه: «قالُوا آمَنّا ،إلخ» أى قال الحواريون:آمنا بالله و اشهد بأنا مسلمون فى وقت قالوا فيه لعيسى: «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ » و المراد أنهم ما كانوا على صدق فى دعواهم، و لا على جد فى إشهادهم عيسى(ع)على إسلامهم له.

و فيه أنه مخالف لظاهر السياق،و كيف يكون إيمانهم غير خالص؟و قد ذكر الله أنه هو أوحى إليهم أن آمنوا بى و برسولى و هو تعالى يمتن بذلك على عيسى((ع))؛ على أنه لا وجه حينئذ للإظهار فى قوله: «إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ ،إلخ».

و«المائده»الخوان إذا كان فيه طعام،قال الراغب:و المائده الطبق الذى عليه الطعام،و يقال لكل واحده منهما مائده،و يقال:مادنى يميدنى أى أطعمنى،انتهى.

و متن السؤال الذى حكى عنهم فى الآيه و هو قولهم: «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ » بحسب ظاهر ما يتبادر من معناه مما يستبعد العقل صدوره عن الحواريين و هم أصحاب المسيح و تلامذته و أخصاؤه الملازمون له المقتبسون من أنوار علومه و معارفه المتبعون آدابه و آثاره،و الإيمان بأدنى مراتبه ينبه الإنسان على أن الله سبحانه على كل شىء قدير،لا يجوز عليه العجز و لا يغلبه العجز؛فكيف جاز أن يستفهموا رسولهم عن استطاعه ربه على إنزال مائده من السماء.

و لذلك قرأ الكسائى من السبعه: «هل تستطيع ربك » بتاء المضارعه و نصب «ربک » على المفعوليه أى هل تستطيع أنت أن تسأل ربك،فحذف الفعل الناصب للمفعول و أقيم «تستطيع » مقامه،أو أنه مفعول لفعل محذوف فقط.

و قد اختلف المفسرون فى توجيهه على بناء من أكثريهم على أن المراد به غير ما يتبادر من ظاهره من الشک فى قدره الله سبحانه لنزاهه ساحتهم من هذا الجهل السخيف.

و أوجه ما يمكن أن يقال هو أن الاستطاعه فى الآيه كنايه عن اقتضاء المصلحه و وقوع الإذن كما أن الإمكان و القدره و القوه يكنى بها عن ذلک كما يقال:«لا يقدر الملك أن يصغى إلى كل ذى حاجه»بمعنى أن مصلحه الملك تمنعه من ذلک و إلا فمطلق

الإصغاء مقدور له،و يقال:«لا يستطيع الغنى أن يعطى كل سائل»أى مصلحه حفظ المال لا تقتضيه،و يقال:«لا يمكن للعالم أن يبث كل ما يعلمه»أى يمنعه عن ذلک مصلحه الدين أو مصلحه الناس و النظام الدائر بينهم،و يقول أحدنا لصاحبه:

«هل تستطيع أن تروح معى إلى فلان»؟و إنما السؤال عن الاستطاعه بحسب الحكمه و المصلحه لا بحسب أصل القدره على الذهاب،هذا.

و هناک وجوه أخرى ذكروها:

منها:أن هذا السؤال لأجل تحصيل الاطمئنان بإيمان العيان لا للشک فی قدره الله سبحانه فهو على حد قول إبراهيم((ع))فيما حكى الله عنه: «رَبِّ أَرِنِی كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتىٰ قٰالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قٰالَ بَلىٰ وَ لٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِی » .

و فيه:أن مجرد صحه أن تسأل الآيه لزياده الإيمان و اطمئنان القلب لا يصحح حمل سؤالهم عليه و لم تثبت عصمتهم كإبراهيم((ع))حتى تكون دليلا منفصلا يوجب حمل كلامهم على ما لا حزازه فيه بل الدليل على خلافه حيث لم يقولوا:نريد أن نأكل منها فتطمئن قلوبنا كما قال إبراهيم(ع): «بَلىٰ وَ لٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِی » بل قالوا:

«نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهٰا وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنٰا »

فعدوا الأكل بحيال نفسه غرضا.

على أن هذا الوجه إنما يستدعى تنزه قلوبهم عن شائبه الشک فی قدره الله سبحانه و أما حزازه ظاهر الكلام فعلى حالها.

على أنه قد تقدم فی تفسير قوله تعالى: «وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ رَبِّ أَرِنِی كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتىٰ» الخ:البقره:۲۶۰ أن مراده(ع)لم يكن مشاهده تلبس الموتى بالحياه بعد الموت كما عليه بناء هذا الوجه و لو كان كذلک لكان من قبيل طلب الآيه بعد العيان و هو فی مقام المشافهه مع ربه بل مراده مشاهده كيفيه الإحياء بالمعنى الذى تقدم بيانه.

و منها:أنه سؤال عن الفعل دون القدره عليه فعبر عنه بلازمه.

و فيه:أنه لا دليل عليه،و لو سلم فإنه إنما ينفى عنهم الجهل بالقدره المطلقه الإلهيه و أما منافاه إطلاق اللفظ للأدب العبودى فعلى حالها.

و منها:أن فی الکلام حذفا تقدیره:هل تستطیع سؤال ربک؟و یدل علیه قراءه هل تستطیع ربک و المعنی:هل تستطیع أن تسأله من غیر صارف یصرفک عن ذلک.

و فیه أن الحذف و التقدیر لا یعید لفظه «هَلْ یَسْتَطِیعُ رَبُّکَ » إلی قولنا هل تستطیع سؤال ربک بأی وجه فرض لمکان اختلاف الفعل فی القراءتین بالغیبه و الحضور، و التقدیر لا یحول الغیبه إلی الخطاب البته،و إن کان و لا بد فلیقل:أنه من قبیل إسناد الفعل المنسوب إلی عیسی((ع))إلی ربه من جهه أن فعله فعل الله أو أن کل ما له((ع)) فهو لله سبحانه،و هذا الوجه مع کونه فاسدا من جهه أن الأنبیاء و الرسل إنما ینسب من أفعالهم إلی الله ما لا یستلزم نسبته إلیه النقص و القصور فی ساحته تعالی کالهدایه و العلم و نحوهما،و أما لوازم عبودیتهم و بشریتهم کالعجز و الفقر و الأکل و الشرب و نحو ذلک فمما لا تستقیم نسبته إلیه تعالی البته فمشکله ظاهر اللفظ علی حالها.

و منها:أن الاستطاعه هنا بمعنی الإطاعه و المعنی:هل یطیعک ربک و یجیب دعاءک إذا سألته ذلک،و فیه:أنه من قبیل تبدیل المشکل بما هو أشکل فإن الاستفهام عن إطاعه الله سبحانه لرسوله و انقیاده له أشنع و أفظع من الاستفهام عن استطاعته.

و قد انتصر بعضهم لهذا الوجه فقال فی تقریره ما محصله:أن الاستطاعه و الإطاعه من ماده الطوع مقابل الکره فإطاعه الأمر فعله عن رضی و اختیار،و الاستفعال فی هذه الماده کالاستفعال فی ماده الإجابه فإذا کان معنی استجابه:أجاب دعاءه أو سؤاله فمعنی استطاعه:أطاعه أی أنه انقاد له و صار فی طوعه أو طوعا له،و السین و التاء فی المادتین علی أشهر معانیهما و هو الطلب،و لکنه طلب دخل علی فعل محذوف دل علیه المذکور المترتب علی المحذوف،و معنی استطاع الشیء:طلب و حاول أن یکون ذلک الشیء طوعا له فأطاعه و انقاد له،و معنی استجاب:سئل شیئا و طلب منه أن یجیب إلیه فأجاب.

قال:فبهذا الشرح الدقیق تفهم صحه قول من قال من المفسرین:إن «یَسْتَطِیعُ » هنا بمعنی یطیع و إن معنی یطیع:یفعل مختارا راضیا غیر کاره فصار حاصل معنی الجمله:هل یرضی ربک و یختار أن ینزل علینا مائده من السماء إذا نحن سألناه أو سألته لنا ذلک،انتهی.

و فیه أولا:أنه لم یأت بشیء دون أن قاس استطاع باستجاب ثم أعطی هذا

معنى ذاک و هو قیاس فی اللغه ممنوع.

و ثانیا:أن کون الاستطاعه و الإطاعه راجعین بحسب الماده إلى الطوع مقابل الکره لا یستلزم وجوب جریان الاستعمال على رعایه معنى الماده الأصلیه فی جمیع التطورات الطارئه علیها فکثیر من المواد هجرت خصوصیه معناها الأصلی فی ما عرضها من الهیئات الاشتقاقیه نظیر ضرب و أضرب و قبل و أقبل و قبل و قابل و استقبل بحسب التبادر الاستعمالی.

و اعتبار الماده الأصلیه فی البحث عن الاشتقاقات اللغویه لا-یراد به إلا-الاستعلام مبلغ ما یعیش الماده الأصلیه بین مشتقاتها بحسب عروض تطورات الاشتقاق علیها،أو انقضاء أمد حیاتها بحسب المعنى و تبدله إلى معنى آخر لا أن یلغی حکم التطورات و یحفظ المعنى الأصلی ما جرى اللسان،فافهم ذلک.

فالاعتبار فی اللفظ بما یفیده بحسب الاستعمال الدائر الحی لا بما تفیده الماده اللغویه و قد استعمل لفظ الاستطاعه فی کلامه تعالى فی أزید من أربعین موضعا،و هو فی الجمیع بمعنى القدره،و استعمل لفظ الإطاعه فیما یقرب من سبعین موضعا و هو فی الجمیع بمعنى الانقیاد،و استعمل لفظ الطوع فیما استعمل و هو مقابل الکره؛فکیف یسوغ أن یؤخذ لفظ یستطیع بمعنى یطیع ثم یطیع بمعنى الطوع ثم یحکم بأن یستطیع فی الآیه بمعنى یرضى؟.

و أما حدیث أجاب و استجاب فقد استعملا معا فی کلامه تعالى بمعنى واحد و ورد استعمال الاستجابه فی موارد هی أضعاف ما استعملت فیه الإجابه فإنک تجد الاستجابه فیما یقرب من ثلاثین موضعا،و لا تجد الإجابه فی أکثر من عشره مواضع فکیف یقاس علیها أطاع و استطاع؟.

و کونهما بمعنى واحد لیس إلا-لانطباق عنایتین مختلفتین على مورد واحد فمعنى أجاب أن الجواب تجاوز عن المسئول إلى السائل،و معنى استجاب أن المسئول طلب من نفسه الجواب فأداه إلى السائل.

و من هنا یظهر أن الذی فسر به الاستجابه و هو قوله:(و معنى استجاب سئل شیئا و طلب منه أن یجیب إلیه فأجاب)لیس على ما ینبغی فإن باب الاستفعال هو

طلب«فعل»لا طلب«افعل»و هو ظاهر.

و ثالثا:أن السياق لا يلائم هذا المعنى إذ لو كان معنى قولهم: «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنٰا مٰائِدَةً مِنَ السَّمٰاءِ » إنه هل يرضى ربك أن نسأله نحن أو تسأله أنت أن ينزل علينا مائده من السماء،و كان غرضهم من هذا السؤال أو النزول أن يزدادوا إيمانا و يطمئنوا قلبا فما وجه توبيخ عيسى((ع))لهم بقوله: «اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ؟و ما وجه وعيده تعالى الكافرين بها بعذاب لا يعذبه أحدا من العالمين، و هم لم يقولوا إلا حقا و لم يسألوا إلا مسأله مشروعه،و قد قال تعالى: «وَ سْئَلُوا اللّٰهَ مِنْ فَضْلِهِ» :النساء:٣٢.

قوله تعالى: «قٰالَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » توبيخ منه((ع))لهم لما يشتمل عليه ظاهر كلامهم من الاستفهام عن استطاعه ربه على إنزال المائده فإن كلامهم مريب على أي حال.

و أما على ما قدمناه من أن الأصل في مؤاخذتهم الذي يترتب عليه الوعيد الشديد في آخر الآيات هو أنهم سألوا آيه حيث لا حاجه إليها و اقترحوا بما في معنى العبث بآيات الله سبحانه،ثم تعبيرهم بما يتبادر من ظاهره كونهم كأنهم لم يعقدوا قلوبهم على القدره الربوبيه فوجه توبيخه((ع))لهم بقوله: «اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أظهر.

قوله تعالى: «قٰالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهٰا وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنٰا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنٰا وَ نَكُونَ عَلَيْهٰا مِنَ الشّٰاهِدِينَ » السياق ظاهر في أن قولهم هذا عذر اعتذروا به للتخلص من توبيخه((ع))و ما ذكروه ظاهر التعلق باقتراحهم الآيه بنزول المائده دون ما يظهر من قولهم: هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ » ،من المعنى الموهم للشك في إطلاق القدره،و هذا أيضا أحد الشواهد على أن ملاك المؤاخذه في المقام هو أنهم سألوا آيه على آيه من غير حاجه إليها.

و أما قولهم: «نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهٰا ،إلخ»فقد عدوا في بيان غرضهم من اقتراح الآيه أمورا أربعه:

أحدها:الأكل و كان مرادهم بذكره أنهم ما أرادوا به اللعب بآيات الله بل

أرادوا أن يأكلوا منها،و هو غرض عقلائی،و قد تقدم أن هذا القول منهم كالتسليم لاستحقاقهم التوبيخ من عيسى(ع)و الوعيد الشديد من الله لمن يكفر منهم بآيه المائده.

و ذكر بعضهم:أن المراد بذكر الأكل إبانه أنهم فی حاجه شديده إلی الطعام و لا يجدون ما يسد حاجتهم.و ذكر آخرون أن المراد نريد أن نتبرك بأكله.

و أنت تعلم أن المعنی الذی قرر فی كل من هذين الوجهين أمر لا يدل عليه مجرد ذكر الأكل،و لو كان مرادهم ذلک و هو أمر يدفع به التوبيخ لكان مقتضی مقام الاعتذار التصريح بذكره،و حيث لم يذكر شیء من ذلک مع حاجه المقام إلی ذكره لو كان مرادا فليس المراد بالأكل إلا مطلق معناه من حيث إنه غرض عقلائی هو أحد أجزاء غرضهم فی اقتراح نزول المائده.

الثانی: اطمئنان القلب و هو سكونه باندفاع الخطورات المنافيه للخلوص و الحضور.

و الثالث:العلم بأنه((ع))قد صدقهم فيما بلغهم عن ربه،و المراد بالعلم حينئذ هو العلم اليقينی الذی يحصل فی القلب بعد ارتفاع الخطورات و الوساوس النفسانيه عنه،أو العلم بأنه قد صدقهم فيما وعدهم من ثمرات الإيمان كاستجابه الدعاء كما ذكره بعضهم، لكن يبعده أن الحواريين ما كانوا يسألون إنزال المائده من السماء إلا بدعاء عيسی((ع)) و مسألته،و بالجمله بإعجاز منه((ع))و قد كانوا رأوا منه((ع))آيات كثيره فإنه((ع))لم يزل فی حياته قرينا لآيات إلهيه كبری،و لم يرسل إلی قومه و لم يدعهم دعوه إلا مع آيات ربه فلم يزالوا يرون ثمرات إيمانه من استجابه الدعاء إن كان المراد الثمره التی هی استجابه دعائه((ع))،و إن كان المراد الثمره التی هی استجابه دعائهم أنفسهم فإنهم لم يسألوا نزول الآيه بدعاء أنفسهم، و لم تنزل إلا بدعاء عيسی((ع)).

الرابع:أن يكونوا عليها من الشاهدين عند ما يحتاج إلی الشهاده كالشهاده عند المنكرين،و الشهاده عند الله يوم القيامه،فالمراد بها مطلق الشهاده،و يمكن أن يكون المراد مجرد الشهاده عند الله سبحانه كما وقع فی بعض قولهم الذی حكاه الله تعالی إذ قال:

«رَبَّنا آمَنّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشّاهِدِينَ» ال عمران-۵۳.

فقد تحصل أنهم-فيما اعتذروا به-ضموا أمورا جميله مرضيه إلی غرضهم الآخر

ص :۲۳۴

الذی هو الأکل من المائده السماویه لیحسموا به ماده الحزازه عن اقتراحهم الآیه بعد مشاهده الآیات الکافیه فأجابهم عیسی((ع))إلی مسألتهم بعد الإصرار.

قوله تعالی: «قَالَ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَیْنَا مَائِدَهً مِنَ السَّمَاءِ تَکُونُ لَنَا عِیداً لِأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا وَ آیَهً مِنْکَ وَ ارْزُقْنَا وَ أَنْتَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ » خلط((ع))نفسه بهم فی سؤال المائده،و بدأ بنداء ربه بلفظ عام فقال: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا » و قد کانوا قالوا له:

«هَلْ یَسْتَطِیعُ رَبُّکَ »

لیوافق النداء الدعاء.

و قد توحد هذا الدعاء من بین جمیع الأدعیه و المسائل المحکیه فی القرآن عن الأنبیاء (ع)بأن صدر«باللهم ربنا»و غیره من أدعیتهم مصدر بلفظ«رب»أو«ربنا» و لیس إلا لدقه المورد و هول المطلع،نعم یوجد فی أقسام الثناء المحکیه نظیر هذا التصدیر کقوله: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» :النمل:۵۹ و قوله: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِکَ الْمُلْکِ» :آل عمران:۲۶ و قوله: «قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» :الزمر:۴۶.

ثم ذکر((ع))عنوانا لهذه المائده النازله هو الغرض له و لأصحابه من سؤال نزولها و هو أن تنزل فتکون عیدا له و لجمیع أمته،و لم یکن الحواریون ذکروا فیما اقترحوه أنهم یریدون عیدا یخصون به لکنه((ع))عنون ما سأله بعنوان عام و قلبه فی قالب حسن لیخرج عن کونه سؤالا للآیه مع وجود آیات کبری إلهیه بین أیدیهم و تحت مشاهدتهم،و یکون سؤالا مرضیا عند الله غیر مصادم لمقام العزه و الکبریاء فإن العید من شأنه أن یجمع الکلمه،و یجدد حیاه المله،و ینشط نفوس العائدین،و یعلن کلما عاد عظمه الدین.

و لذلک قال: «عِیداً لِأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا » أی أول جماعتنا من الأمه و آخر من یلحق بهم-علی ما یدل علیه السیاق-فإن العید من العود و لا یکون عیدا إلا إذا عاد حینا بعد حین،و فی الخلف بعد السلف من غیر تحدید.

و هذا العید مما اختص به قوم عیسی((ع))کما اختصوا بنوع هذه الآیه النازله علی ما تقدم بیانه.

و قوله: «وَ آیَهً مِنْکَ » لما قدم مسأله العید و هی مسأله حسنه جمیله لا عتاب علیها عقبها بکونها آیه منه تعالی کأنه من الفائده الزائده المترتبه علی الغرض الأصلی

غير مقصوده وحدها حتى يتعلق بها عتاب أو سخط،و إلا فلو كانت مقصوده وحدها من حيث كونها آيه لم تخل مسألتها من نتيجه غير مطلوبه فإن جميع المزايا الحسنه التى كان يمكن أن يراد بها كانت ممكنه الحصول بالآيات المشهوده كل يوم منه(ع) للحواريين و غيرهم.

و قوله: «وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرّازِقِينَ » و هذه فائده أخرى عدها مترتبه على ما سأله من العيد من غير أن تكون مقصوده بالذات،و قد كان الحواريون ذكروه مطلوبا بالذات حيث قالوا: «نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها » فذكروه مطلوبا لذاته و قدموه على غيره، لكنه(ع)عده غير مطلوب بالذات و أخره عن الجميع و أبدل لفظ الأكل من لفظ الرزق فأردفه بقوله «وَ أَنْتَ خَيْرُ الرّازِقِينَ » .

و الدليل على ما ذكرنا أنه((ع))جعل ما أخذوه أصلا فائده مترتبه أنه سأل أولا لجميع أمته و نفسه،و هو سؤال العيد الذى إضافه إلى سؤالهم فصار بذلك كونها آيه من الله و رزقا وصفين خاصين للبعض دون البعض كالفائده المترتبه غير الشامله.

فانظر إلى أدبه((ع))البارع الجميل مع ربه،و قس كلامه إلى كلامهم-و كلا الكلامين يؤمان نزول المائده-تر عجبا فقد أخذ((ع))لفظ سؤالهم فأضاف و حذف،و قدم و أخر،و بدل و حفظ حتى عاد الكلام الذى ما كان ينبغى أن يوجه به إلى حضره العزه و ساحه العظمه أجمل كلام يشتمل على أدب العبوديه،فتدبر فى قيود كلامه((ع))تر عجبا.

قوله تعالى: «قالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ » قرأ أهل المدينه و الشام و عاصم «مُنَزِّلُها » بالتشديد و الباقون «مُنَزِّلُها » بالتخفيف-على ما فى المجمع-،و التخفيف أوفق لأن الإنزال هو الدال على النزول الدفعى،و كذلك نزلت المائده،و أما التنزيل فاستعماله الشائع إنما هو فى النزول التدريجى كما تقدم كرارا.

و قوله تعالى: «إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ » وعد صريح بالإنزال و خاصه بالنظر إلى الإتيان به فى هيئه اسم الفاعل دون الفعل،و لازم ذلك أن المائده قد نزلت عليهم.

و ذكر بعض المفسرين أنها لم تنزل كما روى ذلك فى الدر المنثور،و مجمع البيان،

و غيرهما عن الحسن و مجاهد:قالا:إنها لم تنزل و إن القوم لما سمعوا الشرط استعفوا عن نزولها و قالوا:لا نريدها و لا حاجه لنا فيها فلم تنزل.

و الحق أن الآيه ظاهره الدلاله على النزول فإنها تتضمن الوعد الصريح بالنزول و حاشاه تعالى أن يجود لهم بالوعد الصريح و هو يعلم أنهم سيستعفون عنها فلا تنزل، و الوعد الذى فى الآيه صريح و الشرط الذى فى الآيه يتضمن تفرع العذاب و ترتبه على الكفر بعد النزول،و بعباره أخرى:الآيه تتضمن الوعد المطلق بالإنزال ثم تفريع العذاب على الكفر لا أنها تشتمل على الوعد بالإنزال على تقدير قبولهم العذاب على الكفر،حتى يرتفع موضوع الوعد عند عدم قبولهم الشرط فلا تنزل المائده باستعفائهم عن نزولها،فافهم.

و كيف كان فاشتمال وعده تعالى بإنزال المائده على الوعيد الشديد بعذاب الكافرين بها منهم ليس ردا لدعاء عيسى((ع))و إنما هو استجابه له غير أنه لما كان ظاهر الاستجابه بعد الدعاء-على ما له من السياق-أن هذه الآيه تكون رحمه مطلقه منه لهم يتنعم بها آخرهم و أولهم،قيد تعالى هذا الإطلاق بالشرط الذى شرط عليهم،و محصله أن هذا العيد الذى خصهم الله به لا ينتفع به جميعهم بل إنما ينتفع به المؤمنون المستمرون على الإيمان منهم،و أما الكافرون بها فيستضرون بها أشد الضرر.

فالآيتان فى كلامه تعالى من حيث إطلاق الدعاء بحسب لازمه و تقييد الاستجابه كقوله تعالى: «وَ إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ» :البقره-۱۲۴ و قوله تعالى حكايه عن موسى((ع)): «أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ، وَ اكْتُبْ لَنَا فِى هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِى الْآخِرَهِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَ رَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاهَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» :الأعراف:۱۵۶.

و قد عرفت فيما تقدم أن السبب الأصلى فى هذا العذاب الموعود الذى يختص بهم إنما هو اقتراحهم آيه هى فى نوعها مختصه بهم لا يشاركهم فيها غيرهم من الأمم فإذا أجيبوا إلى ذلك أوعدوا على الكفر عذابا لا يشاركهم فيها غيرهم كما شرفوا بمثل ذلك.

و من هنا يظهر أن المراد بالعالمين عالمو جميع الأمم عالمو زمانهم فإن ذلك

مرتبطا بمن يمتازون عنهم من الناس و هم جميع الأمم لا أهل زمان عيسى((ع)) خاصه من أمم الأرض.

و من هناك يظهر أيضا أن قوله «فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذٰاباً لاٰ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعٰالَمِينَ » و إن كان وعيدا شديدا بعذاب بئيس لكن الكلام غير ناظر إلى كون العذاب فوق جميع العذابات و العقوبات فى الشده و الألم،و إنما هو مسوق لبيان انفراد العذاب فى بابه، و اختصاصهم من بين الأمم به.

(بحث روائى)

- فى المجمع،: فى قوله تعالى: «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ » -عن أبى عبد الله((ع))قال:معنى الآيه هل تستطيع أن تدعو ربك.

أقول:و روى هذا المعنى من طريق الجمهور عن بعض الصحابه و التابعين كعائشه و سعيد بن جبير،و هو راجع إلى ما استظهرناه من معنى الآيه فيما تقدم فإن السؤال عن استطاعه عيسى((ع))إنما يصح بالنسبه إلى استطاعته بحسب الحكمه و المصلحه دون استطاعته بحسب أصل القدره.

- و فى تفسير العياشى،عن عيسى العلوى عن أبيه عن أبى جعفر((ع))قال: المائده التى نزلت على بنى إسرائيل مدلاه بسلاسل من ذهب-عليها تسعه أحوته و تسعه أرغفه.

أقول:و فى لفظ آخر تسعه أنوان و تسعه أرغفه«و الأنوان»جمع نون و هو الحوت.

- و فى المجمع،عن عمار بن ياسر عن النبى ص قال: نزلت المائده خبزا و لحما، و ذلك لأنهم سألوا عيسى طعاما لا ينفد يأكلون منها،قال:فقيل لهم:فإنها مقيمه لكم ما لم تخونوا و تخبئوا و ترفعوا-فإن فعلتم ذلك عذبتم،قال:فما مضى يومهم حتى خبئوا و رفعوا و خانوا.

- أقول:و رواه فى الدر المنثور،عن الترمذى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى و أبى الشيخ و ابن مردويه عن عمار بن ياسر عنه(ص) و فى آخره:فمسخوا قرده و خنازير.

قال فى الدر المنثور،:و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من وجه آخر

ص: ۲۳۸

عن عمار بن یاسر موقوفا:مثله

،قال الترمذی:و الوقف أصح،انتهی.

و الـذی ذکر فی الخبر من أنهم سـألوا طعامـا لاـ ینفـد یـأکلون منها لا ینطبق علی الآیه ذاک الانطباق بناء علی ظاهر ما حکاه الله تعـالی من قولهم: «وَ نَکُونَ عَلَیْها مِنَ الشّاهِدِینَ » فإن الطعام الـذی لا یقبل النفاد لا یحتاج إلی شاهـد یشـهد علیه إلا أن یراد من الشهاده الشهاده عند الله یوم القیامه.

و الذی ذکر فیه من مسـخهم قرده و خنازیر ظاهر السیاق أن ذلک هو العذاب الموعود لهم،و هذا مما یفتح بابا آخر من المناقشه فیه فإن ظاهر قوله تعالی: «فَإِنِّی أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِینَ » اختصاص هذا العذاب بهم،و قد نص القرآن الشـریف علی مسـخ آخرین بـالقرده،قـال تعالی: «وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِینَ اعْتَدَوْا مِنْکُمْ فِی السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ کُونُوا قِرَدَهً خاسِئِینَ» :البقره:۶۵ و المروی فی هذا الباب عن بعض طرق أئمه أهل البیت(ع) أنهم مسخوا خنازیر.

- و فی تفسـیر العیاشـی،عن الفضیل بن یسار عن أبی الحسن((ع))قال: إن الخنازیر من قوم عیسی سألوا نزول المائده-فلم یؤمنوا بها فمسخهم الله خنازیر.

- و فیه:،عن عبد الصـمد بن بندار قال:سـمعت أبا الحسن((ع))یقول: کانت الخنازیر قوما من القصارین-کذبوا بالمائده فمسـخوا خنازیر.

أقول:

- و فیمـا رواه فی الکـافی،عـن محمــد بـن یحیی عـن أحمــد بـن محمــد عـن محمـد بـن الحسـن الأشـعری عـن أبی الحسـن الرضا((ع))قال: الفیل مسخ کان ملکا زناء،و الذئب مسخ کان أعرابیا دیوثا،و الأرنب مسخ کانت امرأه تخون زوجها و لا تغتسـل من حیضـها، و الوطواط مسـخ کـان یسـرق تمور الناس،و القرده و الخنازیر قوم من بنی إسـرائیل اعتـدوا فی السـبت،و الجریث و الضب فرقه من بنی إسـرائیل لم یؤمنـوا-حیث نزلت المائـده علی عیسـی بن مریم-فتـاهوا فوقعت فرقه فی البحر و فرقه فی الـبر،و الفأره فهی الفویسقه، و العقرب کان نماما،و الدب و الوزغ و الزنبور کانت لحاما یسرق فی المیزان.

و الروایه لا تعارض الروایتین السابقتین لإمکان أن یمسخ بعضـهم خنزیرا و بعضـهم جریثا و ضـبا غیر أن هذه الروایه لا تخلو عن شیء آخر و هو ما تضمنه من مسخ أصحاب

السبت قرده و خنازير،و الآيه الشريفه المذكوره و نظيرتها ما فى سوره الأعراف إنما تذكر ان مسخهم قرده بسياق كالمنافى لغيرها،و الله أعلم.

[سوره المائده (۵): الآيات ۱۱۶ الى ۱۲۰]

اشاره

وَ إِذْ قٰالَ اَللّٰهُ يٰا عِيسَى اِبْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اِتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ قٰالَ سُبْحٰانَكَ مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مٰا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مٰا فِي نَفْسِي وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّٰمُ اَلْغُيُوبِ (۱۱۶) مٰا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّٰ مٰا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مٰا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ اَلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۱۱۷) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبٰادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۱۱۸) قٰالَ اَللّٰهُ هٰذٰا يَوْمُ يَنْفَعُ اَلصّٰادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنّٰاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً رَضِيَ اَللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ (۱۱۹) لِلّٰهِ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۲۰)

(بيان)

مشافهه الله رسوله عيسى بن مريم فى أمر ما قالته النصارى فى حقه،و كان الغرض من سرد الآيات ذكر ما اعترف به((ع))و حكاه عن نفسه فى حياته الدنيا:أنه لم يكن من حقه أن يدعى لنفسه ما ليس فقد كان بعين الله التى لا تنام و لا تزيغ و أنه لم يتعد

ما حده الله سبحانه له فلم يقل إلا ما أمر أن يقول ذلک،و اشتغل بالعمل بما کلفه الله أن یشتغل به و هو أمر الشهاده،و قد صدقه الله تعالی فیما ذکره من حق الربوبیه و العبودیه.

و بهذا تنطبق الآیات علی الغرض النازل لأجله السوره،و هو بیان الحق المجعول لله علی عباده أن یفوا بالعهد الذی عقدوه و أن لا ینقضوا المیثاق؛فلیس لهم أن یسترسلوا کیفما أرادوا و أن یرتعوا رغدا حیث شاءوا فلم یملکوا هذا النوع من الحق من قبل ربهم، و لا أنهم قادرون علی ذلک من حیال أنفسهم،و لِلّٰهِ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا فِیهِنَّ وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ ،و بذلک تختتم السوره.

قوله تعالی: «وَ إِذْ قٰالَ اللّٰهُ یٰا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ،أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اتَّخِذُونِی وَ أُمِّی إِلٰهَیْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ » «إِذْ » ظرف متعلق بمحذوف یدل علیه المقام،و المراد به یوم القیامه لقوله تعالی فیها: «قٰالَ اللّٰهُ هٰذٰا یَوْمُ یَنْفَعُ الصّٰادِقِینَ صِدْقُهُمْ » و قول عیسی(ع) فیها «وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً مٰا دُمْتُ فِیهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ » .

و قد عبرت الآیه عن مریم بالأمومه فقیل: «اتَّخِذُونِی وَ أُمِّی إِلٰهَیْنِ » دون أن یقال:«اتخذونی و مریم إلهین للدلاله علی عمده حجتهم فی الألوهیه و هو ولادته منها بغیر أب،فالبنوه و الأمومه الکذائیتین هما الأصل فی ذلک فالتعبیر به و بأمه أدل و أبلغ من التعبیر بعیسی و مریم.

و «دُونِ » کلمه تستعمل بحسب المال فی معنی الغیر،قال الراغب:یقال للقاصر عن الشیء« دون »قال بعضهم:هو مقلوب من الدنو،و الأدون الدنی،و قوله تعالی: «لاٰ تَتَّخِذُوا بِطٰانَهً مِنْ دُونِکُمْ » أی من لم یبلغ منزلتکم فی الدیانه،و قیل:

فی القرابه،و قوله: «وَ یَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِکَ» أی ما کان أقل من ذلک،و قیل:ما سوی ذلک،و المعنیان متلازمان،و قوله: أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اتَّخِذُونِی وَ أُمِّی إِلٰهَیْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ » أی غیر الله،انتهی.

و قد استعمل لفظ «مِنْ دُونِ اللّٰهِ » کثیرا فی القرآن فی معنی الإشراک دون

الاستقلال بمعنى أن المراد من اتخاذ إله أو إلهين أو آلهه من دون الله هو أن يتخذ غير الله شريكا لله سبحانه فى ألوهيته لا أن يتخذ غير الله إلها و تنفى ألوهيه الله سبحانه فإن ذلك من لغو القول الذى لا يرجع إلى محصل فإن الذى أثبته حينئذ يكون هو الإله سبحانه و ينفى غيره،و يعود النزاع إلى بعض الأوصاف التى أثبتها فمثلا لو قال قائل:

«إن الإله هو المسيح و نفى إله المسيح عاد مفاد كلامه إلى إثبات الإله تعالى و توصيفه بصفات المسيح البشريه،و لو قال قائل:إن الأصنام أو أرباب الأصنام آلهه و نفى الله تعالى و تقدس فإنه يقول بأن للعالم إلها فقد أثبت الله سبحانه لكنه نعته بنعت الكثره و التعدد فقد جعل لله شركاء،أو يقول كما يقوله النصارى: إِنَّ اللّهَ ثالِثُ ثَلاثَهٍ أى واحد هو ثلاث و ثلاث هو واحد.

و من قال:إن مبدأ العالم هو الدهر أو الطبيعه و نفى أن يكون للعالم إله تعالى عن ذلك فقد أثبت للعالم صانعا و هو الله عز اسمه لكنه نعته بنعوت القصور و النقص و الإمكان.

و من نفى أن يكون لهذا النظام العجيب مبدأ أصلا و نفى العليه و التأثير على الرغم من صريح ما تقضى به فطرته فقد أثبت عالما موجودا ثابتا لا يقبل النفى و الانعدام من رأس أى هو واجب الثبوت و حافظ ثبوته و وجوده إما نفسه و ليس لطرو الزوال و التغير إلى أجزائه،و إما غيره فهو الله تبارك و تعالى،و له نعوت كماله.

فتبين أن الله سبحانه لا يقبل النفى أصلا إلا بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى معقول.

و الملاك فى ذلك كله أن الإنسان إنما يثبت الإله تعالى من جهه الحاجه العامه فى العالم إلى من يقيم أود وجوده و يدبر أمر نظامه ثم يثبت خصوصيات وجوده فما أثبته من شىء لسد هذه الخله و رفع تلك الحاجه فهو الله سبحانه ثم إذا أثبت إلها غيره أو أثبت كثره فإما أن يكون قد أخطأ فى تشخيص صفاته و ألحد فى أسمائه،أو يثبت له شريكا أو شركاء تعالى عن ذلك،و أما نفيه و إثبات غيره فلا معنى له.

فظهر أن معنى قوله: «إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ » شريكين لله هما من غيره،و إن سلم أن الكلمه لا تؤدى معنى الشركه بوجه،قلنا:إن معناها لا يتعدى اتخاذ إلهين هما

من سنخ غير الله سبحانه و أما كون ذلك مقارنا لنفى ألوهيته تعالى أو إثباتها فهو مسكوت عنه لا يدل عليه لفظ و إنما يعلم من خارج،و النصارى لا ينفون ألوهيته تعالى مع اتخاذهم المسيح و أمه إلهين من دون الله سبحانه.

و ربما استشكل بعضهم الآيه بأن النصارى غير قائلين بألوهيه مريم العذراء((ع))، و ذكروا فى توجيهها وجوها.

لكن الذى يجب أن يتنبه عليه أن الآيه إنما ذكرت اتخاذهم إياها إلهه و لم يذكر قولهم بأنها إلهه بمعنى التسميه،و اتخاذ الإله غير القول بالألوهيه إلا من باب الالتزام، و اتخاذ الإله يصدق بالعباده و الخضوع العبودى قال تعالى: «أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ» :الجاثيه:۲۳ و هذا المعنى مأثور عن أسلاف النصارى مشهود فى أخلافهم.

قال الآلوسى فى روح المعانى،:إن أبا جعفر الإمامى حكى عن بعض النصارى أنه كان فيما مضى قوم يقال لهم:«المريميه»يعتقدون فى مريم أنها إله.

و قال فى تفسير المنار،:أما اتخاذهم المسيح إلها فقد تقدم فى مواضع من تفسير هذه السوره،و أما أمه فعبادتها كانت متفقا عليها فى الكنائس الشرقيه و الغربيه بعد قسطنطين،ثم أنكرت عبادتها فرقه البروتستانت التى حدثت بعد الإسلام بعده قرون (۱).

إن هذه العباده التى توجهها النصارى إلى مريم والده المسيح((ع))منها ما هو صلاه ذات دعاء و ثناء و استغاثه و استشفاع،و منها صيام ينسب إليها و يسمى باسمها،و كل ذلك يقرن بالخضوع و الخشوع لذكرها و لصورها و تماثيلها،و اعتقاد السلطه الغيبيه لها التى يمكنها بها فى اعتقادهم أن تنفع و تضر فى الدنيا و الآخره بنفسها أو بواسطه ابنها، و قد صرحوا بوجوب العباده لها،و لكن لا يعرف عن فرقه من فرقهم إطلاق كلمه «إله»عليها بل يسمونها«والده الإله»و يصرح بعض فرقهم أن ذلك حقيقه لا مجاز.

۱- ۱) كما أن القول برساله المسيح و نفى ألوهيته لا يزال يشيع فى هذه الأيام و هى سنه ۱۹۵۸ م بين نصارى أمريكا،و قد ذكر المحقق ه.ج.فلز فى مجمل التاريخ:أن هذه العباده التى تأتى بها عامه النصارى للمسيح و أمه لا توافق تعليم المسيح لأنه نهى كما فى إنجيل مرقس أن يعبد غير الله الواحد ليراجع ص ۵۲۶ و ص ۵۳۹ من الكتاب المزبور.

و القرآن يقول هنا:إنهم اتخذوها و أمها إلهين،و الاتخاذ غير التسميه فهو يصدق بالعباده و هى واقعه قطعا،و بين فى آيه أخرى أنهم قالوا:إن الله هو المسيح عيسى بن مريم،و ذلك معنى آخر،و قد فسر النبى ص قوله تعالى فى أهل الكتاب:

«اتَّخَذُوا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ » أنهم اتبعوهم فيما يحلون و يحرمون لا أنهم سموهم أربابا.

و أول نص صريح رأيته فى عباده النصارى لمريم عباده حقيقيه ما فى كتاب «السواعى»من كتب الروم الأرثوذكس،و قد اطلعت على هذا الكتاب فى دير يسمى«دير التلميد»و أنا فى أول العهد بمعاهد التعليم،و طوائف الكاثوليك يصرحون بذلك و يفاخرون به.

و قد زين الجزويت فى بيروت العدد التاسع من السنه السابعه لمجلتهم «المشرق» بصورتها و بالنقوش الملونه إذ جعلوه تذكارا لمرور خمسين سنه على إعلان البابا بيوس التاسع:أن مريم البتول حبل بها بلا دنس الخطيه»و أثبتوا فى هذا العدد عباده الكنائس الشرقيه لمريم كالكنائس الغربيه.

و منه قول الأب«لويس شيخو»فى مقاله له فيه عن الكنائس الشرقيه:«أن تعبد الكنيسه الأرمنيه للبتول الطاهره أم الله لأمر مشهور»و قوله«قد امتازت الكنيسه القبطيه بعبادتها للبتوله المغبوطه أم الله»انتهى كلامه.

و نقل أيضا بعض مقاله للأب«إنستاس الكرملى»نشرت فى العدد الرابع عشر من السنه الخامسه من مجله المشرق الكاثوليكيه البيروتيه قال تحت عنوان قدم«التعبد للعذراء»بعد ذكر عباره سفر التكوين فى عداوه الحيه للمرأه و نسلها و تفسير المرأه بالعذراء:«أ لا ـ ترى أنک لا ـ ترى من هذا النص شيئا ينوه بالعذراء تنويها جليا إلى أن جاء ذلك النبى العظيم«إيليا»الحى فأبرز عباده العذراء من حيز الرمز و الإبهام إلى عالم الصراحه و التبيان».

ثم فسر هذه الصراحه و التبيان بما فى سفر الملوك الثالث(بحسب تقسيم الكاثوليك)من أن إيليا حين كان مع غلامه فى رأس الكرمل أمره سبع مرات أن يتطلع نحو البحر فأخبره الغلام بعد تطلعه المره السابعه:أنه رأى سحابه قدر راحه

الرجل طالعه من البحر.

قال صاحب المقاله:فمن ذلک النشئ(أول ما ینشأ من السحاب) (۱)قلت:

إن هو إلاـ صوره مریم علی مـا أحقه المفسـرون بل و صوره الحبل بلا دنس أصـلی،ثم قال:هـذا أصل عباده العـذراء فی الشـرق العزیز،و هو یرتقی إلی المـائه العاشـره قبـل المسـیح،و الفضـل فی ذلـک عائـد إلی هـذا النبی إیلیا العظیم،ثم قال:و لـذلک کان أجـداد الکرملیین أول من آمن أیضـا بالإله یسوع بعـد الرسل و التلامـذه،و أول من أقام للعـذراء معبـدا بعـد انتقالها إلی السـماء بالنفس و الجسد،انتهی. (۲)

قوله تعالی: «قَالَ سُـبْحَانَکَ مَا یَکُونُ لِی أَنْ أَقُولَ مَا لَیْسَ لِی بِحَقٍّ » إلی آخر الآیه هذه الآیه و التی تتلوها جواب المسـیح عیسـی بن مریم(ع)عما سئل عنه و قد أتی(ع) فیه بأدب عجیب:.

فبـدأ بتسبیحه تعـالی لمـا فاجـأه أن سـمع ذکر مـا لاـ یلیق نسـبته إلی ساحه الجلال و العظمه و هو اتخاذ الناس إلهین من دون الله شریکین له سبحانه فمن أدب العبودیه أن یسبح العبد ربه إذا سمع ما لا ینبغی أن یسمع فیه تعالی أو ما یخطر بالبال تصور ذلک، و علیه جری التـأدیب الإلـهی فی کلاـمه کقوله: «وَ قَالُوا اتَّخَـذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَـداً سُـبْحَانَهُ» :الأنبیاء:۲۶ و قـوله: «وَ یَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ» :النحل:۵۷.

ثم عاد إلی نفی ما اسـتفهم عن انتسابه إلیه،و هو أن یکون قـد قال للناس اتخذونی و أمی إلهین من دون الله، و لم ینفه بنفسه بل بنفی سـببه مبـالغه فی التنزیه فلو قـال:«لم أقل ذلک أو لم أفعل»لکان فیه إیماء إلی إمکان وقوعه منه لکنه لم یفعل، لکن إذا نفاه بنفی سببه فقال: «مَا یَکُونُ لِی أَنْ أَقُولَ مَا لَیْسَ لِی بِحَقٍّ » کان ذلک نفیا لما یتوقف علیه ذلک القول،و هو أن یکون له أن یقول ذلـک حقا فنفی هـذا الحق نفی ما یتفرع علیه بنحو أبلغ نظیر ما إذ قال المولی لعبـده:لم فعلت ما لم آمرک أن تفعله؟فإن أجاب العبد بقوله:«لم أفعل»کان نفیا لما هو فی مظنه الوقوع،و إن

۱- ۱) یشیر به إلی السحابه التی شاهدها الغلام ناشئه من البحر.

۲- ۲) و إنمـا نقلنـا مـا نقلنـاه بطوله لأـن فیه مـا یطلع به البـاحث المتأمـل علی نوع منطقهم فی إثبـات العباده لها و یشاهـد بعض مجازفاتهم فی الدین.

قال:«أنا أعجز من ذلک»کان نفیا بنفی السبب و هو القدره،و إنکارا لأصل إمکانه فضلا عن الوقوع.

و قوله: «مٰا یَکُونُ لِی أَنْ أَقُولَ مٰا لَیْسَ لِی بِحَقٍّ » إن کان لفظ «یَکُونُ » ناقصه فاسمها قوله: «أَنْ أَقُولَ » و خبرها قوله: «لِی » و اللام للملک،و المعنی:ما أملک ما لم أملکه و لیس من حقی القول بغیر حق،و إن کانت تامه فلفظ «لِی » متعلق بها و قوله: «أَنْ أَقُولَ ،إلخ»فاعلها،و المعنی:ما یقع لی القول بغیر حق، و الأول من الوجهین أقرب،و علی أی حال یفید الکلام نفی الفعل بنفی سببه.

و قوله(ع): «إِنْ کُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ » نفی آخر للقول المستفهم عنه لا نفیا لنفسه بنفسه بل بنفی لازمه فإن لازم وقوع هذا القول أن یعلم به الله لأنه الذی لا یخفی علیه شیء فی الأرض و لا فی السماء و هو القائم علی کل نفس بما کسبت،المحیط بکل شیء.

و هذا الکلام منه(ع)یتضمن أولا فائده إلقاء القول مع الدلیل من غیر أن یکتفی بالدعوی المجرده؛و ثانیا الإشعار بأن الذی کان یعتبره فی أفعاله و أقواله هو علم الله سبحانه من غیر أن یعبأ بغیره من خلقه علموا أو جهلوا،فلا شأن له معهم.

و بلفظ آخر السؤال إنما یصح طبعا فی ما کان مظنه الجهل فیراد به نفی الجهل و إفاده العلم،إما لنفس السائل إذا کان هو الجاهل بواقع الأمر،أو لغیره إذا کان السائل عالما و أراد أن یعلم غیره بما یعلم هو من واقع الأمر کما یحمل علیه نوع السؤال الواقع فی کلامه تعالی،و قوله(ع)فی الجواب فی مثل المقام إِنْ کُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ » إرجاع للأمر إلی علمه تعالی و إشعار أنه لا یعتبر شیئا فی أفعاله و أقواله غیر علمه تعالی.

ثم أشار بقوله: «تَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِی وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِکَ إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ » لیکون تنزیها لعلمه تعالی عن مخالطه الجهل إیاه و هو و إن کان ثناء أیضا فی نفسه لکنه غیر مقصود لأن المقام لیس بمقام الثناء بل مقام التبری عن انتساب ما نسب إلیه.

فقوله(ع): «تَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِی » توضیح لنفوذ العلم الذی ذکره فی قوله:

«إِنْ کُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ »

و بیان أن علمه تعالی بأعمالنا و هو الملک الحق یومئذ لیس من قبیل علم الملوک منا بأحوال رعیته بارتفاع أخبار المملکه إلیه لیعلم بشیء و یجهل بشیء،و یستحضر حال بعض و یغفل عن حال بعض،بل هو سبحانه لطیف خبیر

بکل شیء و منها نفس عیسی بن مریم بخصوصه.

و مع ذلک لم یستوف حق البیان فی وصف علمه تعالی فإنه سبحانه یعلم کل شیء، لا کعلم أحدنا بحال الآخر و علم الآخر بحاله،بل یعلم ما یعلم بالإحاطه به من غیر أن یحیط به شیء و لا یحیطون به علما فهو تعالی إله غیر محدود و کل من سواه محدود مقدر لا یتعدی طور نفسه المحدود،و لذلک ضم(ع)إلی الجمله جمله أخری فقال: «تَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِی وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِکَ » .

أما قوله: «إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ » ففیه بیان العله لقوله: «تَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِی » «إلخ»،و فیه استیفاء حق البیان من جهه أخری و هو رفع توهم أن حکم العلم فی قوله:

«تَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِی وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِکَ »

مقصور بما بینه و بین ربه لا یطرد فی کل شیء فبین بقوله: «إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ » أن العلم التام بجمیع الغیوب منحصر فیه فما کان عند شیء من الأشیاء و هو غیب عن غیره فهو معلوم لله سبحانه و هو محیط به.

و لازم ذلک أن لا یعلم شیء من الأشیاء بغیبه تعالی و لا بغیب غیره الذی هو تعالی عالم به لأنه مخلوق محدود لا یتعدی طور نفسه فهو علام جمیع الغیوب،و لا یعلم شیء غیره تعالی بشیء من الغیوب لا الکل و لا البعض.

علی أنه لو أحیط من غیبه تعالی بشیء فإن أحاط تعالی به لم یکن هذا المحیط محیطا حقیقه بل محاطا له تعالی ملکه الله بمشیئته أن یحیط بشیء من ملکه من غیر أن یخرج بذلک من ملکه کما قال تعالی: «وَ لاٰ یُحِیطُونَ بِشَیْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ» :البقره:۲۵۵.

و إن لم یحط سبحانه تعالی بما أحاط به کان مضروبا بحد فکان مخلوقا تعالی الله عن ذلک علوا کبیرا.

قوله تعالی: «مٰا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّٰ مٰا أَمَرْتَنِی بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّی وَ رَبَّکُمْ » لما نفی (ع)القول المسئول عنه عن نفسه بنفی سببه أولا نفاه ببیان وظیفته التی لم یتعدها ثانیا فقال: «مٰا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّٰ مٰا أَمَرْتَنِی بِهِ » «إلخ»،و أتی فیه بالحصر بطریق النفی و الإثبات لیدل علی الجواب بنفی ما سئل عنه و هو القول: «اتَّخِذُونِی وَ أُمِّی إِلٰهَیْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ » .

و فسر ما أمره به ربه من القول بقوله: «أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ » ثم وصف الله سبحانه

بقوله: «رَبِّی وَ رَبَّکَمْ » لئلا یبقی أدنی شائبه من الوهم فی أنه عبد رسول یدعو إلی الله ربه و رب جمیع الناس وحده لا شریک له.

و علی هذه الصراحه کان یسلک عیسی بن مریم(ع)فی دعوته ما دعاهم إلی التوحید علی ما یحکی عنه القرآن الشریف،قال تعالی حکایه عنه: «إِنَّ اللّهَ هُوَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِیمٌ» :الزخرف:۶۴ و قال: «وَ إِنَّ اللّهَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِیمٌ» :مریم:۳۶.

قوله تعالی: «وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً ما دُمْتُ فِیهِمْ فَلَمّا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ وَ أَنْتَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ » ثم ذکر(ع)وظیفته الثانیه من جانب الله سبحانه و هو الشهاده علی أعمال أمته کما قال تعالی: «وَ یَوْمَ الْقِیامَهِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً» :النساء:۱۵۹.

یقول(ع)ما کان لی من الوظیفه فیهم إلا الرساله إلیهم و الشهاده علی أعمالهم:

أما الرساله فقد أدیتها علی أصرح ما یمکن،و أما الشهاده فقد کنت علیها ما دمت فیهم،و لم أتعد ما رسمت لی من الوظیفه فأنا براء من أن أکون ألقی إلیهم أن اتخذونی و أمی إلهین من دون الله.

و قوله: «فَلَمّا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ » الرقوب و الرقابه هو الحفظ، و المراد به فی المقام بدلاله السیاق هو الحفظ علی الأعمال،و کأنه أبدل الشهید من الرقیب احترازا عن تکرر اللفظ بالنظر إلی قوله بعد: «وَ أَنْتَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ » ،و لا نکته تستدعی الإتیان بلفظ«الشهید»ثانیا بالخصوص.

و اللفظ أعنی قوله: «کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ » یدل علی الحصر،و لازمه أنه تعالی کان شهیدا ما دام عیسی(ع)شهیدا و شهیدا بعده؛فشهادته(ع)کانت وساطه فی الشهاده لا شهاده مستقله علی حد سائر التدبیرات الإلهیه التی وکل علیها بعض عباده ثم هو علی کل شیء وکیل کالرزق و الإحیاء و الإماته و الحفظ و الدعوه و الهدایه و غیرها،و الآیات الشریفه فی ذلک کثیره لا حاجه إلی إیرادها.

و لذلک عقب(ع)قوله: «فَلَمّا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ » بقوله:

«وَ أَنْتَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ »

لیدل بذلک علی أن الشهاده علی أعمال أمته التی کان

يتصداها ما دام فيهم كانت حصه يسيره من الشهاده العامه المطلقه التى هى شهاده الله سبحانه على شىء فإنه تعالى شهيد على أعيان الأشياء و على أفعالها التى منها أعمال عباده، التى منها أعمال أمه عيسى ما دام فيهم و بعد توفيه،و هو تعالى شهيد مع الشهداء و شهيد بدونهم.

و من هنا يظهر أن الحصر صادق فى حقه تعالى مع قيام الشهداء على شهادتهم فإنه((ع))حصر الشهاده بعد توفيه فى الله سبحانه مع أن لله بعده شهداء من عباده و رسله و هو((ع))يعلم ذلك.

و من الدليل على ذلك بشارته(ع)بمجيء النبى ص-على ما يحكيه القرآن- بقوله: «يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ» :الصف:۶ و قد نص القرآن على كون النبى ص من الشهداء قال تعالى: «وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤُلاَءِ شَهِيداً» :النساء:۴۱.

على أن الله سبحانه حكى عنه هذا الحصر: «فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ » و لم يرده بالإبطال فالله سبحانه هو الشهيد لا غير مع وجود كل شهيد أى إن حقيقه الشهاده هى لله سبحانه كما أن حقيقه كل كمال و خير هو لله سبحانه،و أن ما يملكه غيره من كمال أو خير أو حسن فإنما هو بتمليكه تعالى من غير أن يستلزم هذا التمليك انعزاله تعالى عن الملك و لا زوال ملكه و بطلانه،و عليك بالتدبر فى أطراف ما ذكرناه.

فبان بما أورده من بيان حاله المحكى عنه فى الآيتين أنه برىء مما قاله الناس فى حقه و أن لا عهده عليه فيما فعلوه،و لذلك ختم((ع))كلامه بقوله: «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ » إلى آخر الآيه.

قوله تعالى: «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » لما اتضح بما أقام((ع))من الحجه أن لم يكن له من الوظيفه بالنسبه إلى الناس إلا أداء الرساله و القيام بأمر الشهاده،و أنه لم يشتغل فيهم إلا بذلك و لم يتعده إلى ما ليس له بحق فهو غير مسئول عما تفوهوا به من كلمه الكفر،بان أنه((ع))بمعزل عن الحكم الإلهى المتعلق بهم فيما بينهم و بين ربهم،و لذلك استأنف الكلام ثانيا فقال من غير

وصل و تفريع: «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ ،إلخ».

فالآيه كالصالحه لأن يوضع موضع البيان السابق،و مفادها أنه لا عهده على فيما وقعوا فيه من الشرك الشنيع،و لم أداخل أمرهم فى شیء حتى أشاركهم فيما بينك و بينهم من الحكم عليهم بما شئت فهم و حكمك فى حقهم بما أردت،و هم و صنعك فيهم بما صنعت، إن تعذبهم بما حكمت فيمن أشرك بك بدخول النار فإنهم عبادك،و إليك تدبير أمرهم، و لك أن تسخط عليهم به لأنك المولى الحق و إلى المولى أمر عباده،و أن تغفر لهم بإمحاء أثر هذا الظلم العظيم فإنك أنت العزيز الحكيم لك حق العزه و الحكمه،و للعزيز(و هو الذى له من الجده و القدره ما ليس لغيره)و لا سيما إذا كان حكيما(لا يقدم على أمر إلا إذا كان مما ينبغى أن يقدم عليه)أن يغفر الظلم العظيم فإن العزه و الحكمه إذا اعتنقتا فى فاعل لم تدعا قدره تقوم عليه و لا مغمضه فى ما قضى به من أمر.

و بما تقدم من البيان ظهر أولا:أن قوله: «فَإِنَّهُمْ عِبٰادُكَ » بمنزله أن يقال:

«فإنك مولاهم الحق»على ما هو دأب القرآن من ذكر أسماء الله بعد ذكر أفعاله كما فى آخر الآيه.

و ثانيا:أن قوله: «فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » ليس مسوقا للحصر بل الإتيان بضمير الفصل و إدخال اللام فى الخبر للتأكيد،و يئول معناه إلى أن عزتك و حكمتك مما لا يداخله ريب فلا مجال للاعتراض عليك إن غفرت لهم.

و ثالثا:أن المقام(مقام المشافهه بين عيسى بن مريم(ع)و ربه)لما كان مقام ظهور العظمه الإلهيه التى لا يقوم لها شیء كان مقتضاه أن يراعى فيه جانب ذله العبوديه للغايه بالتحرز عن الدلال و الاسترسال و التجنب عن مداخله فى الأمر بدعاء أو سؤال، و لذلك قال((ع)): «وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » و لم يقل«فإنك غفور رحيم»لأن سطوع آيه العظمه و السطوه الإلهيه القاهره الغالبه على كل شیء لا يدع للعبد إلا أن يلتجئ إليه بما له من ذله العبوديه و مسكنه الرقيه و المملوكيه المطلقه،و الاسترسال عند ذلك ذنب عظيم.

و أما قول إبراهيم((ع))لربه: «فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصٰانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ :إبراهيم:٣۶ فإنه من مقام الدعاء و للعبد أن يثير فيه ناشئه الرحمه الإلهيه

بما استطاع.

قوله تعالى: «قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ » تقرير لصدق عيسى بن مريم((ع))على طريق التكنيه فإنه لم يصرح بشخصه و إنما المقام هو الذى يفيد ذلك.

و المراد بهذا الصدق من الصادقين صدقهم فى الدنيا فإنه تعالى يعقب هذه الجمله بقوله: «لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ،إلخ»و من البين أنه بيان لجزاء صدقهم عند الله سبحانه فهو النفع الذى يعود إليهم من جهه الصدق، و الأعمال و الأحوال الأخرويه-و منها صدق أهل الآخره-لا يترتب عليها أثر النفع بمعنى الجزاء و بلفظ آخر:الأعمال و الأحوال الأخرويه لا يترتب عليها جزاء كما يترتب على الأعمال و الأحوال الدنيويه؛إذ لا تكليف فى الآخره،و الجزاء من فروع التكليف،و إنما الآخره دار حساب و جزاء كما أن الدنيا دار عمل و تكليف،قال تعالى: «يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ»:

» إبراهيم:۴۱ و قال: «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» :الجاثيه:۲۸ و قال تعالى: «إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ» :المؤمن:۳۹.

و الذى ذكره عيسى((ع))من حاله فى الدنيا مشتمل على قول و فعل و قد قرره الله على الصدق فالصدق الذى ذكر فى الآيه يشمل الصدق فى الفعل كما يشمل الصدق فى القول؛فالصادقون فى الدنيا فى قولهم و فعلهم ينتفعون يوم القيامه بصدقهم،لهم الجنات الموعوده و هم الراضون المرضيون الفائزون بعظيم الفوز.

على أن الصدق فى القول يستلزم الصدق فى الفعل-بمعنى الصراحه و تنزه العمل عن سمه النفاق-و ينتهى به إلى الصلاح،و قد روى أن رجلا من أهل البدو استوصى النبى ص فوصاه أن لا يكذب ثم ذكر الرجل أن رعايه ما وصى به كفه عن عامه المعاصى إذ ما من معصيه عرضت إلا ذكر أنه لو اقترحها ثم سئل عنها وجب عليه أن يعترف بها على نفسه و يخبر بها الناس فلم يقترفها مخافه ذلك.

قوله تعالى: «لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » رضى الله عنهم بما قدموا إليه من الصدق،و رضوا عن الله بما آتاهم من الثواب.

و قد علق رضاه بهم أنفسهم لا بأعمالهم كما فى قوله تعالى: «وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلاً»:

طه:۱۰۹ و قوله: «وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ» :الزمر:۷ و بين القسمين من الرضى فرق فإن رضاك عن شىء هو أن لا تدفعه بكراهه و من الممكن أن يأتى عدوك بفعل ترضاه و أنت تسخط على نفسه،و أن يأتى صديقك الذى تحبه بفعل لا ترضاه.

فقوله: «رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ » يدل على أن الله يرضى عن أنفسهم،و من المعلوم أن الرضى لا يتعلق بأنفسهم ما لم يحصل غرضه جل ذكره من خلقهم،و قد قال تعالى:

«وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ» :الذاريات:۵۶،فالعبوديه هو الغرض الإلهى من خلق الإنسان فالله سبحانه إنما يرضى عن نفس عبده إذا كان مثالا للعبوديه أى أن يكون نفسه نفس عبد لله الذى هو رب كل شىء فلا يرى نفسه و لا شيئا غيره إلا مملوكا لله خاضعا لربوبيته لا يئوب إلا إلى ربه و لا يرجع إلا إليه كما قال تعالى فى سليمان و أيوب: «نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ» :ص:۴۴ و هذا هو الرضى عنه.

و هذا من مقامات العبوديه،و لازمه طهاره النفس عن الكفر بمراتبه و عن الاتصاف بالفسق كما قال تعالى: «وَ لاٰ يَرْضىٰ لِعِبٰادِهِ الْكُفْرَ» :الزمر:۷ و قال تعالى: «فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَرْضىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفٰاسِقِينَ» :التوبه:۹۶.

و من آثار هذا المقام أن العبوديه إذا تمكنت من نفس العبد و رأى ما يقع عليه بصره و تبلغه بصيرته مملوكا لله خاضعا لأمره فإنه يرضى عن الله فإنه يجد أن كل ما آتاه الله فإنما آتاه من فضله من غير أن يتحتم عليه فهو جود و نعمه،و أن ما منعه فإنما منعه عن حكمه.

على أن الله سبحانه يذكر عنهم و هم فى الجنه بقوله: «لَهُمْ فِيهٰا مٰا يَشٰاؤُنَ » :النحل:۳۱،الفرقان:۱۶،و من المعلوم أن الإنسان إذا وجد كل ما يشاؤه لم يكن له إلا أن يرضى.

و هذا غايه السعاده الإنسانيه بما هو عبد،و لذلك ختم الكلام بقوله: «ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

قوله تعالى: «لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ، -الملك -بالكسر-سلطه خاصه على رقبه الأشياء و أثره نفوذ الإراده فيما يقدر عليه المالك من التصرف فيها،و الملك -بالضم-سلطه خاصه على النظام الموجود بين الأشياء

و أثره نفوذ الإراده فیما یقدر علیه،و بعباره ساذجه:الملک-بالکسر-متعلق بالفرد، و الملک-بالضم-متعلق بالجماعه.

و حیث کان الملک فی نفوذ الإراده بالفعل مقیدا أو متقوما بالقدره فإذا تمت القدره و أطلقت کان الملک ملکا مطلقا غیر مقید بشیء دون شیء و حال دون حال، و لبیان هذه النکته عقب تعالی قوله: «لِلّٰهِ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا فِیهِنَّ » بقوله:

«وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ »

.

و اختتمت السوره بهذه الآیه الداله علی الملک المطلق،و المناسبه ظاهره،فإن غرض السوره هو حث العباد و ترغیبهم علی الوفاء بالعهود و المواثیق المأخوذه علیهم من جانب ربهم،و هو الملک علی الإطلاق فلا یبقی لهم إلا أنهم عباد مملوکون علی الإطلاق لیس لهم فیما یأمرهم به و ینهاهم عنه إلا السمع و الطاعه،و لا فیما یأخذ منهم من العهود و المواثیق إلا الوفاء بها من غیر نقض.

(بحث روائی)

-فی تفسیر العیاشی،عن ثعلبه بن میمون عن بعض أصحابنا عن أبی جعفر(ع):

فی قول الله تبارک و تعالی لعیسی: «أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اتَّخِذُونِی وَ أُمِّی إِلٰهَیْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ » -قال:لم یقله و سیقوله،إن الله إذا علم أن شیئا کائن أخبر عنه خبر ما قد کان.

أقول: و فیه،أیضا عن سلیمان بن خالد عن أبی عبد الله(ع):مثله ،و حاصله أن الإتیان بصیغه الماضی فی الأمر المستقبل للعلم بتحقق وقوعه،و هو شائع فی اللغه.

-و فیه،عن جابر الجعفی عن أبی جعفر(ع): فی تفسیر هذه الآیه: «تَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِی وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِکَ-إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ » ،قال:إن اسم الله الأکبر ثلاثه و سبعون حرفا-فاحتجب الرب تبارک و تعالی منها بحرف-فمن ثم لا یعلم أحد ما فی نفسه عز و جل.

أعطی آدم اثنین و سبعین حرفا فتوارثها الأنبیاء-حتی صار إلی عیسی(ع)فذلک قول عیسی: «تَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِی » -یعنی اثنین و سبعین حرفا من الاسم الأکبر-یقول:أنت علمتنیها فأنت تعلمها: «وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِکَ » -یقول:لأنک احتجبت بذلک الحرف-فلا یعلم أحد ما فی نفسک.

أقول:سیجیء البحث المبسوط عن أسماء الله الحسنی و اسمه الأعظم الأکبر فی تفسیر قوله تعالی: «وَ لِلّٰهِ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنیٰ فَادْعُوهُ بِهٰا» » الآیه:الأعراف:۱۸۰ و یتبین هناک أن الاسم الأکبر أو الاسم الأعظم لیس من نوع اللفظ حتی یتألف من حروف الهجاء و إنما المراد بالاسم فی أمثال هذه الموارد هو المحکی عنه بالاسم اللفظی و هو الذات مأخوذا بصفه من صفاته و وجه من وجوهه و یعود الاسم اللفظی حینئذ اسم الاسم علی ما سیتضح بعد.

و علی هذا فقوله((ع)):«إن الاسم الأکبر مؤلف من ثلاثه و سبعین حرفا» و نظیره ما ورد فی روایات کثیره فی هذا الباب من أن الاسم الأعظم مؤلف من کذا حرفا،و أنها متفرقه مبثوثه فی کذا سوره أو أنه فی کذا آیه کل ذلک بیانات مبنیه علی الرمز،و أمثال مضروبه لتفهیم ما یسع تفهیمه من الحقائق فما کل حقیقه میسورا بیانها بالصراحه من غیر کنایه؛و بالعین دون المثل.

و الذی یتضح به معنی الحدیث بعض الاتضاح هو أن یقال:إنه لا شک أن أسماء الله تعالی الحسنی وسائط لظهور الکون بأعیانه و حدوث حوادثه التی لا تحصی،فإنا لا نشک فی أن الله سبحانه خلق خلقه لأنه خالق جواد مبدئ مثلا لا لأنه منتقم شدید البطش،و أنه إنما یرزق من یرزق لأنه رازق معط مثلا لا لأنه قابض مانع، و أنه إنما یفیض الحیاه للأحیاء لأنه الحی المحیی لا لأنه ممیت معید،و الآیات القرآنیه أصدق شاهد علی هذه الحقیقه،فإنا نری المعارف المبینه فی متون الآیات معلله بالأسماء المناسبه لمعانیها فی ذیلها فربما اختتمت الآیه لبیان ما تضمه من المعنی باسم،و ربما اختتمت باسمین یفیدان بمجموعهما المعنی المذکور فیها.

و من هنا یظهر أن الواحد منا لو رزق علم الأسماء و علم الروابط التی بینها و بین الأشیاء و ما تقضیه أسماؤه تعالی مفرده و مؤلفه علم النظام الکونی بما جری و بما یجری علیه عن قوانین کلیه منطبقه علی جزئیاتها واحدا بعد واحد.

و قد بین القرآن الشریف علی ما یفهم من ظواهره قوانین عامه کثیره فی المبدإ و المعاد و ما رتبه الله تعالی من أمر السعاده و الشقاوه ثم خاطب النبی ص بقوله:

«وَ نَزَّلْنٰا عَلَیْکَ الْکِتٰابَ تِبْیٰاناً لِکُلِّ شَیْءٍ » .

لكنها جميعا قوانين كليه ضروريه إلا أنها ضروريه لا فى أنفسها و باقتضاء من ذواتها بل بما أفاده الله سبحانه عليها من الضروره و اللزوم،و إذا كـانت هـذه الحكومه العقليه القطعيه من جهته تعـالى و بـأمره و إرادته فمن البين أن فعله تعـالى لا يجبره تعالى على مؤدى نفسه،و لاـ يغلبه فى ذاته فهو سـبحانه القـاهر الغـالب فكيف يغلبه مـا ينتهى إليه تعـالى من كل جهه و يفتقر إليه فى عينه و أثره،فافهم ذلك.

فمن المحال أن يكون العقل الـذى يحكم بما يحكم بإفاضه الله ذلك عليه أو تكون الحقائق التى إنما وجدت أحكامها و آثارها به تعـالى،حـاكمه عليه تعـالى مقتضـيه فيه بـالحكم و الاقتضاء اللـذين هو المبقى لهما القاهر الغالب عليهما،و بعباره أخرى:ما فى الأشـياء من اقتضاء و حكم إنما هو أثر التمليك الذى ملكه الله إياها،و لا معنى لأن يملك شىء بالملك الذى ملكه الله بعينه منه تعالى شيئا فهو تعالى مالك على الإطلاق غير مملوك بوجه من الوجوه أصلا.

فلو أثـاب الله المجرم أو عـاقب المثيب أو فعـل أى فعـل أراد لم يكن عليه ضـير، و لاـ منعه مـانع من عقل أو خارج إلا أنه تعالى وعدنا و أوعدنا بالسـعاده و الشقاء و حسن الجزاء و سوء الجزاء،و أخبرنا أنه لا يخلف الميعاد و أخبرنا من طريق الوحى أو العقل بـأمور ثم ذكر أنه لا يقول إلا الحق فسكنت نفوسـنا به و اطمأنت قلوبنا إليه بما لا طريق للريب إليه،قال تعالى: «إِنَّ اللّهَ لاٰ يُخْلِفُ الْمِيعٰادَ» :آل عمران:۹،الرعد:۳۱ و قال تعالى: «وَ الْحَقَّ أَقُولُ» :_ص:۸۴ و فى معناهما الضروره العقليه فى أحكامها.

و هـذا الـذى بينه هو مقتضـى أسـمائه تعالى فيما علمنا بتعليمه منها لكن من وراء ذلك أنه تعالى هو المالك على الإطلاق له أن يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد،قال تعالى: «لاٰ يُسْئَلُ عَمّٰا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ» :الأنبياء:۲۳،و هذا المعنى بعينه اسم من أسمائه تعالى مجهول الكنه لاـ طريق إلى تعلق العلم به لأحـد من خلقه فـإن كـل مـا نعلمه من أسـمائه فهو ممـا يحكيه مفهوم من المفـاهيم ثم نشـخص بنسـبته آثـاره فى الوجود و أمـا الآثـار التى لاـ طريق إلى تشخيصـها فى الوجود فهى لاـ محـاله آثـار لاسم لا طريق إلى الحصول على معناها و إن شئت فقل:إنه اسم لا يصطاد بمفهوم،و إنما يشير إليه صفه ملكه المطلق نوعا من الإشاره.

فقد تبين أن من أسمائه تعالى ما لا سبيل إليه لأحد من خلقه و هو الذى احتجب تعالى به فافهم ذلك.

(كلام فى معنى الأدب)

اشاره

نبحث فيه عن الأدب الذى أدب به أنبياءه و رسله(ع)فى عده فصول:

[معنى الأدب]

١-الأدب على ما يتحصل من معناه-هو الهيئه الحسنه التى ينبغى أن يقع عليه الفعل المشروع إما فى الدين أو عند العقلاء فى مجتمعهم كآداب الدعاء و آداب ملاقاه الأصدقاء و إن شئت قلت:ظرافه الفعل.

و لا يكون إلا فى الأمور المشروعه غير الممنوعه فلا أدب فى الظلم و الخيانه و الكذب و لا أدب فى الأعمال الشنيعه و القبيحه،و لا يتحقق أيضا إلا فى الأفعال الاختياريه التى لها هيئات مختلفه فوق الواحده حتى يكون بعضها متلبسا بالأدب دون بعض كأدب الأكل مثلا-فى الإسلام،و هو أن يبدأ فيه باسم الله و يختم بحمد الله و يؤكل دون الشبع إلى غير ذلك،و أدب الجلوس فى الصلاه و هو التورك على طمأنينه و وضع الكفين على الوركين فوق الركبتين و النظر إلى حجره و نحو ذلك.

و إذ كان الأدب هو الهيئه الحسنه فى الأفعال الاختياريه و الحسن و إن كان بحسب أصل معناه و هو الموافقه لغرض الحياه مما لا-يختلف فيه أنظار المجتمعات لكنه بحسب مصاديقه مما يقع فيه أشد الخلاف،و بحسب اختلاف الأقوام و الأمم و الأديان و المذاهب و حتى المجتمعات الصغيره المنزليه و غيرها فى تشخيص الحسن و القبح يقع الاختلاف بينهم فى آداب الأفعال.

فربما كان عند قوم من الآداب ما لا يعرفه آخرون،و ربما كان بعض الآداب المستحسنه عند قوم شنيعه مذمومه عند آخرين كتحيه أول اللقاء فإنه فى الإسلام بالتسليم تحيه من عند الله مباركه طيبه،و عند قوم برفع القلانس،و عند بعض برفع اليد حيال الرأس،و عند آخرين بسجده أو ركوع أو انحناء بطأطأه الرأس،و كما أن

فی آداب ملاقاه النساء عند الغربیین أمورا یستشنعها الإسلام و یذمها،إلی غیر ذلک.

غیر أن هـذه الاختلافات جمیعا إنما نشأت فی مرحله تشـخیص المصداق و أما أصل معنی الأدب،و هو الهیأه الحسـنه التی ینبغی أن یکون علیها الفعل فهو مما أطبق علیه العقلاء من الإنسان و أطبقوا أیضا علی تحسینه فلا یختلف فیه اثنان.

[اختلاف الآداب]

۲-لمـا کـان الحسـن مـن مقومـات معنی الأدب علی مـا ذکر فی الفصـل السـابق، و کـان مختلفـا بحسب المقاصـد الخـاصه فی المجتمعـات المختلفـه أنتـج ذلـک ضـروره اختلاف الآداب الاجتمـاعیه الإنسـانیه فالأدب فی کـل مجتمـع کـالمرآه یحـاکی خصوصـیات أخلاق ذلک المجتمع العامه التی رتبها فیهم مقاصدهم فی الحیاه،و رکزتها فی نفوسـهم عوامل اجتماعهم و عوامل مختلفه أخر طبیعیه أو اتفاقیه.

و لیست الآداب هی الأخلاق لما أن الأخلاق هی الملکات الراسـخه الروحیه التی تتلبس بها النفوس،و لکن الآداب هیئات حسنه مختلفه تتلبس بها الأعمال الصادره عن الإنسان عن صفات مختلفه نفسیه،و بین الأمرین بون بعید.

فالآداب من منشـئات الأخلاق و الأخلاق من مقتضـیات الاجتمـاع بخصوصه بحسب غایته الخاصه فالغایه المطلوبه للإنسان فی حیاته هی التی تشخص أدبه فی أعماله،و ترسم لنفسه خطأ لا یتعداه إذا أتی بعمل فی مسیر حیاته و التقرب من غایته.

[معنی الأدب الإلهی]

۳-و إذ کـان الأدب یتبع فی خصوصـیته الغایه المطلوبه فی الحیاه فالأدب الإلهی الـذی أدب الله سـبحانه به أنبیاءه و رسـله(ع)هو الهیئه الحسـنه فی الأعمـال الـدینیه الـتی تحـاکی غرض الـدین و غـایته،و هو العبودیه علی اختلاف الأدیـان الحقه بحسب کثره موادها و قلتها و بحسب مراتبها فی الکمال و الرقی.

و الإسـلام لمـا کـان من شأنه التعرض لجمیع جهات الحیاه الإنسانیه بحیث لا یشـذ عنه شـیء من شـئونها یسـیر أو خطیر دقیق أو جلیل فلذلک وسع الحیاه أدبا،و رسم فی کل عمل هیئه حسنه تحاکی غایته.

و لیس له غایه عامه إلا توحید الله سبحانه فی مرحلتی الاعتقاد و العمل جمیعا أی

أن يعتقد الإنسان أن له إلها هو الذی منه بدئ کل شیء و إلیه یعود کل شیء؛له الأسماء الحسنی و الأمثال العلیا،ثم یجری فی الحیاه و یعیش بأعمال تحاکی بنفسها عبودیته و عبودیه کل شیء عنده لله الحق عز اسمه،و بذلک یسری التوحید فی باطنه و ظاهره،و تظهر العبودیه المحضه من أقواله و أفعاله و سائر جهات وجوده ظهورا لا ستر علیه و لا حجاب یغطیه.

فالأدب الإلهی-أو أدب النبوه-هی هیئه التوحید فی الفعل.

[الأدب إنما ینتج مع العمل]

۴-من المعلوم بالقیاس و یؤیده التجربه القطعیه أن العلوم العملیه-و هی التی تتعلم لیعمل بها-لا تنجح کل النجاح و لا تؤثر أثرها الجمیل دون أن تلقی إلی المتعلم فی ضمن العمل،لأن الکلیات العلمیه ما لم تنطبق علی جزئیاتها و مصادیقها تتثاقل النفس فی تصدیقها و الإیمان بصحتها لاشتغال نفوسنا طول الحیاه بالجزئیات الحسیه و کلالها بحسب الطبع الثانوی من مشاهده الکلیات العقلیه الخارجه عن الحس فالذی صدق حسن الشجاعه فی نفسها بحسب النظر الخالی عن العمل ثم صادف موقفا من المواقف الهائله التی تطیر فیها القلوب أدی به ذلک إلی النزاع بین عقله الحاکم بحسن الشجاعه و وهمه الجاذب إلی لذه الاحتراز من تعرض الهلکه الجسمانیه و زوال الحیاه المادیه الناعمه فلا تزال النفس تتذبذب بین هذا و ذاک،و تتحیر فی تأیید الواحد من الطرفین المتخاصمین، و القوه فی جانب الوهم لأن الحس معه.

فمن الواجب عند التعلیم أن تتلقی المتعلم الحقائق العلمیه مشفوعه بالعمل حتی یتدرب بالعمل و یتمرن علیه لتزول بذلک الاعتقادات المخالفه الکائنه فی زوایا نفسه و یرسخ التصدیق بما تعلمه فی النفس،لأن الوقوع أحسن شاهد علی الإمکان.

و لذلک نری أن العمل الذی لم تعهد النفس وقوعه فی الخارج یصعب انقیادها له فإذا وقع لأول مره بدا کأنه انقلب من امتناع إلی إمکان و عظم أمر وقوعه و أورث فی النفس قلقا و اضطرابا،ثم إذا وقع ثانیا و ثالثا هان أمره و انکسر سورته و التحق بالعادیات التی لا یعبأ بأمرها،و إن الخیر عاده کما أن الشر عاده.

و رعایه هذا الأسلوب فی التعلیمات الدینیه و خاصه فی التعلیم الدینی الإسلامی من أوضح الأمور فلم یأخذ شارع الدین فی تعلیم مؤمنیه بالکلیات العقلیه و القوانین العامه

قط بل بدأ بالعمل و شفعه بالقول و البيان اللفظى فإذا استكمل أحدهم تعلم معارف الدين و شرائعه استكمله و هو مجهز بالعمل الصالح مزود بزاد التقوى.

كما أن من الواجب أن يكون المعلم المربى عاملا بعلمه؛فلا تأثير فى العلم إذا لم يقرن بالعمل لأن للفعل دلاله كما أن للقول دلاله فالفعل المخالف للقول يدل على ثبوت هيئه مخالفه فى النفس يكذب القول فيدل على أن القول مكيده و نوع حيله يحتال بها قائله لغرور الناس و اصطيادهم.

و لذلك نرى الناس لا تلين قلوبهم و لا تنقاد نفوسهم للعظه و النصيحه إذا وجدوا الواعظ به أو الناصح بإبلاغه غير متلبس بالعمل متجافيا عن الصبر و الثبات فى طريقه،و ربما قالوا:«لو كان ما يقوله حقا لعمل به»إلا أنهم ربما اشتبه عليهم الأمر فى استنتاج منه فإن النتيجه أن القول ليس بحق عند القائل إذ لو كان حقا عنده لعمل به،و ليس ينتج أن القول ليس بحق مطلقا كما ربما يستنتجونه.

فمن شرائط التربيه الصالحه أن يكون المعلم المربى نفسه متصفا بما يصفه للمتعلم متلبسا بما يريد أن يلبسه،فمن المحال العادى أن يربى المربى الجبان شجاعا باسلا،أو يتخرج عالم حر فى آرائه و أنظاره من مدرسه التعصب و اللجاج و هكذا.

قال تعالى: «أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاٰ يَهِدِّي إِلاّٰ أَنْ يُهْدىٰ فَمٰا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» :يونس:۳۵ و قال: «أَ تَأْمُرُونَ النّٰاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» :البقره:۴۴ و قال حكايه عن قول شعيب لقومه: «وَ مٰا أُرِيدُ أَنْ أُخٰالِفَكُمْ إِلىٰ مٰا أَنْهٰاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاٰحَ مَا اسْتَطَعْتُ» :هود:۸۸ إلى غير ذلك من الآيات.

فلذلك كله كان من الواجب أن يكون المعلم المربى ذا إيمان بمواد تعليمه و تربيته.

على أن الإنسان الخالى عن الإيمان بما يقوله حتى المنافق المتستر بالأعمال الصالحه المتظاهر بالإيمان الصريح الخالص لا يتربى بيده إلا من يمثله فى نفسه الخبيثه فإن اللسان و إن أمكن إلقاء المغايره بينه و بين الجنان بالتكلم بما لا ترضى به النفس و لا يوافقه السر إلا أن الكلام من جهه أخرى فعل و الفعل من آثار النفس و رشحاتها،و كيف يمكن مخالفه الفعل لطبيعه فاعله؟.

فالکلام من غیر جهه الدلاله اللفظیه الوضعیه حامل لطبیعه نفس المتکلم من إیمان أو کفر أو غیر ذلک،و واضعها و موصلها إلی نفس المتعلم البسیطه الساذجه فلا یمیز جهه صلاحه-و هو جهه دلالته الوضعیه-من جهه فساده-و هو سائر جهاته-إلا من کان علی بصیره من الأمر،قال تعالی فی وصف المنافقین لنبیه(ص): «وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِی لَحْنِ الْقَوْلِ» :سوره محمد:۳۰ فالتربیه المستعقبه للأثر الصالح هو ما کان المعلم المربی فیها ذا إیمان بما یلقیه إلی تلامذته مشفوعا بالعمل الصالح الموافق لعلمه،و أما غیر المؤمن بما یقوله أو غیر العامل علی طبق علمه فلا یرجی منه خیر.

و لهذه الحقیقه مصادیق کثیره و أمثله غیر محصاه فی سلوکنا معاشر الشرقیین و الإسلامیین خاصه فی التعلیم و التربیه فی معاهدنا الرسمیه و غیر الرسمیه فلا یکاد تدبیر ینفع و لا سعی ینجح.

[أدب النبوه العام إجمالا]

۵-و إلی هذا الباب یرجع ما نری أن کلامه تعالی یشتمل علی حکایه فصول من الأدب الإلهی المتجلی من أعمال الأنبیاء و الرسل(ع)مما یرجع إلی الله سبحانه من أقسام عباداتهم و أدعیتهم و أسئلتهم أو یرجع إلی الناس فی معاشراتهم و مخاطباتهم فإن إیراد الأمثله فی التعلیم نوع من التعلیم العملی بإشهاد العمل.

قال الله تعالی بعد ذکر قصه إبراهیم فی التوحید مع قومه: «وَ تِلْکَ حُجَّتُنا آتَیْناها إِبْراهِیمَ عَلی قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّکَ حَکِیمٌ عَلِیمٌ، وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ کُلاًّ هَدَیْنا وَ نُوحاً هَدَیْنا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَیْمانَ وَ أَیُّوبَ وَ یُوسُفَ وَ مُوسی وَ هارُونَ وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ، وَ زَکَرِیّا وَ یَحْیی وَ عِیسی وَ إِلْیاسَ کُلٌّ مِنَ الصّالِحِینَ، وَ إِسْماعِیلَ وَ الْیَسَعَ وَ یُونُسَ وَ لُوطاً وَ کلاًّ فَضَّلْنا عَلَی الْعالَمِینَ، وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّیّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَیْناهُمْ وَ هَدَیْناهُمْ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ، ذلِکَ هُدَی اللّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ لَوْ أَشْرَکُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما کانُوا یَعْمَلُونَ، أُولئِکَ الَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ وَ الْحُکْمَ وَ النُّبُوَّهَ فَإِنْ یَکْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَکَّلْنا بِها قَوْماً لَیْسُوا بِها بِکافِرِینَ، أُولئِکَ الَّذِینَ هَدَی اللّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ» :الأنعام:۹۰، یذکر تعالی أنبیاءه الکرام(ع)ذکرا جامعا ثم یذکر أنه أکرمهم بالهدایه الإلهیه و هی الهدایه إلی التوحید فحسب و الدلیل علیه قوله: «وَ لَوْ أَشْرَکُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ » ،فلم یذکر منافیا لما حباهم به من الهدایه إلا الشرک فلم یهدهم إلا إلی التوحید.

غير أن التوحيد حكمه سار إلى أعمالهم متمكن فيها و الدليل عليه قوله: «لَحَبِطَ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ » فلو لا أن الشرک جار فی الأعمال متسرب فيها لم يستوجب حبطها فالتوحيد المنافی له كذلک.

و معنی سرايه التوحيد فی الأعمال كون صورها تمثل التوحيد و تحاكيه محاكاه المرآه لمرئيها بحيث لو فرض أن التوحيد تصور لكان هو تلک الأعمال بعينها،و لو أن تلک الأعمال تجردت اعتقادا محضا لكانت هی هو بعينه.

و هذا المعنی كثير المصداق فی الصفات الروحيه فإنک تری أعمال المتكبر يمثل ما فی نفسه من صفه الكبر و الخيلاء،و كذلک البائس المسكين يحاكی جميع حركاته و سكناته ما فی سره من الذله و الاستكانه و هكذا.

ثم أدب تعالی نبيه ص فأمره أن يقتدی بهدايه من سبقه من الأنبياء(ع) لا بهم،و الاقتداء إنما يكون فی العمل دون الاعتقاد فإنه غير اختياری بحسب نفسه أی أن يختار أعمالهم الصالحه المبنيه علی التوحيد الصادره عنهم عن تأديب عملی إلهی.

و نعنی بهذا التأديب العملی ما يشير إليه قوله تعالی: «وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا وَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرٰاتِ وَ إِقٰامَ الصَّلاٰةِ وَ إِيتٰاءَ الزَّكٰاةِ وَ كٰانُوا لَنٰا عٰابِدِينَ» :الأنبياء:٣٧ فإن إضافه المصدر فی قوله «فِعْلَ الْخَيْرٰاتِ » «إلخ»،تدل علی أن المراد به الفعل الصادر منهم من خيرات فعلوها و صلاه أقاموها و زكاه آتوها دون مجرد الفعل المفروض فهذا الوحی المتعلق بالأفعال فی مرحله صدورها منهم وحی تسديد و تأديب،و ليس هو وحی النبوه و التشريع،و لو كان المراد به وحی النبوه لقيل:«و أوحينا إليهم أن افعلوا الخيرات و أقيموا الصلاه و آتوا الزكاه»كما فی قوله تعالی: «ثُمَّ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ» :النحل:١٢٣ و قوله: «وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ مُوسىٰ وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءٰا لِقَوْمِكُمٰا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلاٰةَ» :يونس:٨٧ إلی غير ذلک من الآيات،و معنی وحی التسديد أن يخص الله عبدا من عباده بروح قدسی يسدده فی أعمال الخير و التحرز عن السيئه كما يسددنا الروح الإنسانی فی التفكر فی الخير و الشر،و الروح الحيوانی فی اختيار ما نشتهيه من الجذب و الدفع بالإراده،و سيجیء الكلام المبسوط فی ذلک إن شاء الله.

و بالجمله فقوله: «فَبِهُدٰاهُمُ اقْتَدِهْ » تأديب إلهی إجمالی له(ص)بأدب التوحيد

المنبسط على أعمال الأنبياء(ع)المنزهه من الشرک.

ثم قال تعالى-بعد ما ذکر عده من أنبيائه(ع)-فى سوره مريم «أُولئِکَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّهِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّهِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُکِيًّا، فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاهَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا، إِلاَّ مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِکَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّهَ وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً :مريم:۶۰.

فذکر تعالى أدبهم العام فى حياتهم أنهم يعيشون على الخضوع عملا و على الخشوع قلبا لله عز اسمه فإن سجودهم عند ذکر آيات الله تعالى مثال الخضوع و بکاءهم و هو لرقه القلب و تذلل النفس آيه الخشوع و هما معا کنايه عن استيلاء صفه العبوديه على نفوسهم بحيث کلما ذکروا بآيه من آيات الله بان أثره فى ظاهرهم کما استولت الصفه على باطنهم فهم على أدبهم الإلهى و هو سمه العبوديه إذا خلوا مع ربهم و إذا خلوا للناس،فهم يعيشون على أدب إلهى مع ربهم و مع الناس جميعا.

و من الدليل على أن المراد به الأدب العام قوله تعالى فى الآيه الثانيه: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاهَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ » فإن الصلاه و هى التوجه إلى الله هى حالهم مع ربهم و اتباع الشهوات حالهم مع غيرهم من الناس،و حيث قوبل أولئک بهؤلاء أفاد الکلام أن أدب الأنبياء العام أن يراجعوا ربهم بسمه العبوديه و أن يسيروا بين الناس بسمه العبوديه أى تکون بنيه حياتهم مبنيه على أساس أن لهم ربا يملکهم و يدبر أمرهم، منه بدءوهم و إليه مرجعهم فهذا هو الأصل فى جميع أحوالهم و أعمالهم.

و الذى ذکره تعالى من استثناء التائبين منهم أدب آخر إلهى بدأ فيه بآدم(ع) أول الأنبياء حيث قال: «وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى» :طه:۱۳۲ و سيجىء بعض القول فيه إن شاء الله تعالى.

و قال تعالى: «ما کانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّهَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ کانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً؛ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَ کَفى بِاللَّهِ حَسِيباً» :الأحزاب:۳۹.

أدب عام أدب الله سبحانه به أنبياءه(ع)و سنه جاريه له فيهم أن لا

يتحرجوا فى ما قسم لهم من الحياه و لا يتكلفوا فى أمر من الأمور إذ كانوا على الفطره و الفطره لا تهدى إلا إلى ما جهزها الله بما يلائمها فى نيله،و لا تتكلف الاستواء على ما لم يسهل الله لها الارتقاء على مستواه،قال تعالى حكايه عن نبيه ص: «وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» :_ص:٨۶ و قال تعالى: «لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَهَا» :البقره:

٢٨۶ و قال تعالى: «لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاّ مَا آتَاهَا» :الطلاق:٧ و إذ كان التكلف خروجا عن الفطره فهو من اتباع الشهوه و الأنبياء فى مأمن منه.

و قال تعالى و هو أيضا من التأديب بأدب جامع: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ اعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ، وَ إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ» :المؤمنون:۵٢ أدبهم تعالى أن يأكلوا من الطيبات أى أن يتصرفوا فى الطيبات من مواد الحياه و لا يتعدوها إلى الخبائث التى تتنفر منها الفطره السليمه و أن يأتوا من الأعمال بالصالح منها و هو الذى يصلح للإنسان أن يأتى به مما تميل إليه الفطره بحسب ما جهزها الله من أسباب تحفظ بعملها بقائه إلى حين،أو أن يأتوا بالعمل الذى يصلح أن يقدم إلى حضره الربوبيه،و المعنيان متقاربان، فهذا أدب يتعلق بالإنسان الفرد.

ثم وصله تعالى بأدب اجتماعى فذكر لهم أن الناس ليسوا إلا أمه واحده:

المرسلون و المرسل إليهم،و ليس لهم إلا رب واحد فليجتمعوا على تقواه،و يقطعوا بذلك دابر الاختلافات و التحزبات،فإذا التقى الأمران أعنى الأدب الفردى و الاجتماعى تشكل مجتمع واحد بشرى مصون عن الاختلاف يعبد ربا واحدا،و يجرى الآحاد منه على الأدب الإلهى فاتقوا خبائث الأفعال و سيئات الأعمال فقد استووا على أريكه السعاده.

و هذا ما جمعته آيه أخرى و هى قوله تعالى: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» :الشورى:١٣.

و قد فرق الله الأدبين فى موضع آخر فقال: «وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُدُونِ» :الأنبياء:٢۵ فأدبهم بتوحيده و بناء

العباده علیه،و هذا هو أدبهم بالنسبه إلی ربهم،و قال: «وَ قٰالُوا مٰا لِهٰذَا الرَّسُولِ یَأْکُلُ الطَّعٰامَ وَ یَمْشِی فِی الْأَسْوٰاقِ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَلَکٌ فَیَکُونَ مَعَهُ نَذِیراً، أَوْ یُلْقیٰ إِلَیْهِ کَنْزٌ أَوْ تَکُونُ لَهُ جَنَّهٌ یَأْکُلُ مِنْهٰا -إلی أن قال- وَ مٰا أَرْسَلْنٰا قَبْلَکَ مِنَ الْمُرْسَلِینَ إِلاّٰ إِنَّهُمْ لَیَأْکُلُونَ الطَّعٰامَ وَ یَمْشُونَ فِی الْأَسْوٰاقِ» :الفرقان:۲۰ فذکر أن سیره الأنبیاء جمیعا و هو أدبهم الإلهی هو الاختلاط بالناس و رفض التحجب و الاختصاص و التمیز من بین الناس فکل ذلک مما تدفعه الفطره،و هذا أدبهم فی الناس.

[أدب الأنبیاء المحکی فی القرآن تفصیلا]

۶-من أدب الأنبیاء(ع)فی توجیههم الوجوه إلی ربهم و دعائهم إیاه ما حکاه الله تعالی من قول آدم(ع)و زوجته: «رَبَّنٰا ظَلَمْنٰا أَنْفُسَنٰا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا لَنَکُونَنَّ مِنَ الْخٰاسِرِینَ» :الأعراف:۲۳ کلمه قالاها بعد ما أکلا من الشجره التی نهاهما الله أن یقربا منها،و إنما کان نهی إرشاد لیس بالمولوی،و لم یعصیاه عصیان تکلیف بل کان ذلک منهما مخالفه نصیحه فی رعایتها صلاح حالهما،و سعاده حیاتهما فی الجنه الأمنه من کل شقاء و عناء،و قد قال لهما ربهما فی تحذیرهما عن متابعه إبلیس:

«فَلاٰ یُخْرِجَنَّکُمٰا مِنَ الْجَنَّهِ فَتَشْقیٰ، إِنَّ لَکَ أَلاّٰ تَجُوعَ فِیهٰا وَ لاٰ تَعْریٰ، وَ أَنَّکَ لاٰ تَظْمَؤُا فِیهٰا وَ لاٰ تَضْحیٰ» :طه:۱۱۹.

فلما وقعا فی المحنه و شملتهما البلیه،و أخذت سعاده الحیاه یوادعهما وداع ارتحال لم یشتغلا بأنفسهما اشتغال الیائس البائس،و لم یقطع القنوط ما بینهما و بین ربهما من السبب الموصول بل بادرا إلی الالتجاء بالله الذی إلیه أمرهما،و بیده کل خیر یأملانه لأنفسهما فأخذا و تعلقا بصفه ربوبیته المشتمله علی کل ما یدفع به الشر و یجلب به الخیر، فالربوبیه هی الصفه الکریمه یربط العبد بالله سبحانه.

ثم ذکرا الشر الذی یهددهما بظهور آیاته و هو الخسران-کأنهما اشتریا لذه الأکل بطاعه الإرشاد الإلهی فبان لهما أن سعادتهما قد أشرفت بذلک علی الزوال-فی الحیاه، و ذکرا حاجتهما إلی ما یدفع هذا الشر عنهما فقالا: «وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا لَنَکُونَنَّ مِنَ الْخٰاسِرِینَ » أی إن خسران الحیاه یهددنا و قد أطل بنا و ما له من دافع إلا مغفرتک للذنب الصادر عنا و غشیانک إیانا بعد ذلک برحمتک و هی السعاده لما أن الإنسان بل کل موجود مصنوع یشعر بفطرته المغروزه أن من شأن الأشیاء الواقعه فی منزل الوجود

و مسير البقاء أن تستتم ما يعرضها من النقص و العيب،و أن السبب الجابر لهذا الكسر هو الله سبحانه وحده فهو من عاده الربوبيه.

و لذلك كان يكفى مجرد إظهار الحال،و إبراز ما نزل على العبد من مسكنه الحاجه فلا حاجه إلى السؤال بلفظ بل فى بدو الحاجه أبلغ السؤال و أفصح الاقتراح.

و لذلك لم يصرحا بما يسألانه و لم يقولا:«فاغفر لنا و ارحمنا»و لأنهما-و هو العمده-أوقفا أنفسهما بما صدر عنهما من المخالفه موقف الذله و المسكنه التى لا وجه معها و لا كرامه،فنتجت لهما التسليم المحض لما يصدر فى ذلك من ساحه العزه و من الحكم فكفا عن كل مسأله و اقتراح غير أنهما ذكرا أنه ربهما فأشارا إلى ما يطمعان فيه منه مع اعترافهما بالظلم.

فكان معنى قولهما: «رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ » :أسأنا فيما ظلمنا أنفسنا فأشرفنا بذلك على الخسران المهدد لعامه سعادتنا فى الحياه فهو ذا الذله و المسكنه أحاطت بنا،و الحاجه إلى إمحاء وسمه الظلم و شمول الرحمه شملتنا،و لم يدع ذلك لنا وجهه و لا كرامه نسألك بها،فها نحن مسلمون لحكمك أيها الملك العزيز فلك الأمر و لك الحكم غير أنك ربنا و نحن مربوبان لك نأمل منك ما يأمله مربوب من ربه.

و من أدبهم ما حكاه الله تعالى من دعوه نوح(ع)فى ابنه: «وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ، قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ -إلى أن قال- وَ نادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ، قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ، قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ إِلاّ تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ»:

هود:۴۷.

لا ريب أن الظاهر من قول نوح(ع)أنه كان يريد الدعاء لابنه بالنجاه غير أن التدبر فى آيات القصه يكشف الغطاء عن حقيقه الأمر بنحو آخر:

فمن جانب أمره الله بركوب السفينه هو و أهله و المؤمنون بقوله: «احْمِلْ فِيها مِنْ

كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلاّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ» :هود:۴۰ فوعده بإنجاء أهله و استثنى منهم من سبق عليه القول،و قد كانت امرأته كافره كما ذكرها الله فى قوله:

«ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ» :التحريم:۱۰ و أما ابنه فلم يظهر منه كفر بدعوه نوح،و الذى ذكره الله من أمره مع أبيه و هو فى معزل إنما هو معصيه بمخالفه أمره(ع)و ليس بالكفر الصريح فمن الجائز أن يظن فى حقه أنه من الناجين لظهور كونه من أبنائه و ليس من الكافرين فيشمله الوعد الإلهى بالنجاه.

و من جانب قد أوحى الله تعالى إلى نوح(ع)حكمه المحتوم فى أمر الناس كما قال: «وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ، وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ :هود-۳۷ فهل المراد بالذين ظلموا الكافرون بالدعوه أو يشمل كل ظلم أو هو مبهم مجمل يحتاج إلى تفسير من لدن قائله تعالى؟.

فكان هذه الأمور رابته(ع)فى أمر ابنه و لم يكن نوح(ع)بالذى يغفل من مقام ربه و هو أحد الخمسه أولى العزم سادات الأنبياء،و لم يكن لينسى وحى ربه:

«وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ » و لا ليرضى بنجاه ابنه و لو كان كافرا ماحضا فى كفره،و هو(ع)القائل فيما دعا على قومه: «رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً» :نوح:۲۶ و لو رضى فى ابنه بذلك لرضى بمثله فى امرأته.

و لذلك لم يجترئ(ع)على مسأله قاطعه بل ألقى مسألته كالعارض المستفسر لعدم إحاطته بالعوامل المجتمعه واقعا على أمر ابنه،بل بدأ بالنداء باسم الرب لأنه مفتاح دعاء المربوب المحتاج السائل ثم قال: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ » كأنه يقول و هذا يقضى بنجاه ابنى «وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ » لا خطأ فى أمرك و لا مغمض فى حكمك فما أدرى إلى م انجر أمره؟.

و هذا هو الأدب الإلهى أن يقف العبد على ما يعلمه،و لا يبادر إلى مسأله ما لا يدرى وجه المصلحه فيه.

فألقى نوح(ع)القول على وجد منه كما يدل عليه لفظ النداء فى قوله: «وَ نادى نُوحٌ رَبَّهُ » فذكر الوعد الإلهى و لما يزد عليه شيئا و لا سأل أمرا.

فأدركته العصمه الإلهيه و قطعت عليه الكلام،و فسر الله سبحانه له معنى قوله فى الوعد: «وَ أَهْلَكَ » أن المراد به الأهل الصالحون و ليس الابن بصالح، و قد قال تعالى من قبل: «وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِي فِي اَلَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ » و قد أخذ نوح(ع)بظاهر الأهل و أن المستثنى منهم هو امرأته الكافره فقط،ثم فرع عليه النهى عن السؤال فيما ليس له به علم،و هو سؤال نجاه ابنه على ما كان يلوح إليه كلامه أنه سيسألها.

فانقطع عنه السؤال بهذا التأديب الإلهى، و استأنف(ع)بكلام آخر صورته صوره التوبه و حقيقته الشكر لما أنعم الله بهذا الأدب الذى هو من النعمه فقال: «رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مٰا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ » فاستعاذ إلى ربه مما كان من طبع كلامه أن يسوقه إليه و هو سؤال نجاه ابنه و لا علم له بحقيقه حاله.

و من الدليل على أنه لم يقع منه سؤال بعد هو قوله: «أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ » «إلخ» و لم يقل:«أعوذ بك من سؤال ما ليس لى به علم»لتدل إضافه المصدر إلى فاعله وقوع الفعل منه.

«فَلاٰ تَسْئَلْنِ » «إلخ»،و لو كان سأله لكان من حق الكلام أن يقابل بالرد الصريح أو يقال مثلا:«لا تعد إلى مثله»كما وقع نظيره فى موارد من كلامه تعالى كقوله: «قٰالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قٰالَ لَنْ تَرٰانِي» :الأعراف:۱۴۳،و قوله: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوٰاهِكُمْ مٰا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ -إلى أن قال- يَعِظُكُمُ اللّٰهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً» :النور:۱۷.

و من دعاء نوح(ع)ما حكاه الله تعالى بقوله: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوٰالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ وَ لاٰ تَزِدِ الظّٰالِمِينَ إِلاّٰ تَبٰاراً» :نوح:۲۸ حكاه الله تعالى عنه فى آخر سوره نوح بعد آيات كثيره أوردها فى حكايه شكواه(ع)الذى بثه لربه فيما جاهد به من دعوه قومه ليلا و نهارا فيما يقرب من ألف سنه من مدى حياته، و ما قاساه من شدتهم و كابده من المحنه فى جنب الله سبحانه،و بذل من نفسه مبلغ جهدها،و صرف منها فى سبيل هدايتهم منتهى طوقها فلم ينفعهم دعاؤه إلا فرارا، و لم يزدهم نصحه إلا استكبارا.

و لم يزل بعد ما بثه فيهم من النصيحه و الموعظه الحسنه و قرعه أسماعهم من الحق و الحقيقه،و يشكو إلى ربه ما واجهوه به من العناد و الإصرار على الخطيئه،و قابلوه

به من المکر و الخدیعه حتی هاج به الوجد و الأسف و أخذته الغیره الإلهیه فدعا علیهم فقال: «رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکافِرِینَ دَیّاراً، إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبٰادَکَ وَ لاٰ یَلِدُوا إِلاّٰ فٰاجِراً کَفّاراً» :نوح:۲۷.

و ما ذکره من إضلالهم عباد الله إن ترکهم الله علی الأرض هو الذی ذکره عنهم فی ضمن کلامه السابق المحکی عنه: «وَ قَدْ أَضَلُّوا کَثِیراً » و قد أضلوا کثیرا من المؤمنین به فخاف إضلالهم الباقین منهم،و قوله: «وَ لاٰ یَلِدُوا إِلاّٰ فٰاجِراً کَفّاراً » إخبار ببطلان استعداد أصلابهم و أرحامهم أن یخرج منها مؤمن؛ذکره-و هو من أخبار الغیب- عن تفرس نبوی و وحی إلهی.

و إذا دعا علی الکافرین لغیره إلهیه أخذته،و هو النبی الکریم أول من جاء بکتاب و شریعه،و انتهض لإنقاذ الدنیا من غمره الوثنیه و لم یلبه من المجتمع البشری إلا قلیل-و هو قریب من ثمانین نسمه علی ما فی الأخبار-فکان من أدب هذا الموقف أن لا ینسی المؤمنین بربه الآخذین بدعوته،و یدعو لهم إلی یوم القیامه بالخیر.

فقال: «رَبِّ اغْفِرْ لِی » فبدأ بنفسه لأن الکلام فی معنی طلب المغفره لمن یسلک سبیله فهو إمامهم و أمامهم «وَ لِوٰالِدَیَّ » و فیه دلیل علی إیمانهما «وَ لِمَنْ دَخَلَ بَیْتِیَ مُؤْمِناً » و هم المؤمنون به من أهل عصره «وَ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ » و هم جمیع المؤمنین أهل التوحید فإن قاطبتهم أمته،و رهن منته إلی یوم القیامه،و هو أول من أقام الدعوه الدینیه فی الدنیا بکتاب و شریعه،و رفع أعلام التوحید بین الناس،و لذلک حیاه الله سبحانه بأفضل تحیته إذ قال: «سَلاٰمٌ عَلیٰ نُوحٍ فِی الْعٰالَمِینَ» :الصافات:۷۹ فعلیه السلام من نبی کریم کلما آمن بالله مؤمن،أو عمل له بعمل صالح،و کلما ذکر لله عز اسمه اسم،و کلما کان فی الناس من الخیر و السعاده رسم؛فذلک کله من برکه دعوته،و ذنابه نهضته،صلی الله علیه و علی سائر الأنبیاء و المرسلین أجمعین.

و من ذلک ما حکاه الله تعالی عن إبراهیم(ع)فی محاجته قومه: «قٰالَ أَ فَرَأَیْتُمْ مٰا کُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُکُمُ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِی إِلاّٰ رَبَّ الْعٰالَمِینَ، الَّذِی خَلَقَنِی فَهُوَ یَهْدِینِ، وَ الَّذِی هُوَ یُطْعِمُنِی وَ یَسْقِینِ، وَ إِذٰا مَرِضْتُ فَهُوَ یَشْفِینِ، وَ الَّذِی یُمِیتُنِی ثُمَّ یُحْیِینِ، وَ الَّذِی أَطْمَعُ أَنْ یَغْفِرَ لِی خَطِیئَتِی یَوْمَ الدِّینِ، رَبِّ هَبْ لِی حُکْماً وَ أَلْحِقْنِی

بِالصّٰالِحِينَ، وَ اجْعَلْ لِي لِسٰانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ، وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كٰانَ مِنَ الضّٰالِّينَ، وَ لاٰ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ» :الشعراء:٨٧.

دعاء يدعو(ع)به لنفسه،و لأبيه عن موعده وعدها إياه،و قد كان هذا أول أمره و لم ييأس بعد من إيمان أبيه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

و قد بدأ فيه بالثناء على ربه ثناء جميلا على ما هو أدب العبوديه و هذا أول ثناء مفصل حكاه الله سبحانه عنه(ع)،و ما حكى عنه قبل ذلك ليس بهذا النحو كقوله:«يٰا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمّٰا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ» :الأنعام:٧٩ و قوله لأبيه: «سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كٰانَ بِي حَفِيًّا» :مريم:۴٧.

و قد استعمل(ع)من الأدب في ثنائه أن أتى بثناء جامع أدرج فيه عنايه ربه به من بدء خلقه إلى أن يعود إلى ربه،و أقام فيه نفسه مقام الفقر و الحاجه كلها،و لم يذكر لربه إلا الغنى و الجود المحض،و مثل نفسه عبدا داخرا لا يقدر على شيء و تقلبه المقدره الإلهيه حالا إلى حال من خلق ثم إطعام و سقي و شفاء عن مرض ثم أماته ثم إحياء ثم إشخاص إلى جزاء يوم الجزاء،و ليس له إلا الطاعه المحضه و الطمع في غفران الخطيئه.

و من الأدب المراعى في بيانه نسبه المرض إلى نفسه في قوله: «وَ إِذٰا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » لما أن نسبته إليه تعالى في مثل المقام و هو مقام الثناء لا يخلو عن شيء،و المرض و إن كان من جمله الحوادث و هي لا تخلو عن نسبه إليه تعالى،لكن الكلام ليس مسوقا لبيان حدوثه حتى ينسب إليه تعالى بل لبيان أن الشفاء من المرض من رحمته و عنايته تعالى،و لذلك نسب المرض إلى نفسه و الشفاء إلى ربه بدعوى أنه لا يصدر منه إلا الجميل.

ثم أخذ في الدعاء و استعمل فيه من الأدب البارع أن ابتدأ باسم الرب و قصر مسألته على النعم الحقيقيه الباقيه من غير أن يلتفت إلى زخارف الدنيا الفانيه،و اختار مما اختاره ما هو أعظم و أفخم فسأل الحكم و هو الشريعه و اللحوق بالصالحين و سأل لسان صدق في الآخرين و هو أن يبعث الله بعده زمانا بعد زمان،و حينا بعد حين من يقوم بدعوته،و يروج شريعته،و هو في الحقيقه سؤال أن يخصه بشريعه باقيه إلى يوم

القيامه ثم سأل وراثه الجنه و مغفره أبيه و عدم الخزی یوم القیامه.

و قد أجابه الله تعالی إلی جمیع ما سأله عنه علی ما ینبئ به کلامه تعالی إلا دعاءه لأبیه و حاشا رب العالمین أن یذکر دعاء عبد من عباده المکرمین مما ذهب سدی لم یستجبه،قال تعالی: «مِلَّهَ أَبِیکُمْ إِبْرٰاهِیمَ» :الحج:۷۸ و قال: «وَ جَعَلَهٰا کَلِمَهً بٰاقِیَهً فِی عَقِبِهِ» :الزخرف:۲۸ و قال: «لَقَدِ اصْطَفَیْنٰاهُ فِی الدُّنْیٰا وَ إِنَّهُ فِی الْآخِرَهِ لَمِنَ الصّٰالِحِینَ» :البقره:

۱۳۰ و حیاه بسلام عام إذ قال: «سَلاٰمٌ عَلیٰ إِبْرٰاهِیمَ» :الصافات:۱۰۹.

و سیر التاریخ بعده(ع)یصدق جمیع ما ذکره القرآن الشریف من محامده و أثنی فیه علیه فإنه(ع)هو النبی الکریم قام وحده بدین التوحید و إحیاء مله الفطره و انتهض لهدم أرکان الوثنیه،و کسر الأصنام علی حین اندرست فیه آیات التوحید،و عفت الأیام فیها رسوم النبوه و نسیت الدنیا اسم نوح و الکرام من أنبیاء الله،فأقام دین الفطره علی ساق،و بث دعوه التوحید بین الناس و دین التوحید حتی الیوم و قد مضی من زمنه ما یقرب من أربعه آلاف سنه حی باسمه باق فی عقبه فإن الذی تعرفه الدنیا من دین التوحید هو دین الیهود و نبیهم موسی،و دین النصاری و نبیهم عیسی،و هما من آل إسرائیل یعقوب بن إسحاق بن إبراهیم(ع)،و دین الإسلام الذی بعث به محمد ص و هو من ذریه إسماعیل بن إبراهیم(ع).

و مما ذکره الله من دعائه قوله: «رَبِّ هَبْ لِی مِنَ الصّٰالِحِینَ» :الصافات:۱۰۰ یسأل الله فیه ولدا صالحا،و فیه اعتصام بربه،و إصلاح لمسألته الذی هی بوجه دنیویه بوصف الصلاح لیعود إلی جهه الله و ارتضائه.

و مما ذکره تعالی من دعائه ما دعا به حین قدم إلی أرض مکه و قد أسکن إسماعیل و أمه بها،قال تعالی: «وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذٰا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرٰاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ قٰالَ وَ مَنْ کَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِیلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلیٰ عَذٰابِ النّٰارِ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ» :البقره:۱۲۶.

یسأل ربه أن یتخذ أرض مکه-و هی یومئذ أرض قفره و واد غیر ذی زرع- حرما لنفسه لیجمع بذلک شمل الدین،و یکون ذلک رابطه أرضیه جسمانیه بین الناس و بین ربهم یقصدونه لعباده ربهم،و یتوجهون إلیه فی مناسکهم،و یراعون حرمته

فیما بینهم فیکون ذلک آیه باقیه خالده لله فی الأرض یذکر الله کل من ذکره،و یقصده کل من قصده،و تتشخص به الوجهه،و تتحد به الکلمه.

و الدلیل علی أنه(ع)یرید بالأمن الأمن التشریعی الذی هو معنی اتخاذه حرما دون الأمن الخارجی من وقوع المقاتلات و الحروب و سائر الحوادث المفسده للأمن المخله بالرفاهیه قوله تعالی: «أَ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً یُجْبیٰ إِلَیْهِ ثَمَرٰاتُ کُلِّ شَیْءٍ» :القصص:۵۷ فإن فی الآیه امتنانا علیهم بأمن الحرم و هو المکان الذی احترمه الله لنفسه فاتصف بالأمن من جهه ما احترمه الناس لا من جهه عامل تکوینی یقیه من الفساد و القتل،و الآیه نزلت و قد شاهدت مکه حروبا مبیده بین قریش و جرهم فیها، و کذا من القتل و الجور و الفساد ما لا یحصی،و کذا قوله تعالی: «أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنٰا حَرَماً آمِناً وَ یُتَخَطَّفُ النّٰاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ» :العنکبوت:۶۷ أی لا یتخطفون من الحرم لاحترام الناس إیاه لمکان الحرمه التی جعلناها.

و بالجمله کان مطلوبه(ع)هو أن یکون لله فی الأرض حرم تسکنه ذریته، و کان لا یحصل ذلک إلا ببناء بلد یقصده الناس من کل جانب فیکون مجمعا دینیا یؤمونه بالسکونه و اللواذ و الزیاره إلی یوم القیامه فلذلک سأل أن یجعله بلدا آمنا،و قد کان غیر ذی زرع فسأل أن یرزقهم من الثمرات حتی یعمر بسکانه و لا یتفرقوا منه.

ثم لما أحس أن دعاءه بهذا التشریف یشمل المؤمن و الکافر قید مسألته بإیمان المدعو لهم بالله و الیوم الآخر فقال: «مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ » و أما أن ذلک کیف یمکن فی بلد لو اتفق أن یسکن فیه المؤمنون و الکفار معا و اختلفوا،أو إذا قطن فیه الکفار فقط؟و کیف یرزقون من الثمرات و الأرض بطحاء غیر ذی زرع؟ فلم یتعرض له فی مسألته.

و هذا من أدبه(ع)فی مقام الدعاء فإن من فضول القول أن یعلم الداعی ربه کیف یقضی حاجته؟و ما هو الطریق إلی إجابه مسألته؟و هو رب علیم حکیم قدیر إنما أمره إذا أراد شیئا أن یقول له کن فیکون.

لکن الله سبحانه إذ کان یرید أن یقضی حاجته علی السنه الجاریه فی الأسباب العادیه و لا یفرق فیها بین المؤمن و الکافر تمم دعاءه(ع)بما قید به کلامه من قوله:

«وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلىٰ عَذٰابِ النّٰارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ » .

و هـذا الـدعاء الـذى أدى إلى تشـريع الحرم الإلـهى و بنـاء الكعبه المقـدسه التى هى أول بيت وضع للناس ببكه مباركه و هـدى للعالمين هو إحدى ثمرات همته العاليه المقدسه التى امتن به على من بعده من المسلمين إلى يوم القيامه.

و ممـا دعا(ع)دعاؤه فى آخر عمره على ما حكاه الله تعالى بقوله: «وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰـذَا الْبَلَـدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِى وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنٰامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النّٰاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَ مَنْ عَصٰانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، رَبَّنٰا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوٰادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنٰا لِيُقِيمُوا الصَّلاٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النّٰاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ، رَبَّنٰا إِنَّكَ تَعْلَمُ مٰا نُخْفِى وَ مٰا نُعْلِنُ وَ مٰا يَخْفىٰ عَلَى اللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ فِى الْأَرْضِ وَ لاٰ فِى السَّمٰاءِ، الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعٰاءِ رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلاٰةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى رَبَّنٰا وَ تَقَبَّلْ دُعٰاءِ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَ لِوٰالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسٰابُ» :إبراهيم:۴۱.

و هـذا مما دعا(ع)به فى أواخر عمره الشريف و قـد بنيت بلـده مكه،و الدليل عليه قول فيه: «الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ » و قوله: «اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً » و لم يقل كما فى دعائه السابق:«و اجعل هذا بلدا آمنا».

و مما استعمل فيه من الأدب تمسكه بالربوبيه فى دعائه،و كلما ذكر ما يختص بنفسه قال: «رَبِّ » و كلما ذكر ما يشاركه فيه غيره قال: «رَبَّنٰا » .

و من الأدب المستعمل فى دعـائه أن كلمـا ذكر حاجه من الحوائج يمكن أن يسأل لغرض مشـروع أو غير مشـروع ذكر غرضـه الصحيح من حاجته،و فيه من إثاره الرحمه الإلهيه ما لا يخفى فلما قال: «اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ » «إلخ»،ذكر بعده قوله:« رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ » «إلـخ»، و حيث قـال: «رَبَّنٰا إِنِّى أَسْكَنْتُ » «إلـخ»،قال بعـده: «رَبَّنٰا لِيُقِيمُوا الصَّلاٰةَ » و إذ دعا بقوله: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النّٰاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرٰاتِ » ذيله بقوله: «لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

و من أدبه فيه أنه أردف كل حاجه ذكرها بما يناسب مضمونها من أسماء الله

الحسنى كالغفور و الرحيم و سميع الدعاء،و كرر اسم الرب كلما ذكر حاجه من حوائجه فإن الربوبيه هى السبب الموصول بين العبد و بين الله تعالى،و هو المفتاح لباب كل دعاء.

و من أدبه فيه قوله: «وَ مَنْ عَصٰانِی فَإِنَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ » حيث لم يدع عليهم بشىء يسوء غير أنه ذكر مع ذكرهم اسمين من أسماء الله تعالى هما الواسطتان فى شمول نعمه السعاده على كل إنسان أعنى الغفور الرحيم حبا منه لنجاه أمته و انبساط جود ربه.

و من ذلک ما حكاه الله عنه و عن ابنه إسماعيل و قد اشتركا فيه،و هو قوله تعالى:

«وَ إِذْ یَرْفَعُ إِبْرٰاهِیمُ الْقَوٰاعِدَ مِنَ الْبَیْتِ وَ إِسْمٰاعِیلُ رَبَّنٰا تَقَبَّلْ مِنّٰا إِنَّکَ أَنْتَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ، رَبَّنٰا وَ اجْعَلْنٰا مُسْلِمَیْنِ لَکَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِنٰا أُمَّهً مُسْلِمَهً لَکَ وَ أَرِنٰا مَنٰاسِکَنٰا وَ تُبْ عَلَیْنٰا إِنَّکَ أَنْتَ التَّوّٰابُ الرَّحِیمُ، رَبَّنٰا وَ ابْعَثْ فِیهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیٰاتِکَ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتٰابَ وَ الْحِکْمَهَ وَ یُزَکِّیهِمْ إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ» :البقره:۱۲۹.

دعاء دعوا به عند بنائهما الكعبه،و فيه من الأدب الجميل ما فى سابقه.

و من ذلک ما حكاه الله عن إسماعيل(ع)فى قصه الذبح قال تعالى: «فَبَشَّرْنٰاهُ بِغُلاٰمٍ حَلِیمٍ، فَلَمّٰا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْیَ قٰالَ یٰا بُنَیَّ إِنِّی أَریٰ فِی الْمَنٰامِ أَنِّی أَذْبَحُکَ فَانْظُرْ مٰا ذٰا تَریٰ قٰالَ یٰا أَبَتِ افْعَلْ مٰا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِی إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰابِرِینَ» :الصافات:۱۰۲.

و صدر كلامه و إن كان من أدبه مع أبيه إلا أن الذيل فيما بينه و بين ربه على أن التأدب مع مثل إبراهيم خليل الله(ع)تأدب مع الله تعالى.

و بالجمله لما ذكر له أبوه ما رآه فى المنام،و كان أمرا إلهيا بدليل قول إسماعيل:

«افْعَلْ مٰا تُؤْمَرُ » أمره أن يرى فيه رأيه،و هو من أدبه(ع)مع ابنه فقال له إسماعيل:

«یٰا أَبَتِ افْعَلْ مٰا تُؤْمَرُ ،إلخ»و لم يذكر أنه الرأى الذى رآه هضما لنفسه و تواضعا لأبيه كأنه لا رأى له قبال رأيه و لذلک صدر القول بخطابه بالأبوه،و لم يقل:«إن شئت فافعل ذلک ليكون مسألته القطعيه تطييبا لنفس أبيه،و لأنه ذكر فى كلامه أنه أمر أمر به إبراهيم،و لا يتصور فى حق مثله أن يتروى أو يتردد فى فعل ما أمر به دون أن يمتثل أمر ربه.

ثم فی قوله: «سَتَجِدُنِی إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰابِرِینَ » تطییب آخر لنفس أبیه،و کل ذلک من أدبه مع أبیه(ع).

و قد تأدب مع ربه إذ لم یأت بما وعده إیاه فی صوره القطع و الجزم دون أن استثنی بمشیئه الله فإن فی القطع من غیر تعلیق الأمر بمشیئه الله شائبه دعوی الاستقلال فی السببیه، و لتخل عنها ساحه النبوه،و قد ذم الله لذلک قوما إذ قطعوا أمرا و لم یعلقوا کما قال فی قصه أصحاب الجنه: «إِنّٰا بَلَوْنٰاهُمْ کَمٰا بَلَوْنٰا أَصْحٰابَ الْجَنَّهِ إِذْ أَقْسَمُوا لَیَصْرِمُنَّهٰا مُصْبِحِینَ، وَ لاٰ یَسْتَثْنُونَ» :القلم:١٨ و قد أدب الله سبحانه نبیه ص فی کتابه بأن یستثنی فی قوله تأدیبا بکنایه عجیبه إذ قال: «وَ لاٰ تَقُولَنَّ لِشَیْءٍ إِنِّی فٰاعِلٌ ذٰلِکَ غَداً، إِلاّٰ أَنْ یَشٰاءَ اللّٰهُ» :الکهف:٢۴.

و من ذلک ما حکاه الله عن یعقوب(ع)حین رجع بنوه من مصر و قد ترکوا بنیامین و یهودا بها قال تعالی: «وَ تَوَلّٰی عَنْهُمْ وَ قٰالَ یٰا أَسَفیٰ عَلیٰ یُوسُفَ وَ ابْیَضَّتْ عَیْنٰاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ کَظِیمٌ، قٰالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَؤُا تَذْکُرُ یُوسُفَ حَتّٰی تَکُونَ حَرَضاً أَوْ تَکُونَ مِنَ الْهٰالِکِینَ، قٰالَ إِنَّمٰا أَشْکُوا بَثِّی وَ حُزْنِی إِلَی اللّٰهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ» :یوسف:٨۶.

یقول لبنیه إن مداومتی علی ذکر یوسف شکایه منی سوء حالی إلی الله و لست بائس من رحمه ربی أن یرجعه إلی من حیث لا یحتسب،و ذلک أن من أدب الأنبیاء مع ربهم أن یتوجهوا فی جمیع أحوالهم إلی ربهم و یوردوا عامه حرکاتهم و سکناتهم فی سبیله فإن الله سبحانه ینص علی أنه هداهم إلیه صراطا مستقیما قال: «أُولٰئِکَ الَّذِینَ هَدَی اللّٰهُ» :الأنعام:٩٠ و قال فی خصوص یعقوب: «وَ وَهَبْنٰا لَهُ إِسْحٰاقَ وَ یَعْقُوبَ کُلاًّ هَدَیْنٰا» :الأنعام:٨۴ ثم ذکر أن اتباع الهوی ضلال عن سبیل الله فقال تعالی:

«وَ لاٰ تَتَّبِعِ الْهَویٰ فَیُضِلَّکَ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ» :ص:٢۶.

فالأنبیاء و هم المهدیون بهدایه الله لا یتبعون الهوی البته فعواطفهم النفسانیه و أمیالهم الباطنیه من شهوه أو غضب أو حب أو بغض أو سرور أو حزن مما یتعلق بمظاهر الحیاه من مال و بنین و نکاح و مأکل و ملبس و مسکن و غیر ذلک کل ذلک واقعه فی سبیل الله لا یقصدون به إلا الله جلت عظمته فإنما هما سبیلان مسلوکان سبیل یتبع فیه الحق و سبیل یتبع فیه الهوی،و إن شئت قلت:سبیل ذکر الله

و سبیل نسیانه.

و الأنبیاء(ع)إذ کانوا مهدیین إلی الله لا یتبعون الهوی کانوا علی ذکر من ربهم لا یقصدون بحرکه أو سکون غیره تعالی،و لا یقرعون بحاجه من حوائج حیاتهم باب غیره من الأسباب بمعنی أنهم إذا تعلقوا بسبب لم ینسهم ذلک ربهم و أن الأمر إلیه تعالی لا أنهم ینفون الأسباب نفیا مطلقا لا یبقی مع ذلک لها وجود فی التصور مطلقا فإن ذلک مما لا مطمع فیه،و لا أنهم یرون ذوات الأشیاء و ینفون عنها وصفه السببیه فإن فی ذلک خروجا عن صراط الفطره الإنسانیه بل التعلق به أن لا یری لغیره استقلالا، و یضع کل شیء موضعه الذی وضعه الله فیه.

و إذ کان حالهم(ع)ما ذکرنا من تعلقهم بالله حق التعلق تمکن منهم هذا الأدب الإلهی أن یراقبوا مقام ربهم و یراعوا جانب ربوبیته فلا یقصدوا شیئا إلا لله،و لا یترکوا شیئا إلا لله،و لا یتعلقوا بسبب إلا و هم متعلقون بربهم قبله و معه و بعده،فهو غایتهم علی کل حال.

فقوله(ع): «إِنَّمٰا أَشْکُوا بَثِّی وَ حُزْنِی إِلَی اللّٰهِ » یرید به أن ذکری المستمر لیوسف و أسفی علیه لیس علی حد ما یلغو أحدکم إذا أصابته مصیبه ففقد نعمه من نعم الله فیذکرها لمن لا یملک منه نفعا و لا ضرا یجهل منه،و إنما ذلک شکوی منی إلی الله فیما دخلنی من فقد یوسف،و لیس ذلک مسأله منی فی أمر لا یکون فإنی أَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ .

و من ذلک ما حکاه الله عن یوسف الصدیق حین هددته امرأه العزیز بالسجن إن لم یفعل ما کانت تأمره به: «قٰالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَیَّ مِمّٰا یَدْعُونَنِی إِلَیْهِ وَ إِلاّٰ تَصْرِفْ عَنِّی کَیْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَیْهِنَّ وَ أَکُنْ مِنَ الْجٰاهِلِینَ» :یوسف:۳۳.

یذکر(ع)لربه أن أمره یدور عندهن فی موقفه ذاک بین السجن و بین إجابتهن إلی ما یسألنه،و أنه بعلمه الذی أکرمه الله به،و هو المحکی عنه فی قوله تعالی: «وَ لَمّٰا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَیْنٰاهُ حُکْماً وَ عِلْماً» :یوسف:۲۲ یختار السجن علی إجابتهن غیر أن الأسباب منضوده علی طبق ما یرجونه منه قویه غالبه فهی تهدده بالجهل بمقام ربه و إبطال ما عنده من العلم بالله،و لا حکم فی ذلک إلا له تعالی کما قال لصاحبه فی السجن:

«إِنِ الْحُکْمُ إِلاّ لِلّهِ» :یوسف:۴۰ و لـذلک تأدب ع و لم یذکر لنفسه حاجه لأنه حکم بنحو،بل لوح إلی تهدید الجهل إیاه بإبطال نعمه العلم الـذی أکرمه بها ربه، و ذکر أن نجاته من مهلکه الجهل و انـدفاع کیـدهن تتوقف إلی صـرفه تعالی فسـلم الأمر إلیه و سکت.

فاسـتجاب له ربه فصـرف عنه کیدهن و هو الصـبوه و إلا فالسـجن فتخلص من السـجن و الصـبوه جمیعا،و منه یعلم أن مراده من کیـدهن هو الصـبوه و السـجن جمیعـا، و أما قوله(ع): «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَیَّ ،إلـخ»فإنما هو تمایل قلبی إلی السـجن علی تقـدیر تردد الأمر و کنایه عن النفره و المباغضه للفحشاء و لیس بسؤال منه للسجن کما

- قال(ع):

الموت أولی من رکوب العار

و العار أولی من دخول النار

..

لا کما ربما یظن أنه سأل بذلک السجن فقضی له به،و الدلیل علی ما ذکرناه قوله تعالی بعده: «ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآیاتِ لَیَسْجُنُنَّهُ حَتّی حِینٍ» :یوسف:۳۵ لظهور الآیه أن سـجنه کان عن رأی بـدا لهم بعـد ذلک،و قـد کان الله سـبحانه صـرف عنه قبل ذلک بالدعوه إلی أنفسهن و التهدید بالسجن.

و منه ما حکی الله سـبحانه من ثنائه و دعائه(ع)حیث قال: «فَلَمّا دَخَلُوا عَلی یُوسُفَ آوی إِلَیْهِ أَبَوَیْهِ وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللّهُ آمِنِینَ، وَ رَفَعَ أَبَوَیْهِ عَلَی الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قالَ یا أَبَتِ هذا تَأْوِیلُ رُءْیایَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّی حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِی إِذْ أَخْرَجَنِی مِنَ السِّجْنِ وَ جاءَ بِکُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّیْطانُ بَیْنِی وَ بَیْنَ إِخْوَتِی إِنَّ رَبِّی لَطِیفٌ لِما یَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ، رَبِّ قَدْ آتَیْتَنِی مِنَ الْمُلْکِ وَ عَلَّمْتَنِی مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحادِیثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِیِّی فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَهِ تَوَفَّنِی مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصّالِحِینَ» :یوسف:۱۰۱.

فلیتـدبر البـاحث فیمـا یعطیه الآیـات من أدب النبوه و لیمثل عنـده ما کان علیه یوسف (ع)من الملک و نفوذ الأمر و ما کان علیه أبواه من توقـان النفس إلی لقـائه،و مـا کان علیه إخوته من التواضع و هم جمیعا علی ذکر من تاریـخ حیاته من حین فقـدوه إلی حین وجدوه و هو عزیز مستو علی عرش العزه و الهیمنه.

لم یشق(ع)فما بکلام إلا و لربه فیه نصیب أو کل النصیب إلا ما أصدره من الأمر بقوله: «ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ آمِنِینَ » فأمرهم بالدخول و حکم لهم بالأمن،و لم یستتم الکلام حتی استثنی فیه بمشیئه الله لئلا یوهم الاستقلال فی الحکم دون الله،و هو (ع)القائل: «إن الحکم إلا لله».

ثم شرع فی الثناء علی ربه فیما جری علیه منذ فارقهم إلی أن اجتمع بهم و بدأ فی ذلک بقصه رؤیاه و تحقق تأویلها و صدق فیه أباه لا فیما عبرها به فقط بل حتی فیما ذکره فی آخر کلامه من علم الله و حکمته توغلا منه فی الثناء علی ربه حیث قال له أبوه: «وَ کَذٰلِکَ یَجْتَبِیکَ رَبُّکَ وَ یُعَلِّمُکَ -إلی أن قال- إِنَّ رَبَّکَ عَلِیمٌ حَکِیمٌ» :یوسف:۶ و قال له یوسف هاهنا بعد ما صدقه فیما عبر به رؤیاه: «إِنَّ رَبِّی لَطِیفٌ لِمٰا یَشٰاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ» :یوسف:۱۰۰.

ثم أشار إلی إجمال ما جری علیه ما بین رؤیاه و تأویلها فنسبها إلی ربه و وصفها بالحسن و هو من الله إحسان،و من ألطف أدبه توصیفه ما لقی من إخوته حین ألقوه فی غیابه الجب إلی أن شروه بثمن بخس دراهم معدوده،و اتهموه بالسرقه بقوله: «نَزَغَ الشَّیْطٰانُ بَیْنِی وَ بَیْنَ إِخْوَتِی » .

و لم یزل یذکر نعم ربه و یثنی علیه و یقول:ربی و ربی حتی غشیه الوله و أخذته جذبه إلهیه فاشتغل بربه و ترکهم کأنه لا یعرفهم،و قال: «رَبِّ قَدْ آتَیْتَنِی مِنَ الْمُلْکِ وَ عَلَّمْتَنِی مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحٰادِیثِ ، فأثنی علی ربه بحاضر نعمه عنده،و هو الملک و العلم بتأویل الأحادیث،ثم انتقلت نفسه الشریفه من ذکر النعم إلی أن ربه الذی أنعم علیه بما أنعم لأنه فاطر السماوات و الأرض،و مخرج کل شیء من العدم البحت إلی الوجود من غیر أن یکون لشیء من الأشیاء جده من نفسه یملک به ضرا أو نفعا أو نعمه أو نقمه أو صلاحیه أن یدبر أمر نفسه فی دنیا أو آخره.

و إذ کان فاطر کل شیء فهو ولی کل شیء،و لذلک ذکر بعد قوله: «فٰاطِرَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ » أنه عبد داخر لا یملک تدبیر نفسه فی دنیا و لا آخره بل هو تحت ولایه الله سبحانه یختار له من الخیر ما یشاء و یقیمه أی مقام أراد فقال: «أَنْتَ وَلِیِّی فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ » و عندئذ ذکر ما له من مسأله یحتاج فیها إلی ربه و هو أن ینتقل من الدنیا

إلى الآخره و هو فى حال الإسلام إلى ربه على حد ما منحه الله آباءه إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب قال تعالى: «وَ لَقَدِ اصْطَفَيْنٰاهُ فِي الدُّنْيٰا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰالِحِينَ، إِذْ قٰالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ -و هو الاصطفاء- قٰالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعٰالَمِينَ، وَ وَصّٰى بِهٰا إِبْرٰاهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يٰا بَنِيَّ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلاٰ تَمُوتُنَّ إِلاّٰ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» :البقره:١٣٢.

و هو قوله: «تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصّٰالِحِينَ » يسأل التوفى على الإسلام ثم اللحوق بالصالحين،و هو الذى سأله جده إبراهيم(ع)بقوله: «رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصّٰالِحِينَ» :الشعراء:٨٣ فأجيب إليه كما فى الآيات المذكوره آنفا و هذا آخر ما ذكر الله من حديثه و ختم به قصته،و أن إلى ربك المنتهى،و هذا مما فى السياقات القرآنيه من عجيب اللطف.

و من ذلك ما حكاه الله سبحانه عن نبيه موسى(ع)فى أوائل نشوئه بمصر حين وكز القبطى فقضى عليه: «قٰالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» :القصص:١۶ و قوله حين فر من مصر فبلغ مدين و سقى لابنتى شعيب ثم تولى إلى الظل فقال: «رَبِّ إِنِّي لِمٰا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» :القصص:٢۴.

و قد استعمل(ع)فى مسألتيه من الأدب بعد الالتجاء بالله و التعلق بربوبيته أن صرح فى دعائه الأول بالطلب لأنه كان متعلقا بالمغفره و الله سبحانه يحب أن يستغفر كما قال: «وَ اسْتَغْفِرُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» :البقره:١٩٩ و هو الذى دعا إليه نوح فمن بعده من الأنبياء(ع)،و لم يصرح بحاجته بعينه فى دعائه الثانى الذى ظاهره بحسب دلاله المقام أنه كان يريد رفع حوائج الحياه كالغذاء و المسكن مثلا بل إنما ذكر الحاجه ثم سكت،فما للدنيا عند الله من قدر.

و اعلم أن قوله(ع): «رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي » يجرى فى الاعتراف بالظلم و طلب المغفره مجرى قول آدم و زوجته: «رَبَّنٰا ظَلَمْنٰا أَنْفُسَنٰا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰاسِرِينَ » بمعنى أن المراد بالظلم هو ظلمه على نفسه لاقترافه عملا يخالف مصلحه حياته كما أن الأمر كان على هذا النحو فى آدم و زوجته.

فإن موسى(ع)إنما فعل ما فعل قبل أن يبعثه الله بشريعته الناهيه عن القتل و إنما قتل نفسا كافره غير محترمه،و لا دليل على وجود النهى عن مثل هذا القتل قبل

شریعته و کان الأمر فی عصیان آدم و زوجته علی هذه الوتیره فقد ظلما أنفسهما بالأکل من الشجره قبل أن یشرع الله شریعه بین النوع الإنسانی فإنما أسس الله الشرائع کائنه ما کانت بعد هبوطهما من الجنه إلی الأرض.

و مجرد النهی عن اقتراب الشجره لا دلیل علی کونه مولویا مستلزما لتحقق المعصیه المصطلحه بمخالفته،مع أن القرائن قائمه علی کون النهی المتعلق بهما إرشادیا کما فی آیات سوره طه علی ما بیناه فی تفسیر قصه جنه آدم فی الجزء الأول من الکتاب.

علی أن الکتاب الإلهی نص فی کون موسی(ع)مخلصا،و أن إبلیس لا سبیل له إلی إغواء المخلصین من عباد الله تعالی و من الضروری أن لا معصیه بدون إغواء إبلیس قال الله تعالی: «وَ اذْکُرْ فِی الْکِتٰابِ مُوسیٰ إِنَّهُ کٰانَ مُخْلَصاً وَ کٰانَ رَسُولاً نَبِیًّا» :مریم:۵۱ و قال تعالی» «قٰالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ إِلاّٰ عِبٰادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ» :ـص:۸۳.

و من هنا یظهر أن المراد بالمغفره المسئوله فی دعائه کما فی دعائهما«(ع)»لیست هی إمحاء العقاب الذی یکتبه الله علی المجرمین کما فی المعاصی المولویه بل إمحاء الآثار السیئه التی کان یستتبعها الظلم علی النفس فی مجری الحیاه فقد کان موسی(ع)یخاف أن یفشو أمره و یظهر ما هو ذنب له عندهم فسأله تعالی أن یستر علیه و یغفره،و المغفره فی عرف القرآن أعم من إمحاء العقاب بل هی إمحاء الأثر السیئ کائنا ما کان،و لا ریب أن أمر الجمیع بید الله سبحانه.

و نظیر هذا من وجه قول نوح(ع)فیما تقدم من دعائه «وَ إِلاّٰ تَغْفِرْ لِی وَ تَرْحَمْنِی » أی و إن لم تؤدبنی بأدبک،و لم تعصمنی بعصمتک و وقایتک و ترحمنی بذلک أکن من الخاسرین، فافهم ذلک.

و منه دعاؤه(ع)أول ما ألقی إلیه الوحی و بعث بالرساله إلی قومه علی ما حکاه الله قال تعالی: «قٰالَ رَبِّ اشْرَحْ لِی صَدْرِی وَ یَسِّرْ لِی أَمْرِی وَ احْلُلْ عُقْدَهً مِنْ لِسٰانِی یَفْقَهُوا قَوْلِی وَ اجْعَلْ لِی وَزِیراً مِنْ أَهْلِی هٰارُونَ أَخِی اشْدُدْ بِهِ أَزْرِی وَ أَشْرِکْهُ فِی أَمْرِی کَیْ نُسَبِّحَکَ کَثِیراً وَ نَذْکُرَکَ کَثِیراً إِنَّکَ کُنْتَ بِنٰا بَصِیراً» :طه:۳۵.

ینصح(ع)لما بعث لها من الدعوه الدینیه و یذکر لربه-علی ما یفیده الکلام بإعانه من المقام-إنک کنت بصیرا بحالی أنا و أخی أنا منذ نشأنا نحب تسبیحک،و قد حملتنی اللیله ثقل الرساله و فی نفسی من الحده و فی لسانی من العقده ما أنت أعلم به و إنی أخاف أن یکذبونی أن دعوتهم إلیک و بلغتهم رسالتک فیضیق صدری و لا ینطلق لسانی فاشرح لی صدری،و یسر لی أمری،و هذا رفع التحرج الذی ذکره الله بقوله: «مٰا کٰانَ عَلَی النَّبِیِّ مِنْ حَرَجٍ فِیمٰا فَرَضَ اللّٰهُ لَهُ سُنَّهَ اللّٰهِ فِی الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» :الأحزاب:

۳۸ وَ احْلُلْ عُقْدَهً مِنْ لِسٰانِی یَفْقَهُوا قَوْلِی و أخی هارون أفصح منی لسانا و هو من أهلی فأشرکه فی هذا الأمر و اجعله وزیرا لی کی نسبحک-کما کنا نحبه-کثیرا و نذکرک عند ملإ الناس بالتعاضد کثیرا؛فهذا محصل ما سأله(ع)ربه من أسباب الدعوه و التبلیغ،و الأدب الذی استعمل فیه أن ذکر غایته و غرضه من أسئلته لئلا یوهم کلامه أنه یسأل ما یسأل لنفسه فقال: «کَیْ نُسَبِّحَکَ کَثِیراً وَ نَذْکُرَکَ کَثِیراً » و استشهد علی صدقه فی دعواه بعلم الله نفسه بإلقاء أنفسهما بین یدیه و عرضها علیه فقال: «إِنَّکَ کُنْتَ بِنٰا بَصِیراً » و عرض السائل المحتاج نفسه فی حاجتها علی المسئول الغنی الجواد من أقوی ما یهیج عاطفه الرحمه لأنه یفید إراءه نفس الحاجه فوق ما یفیده ذکر الحاجه باللسان الذی لا یمتنع علیه أن یکذب.

و منه ما حکی الله عنه مما دعا به علی فرعون و ملئه إذ قال: «وَ قٰالَ مُوسیٰ رَبَّنٰا إِنَّکَ آتَیْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِینَهً وَ أَمْوٰالاً فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا رَبَّنٰا لِیُضِلُّوا عَنْ سَبِیلِکَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلیٰ أَمْوٰالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ فَلاٰ یُؤْمِنُوا حَتّٰی یَرَوُا الْعَذٰابَ الْأَلِیمَ، قٰالَ قَدْ أُجِیبَتْ دَعْوَتُکُمٰا فَاسْتَقِیمٰا وَ لاٰ تَتَّبِعٰانِّ سَبِیلَ الَّذِینَ لاٰ یَعْلَمُونَ» :یونس:۸۹.

الدعاء لموسی و هارون و لذلک صدر بکلمه «رَبَّنٰا » و یدل علیه ما فی الآیه التالیه:

«قٰالَ قَدْ أُجِیبَتْ دَعْوَتُکُمٰا » دعوا أولا علی أموالهم أن یطمس الله علیها ثم علی أنفسهم أن یشد الله علی قلوبهم فلا یؤمنوا حتی یروا العذاب الألیم فلا یقبل إیمانهم کما قال تعالی:

«یَوْمَ یَأْتِی بَعْضُ آیٰاتِ رَبِّکَ لاٰ یَنْفَعُ نَفْساً إِیمٰانُهٰا لَمْ تَکُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ کَسَبَتْ فِی إِیمٰانِهٰا خَیْراً» :الأنعام:۱۵۸ أی انتقم منهم بتحریم الإیمان علیهم بمفاجاه العذاب کما حرموه علی عبادک بإضلالهم،و هذا أشد ما یمکن أن یدعی به علی أحد فإنه الدعاء بالشقوه الدائمه و لا شیء شرا منه بالنسبه إلی إنسان.

و الدعاء بالشر غير الدعاء بالخير حكما فإن الرحمه الإلهيه سبقت غضبه و قد قال لموسى فيما أوحى إليه: «عَذٰابِی أُصِیبُ بِهِ مَنْ أَشٰاءُ وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْءٍ» :الأعراف:

۱۵۶ فسعه الرحمه الإلهيه تقضى بكراهيه إصابه الشر و الضر لعبد من عباده و إن كان ظالما،و يشهد بذلك ما يفيض الله سبحانه من نعمه عليهم و سترهم بكرمه و أمره عباده بالحلم و التصبر عند جهالتهم و خرقهم اللهم إلا فى إقامه حق لازم،أو عند اضطرار فى مظلمه إذا كانوا على علم بأن مصلحه ملزمه كمصلحه الدين أو أهل الدين تقتضى ذلك.

على أن جهات الخير و السعاده كلما كانت أرق لطافه و أدق رتبه كانت أوقع عند النفوس بالفطره التى فطر الله الناس عليها بخلاف جهات الشر و الشقاء فإن الإنسان بحسب طبعه يفر من الوقوف عليها،و يحتال أن لا يلتفت إلى أصلها فضلا عن تفاصيل خصوصياتها،و هذا المعنى يوجب اختلاف الدعاءين أعنى الدعاء بالخير و الدعاء بالشر من حيث الآداب.

فمن أدب الدعاء بالشر أن تذكر الأمور التى بعثت إلى الدعاء بالتكنيه و خاصه فى الأمور الشنيعه الفظيعه بخلاف الدعاء بالخير فإن التصريح بعوامل الدعاء فيه هو المطلوب،و قد راعاه(ع)فى دعائه حيث قال: «لِیُضِلُّوا عَنْ سَبِیلِکَ » و لم يأت بتفاصيل ما كانت تأتى به آل فرعون من الفظائع.

و من أدبه الإكثار من الاستغاثه و التضرع و قد راعاه فيما يقول: «رَبَّنٰا » و تكرره مرات فى دعائه على قصره.

و من أدبه أن لا يقدم عليه إلا مع العلم بأنه على مصلحه الحق من دين أو أهله من دون أن يجرى على ظن أو تهمه، و قد كان(ع)على علم منه و قد قال الله فيه: «وَ لَقَدْ أَرَیْنٰاهُ آیٰاتِنٰا کُلَّهٰا فَکَذَّبَ وَ أَبیٰ» :طه:۵۶ و كأنه لذلك أمره الله سبحانه و أخاه عند ما أخبرهما بالاستجابه بقوله: «فَاسْتَقِیمٰا وَ لاٰ تَتَّبِعٰانِّ سَبِیلَ الَّذِینَ لاٰ یَعْلَمُونَ » و الله أعلم.

و من دعاء موسى ما حكاه الله عنه فى قوله: «وَ اخْتٰارَ مُوسیٰ قَوْمَهُ سَبْعِینَ رَجُلاً لِمِیقٰاتِنٰا فَلَمّٰا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَهُ قٰالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَکْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِیّٰایَ أَ تُهْلِکُنٰا بِمٰا فَعَلَ السُّفَهٰاءُ مِنّٰا إِنْ هِیَ إِلاّٰ فِتْنَتُکَ تُضِلُّ بِهٰا مَنْ تَشٰاءُ وَ تَهْدِی مَنْ تَشٰاءُ أَنْتَ وَلِیُّنٰا فَاغْفِرْ لَنٰا

وَ ارْحَمْنٰا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغٰافِرِينَ، وَ اكْتُبْ لَنٰا فِي هٰذِهِ الدُّنْيٰا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنّٰا هُدْنٰا إِلَيْكَ :الأعراف:۱۵۶.

يبتدئ الدعاء من قوله: «فَاغْفِرْ لَنٰا ،إلخ»غير أن الموقف لما كان موقفا صعبا قد أخذهم الغضب الإلهى و البطش الذى لا يقوم له شيء،و ما مسأله المغفره و الرحمه من سيد ساخط قد هتكت حرمته و أهين على سؤدده كمسأله من هو فى حال سوى فلذلك قدم(ع)ما تسكن به فوره الغضب الإلهى حتى يتخلص إلى طلب المغفره و الرحمه.

فقال: «رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيّٰايَ » يريد(ع)-كما تدل عليه قرينه المقام-رب إن نفسى و نفوسهم جميعا قبض قدرتك،و طوع مشيئتك،لو شئت أهلكتهم و أنا فيهم قبل اليوم كما أهلكتهم اليوم و أبقيتنى؛فما ذا أقول لقومى إذا رجعت إليهم و اتهمونى بأنى قتلتهم،و حالهم ما أنت أعلم به؟و هذا يبطل دعوتى و يحبط عملى.

ثم عد(ع)إهلاك السبعين إهلاكا له و لقومه فذكر أنهم سفهاء من قومه لا يعبأ بفعلهم فأخذ ربه برحمته حيث لم يكن من عادته تعالى أن يهلك قوما بفعل السفهاء منهم،و ليس ذلك إلا موردا من موارد الامتحان العام الذى لا يزال جاريا على الإنسان فيضل به كثير،و يهتدى به كثير،و لم تقابلها إلا بالصفح و الستر.

و إذ كان بيدك أمر نفسى و نفوسنا تقدر على إهلاكنا متى شئت،و كانت هذه الواقعه غير بدع فى مسير امتحانك العام الذى يعقب ضلال قوم و هدايه آخرين،و لا ينتهى إلا إلى مشيئتك فأنت ولينا الذى يقوم بأمرك و مشيئتك تدبير أمورنا،و لا صنع لنا فيها فاقض فينا بالمغفره و الرحمه فإن من جمله صفاتك أنك خير الغافرين،و اكتب لنا فى هذه الدنيا عيشه آمنه من العذاب و هى التى يستحسنها من أحاط به غمر السخط الإلهى،و فى الآخره حسنه بالمغفره و الجنه.

و هذا ما ساقه(ع)فى مسألته،و قد أخذتهم الرجفه و شملتهم البليه؛فانظر كيف استعمل جميل أدب العبوديه و استرحم ربه،و لم يزل يستوهب الرحمه،و يسكن بثنائه فوره السخط الإلهى حتى أجيب إلى ما لم يذكره من الحاجه بين ما ذكره،و هو إعاده حياتهم إليهم بعد الإهلاك،و أوحى إليه بما حكاه الله تعالى: «قٰالَ عَذٰابِي

أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ كُلَّ شَیْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ وَ یُؤْتُونَ الزَّكَاهَ وَ الَّذِینَ هُمْ بِآیَاتِنَا یُؤْمِنُونَ» :الأعراف:۱۵۶ فما ظنک به تعالی بعد ما قال لموسی(ع) جوابا لمسألته: «وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ كُلَّ شَیْءٍ .

و قد ذکر تعالی صریح عفوه عن هؤلاء،و إجابته إلی مسألته موسی(ع) بإعاده الحیاه إلیهم و قد أهلکوا و ردهم إلی الدنیا بقوله: «وَ إِذْ قُلْتُمْ یَا مُوسَی لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتَّی نَرَی اللَّهَ جَهْرَهً فَأَخَذَتْکُمُ الصَّاعِقَهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، ثُمَّ بَعَثْنَاکُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِکُمْ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ :البقره:۵۶ و یقرب من ذلک ما فی سوره النساء.

و قد استعمل(ع)من الأدب فی کلامه حیث قال: «تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ » لم یذکر أن ذلک من سوء اختیار هؤلاء الضالین لینزهه تعالی لفظا کما کان ینزهه قلبا فیکون علی حد قوله تعالی: «یُضِلُّ بِهِ کَثِیراً وَ یَهْدِی بِهِ کَثِیراً وَ مَا یُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِینَ» :البقره:۲۶ لأن المقام کان یصرفه عن التعرض إلا لکونه تعالی ولیا علی الإطلاق ینتهی إلیه کل التدبیر لا غیر.

و لم یورد فی الذکر أیضا عمده ما فی نفسه من المسأله و هو أن یحییهم الله سبحانه بعد الإهلاک لأن الموقف علی ما کان فیه من هول و خطر کان یصرفه عن الاسترسال، و إنما أشار إلیه إشاره بقوله: «رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَکْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِیَّایَ ،إلخ».

و من دعائه(ع)ما دعا به حین رجع إلی قومه من المیقات فوجدهم قد عبدوا العجل من بعده،و قد کان الله سبحانه أخبره بذلک قال تعالی «وَ أَلْقَی الْأَلْوَاحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِیهِ یَجُرُّهُ إِلَیْهِ،قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِی وَ کَادُوا یَقْتُلُونَنِی فَلَا تُشْمِتْ بِیَ الْأَعْدَاءَ وَ لَا تَجْعَلْنِی مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ» :«الأعراف:۱۵۰ فعند ذلک رق له و دعا له و لنفسه لیمتازا بذلک من القوم الظالمین: «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِأَخِی وَ أَدْخِلْنَا فِی رَحْمَتِکَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِینَ» :الأعراف:۱۵۱.

و لم یکن یرید التمیز منهم و أن یدخلهما الله فی رحمته إلا لما کان یعلم أن الغضب الإلهی سینال القوم بظلمهم کما ذکره الله بقوله بعد ذلک: «إِنَّ الَّذِینَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَیَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّهٌ فِی الْحَیَاهِ الدُّنْیَا» :الأعراف:۱۵۲ و یعرف بما تقدم وجوه من الأدب فی کلامه.

و من دعائه(ع)-و هو فى معنى الدعاء على قومه إذ قالوا له حين أمرهم بدخول الأرض المقدسه: «يا مُوسى إِنّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما داموا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنّا هاهُنا قاعِدُونَ» :المائده:۲۴-ما حكاه الله تعالى بقوله: «قالَ رَبِّ إِنِّی لا أَمْلِكُ إِلاّ نَفْسِی وَ أَخِی فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ» :المائده:۲۵.

و قد أخذ(ع)بالأدب الجميل حيث كنى عن الإمساك عن أمرهم و تبليغهم أمر ربهم ثانيا بعد ما جبهوا أمره الأول بأقبح الرد و أشنع القول بقوله: «رَبِّ إِنِّی لا أَمْلِكُ إِلاّ نَفْسِی وَ أَخِی » أى لا يطيعنى فيما أمرته إلا نفسى و أخى أى إنهم ردوا على بما لا مطمع فيهم بعده،فها أنا أكف عن أمرهم بأمرك و إرشادهم إلى ما فيه صلاح جماعتهم.

و إنما نسب ملك نفسه و أخيه إلى نفسه لأن مراده من الملك بقرينه المقام ملك الطاعه و لو كان هو الملك التكوينى لم ينسبه إلى نفسه إلا مع بيان أن حقيقته لله سبحانه،و إنما له من الملك ما ملكه الله إياه،و لما عرض لربه من نفسه الإمساك و اليأس عن إجابتهم إليه أحال الحكم فى ذلك فقال: «فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ » .

و من ذلك ما دعا به شعيب(ع)على قومه إذ قال: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ» :الأعراف:۸۹.

و هذا استنجاز منه للوعد الإلهى بعد ما يئس من نجاح دعوته فيهم،و مسأله للقضاء بينه و بينهم بالحق على ما قاله الله تعالى: «وَ لِكُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِیَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» :يونس:۴۸.

و إنما قال «بَيْنَنا » لأنه ضم المؤمنين به إلى نفسه،و قد كان الكافرون من قومه هددوا إياه و المؤمنين به جميعا إذ قالوا: «لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِی مِلَّتِنا» :الأعراف:۸۸ فضمهم إلى نفسه و هاجر قومه فى عملهم و سار بهم إلى ربه و قال: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا ،إلخ».

و قد استمسك فى دعائه باسمه الكريم: «خَيْرُ الْفاتِحِينَ » لما مر أن التمسك بالصفه المناسبه لمتن الدعاء تأييد بالغ بمنزله الإقسام،و هذا بخلاف قول موسى(ع): «رَبِّ

إِنِّی لاٰ أَمْلِکُ إِلاّٰ نَفْسِی وَ أَخِی فَافْرُقْ بَیْنَنٰا وَ بَیْنَ الْقَوْمِ الْفٰاسِقِینَ » المنقول آنفا لما تقدم أن لفظه ع لیس بدعاء حقیقه بل هو کنایه عن الإمساک عن الدعوه و إرجاع للأمر إلی الله فلا مقتضی للإقسام بخلاف قول شعیب.

و من ذلک ما حکاه الله من ثناء داود و سلیمان(ع)قال تعالی: «وَ لَقَدْ آتَیْنٰا دٰاوُدَ وَ سُلَیْمٰانَ عِلْماً وَ قٰالاَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی فَضَّلَنٰا عَلیٰ کَثِیرٍ مِنْ عِبٰادِهِ الْمُؤْمِنِینَ» :النمل:۱۵.

وجه الأدب فی حمدهما و شکرهما و نسبه ما عندهما من فضیله العلم إلی الله سبحانه ظاهر،فلم یقولا مثل ما حکی عن غیرهما کقول قارون لقومه إذ وعظوه أن لا یستکبر فی الأرض بماله: «إِنَّمٰا أُوتِیتُهُ عَلیٰ عِلْمٍ عِنْدِی» :القصص:۷۸ و کما حکی الله عن قوم آخرین: «فَلَمّٰا جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ فَرِحُوا بِمٰا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ» :المؤمن:۸۳.

و لا ضیر فی الحمد علی تفضیل الله إیاهما علی کثیر من المؤمنین فإنه من ذکر خصوص النعمه و بیان الواقع،و لیس ذلک من التکبر علی عباد الله حتی یلحق به ذم،و قد ذکر الله عن طائفه من المؤمنین سؤال التفضیل و مدحهم علی علو طبعهم و سمو همتهم حیث قال:

«وَ الَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنٰا -إلی أن قال- وَ اجْعَلْنٰا لِلْمُتَّقِینَ إِمٰاماً» :الفرقان:۷۴.

و من ذلک ما حکاه عن سلیمان(ع)فی قصه النمله بقوله: «حَتّٰی إِذٰا أَتَوْا عَلیٰ وٰادِ النَّمْلِ قٰالَتْ نَمْلَهٌ یٰا أَیُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسٰاکِنَکُمْ لاٰ یَحْطِمَنَّکُمْ سُلَیْمٰانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لاٰ یَشْعُرُونَ، فَتَبَسَّمَ ضٰاحِکاً مِنْ قَوْلِهٰا وَ قٰالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ الَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلیٰ وٰالِدَیَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ وَ أَدْخِلْنِی بِرَحْمَتِکَ فِی عِبٰادِکَ الصّٰالِحِینَ» :النمل:۱۹.

ذکرته النمله بما قالته ما له من الملک العظیم الذی شیدت أرکانه بتسخیر الریح تجری بأمره،و الجن یعملون له ما یشاء و العلم بمنطق الطیر و غیره غیر أن هذا الملک لم یقع فی ذکره(ع)فی صوره أجلی أمنیه یبلغها الإنسان کما فینا و لم ینسه عبودیته و مسکنته بل إنما وقع فی نفسه فی صوره نعمه أنعمها علیه ربه فذکر ربه و نعمته أنعمها علیه و علی والدیه بما خصهم به،و هو من مثله(ع)و الحال هذا الحال أفضل الأدب مع ربه.

و قد ذکر نعمه ربه،و هی و إن کانت کثیره فی حقه غیر أن مورد نظره(ع) و المقام ذاک المقام-هو الملک العظیم و السلطه القاهره،و لذلک ذکر العمل الصالح

و سأل ربه أن یوزعه لیعمل صالحا لأن العمل الصالح و السیره الحسنه هو المطلوب ممن استوی علی عرش الملک.

فلذلک کله سأل ربه أولا- أن یوزعه علی شکر نعمته،و ثانیا أن یعمل صالحا، و لم یرض بسؤال العمل الصالح دون أن قیده بقوله: تَرْضٰاهُ فإنه عبد لا شغل له بغیر ربه؛و لا یرید الصالح من العمل إلا لأن ربه یرضاه،ثم تمم مسأله التوفیق لصلاح العمل بمسأله صلاح الذات فقال: «وَ أَدْخِلْنِی بِرَحْمَتِکَ فِی عِبٰادِکَ الصّٰالِحِینَ » .

و من ذلک ما حکاه الله عن یونس(ع)و قد دعا به و هو فی بطن الحوت الذی التقمه قال تعالی: «وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغٰاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَیْهِ فَنٰادیٰ فِی الظُّلُمٰاتِ أَنْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنْتَ سُبْحٰانَکَ إِنِّی کُنْتُ مِنَ الظّٰالِمِینَ» :الأنبیاء:٨٧.

کان(ع)-علی ما یقصه القرآن-قد سأل ربه أن ینزل علی قومه العذاب فأجابه إلی ذلک فأخبرهم به فلما أشرف علیهم العذاب بالنزول تابوا إلی ربهم فرفع عنهم العذاب،و لما شاهد یونس ذلک ترک قومه،و ذهب لوجهه حتی رکب السفینه فاعترضها حوت فساهمهم فی أن یدفعوا الحوت بإلقاء رجل منهم إلیه لیلتقمه و ینصرف عن الباقین، فخرجت القرعه باسمه فألقی فی البحر فالتقمه الحوت فکان یسبح الله فی بطنه إلی أن أمره الله أن یلقیه إلی ساحل البحر،و لم یکن ذلک إلا تأدیبا إلهیا یؤدب به أنبیاءه علی حسب ما یقتضیه مختلف أحوالهم،و قد قال تعالی: «فَلَوْ لاٰ أَنَّهُ کٰانَ مِنَ الْمُسَبِّحِینَ، لَلَبِثَ فِی بَطْنِهِ إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ» :الصافات:١۴۴ فکان حاله فی ترکه العود إلی قومه و ذهابه لوجهه یمثل حال عبد أنکر علی ربه بعض عمله فغضب علیه فأبق منه و ترک خدمته و ما هو وظیفه عبودیته فلم یرتض الله له ذلک فأدبه فابتلاه و قبض علیه فی سجن لا یقدر فیه أن یتوسع قدر أنمله فی ظلمات بعضها فوق بعض فنادی فی الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانک إنی کنت من الظالمین.

و لم یکن ذلک کله إلا- لأن یتمثل له علی خلاف ما کان یمثله حاله أن الله سبحانه قادر علی أن یقبض علیه و یحبسه حیث شاء،و أن یصنع به ما شاء فلا مهرب من الله سبحانه إلا إلیه،و لذلک لقنه الحال الذی تمثل له و هو فی سجنه من بطن الحوت أن یقر لله بأنه هو المعبود الذی لا معبود غیره،و لا مهرب عن عبودیته فقال: «لاٰ

إِلٰهَ إِلاّ أَنْتَ » و لم يناده تعالى بالربوبيه،و هذا أوحد دعاء من أدعيه الأنبياء(ع) لم يصدر باسم الرب.

ثم ذكر ما جرى عليه الحال من تركه قومه إثر عدم إهلاكه تعالى إياهم بما أنزل عليهم من العذاب فأثبت الظلم لنفسه و نزه الله سبحانه عن كل ما فيه شائبه الظلم و النقص فقال: «سُبْحانَکَ إِنِّی کُنْتُ مِنَ الظّالِمِینَ » .

و لم يذكر مسألته-و هى الرجوع إلى مقامه العبودى السابق-عدا لنفسه دون لياقه الاستعطاء و استحقاق العطاء استغراقا فى الحياء و الخجل،و الدليل على مسألته قوله تعالى بعد الآيه السابقه: «فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّیْناهُ مِنَ الْغَمِّ» :الأنبياء:٨٨.

و الدليل على أن مسألته كانت هى الرجوع إلى سابق مقامه قوله تعالى: «فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِیمٌ، وَ أَنْبَتْنا عَلَیْهِ شَجَرَةً مِنْ یَقْطِینٍ، وَ أَرْسَلْناهُ إِلیٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ یَزِیدُونَ، فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلیٰ حِینٍ» :الصافات:١۴٨.

و من ذلك ما ذكره الله تعالى عن أيوب((ع))بعد ما أزمنه المرض و هلك عنه ماله و ولده حيث قال: «وَ أَیُّوبَ إِذْ نادیٰ رَبَّهُ أَنِّی مَسَّنِیَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرّاحِمِینَ» » :الأنبياء:٨٣.

وجوه التأدب فيه ظاهره مما تقدم بيانه،و لم يذكر((ع))حاجته صريحا على حد ما تقدم من أدعيه آدم و نوح و موسى و يونس(ع)هضما لنفسه و استحقارا لأمره،و أدعيه الأنبياء كما تقدم و يأتى خاليه عن التصريح بالحاجه إذا كان مما يرجع إلى أمور الدنيا و إن كانوا لا يريدون شيئا من ذلك اتباعا لهوى أنفسهم.

و بوجه آخر ذكره السبب الباعث إلى المسأله كمس الضر و الصفه الموجوده فى المسئول المطمعه للسائل فى المسأله ككونه تعالى أرحم الراحمين،و السكوت عن ذكر نفس الحاجه،أبلغ كنايه عن أن الحاجه لا تحتاج إلى ذكر فإن ذكرها يوهم أن الأسباب المذكوره ليست بكافيه فى إثاره رحمه من هو أرحم الراحمين بل يحتاج إلى تأييد بالذكر و تفهيم باللفظ.

و من ذلك ما حكاه عن زكريا((ع)):حيث قال: «ذِکْرُ رَحْمَتِ رَبِّکَ عَبْدَهُ

زَکَرِیّٰا، إِذْ نٰادیٰ رَبَّهُ نِدٰاءً خَفِیًّا، قٰالَ رَبِّ إِنِّی وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّی وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَیْباً وَ لَمْ أَکُنْ بِدُعٰائِکَ رَبِّ شَقِیًّا، وَ إِنِّی خِفْتُ الْمَوٰالِیَ مِنْ وَرٰائِی وَ کٰانَتِ امْرَأَتِی عٰاقِراً فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا، یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِیًّا» :مریم:۶.

إنما حثه علی هذا الدعاء و رغبه فی أن یستوهب ولدا من ربه ما شاهده من أمر مریم ابنه عمران فی زهدها و عبادتها،و ما أکرمها الله سبحانه به من أدب العبودیه، و خصها به من کرامه الرزق من عنده علی ما یقصه الله تعالی فی سوره آل عمران قال تعالی: «وَ کَفَّلَهٰا زَکَرِیّٰا کُلَّمٰا دَخَلَ عَلَیْهٰا زَکَرِیَّا الْمِحْرٰابَ وَجَدَ عِنْدَهٰا رِزْقاً قٰالَ یٰا مَرْیَمُ أَنّٰی لَکِ هٰذٰا قٰالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ یَرْزُقُ مَنْ یَشٰاءُ بِغَیْرِ حِسٰابٍ، هُنٰالِکَ دَعٰا زَکَرِیّٰا رَبَّهُ قٰالَ رَبِّ هَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ ذُرِّیَّهً طَیِّبَهً إِنَّکَ سَمِیعُ الدُّعٰاءِ» :آل عمران:۳۸.

فغشیه شوق شدید إلی ولد طیب صالح یرثه و یعبد ربه عباده مرضیه کما ورثت مریم عمران و بلغت جهدها فی عباده ربها و نالت منه الکرامه غیر أنه وجد نفسه و قد نال منه الشیب، و انهدت منه القوی،و کذلک امرأته و قد کانت عاقره فی سنی ولادتها فأدرکته من حسره الحرمان من نعمه الولد الطیب الرضی ما الله أعلم به،لکن لم یملک نفسه مما هاج فیه من الغیره الإلهیه و الاعتزاز بربه دون أن رجع إلی ربه و ذکر له ما یثور به الرحمه و الحنان من حاله أنه لم یزل عالقا علی باب العبودیه و المسأله منذ حداثه سنه حتی وهن عظمه و اشتعل رأسه شیبا،و لم یکن بدعائه شقیا،و قد وجده سبحانه سمیع الدعاء فلیسمع دعاءه و لیهب له وارثا رضیا.

و الدلیل علی ما ذکرنا أنه إنما سأل ما سأل بما ملک نفسه من هیجان الوجد و الحزن ما حکاه الله تعالی عنه بعد ما أوحی إلیه بالاستجابه بقوله: «قٰالَ رَبِّ أَنّٰی یَکُونُ لِی غُلاٰمٌ وَ کٰانَتِ امْرَأَتِی عٰاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْکِبَرِ عِتِیًّا، قٰالَ کَذٰلِکَ قٰالَ رَبُّکَ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُکَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَکُ شَیْئاً» :مریم:۹ فإنه ظاهر فی أنه((ع)) لما سمع الاستجابه صحا عن حاله و أخذ یتعجب من غرابه المسأله و الإجابه حتی سأل ربه عن ذلک فی صوره الاستبعاد و سأل لنفسه علیه آیه فأجیب إلیها أیضا.

و کیف کان فالذی استعمله(ع)فی دعائه من الأدب هو ما ساقه إلیه حال الوجد و الحزن الذی ملکه،و لذلک قدم علی دعائه بیان ما بلغ به الحال فی سبیل ربه

فقد صرف دهره فی سلوک سبیل الإنابه و المسأله حتی وقف موقفا یرق له قلب کل ناظر رحیم ثم سأل الولد و علله بأن ربه سمیع الدعاء.

فهذا معنی ما ذکره مقدمه لمسألته لا أنه کان یمتن بطول عبودیته علی ربه -حاشا مقام النبوه-فمعنی قوله علی ما فی سوره آل عمران: «رَبِّ هَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ ذُرِّیَّهً طَیِّبَهً إِنَّکَ سَمِیعُ الدُّعاءِ » أنی أسألک ما أسألک لا لأن لطول عبودیتی- و هو دعاؤه المدید-قدرا عندک أو فیه منه علیک بل لأنی أسألک،و قد وجدتک سمیعا لدعاء عبادک و مجیبا لدعوه السائلین المضطرین،و قد اضطرنی خوف الموالی من ورائی،و الحث الشدید لذریه طیبه یعبدک أن أسألک.

و قد تقدم أن من الأدب الذی استعمله فی دعائه أن ألحق تخوف الموالی قوله:

«وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِیًّا » و الرضی و إن کان طبعه یدل بهیئته علی ثبوت الرضا لموصوفه، و الرضا یشمل بإطلاقه رضی الله و رضی زکریا و رضی یحیی لکن قوله فی آیه آل عمران: «ذُرِّیَّهً طَیِّبَهً » یدل علی أن المراد بکونه رضیا کونه مرضیا عند زکریا لأن الذریه إنما تکون طیبه لصاحبها لا غیر.

و من ذلک ما حکاه الله سبحانه عن المسیح حین سأل المائده بقوله: «قالَ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ اللّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَیْنا مائِدَهً مِنَ السَّماءِ تَکُونُ لَنا عِیداً لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا وَ آیَهً مِنْکَ وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَیْرُ الرّازِقِینَ» :المائده:۱۱۴.

القصه المذکوره فی کلامه تعالی فی سؤال الحواریین عیسی(ع)نزول مائده من السماء علیهم تدل بسیاقه أن هذه المسأله کانت من الأسئله الشاقه علی عیسی (ع)لأن ما حکی عنهم من قولهم له: «یا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ هَلْ یَسْتَطِیعُ رَبُّکَ أَنْ یُنَزِّلَ عَلَیْنا مائِدَهً مِنَ السَّماءِ » کان أولا مشتملا بظاهره علی الاستفهام عن قدره الله سبحانه،و لا یوافق ذلک أدب العبودیه و إن کان حاق مرادهم السؤال عن المصلحه دون أصل القدره فإن حزازه اللفظ علی حالها.

و کان ثانیا متضمنا لاقتراح آیه جدیده مع أن آیاته(ع)الباهره کانت قد أحاطت بهم من کل جهه فکانت نفسه الشریفه آیه،و تکلمه فی المهد آیه،و إحیاؤه

الموتی و خلقه الطیر و إبراؤه الأکمه و الأبرص و إخباره عن المغیبات و علمه بالتوراه و الإنجیل و الکتاب و الحکمه آیات إلهیه لا تدع لشاک شکا و لا لمرتاب ریبا فاختیارهم آیه لأنفسهم و سؤالهم إیاه کان بظاهره کالعبث بآیات الله و اللعب بجانبه،و لذلک وبخهم بقوله: «اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ » .

لکنهم أصروا علی ذلک و وجهوا مسألتهم بقولهم: «نُرِیدُ أَنْ نَأْکُلَ مِنْهٰا وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنٰا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنٰا وَ نَکُونَ عَلَیْهٰا مِنَ الشّٰاهِدِینَ » و ألجئوه إلی السؤال فسأل.

أصلح(ع)بأدبه الموهوب من جانب الله سبحانه ما اقترحوه من السؤال بما یصلح به أن یقدم إلی حضره العزه و الکبریاء فعنونه أولا بعنوان أن یکون عیدا لهم یختصون هو و أمته به فإنها آیه اقتراحیه عدیمه النظیر بین آیات الأنبیاء(ع) حیث کانت آیاتهم إنما تنزل لإتمام الحجه أو لحاجه الأمه إلی نزولها،و هذه الآیه لم تکن علی شیء من هاتین الصفتین.

ثم أجمل ثانیا ما فصله الحواریون من فوائد نزولها من اطمئنان قلوبهم بها و علمهم بصدقه(ع)و شهادتهم علیها،فی قوله: «وَ آیَهً مِنْکَ » .

ثم ذکر ثالثا ما ذکروه من عرض الأکل و أخره و إن کانوا قدموه فی قولهم:

«نُرِیدُ أَنْ نَأْکُلَ مِنْهٰا

،إلخ»و ألبسه لباسا آخر أوفق بأدب الحضور فقال: «وَ ارْزُقْنٰا » ثم ذیله بقوله: «وَ أَنْتَ خَیْرُ الرّٰازِقِینَ » لیکون تأییدا للسؤال بوجه،و ثناء له تعالی من وجه آخر.

و قد صدر مسألته بندائه تعالی: «اللّٰهُمَّ رَبَّنٰا » فزاد علی ما یوجد فی سائر أدعیه الأنبیاء(ع)من قولهم«رب»أو«ربنا»لأن الموقف صعب کما تقدم بیانه.

و منه مشافهته(ع)ربه المحکیه بقوله تعالی: «وَ إِذْ قٰالَ اللّٰهُ یٰا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اتَّخِذُونِی وَ أُمِّی إِلٰهَیْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ قٰالَ سُبْحٰانَکَ مٰا یَکُونُ لِی أَنْ أَقُولَ مٰا لَیْسَ لِی بِحَقٍّ إِنْ کُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِی وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِکَ إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ، مٰا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّٰ مٰا أَمَرْتَنِی بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّی وَ رَبَّکُمْ وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً مٰا دُمْتُ فِیهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ وَ أَنْتَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ، إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبٰادُکَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ»:

»

«المائده:١١٨.

تـأدب(ع)فی کلامه أولا بـأن صـدره بتنزیهه تعـالی عمـا لا یلیق بقـدس سـاحته کما جری علیه کلامه تعالی قال: «وَ قٰالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ» :الأنبیاء:٢۶.

و ثانیا بأن أخـذ نفسه أدون و أخفض من أن یتوهم فی حقه أن یقول مثل هـذا القول حتی یحتاج إلی أن ینفیه،و لـذلک لم یقل من أول مقـالته إلی آخرهـا:«مـا قلت»أو «ما فعلت»و إنما نفی ذلک مره بعـد مره علی طریق الکنایه و تحت الستر فقال: «مٰا یَکُونُ لِی أَنْ أَقُولَ مٰا لَیْسَ لِی بِحَقٍّ » فنفاه بنفی سـببه أی لم یکن لی حق فی ذلک حتی یسعنی أن أتفوه بمثل ذاک القول العظیم،ثم قال: «إِنْ کُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ » ،إلخ» فنفاه بنفی لازمه أی إن کنت قلته کان لازم ذلک أن تعلمه لأن علمک أحاط بی و بجمیع الغیوب.

ثم قـال: «مٰا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّٰ مٰا أَمَرْتَنِی بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّی وَ رَبَّکُمْ » فنفاه بإیراد ما یناقضه مورده علی طریق الحصـر بما و إلا أی إنی قلت لهم قولا و لکنه هو الذی أمرتنی به و هو أن اعبدوا الله ربی و ربکم،و کیف یمکن أن أقول لهم مع ذلک أن اتخذونی و أمی إلهین من دون الله؟.

ثم قـال: «وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَـهِیداً مٰا دُمْتُ فِیهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ » و هو نفی منه(ع)لـذلک کالمتمم لقوله: «مٰا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّٰ مٰا أَمَرْتَنِی بِهِ » «إلخ» و ذلک لأن معناه:ما قلت لهم شیئا مما ینسب إلی و الذی قلت لهم إنما قلته عن أمر منک،و هو «أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّی وَ رَبَّکُمْ » و لم یتوجه إلی أمر فیما سوی ذلک،و لا مساس بهم إلا الشـهاده و الرقوب لأعمالهم ما دمت،فلما توفیتنی انقطعت عنهم،و کنت أنت الرقیب علیهم بشهادتک الدائم العام قبل أن توفیتنی و بعده و علیهم و علی کل شیء غیرهم.

و إذ قـد بلغ الکلام هـذا المبلغ توجه له(ع)أن ینفی ذلک القول عن نفسه بوجه آخر متمم للوجوه التی ذکرها،و به یحصل تمام النفی فقال: «إِنْ تُعَـذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبٰادُکَ ،«إلـخ»یقول-علی ما یؤیده السـیاق-و إذا کان الأمر علی ما ذکرت فأنا بمعزل منهم و هم بمعزل منی فـأنت و عبـادک هؤلاء إن تعـذبهم فـإنهم عبادک،و للسـید الرب أن یعـذب عبیـده بمخالفتهم و إشـراکهم به و هم مستحقون للعذاب،و إن تغفر لهم فلا

عتب عليك لأنك عزيز غير مغلوب و حكيم لا يفعل الفعل السفهى اللغو،و إنما يفعل ما هو الأصلح.

و بما بينا يظهر وجوه لطيفه من أدب العبوديه فى كلامه(ع)و لم يورد جمله فى كلامه إلا و قد مزجها بأحسن الثناء بأبلغ بيان و أصدق لسان.

و من ذلك ما حكاه الله تعالى عن نبيه محمد ص،و قد ألحق به فى ذلك المؤمنين من أمته فقال تعالى: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ مَلاٰئِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لاٰ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا غُفْرٰانَكَ رَبَّنٰا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ، لاٰ يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا لَهٰا مٰا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهٰا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنٰا لاٰ تُؤٰاخِذْنٰا إِنْ نَسِينٰا أَوْ أَخْطَأْنٰا رَبَّنٰا وَ لاٰ تَحْمِلْ عَلَيْنٰا إِصْراً كَمٰا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنٰا رَبَّنٰا وَ لاٰ تُحَمِّلْنٰا مٰا لاٰ طٰاقَةَ لَنٰا بِهِ وَ اعْفُ عَنّٰا وَ اغْفِرْ لَنٰا وَ ارْحَمْنٰا أَنْتَ مَوْلاٰنٰا فَانْصُرْنٰا عَلَى الْقَوْمِ الْكٰافِرِينَ» :البقره:۲۸۶.

كلامه تعالى-كما ترى-يحكى إيمان النبى ص بالقرآن الكريم فيما اشتمل عليه من أصول المعارف،و فيما اشتمل عليه من الأحكام الإلهيه جميعا،ثم يلحق به(ص) المؤمنين من أمته دون المعاصرين الحاضرين عنده(ص)منهم فحسب،بل المؤمنين من جميع الأمه على ما هو ظاهر السياق.

و لازم ذلك أن يكون ما ذكر فيه من إقرار أو ثناء أو دعاء بالنسبه إلى بعضهم محكيا عن لسان حالهم،و إن أمكن أن يكون ذلك مما قاله آخرون بلسان قالهم، أو يكون النبى ص هو القائل ذلك مشافها ربه عن نفسه الشريفه و عن المؤمنين لأنهم بإيمانهم من فروع شجره نفسه الطيبه المباركه.

و الآيتان تشتملان على ما هو كالمقايسه و الموازنه بين أهل الكتاب و بين مؤمنى هذه الأمه من حيث تلقيهم ما أنزل إليهم فى كتاب،الله و إن شئت قلت:من حيث تأدبهم بأدب العبوديه تجاه الكتاب النازل إليهم،فإنه ظاهر ما أثنى الله سبحانه على هؤلاء و خفف الله عنهم فى الآيتين بعين ما وبخ أولئك عليه و عيرهم به فى الآيات السابقه من سوره البقره فقد ذم أهل الكتاب بالتفريق بين ملائكه الله فأبغضوا جبريل و أحبوا غيره،و بين كتب الله المنزله فكفروا بالقرآن و آمنوا بغيره،و بين رسل الله فآمنوا

بموسی أو به و بعيسی و كفروا بمحمد ص،و بين أحكامه فآمنوا ببعض ما فی كتاب الله و كفروا ببعض،و المؤمنون من هذه الأمه آمنوا بالله و ملائكته و كتبه و رسله لا نفرق بين أحد من رسله.

فقد تأدبوا مع ربهم بالتسليم لما أحقه الله من المعارف الملقاه إليهم ثم تأدبوا بالتلبيه لما ندب الله إليه من أحكامه إذ قالوا: «سَمِعْنا وَ أَطَعْنا » لا كقول اليهود:

«سَمِعْنا وَ عَصَيْنا » ثم تأدبوا فعدوا أنفسهم عبادا مملوكين لربهم لا يملكون منه شيئا و لا يمتنون عليه بإيمانهم و طاعتهم فقالوا: «غُفْرانَكَ رَبَّنا » لا كما قالت اليهود:

«سَيُغْفَرُ لَنا » و قالت: «إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ » و قالت: «لَنْ تَمَسَّنَا النّارُ إِلاّ أَيّاماً مَعْدُودَةً » إلی غير ذلک من هفواتهم.

ثم قال الله سبحانه: «لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ » فإن التكليف الإلهی يتبع بحسب طبعه الفطره التی فطر الناس عليها،و من المعلوم أن الفطره التی هی نوع الخلقه لا تدعو إلا إلی ما جهزت به،و فی ذلک سعاده الحياه البته.

نعم لو كان الأمر علی ضرب من الأهميه القاضيه بزياده الاهتمام به،أو خرج العبد المأمور عن حكم الفطره و زی العبوديه جاز بحكم آخر من قبل الفطره أن يوجه المولی أو كل من بيده الأمر إليه من الحكم ما هو خارج عن سعته المعتاده كان يأمره بالاحتياط بمجرد الشک،و اجتناب النسيان و الخطإ إذا اشتد الاهتمام بالأمر، نظير وجوب الاحتياط فی الدماء و الفروج و الأموال فی الشرع الإسلامی،أو يحمل عليه الكلفه و يزيد فی التضييق عليه كلما زاد فی اللجاج و ألح فی المسأله كما أخبر الله بنظائر ذلک فی بنی إسرائيل.

و كيف كان فقوله: «لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً » إما ذيل كلام النبی ص و المؤمنون، و إنما قالوه تقدمه لقولهم: «رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا ،إلخ»ليجری مجری الثناء عليه تعالی و دفعا لما يتوهم أن الله سبحانه يؤاخذ بما فوق الطاقه و يكلف بالحرجی من الحكم فيندفع بأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها و أن الذی سألوه بقولهم: «رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا ، إلخ»إنما هو الأحكام بعناوين ثانويه ناشئه من قبل الحكم أو من قبل المكلفين بالعناد

لا من قبله تعالى.

و إما كلام له تعالى موضوع بين فقرتين من دعائم المحكى فى كلامه أعنى قولهم:

«غُفْرانَکَ رَبَّنا إلخ»و قولهم: «رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا ،إلخ»ليفيد ما مر من الفائده و يكون تأديبا و تعليما لهم منه تعالى فيكون جاريا مجرى كلامهم لأنهم مؤمنون بما أنزل الله،و هو منه،و على أى حال فهو مما يعتمد عليه كلامهم،و يتكئ عليه دعاؤهم.

ثم ذكر بقيه دعائهم و إن شئت فقل:طائفه أخرى من مسائلهم: «رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا » إلخ «رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً » إلخ «رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَهَ لَنا بِهِ وَ اعْفُ عَنّا » و كان مرادهم به العفو عما صدر منهم من النسيان و الخطإ و سائر موجبات الحرج «وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا » فى سائر ذنوبنا و خطيئاتنا و لا يلزم من ذكر المغفره هاهنا التكرار بالنظر إلى قولهم سابقا: «غُفْرانَکَ رَبَّنا » لأنها كلمه حكيت عنهم لفائده قياس حالهم و أدبهم مع ربهم على أهل الكتاب فى معاملتهم مع ربهم و بالنسبه إلى كتابهم المنزل إليهم،على أن مقام الدعاء لا يمانع التكرار كسائر المقامات.

و اشتمال هذا الدعاء على أدب العبوديه فى التمسک بذيل الربوبيه مره بعد مره و الاعتراف بالمملوكيه و الولايه،و الوقوف موقف الذله و مسكنه العبوديه قبال رب العزه مما لا يحتاج إلى بيان.

و فى القرآن الكريم تأديبات إلهيه و تعليمات عاليه للنبى ص بأقسام من الثناء يثنى بها على ربه أو المسأله التى يسأله بها كما فى قوله تعالى: «قُلِ اللّهُمَّ مالِکَ الْمُلْکِ تُؤْتِی الْمُلْکَ مَنْ تَشاءُ» إلى آخر الآيتين:آل عمران:۲۶ و قوله تعالى: «قُلِ اللّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَهِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِکَ» :الزمر:۴۶ و قوله تعالى: «قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى» :النمل:۵۹ و قوله تعالى: «قُلْ إِنَّ صَلاتِی وَ نُسُكِی وَ مَحْيایَ وَ مَماتِی لِلّهِ» الخ:الأنعام:۱۶۲، و قوله تعالى: «وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِی عِلْماً» :طه:۱۱۴ و قوله: وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِکَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ» الخ:المؤمنون:۹۷ إلى غير ذلک من الآيات و هى كثيره جدا.

و يجمعها جميعا أنها تشتمل على أدب بارع أدب الله به رسوله ص و ندب هو إليه أمته.

۷-رعـايتهم الأـدب عن ربهم فيمـا حاوروا قومهم،و هـذا أيضا باب واسع و هو ملحق بالأدب فی الثناء علی الله سـبحانه،و هو من جهه أخری من أبواب التبليغ العملی الذی لا يقصر أو يزيد أثرا علی التبليغ القولی.

و فی القرآن من ذلک شیء کثير قال تعالی فی محاوره جرت بين نوح و قومه:

«قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ، وَ لاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِی إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» :هود:۳۴ ينفی(ع) عن نفسه مـا نسـبوا إليه من إتيـان الآـيه ليعجزوه به،و ينسـبه إلی ربه و يبـالغ فی الأدب بقوله: «إِنْ شَاءَ » ثم بقوله «وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أی لله،و لـذلک نسـبه إليه تعالی بلفظ «اللَّهُ » دون لفظ«ربی»لأن الله هو الـذی ينتهی إليه کل جمال و جلال،و لم يکتف بنفی القدره علی إتيان الآيه عن نفسه و إثباته حتی ثناه بنفی نفع نصحه لهم إن لم يرد الله أن ينتفعوا به فأکمل بذلک نفی القدره عن نفسه و إثباته لربه،و علل ذلک بقوله: «هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

فهـذه محـاوره غـاصه بالأـدب الجميـل فی جنب الله سـبحانه حـاور بهـا نـوح(ع) الطغـاه من قومه محاجـا لهـم،و هو أول نـبی من الأنبياء(ع)فتح باب الاحتجاج فی الدعوه إلی التوحيد،و انتهض علی الوثنيه علی ما يذکره القرآن الشريف.

و هذا أوسع هذه الأبواب مسرحا لنظر الباحث فی أدب الأنبياء(ع) يعثر علی لطائف من سيرتهم المملوءه أدبا و کمالا فإن جميع أقوالهم و أفعالهم و حرکاتهم و سکناتهم مبنيه علی أساس المراقبه و الحضور العبودی،و إن کانت صورتها صوره عمل من غاب عن ربه و غـاب عنه ربه سـبحانه قـال تعـالی: «وَ مَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ لاَ يَسْتَحْسِرُونَ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ» :الأنبياء:۲۰.

و قـد حکی الله تعالی فی کلامه محاورات کثيره عن هود و صالـح و إبراهيم و موسـی و شـعيب و يوسف و سـليمان و عيسـی و محمـد ص و غيرهم من الأنبياء(ع) فی حالات لهم مختلفه کالشـده و الرخاء و الحرب و السـلم و الإعلان و الإسـرار و التبشـير و الإنذار و غير ذلک.

تدبر فی قوله تعالی: «فَرَجَعَ مُوسیٰ إِلیٰ قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ یا قَوْمِ أَ لَمْ یَعِدْکُمْ رَبُّکُمْ وَعْداً حَسَناً أَ فَطالَ عَلَیْکُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ یَحِلَّ عَلَیْکُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّکُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِی» :طه:۸۶ یذکر موسی(ع)إذ رجع إلی قومه و قد امتلأ غیظا و حنقا لا یصرفه ذلک عن رعایه الأدب فی ذکر ربه.

و قوله تعالی: «وَ راوَدَتْهُ الَّتِی هُوَ فِی بَیْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَ قالَتْ هَیْتَ لَکَ قالَ مَعاذَ اللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوایَ إِنَّهُ لا یُفْلِحُ الظّالِمُونَ» :یوسف:۲۳ و قوله تعالی: «قالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَکَ اللّٰهُ عَلَیْنا وَ إِنْ کُنّا لَخاطِئِینَ، قالَ لا تَثْرِیبَ عَلَیْکُمُ الْیَوْمَ یَغْفِرُ اللّٰهُ لَکُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِینَ» :یوسف:۹۲ یذکر یوسف فی خلإ المراوده الذی یملک من الإنسان کل عقل و یبطل عنده کل حزم لا یشغله ذلک عن التقوی ثم عن رعایه الأدب فی ذکر ربه و مع غیره.

و قوله تعالی: «فَلَمّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبِّی لِیَبْلُوَنِی أَ أَشْکُرُ أَمْ أَکْفُرُ وَ مَنْ شَکَرَ فَإِنَّما یَشْکُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ رَبِّی غَنِیٌّ کَرِیمٌ» :النمل:۴۰ و هذا سلیمان(ع)و قد أوتی من عظیم الملک و نافذ الأمر و عجیب القدره أن أمر بإحضار عرش ملکه سبإ من سبإ إلی فلسطین فأحضر فی أقل من طرفه عین فلم یأخذه کبر النفس و خیلاؤها،و لم ینس ربه و لم یمکث دون أن أثنی علی ربه فی ملئه بأحسن الثناء.

و لیقس ذلک إلی ما ذکره الله من قصه نمرود مع إبراهیم(ع)إذ قال:

: «أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِی حَاجَّ إِبْراهِیمَ فِی رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللّٰهُ الْمُلْکَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّیَ الَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ قالَ أَنَا أُحْیِی وَ أُمِیتُ» :البقره:۲۵۸ و قد قال ذلک إذ أحضر رجلین من السجن فأمر بقتل أحدهما و إطلاق الآخر.

أو إلی ما ذکره فرعون مصر إذ قال کما حکاه الله: «یا قَوْمِ أَ لَیْسَ لِی مُلْکُ مِصْرَ وَ هٰذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِی مِنْ تَحْتِی أَ فَلا تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا خَیْرٌ مِنْ هٰذَا الَّذِی هُوَ مَهِینٌ وَ لا یَکادُ یُبِینُ، فَلَوْ لا أُلْقِیَ عَلَیْهِ أَسْوِرَهٌ مِنْ ذَهَبٍ» :الزخرف:۵۳ یباهی بملک مصر و أنهاره و مقدار من الذهب کان یملکه هو و ملؤه و لا یلبث دون أن یقول کما حکی الله: «أَنَا رَبُّکُمُ الْأَعْلیٰ » و هو الذی کانت تستذله آیات موسی یوما بعد یوم من طوفان و جراد و قمل

و ضفادع و غير ذلک.

و قوله تعالى: «إِذْ هُمٰا فِی الْغٰارِ إِذْ يَقُولُ لِصٰاحِبِهِ لاٰ تَحْزَنْ إِنَّ اللّٰهَ مَعَنٰا» :التوبه:۴۰ و قوله: «وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِیُّ إِلىٰ بَعْضِ أَزْوٰاجِهِ حَدِيثاً -إلى أن قال- فَلَمّٰا نَبَّأَهٰا بِهِ قٰالَتْ مَنْ أَنْبَأَکَ هٰذٰا قٰالَ نَبَّأَنِیَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ» :التحريم:۳ فلم يهزهزه(ص)شده الأمر و الهول و الفزع فی يوم الخوف أن يذكر أن ربه معه و لم تنجذب نفسه الشريفه إلى ما كان يهدده من الأمر،و كذا ما أسر به إلى بعض أزواجه فی الخلوه فی اشتماله على رعايه الأدب فی ذكر ربه.

و على وتيره هذه النماذج المنقوله تجری سائر ما وقع فی قصصهم(ع)فی القرآن الكريم من الأدب الرائع و السنن الشريفه،و لو لا أن الكلام قد طال بنا فی هذه الأبحاث لاستقصينا قصصهم و أشبعنا فيها البحث.

[أدب الأنبياء مع الناس]

۸-أدب الأنبياء(ع)مع الناس فی معاشرتهم و محاورتهم،مظاهر هذا القسم هی الاحتجاجات المنقوله عنهم فی القرآن مع الكفار،و المحاورات التی حاوروا بها المؤمنين منهم،ثم شیء يسير من سيرتهم المنقوله.

أما الأدب فی القول فإنک لا تجد فيما حكى من شذرات أقوالهم مع العتاه و الجهله أن يخاطبوهم بشیء مما يسوؤهم أو شتم أو إهانه و إزراء و قد نال منهم المخالفون بالشتم و الطعن و الاستهزاء و السخريه كل منال فلم يجيبوهم إلا بأحسن القول و أنصح الوعظ معرضين عنهم بسلام و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما.

قال تعالى: «فَقٰالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ -يعنی قوم نوح- مٰا نَرٰاکَ إِلاّٰ بَشَراً مِثْلَنٰا وَ مٰا نَرٰاکَ اتَّبَعَکَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِیَ الرَّأْیِ وَ مٰا نَرىٰ لَكُمْ عَلَيْنٰا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كٰاذِبِينَ، قٰالَ يٰا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّی وَ آتٰانِی رَحْمَهً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوهٰا وَ أَنْتُمْ لَهٰا كٰارِهُونَ» :هود:۲۸.

و قال تعالى حكايه عن عاد قوم هود: «إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرٰاکَ بَعْضُ آلِهَتِنٰا بِسُوءٍ قٰالَ إِنِّی أُشْهِدُ اللّٰهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّی بَرِیءٌ مِمّٰا تُشْرِكُونَ، مِنْ دُونِهِ» :هود:۵۵ يريدون باعتراء بعض آلهتهم إياه بسوء ابتلائه(ع)بمثل جنون أو سفاهه و نحو ذلک.

و قال تعالى حكايه عن آزر: «قٰالَ أَ رٰاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِی يٰا إِبْرٰاهِيمُ لَئِنْ لَمْ

تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّکَ وَ اهْجُرْنِی مَلِیًّا، قالَ سَلامٌ عَلَیْکَ سَأَسْتَغْفِرُ لَکَ رَبِّی إِنَّهُ کانَ بِی حَفِیًّا» :مریم:۴۷.

و قال تعالی حکایه عن قوم شعیب(ع): «قالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنّا لَنَراکَ فِی سَفاهَهٍ وَ إِنّا لَنَظُنُّکَ مِنَ الْکاذِبِینَ، قالَ یا قَوْمِ لَیْسَ بِی سَفاهَهٌ وَ لکِنِّی رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ، أُبَلِّغُکُمْ رِسالاتِ رَبِّی وَ أَنَا لَکُمْ ناصِحٌ أَمِینٌ» :الأعراف:۶۸.

و قال تعالی: «قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِینَ، قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُمَا -إلی أن قال- قالَ إِنَّ رَسُولَکُمُ الَّذِی أُرْسِلَ إِلَیْکُمْ لَمَجْنُونٌ، قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَیْنَهُما إِنْ کُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» :الشعراء:۲۸.

و قال تعالی حکایه عن قوم مریم: «قالُوا یا مَرْیَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَیْئاً فَرِیًّا، یا أُخْتَ هارُونَ ما کانَ أَبُوکِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما کانَتْ أُمُّکِ بَغِیًّا، فَأَشارَتْ إِلَیْهِ قالُوا کَیْفَ نُکَلِّمُ مَنْ کانَ فِی الْمَهْدِ صَبِیًّا، قالَ إِنِّی عَبْدُ اللّهِ آتانِیَ الْکِتابَ وَ جَعَلَنِی نَبِیًّا» الخ:مریم:۳۰.

و قال تعالی یسلی نبیه ص فیما رموه به من الکهانه و الجنون و الشعر: «فَذَکِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَهِ رَبِّکَ بِکاهِنٍ وَ لا مَجْنُونٍ، أَمْ یَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَیْبَ الْمَنُونِ، قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّی مَعَکُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِینَ» :الطور:۳۱.

و قال: «وَ قالَ الظّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّ رَجُلاً مَسْحُوراً، انْظُرْ کَیْفَ ضَرَبُوا لَکَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا یَسْتَطِیعُونَ سَبِیلاً» :الفرقان:۹.

إلی غیر ذلک من أنواع الشتم و الرمی و الإهانه التی حکی عنهم فی القرآن،و لم ینقل عن الأنبیاء(ع)أن یقابلوهم بخشونه أو بذاء بل بالقول الصواب و المنطق الحسن اللین اتباعا للتعلیم الإلهی الذی لقنهم خیر القول و جمیل الأدب قال تعالی خطابا لموسی و هارون(ع): «اذْهَبا إِلی فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغی، فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَیِّناً لَعَلَّهُ یَتَذَکَّرُ أَوْ یَخْشی» :طه:۴۴ و قال لنبیه(ص): «وَ إِمّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَهٍ مِنْ رَبِّکَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَیْسُوراً» :الإسراء:۲۸.

و من أدبهم فی المحاوره و الخطاب أنهم کانوا ینزلون أنفسهم منزله الناس فیکلمون کل طبقه من طبقاتهم علی قدر منزلته من الفهم،و هذا ظاهر بالتدبر فیما حکی من

محاوراتهم الناس على اختلافهم المنقوله عن نوح فمن بعده،

- و قد روى الفريقان عن النبى ص: «إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم ».

و ليعلم أن البعثه بالنبوه إنما بنيت على أساس الهدايه إلى الحق و بيانه و الانتصار له فعليهم أن يتجهزوا بالحق فى دعوتهم،و ينخلعوا عن الباطل و يتقوا شبكات الضلال أيا ما كانت سواء وافق ذلك رضى الناس أو سخطهم،و استعقب طوعهم أو كرههم و لقد ورد منه تعالى أشد النهى فى ذلك لأنبيائه و أبلغ التحذير حتى عن اتباع الباطل قولا و فعلا بغرض نصره الحق فإن الباطل باطل سواء وقع فى طريق الحق أو لم يقع، و الدعوه إلى الحق لا يجامع تجويز الباطل و لو فى طريق الحق و الحق الذى يهدى إليه الباطل و ينتجه ليس بحق من جميع جهاته.

و لذلك قال تعالى: «وَ مٰا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً» :الكهف:۵۱ و قال:

«وَ لَوْ لاٰ أَنْ ثَبَّتْنٰاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً، إِذاً لَأَذَقْنٰاكَ ضِعْفَ الْحَيٰاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمٰاتِ ثُمَّ لاٰ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنٰا نَصِيراً» :الإسراء:۷۵ فلا مساهله و لا ملابسه و لا مداهنه فى حق و لا حرمه لباطل.

و لذلك جهز الله سبحانه رجال دعوته و أولياء دينه و هم الأنبياء(ع)بما يسهل لهم الطريق إلى اتباع الحق و نصرته،قال تعالى: «مٰا كٰانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمٰا فَرَضَ اللّٰهُ لَهُ سُنَّةَ اللّٰهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كٰانَ أَمْرُ اللّٰهِ قَدَراً مَقْدُوراً، الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسٰالاٰتِ اللّٰهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ حَسِيباً» :الأحزاب:

۳۹ فأخبر أنهم لا يتحرجون فيما فرض الله لهم و يخشونه و لا يخشون أحدا غيره فليس أى مانع من إظهارهم الحق و لو بلغ بهم أى مبلغ و أوردهم أى مورد.

ثم وعدهم النصر فيما انتهضوا له فقال: «وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ، وَ إِنَّ جُنْدَنٰا لَهُمُ الْغٰالِبُونَ» :الصافات:۱۷۳ و قال: «إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا» :المؤمن:۵۱.

و لذلك نجدهم فيما حكى عنهم لا يبالون شيئا فى إظهار الحق و قول الصدق و إن لم يرتضه الناس و استمروه فى مذاقهم،قال تعالى حاكيا عن نوح يخاطب قومه:

«وَ لٰكِنِّي أَرٰاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ» :هود:۲۹ و قال عن قول هود: «إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُفْتَرُونَ»:

هود:٥٠ و قوله لقومه: «قَدْ وَقَعَ عَلَيْكَمْ مِنْ رَبِّكَمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَ تُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» » :الأعراف:٧١،و قال تعالى يحكى عن لوط: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ» :الأعراف:٨١ و حكى عن إبراهيم من قوله لقومه: «أُفٍّ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ» :الأنبياء:

٦٧ و حكى عن موسى فى جواب قول فرعون له: «إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً، قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بَصَائِرَ وَ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً» :الإسراء:١٠٢ أى ممنوعا من الإيمان بالحق مطرودا هالكا، إلى غير ذلك من الموارد.

فهذه كلها من رعايه الأدب فى جنب الحق و اتباعه،و لا مطلوب أعز منه و لا بغيه أشرف منه و أغلى،و إن كان فى بعضها ما ينافى الأدب الدائر بين الناس لابتناء حياتهم على اتباع جانب الهوى و السلوك إلى أمتعه الحياه بمداهنه المبطلين و الخضوع و التملق إلى المفسدين و المترفين سياسه فى العمل.

و جمله الأمر أن الأدب كما تقدم فى أول هذه المباحث إنما يتأتى فى القول السائغ و العمل الصالح،و يختلف حينئذ باختلاف مسالك الحياه فى المجتمعات و الآراء و العقائد التى تتمكن فيها و تتشكل هى عنها،و الدعوه الإلهيه التى تستند إليها المجتمع الدينى إنما تتبع الحق فى الاعتقاد و العمل،و الحق لا يخالط الباطل و لا يمازجه و لا يستند إليه و لا يعتضد به فلا محيص عن إظهاره و اتباعه،و الأدب الذى يتأتى فيه أن يسلك فى طريق الحق أحسن المسالك و يتزيى فيه بأظرف الأزياء كاختيار لين القول إذا صح أن يتكلم بلينه و خشونه،و اختيار الاستعجال فى الخبر إذا أمكن فيه كل من المسارعه و التبطى.

و هذا هو الذى يأمر به فى قوله تعالى: «وَ كَتَبْنَا لَهُ -أى لموسى- فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا» :الأعراف:١٤٥ و بشر عباده الآخذين به فى قوله: «فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ» :الزمر:١٨ فلا أدب فى باطل و لا أدب فى ممزوج من حق و باطل فإن الخارج من صريح الحق ضلال لا يرتضيه ولى الحق و قد قال: «فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ» :يونس:٣٢.

و هذا هو الذى دعا أنبياء الحق إلى صراحه القول و صدق اللهجه و إن كان ذلك فى بعض الموارد مما لا يرتضيه سنه المداهنه و التساهل و الأدب الكاذب الدائر فى المجتمعات غير الدينيه.

و من أدبهم مع الناس فى معاشرتهم و سيرتهم فيهم احترام الضعفاء و الأقوياء على حد سواء و الإكثار و المبالغه فى حق أهل العلم و التقوى منهم فإنهم لما بنوا على أساس العبوديه و تربيه النفس الإنسانيه تفرع عليه تسويه الحكم فى الغنى و الفقير و الصغير و الكبير و الرجل و المرأه و المولى و العبد و الحاكم و المحكوم و الأمير و المأمور و السلطان و الرعيه، و عند ذلك لغا تمايز الصفات،و اختصاص الأقوياء بمزايا اجتماعيه،و بطل تقسم الوجدان و الفقدان و الحرمان و التنعم و السعاده و الشقاء بين صفتى الغنى و الفقر و القوه و الضعف، و أن للقوى و الغنى من كل مكانه أعلاها،و من كل عيشه أنعمها،و من كل مجاهده أروحها و أسهلها،و من كل وظيفه أخفها بل كان الناس فى ذلك شرعا سواء،قال: «يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاكُمْ» :الحجرات:١٣ و تبدل استكبار الأقوياء بقوتهم و مباهاه الأغنياء بغنيتهم تواضعا للحق و مسارعه إلى المغفره و الرحمه،و تسابقا فى الخيرات و جهادا فى سبيل الله و ابتغاء لمرضاته.

و احترم حينئذ للفقراء كما للأغنياء،و تؤدب مع الضعفاء كما مع الأغنياء بل اختص هؤلاء بمزيد شفقه و رأفه و رحمه،قال تعالى يؤدب نبيه ص: «وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداهِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَهَ الْحَياهِ الدُّنْيا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» :الكهف:٢٨ و قال تعالى: «وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداهِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظّالِمِينَ» :الأنعام:

٥٢،و قال: «لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَ قُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ» :الحجر:٨٩.

و يشتمل على هذا الأدب الجميل ما حكاه الله من محاوره بين نوح(ع)و قومه إذ قال: «فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاّ بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِىَ الرَّأْىِ وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ، قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّى وَ آتانِى رَحْمَهً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ

لَهٰا كٰارِهُونَ، وَ يٰا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مٰالاً إِنْ أَجرِىَ إِلاّٰ عَلَى اللّٰهِ وَ مٰا أَنَا بِطٰارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ وَ لٰكِنِّى أَرٰاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ -أى فى تحقيركم أمر الفقير الضعيف- وَ يٰا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللّٰهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ، وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لاٰ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ -أى لا أدعى شيئا يميزنى منكم بمزيه إلا أنى رسول إليكم- وَ لاٰ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللّٰهُ خَيْراً اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا فِى أَنْفُسِهِمْ -أى من الخير و السعاده اللذين يرجيان منهم- إِنِّى إِذاً لَمِنَ الظّٰالِمِينَ» :هود:۳۱.

و نظيره فى نفى التمييز قول شعيب لقومه على ما حكاه الله: «وَ مٰا أُرِيدُ أَنْ أُخٰالِفَكُمْ إِلىٰ مٰا أَنْهٰاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاٰحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ مٰا تَوْفِيقِى إِلاّٰ بِاللّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ» :هود:۸۸و قال الله تعالى يعرف رسوله ص للناس: «لَقَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» :التوبه:۱۲۸ و قال أيضا: «وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» :التوبه:۶۱ و قال أيضا: «وَ إِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» :القلم:۴ و قال أيضا و فيه جماع ما تقدم: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ رَحْمَةً لِلْعٰالَمِينَ» :الأنبياء:۱۰۷.

و هذه الآيات و إن كانت بحسب المعنى المطابقى ناظره إلى أخلاقه(ص)الحسنه دون أدبه الذى هو أمر وراء الخلق إلا أن نوع الأدب-كما تقدم بيانه-يستفاد من نوع الخلق،على أن نفس الأدب من الأخلاق الفرعيه.

(بحث روائى آخر) [فى سنن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و آدابه خاصه]

الآيات القرآنيه التى يستفاد منها خلقه(ص)الكريم و أدبه الجميل أكثرها وارده فى صوره الأمر و النهى،و لذلك رأينا أن نورد فى هذا المقام روايات من سننه(ص) فيها مجامع أخلاقه التى تلوح إلى أدبه الإلهى الجميل،و هى مع ذلك متأيده بالآيات الشريفه القرآنيه.

۱-فى معانى الأخبار،بطريق عن أبى هاله التميمى عن الحسن بن على(ع) و بطريق آخر عن الرضا عن آبائه عن على بن الحسين عن الحسن بن على(ع)،

و بطريق آخر عن رجل من ولد أبى هاله عن الحسن بن على(ع):

قال: سألت خالى هند بن أبى هاله،و كان وصافا للنبى ص،و أنا أشتهى أن يصف لى منه شيئا لعلى أتعلق به-فقال:كان رسول الله ص فخما مفخما-يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليله البدر،أطول من المربوع و أقصر من المشذب،عظيم الهامه،رجل الشعر، إن تفرقت عقيقته فرق-و إلا فلا- يجاوز شعره شحمه أذنيه إذا هو وفره،أزهر اللون، واسع الجبين،أزج الحواجب سوابغ فى غير قرن،بينهما عرق يدره الغضب-له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم،كث اللحيه،سهل الخدين،ضليع الفم،مفلج،أشنب،مفلج الأسنان،دقيق المشربه،كان عنقه جيد دميه فى صفاء الفضه،معتدل الخلق،بادنا متماسكا،سواء البطن و الصدر،بعيد ما بين المنكبين،ضخم الكراديس،عريض الصدر، أنور المتجرد،موصول ما بين اللبه و السره بشعر يجرى كالخط،عارى الثديين و البطن مما سوى ذلك،أشعر الذراعين و المنكبين و أعلى الصدر،طويل الزندين،رحب الراحه، شثن الكفين و القدمين،سائل الأطراف،سبط القصب،خمصان الأخمصين،فسيح القدمين ينبو عنهما الماء،إذا زال زال قلعا،يخطو تكفؤا،و يمشى هونا،ذريع المشيه،إذا مشى كأنما ينحط فى صبب،و إذا التفت التفت جميعا،خافض الطرف،نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء،جل نظره الملاحظه يبدر من لقيه بالسلام.

قال:فقلت له:صف لى منطقه،فقال:كان(ص)متواصل الأحزان،دائم الفكر ليس له راحه،طويل الصمت لا- يتكلم فى غير حاجه،يفتتح الكلام و يختتمه بأشداقه، يتكلم بجوامع الكلم فصلا لا فضول فيه و لا تقصير،دمثا ليس بالجافى و لا بالمهين،يعظم عنده النعمه و إن دقت،لا يذم منها شيئا غير أنه كان لا يذم ذواقا و لا يمدحه،و لا تغضبه الدنيا و ما كان لها،فإذا تعوطى الحق لم يعرفه أحد،و لم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له،إذا أشار أشار بكفه كلها،و إذا تعجب قلبها،و إذا تحدث اتصل بها-فضرب راحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى،و إذا غضب أعرض و انشاح،و إذا غضب غض طرفه جل ضحكه التبسم،يفتر عن مثل حب الغمام:.

قال الصدوق:إلى هنا روايه القاسم بن المنيع عن إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد،و الباقى روايه عبد الرحمن إلى آخره:

قال الحسن(ع):فكتمتها الحسين(ع)زمانا-ثم حدثته به فوجدته قد سبقنى

إليه-فسألته عنه فوجدته قد سأل أباه(ع)-عن مدخل النبی ص و مخرجه و مجلسه و شكله-فلم یدع منه شیئا.

قال الحسین(ع)قد سألت أبی(ع)عن مدخل رسول الله ص-فقال:كان دخوله فی نفسه مأذونا له فی ذلك،فإذا آوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثه أجزاء:جزء لله،و جزء لأهله،و جزء لنفسه،ثم جزأ جزءه بینه و بین الناس-فیرد ذلك بالخاصه على العامه،و لا یدخر عنهم منه شیئا.

و كان من سیرته(ص)فی جزء الأمه إیثار أهل الفضل بأدبه،و قسمه على قدر فضلهم فی الدین،فمنهم ذو الحاجه،و منهم ذو الحاجتین،و منهم ذو الحوائج فیتشاغل بهم،و یشغلهم فیما أصلحهم و الأمه من مسألته عنهم،و بإخبارهم بالذی ینبغی، و یقول:لیبلغ الشاهد منكم الغائب،و أبلغونی حاجه من لا یقدر على إبلاغ حاجته- فإنه من أبلغ سلطانا حاجه من لا یقدر على إبلاغها-ثبت الله قدمیه یوم القیامه،لا یذكر عنده إلا ذلك،و لا یقبل من أحد غیره،یدخلون روادا،و لا یفترقون إلا عن ذواق و یخرجون أدله.

و سألته عن مخرج رسول الله ص كیف كان یصنع فیه؟فقال:كان رسول الله ص یخزن لسانه إلا عما كان یعنیه،و یؤلفهم و لا ینفرهم،و یكرم كریم كل قوم و یولیه علیهم،و یحذر الناس و یحترس منهم-من غیر أن یطوی عن أحد بشره و لا خلقه،و یتفقد أصحابه، و یسأل الناس عن الناس،و یحسن الحسن و یقویه،و یقبح القبیح و یوهنه،معتدل الأمر غیر مختلف،لا یغفل مخافه أن یغفلوا و یمیلوا،و لا یقصر عن الحق و لا یجوزه،الذین یلونه من الناس خیارهم،أفضلهم عنده أعمهم نصیحه للمسلمین،و أعظمهم عنده منزله أحسنهم مواساه و موازره.

قال(ع)فسألته عن مجلسه(ص)فقال:كان لا یجلس و لا یقوم إلا على ذكر، لا یوطن الأماكن و ینهى عن إیطانها-و إذا انتهى إلى قوم جلس حیث ینتهی به المجلس- و یأمر بذلك،و یعطی كل جلسائه نصیبه،و لا یحسب أحد من جلسائه أن أحدا أكرم علیه منه،من جالسه صابره حتى یكون هو المنصرف،من سأله حاجه لم یرجع إلا بها أو بمیسور من القول،قد وسع الناس منه خلقه فصار لهم أبا،و كانوا عنده فی

الحق سواء،مجلسه مجلس حلم و حياء و صدق و أمانه،و لا ترفع فيه الأصوات،و لا يؤبن فيه الحرم،و لا تثنى فلتاته،متعادلين،متواصلين فيه بالتقوى،متواضعين، يوقرون الكبير،و يرحمون الصغير،و يؤثرون ذا الحاجه،و يحفظون الغريب.

فقلت:كيف كانت سيرته(ص)فى جلسائه؟فقال(ع):كان(ص)دائم البشر،سهل الخلق،لين الجانب،ليس بفظ و لا غليظ-و لا صخاب و لا فحاش و لا عياب،و لا مداح،يتغافل عما لا يشتهى،فلا يؤيس منه و لا يخيب منه مؤمليه،قد ترك نفسه من ثلاث:المراء و الإكثار و ما لا يعنيه،و ترك الناس من ثلاث:كان لا يذم أحدا و لا يعيره،و لا يطلب عثراته و لا عورته،و لا يتكلم إلا فيما رجى ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رءوسهم الطير،فإذا سكت تكلموا،و لا يتنازعون عنده الحديث،من تكلم أنصتوا له حتى يفرغ،حديثهم عنده حديث أوليتهم،يضحک مما يضحكون منه،و يتعجب مما يتعجبون منه،و يصبر للغريب على الجفوه فى مسألته و منطقه-حتى إن كان أصحابه يستجلبونهم،و يقول:إذا رأيتم طالب الحاجه يطلبها فارفدوه،و لا يقبل الثناء إلا من مكافئ،و لا يقطع على أحد كلامه حتى يجوز فيقطعه بنهى أو قيام.

قال:فسألته عن سكوت رسول الله ص-فقال(ع)كان سكوته(ص)على أربع:على الحلم و الحذر و التقدير و التفكير:فأما التقدير ففى تسويه النظر و الاستماع بين الناس،و أما تفكره ففيما يبقى و يفنى،و جمع له الحلم و الصبر فكان لا يغضبه شىء و لا يستفزه،و جمع له الحذر فى أربع:أخذه بالحسن ليقتدى به،و تركه القبيح لينتهى عنه،و اجتهاده الرأى فى صلاح أمته،و القيام فيما جمع له خير الدنيا و الآخره:.

أقول:و رواه فى مكارم الأخلاق نقلا من كتاب محمد بن إسحاق بن إبراهيم الطالقانى بروايته عن ثقاته عن الحسن و الحسين(ع)؛قال فى البحار:و الروايه من الأخبار المشهوره روته العامه فى أكثر كتبهم،انتهى .

و قد روى فى معناها أو معنى بعض أجزائها روايات كثيره عن الصحابه.

قوله:« المربوع »الذى بين الطويل و القصير،و المشذب الطويل الذى لا كثير

لحم على بدنه،و رجل الشعر من باب علم فهو رجل بالفتح و السكون أى كان بين السبط و الجعد،و العقيقه الخصله السبطه من الشعر،و أزهر اللون أى لونه مشرق صاف، و الأزج من الحاجب ما رق و طال،و السوابغ من الحاجب هى الواسعه،و القرن بفتحتين اقتران ما بينها،و الشمم ارتفاع قصبه الأنف مع حسن و استواء،و كث اللحيه المجتمع شعرها إذا كثف من غير طول،و سهل الخد مستويه من غير لحم كثير،و ضليع الفم أى وسيعه و يعد فى الرجال من المحاسن،و المفلج من الفلجه بفتحتين إذا تباعد ما بين قدميه أو يديه أو أسنانه،و الأشنب أبيض الأسنان.

و المشربه الشعر وسط الصدر إلى البطن،و الدميه بالضم الغزال،و المنكب مجتمع رأس الكتف و العضد،و الكراديس جمع كردوس و هو العظمان إذا التقيا فى مفصل، و أنور المتجرد كان المتجرد اسم فاعل من التجرد و هو التعرى من لباس و نحوه،و المراد أنه(ص)كان جميل الظاهر حسن الخلقه فى بدنه إذا تجرد عن اللباس.

و اللبه بالضم فالتشديد موضع القلاده من الصدر و السره معروفه،و الزند موصل الذراع من الكف،و رحب الراحه أى وسيعها،و الشثن بفتحتين الغلظ فى القدمين و الكفين،و سبط القصب أى سهل العظام مسترسلها من غير نتو، أخمص القدم،الموضع الذى لا يصل الأرض منها،و الخمصان ضامر البطن فخمصان الأخمصين أى كونهما ذا نتو و ارتفاع بالغ من الأرض،و الفسحه هى الوسعه،و القلع بفتحتين القوه فى المشى.

و التكفؤ فى المشى الميد و التمايل فيه،و ذريع المشيه أى السريع فيها،و الصبب ما انحدر من الطريق أو الأرض،و خافض الطرف تفسيره ما بعده من قوله:«نظره إلى الأرض»«إلخ».

و الأشداق جمع شدق-بالكسر فالسكون-و هو زاويه الفم من باطن الخدين، و افتتاح الكلام و اختتامه بالأشداق كنايه عن الفصاحه،يقال:تشدق أى لوى شدقه للتفصح،و الدمث من الدماثه و تفسيره ما بعده و هو قوله:«ليس بالجافى و لا بالمهين»و الذواق بالفتح ما يذاق من طعام،و انشاح من النشوح أى أعرض،و يفتر عن مثل حب الغمام افتر الرجل افترارا أى ضحك ضحكا حسنا،و حب الغمام البرد،و المراد أنه(ص) كان يضحك ضحكا حسنا يبدو به أسنانه.

ص :۳۰۶

و قوله:«فيرد ذلك بالخاصه على العامه»«إلخ»،المراد أنه(ص)و إن كان فى جزئه الذى لنفسه خلا بنفسه عن الناس لكنه لا ينقطع عنهم بالكليه بل يرتبط بواسطه خاصته بالناس فيجيبهم فى مسائلهم و يقضى حوائجهم، و لا يدخر عنهم من جزء نفسه شيئا،و الرواد جمع رائد و هو الذى يتقدم القوم أو القافله يطلب لهم مرعى أو منزلا و نحو ذلك.

و قوله:«لا يوطن الأماكن و ينهى عن إيطانها»المراد بها المجالس أى لا يعين لنفسه مجلسا خاصا بين الجلساء حذرا من التصدر و التقدم فقوله:«و إذا انتهى»«إلخ»،كالمفسر له،و لا تؤبن فيه الحرم أى لا تعاب عنده حرمات الناس،و الأبنه بالضم العيب،و الحرم بالضم فالفتح جمع حرمه.

و قوله:«و لا تثنى فلتاته»من التثنيه بمعنى التكرار،و الفلتات جمع فلته و هى العثره أى إذا وقعت فيه فلته من أحد جلسائه بينها لهم فراقبوا للتحذر من الوقوع فيها ثانيا،و البشر بالكسر فالسكون بشاشه الوجه،و الصخاب الشديد الصياح.

و قوله:«حديثهم عنده حديث أوليتهم» الأوليه جمع ولى،و كان المراد به التالى التابع و المعنى أنهم كانوا يتكلمون واحدا بعد آخر بالتناوب من غير أن يداخل أحدهم كلام الآخر أو يتوسطه أو يشاغبوا فيه،و قوله:«حتى إن كان أصحابه يستجلبونهم»أى يريدون جلبهم عنه و تخليصه منهم.

و قوله:«و لا يقبل الثناء إلا من مكافئ»أى فى مقابل نعمه أنعمها على أحدهم و هو الشكر الممدوح من كافأه بمعنى جازاه،أو من المكافاه بمعنى المساواه أى ممن يثنى بما يستحقه من الثناء على ما أنعم به من غير إطراء و إغراق،و قوله:«و لا يقطع على أحد كلامه حتى يجوز»أى يتعدى عن الحق فيقطعه حينئذ بنهى أو قيام،و الاستفزاز الاستخفاف و الإزعاج.

۲-و فى الإحياء،:": كان(ص)أفصح الناس منطقا و أحلاهم-إلى أن قال-و كان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول و لا تقصير-كأنه يتبع بعضه بعضا،بين كلامه توقف يحفظه سامعه و يعيه،كان جهير الصوت أحسن الناس نغمه.

۳-و فى التهذيب،بإسناده عن إسحاق بن جعفر عن أخيه موسى عن آبائه عن

علی(ع)قال:سمعت النبی ص یقول: بعثت بمکارم الأخلاق و محاسنها.

۴-و فی مکارم الأخلاق،عن أبی سعید الخدری قال: کان رسول الله ص أشد حیاء من العذراء فی خدرها،و کان إذا کره شیئا عرفناه فی وجهه.

۵-و فی الکافی،بإسناده عن محمد بن مسلم قال:سمعت أبا جعفر(ع)- یذکر أنه أتی رسول الله ص ملک فقال:إن الله یخیرک- أن تکون عبدا رسولا متواضعا أو ملکا رسولا.

قال:فنظر إلی جبرئیل و أومأ بیده أن تواضع-فقال:عبدا رسولا متواضعا، فقال الرسول:مع أنه لا ینقصک مما عند ربک شیئا،قال:و معه مفاتیح خزائن الأرض.

۶-و فی نهج البلاغه،قال(ع): فتأس بنبیک الأطهر الأطیب-إلی أن قال- قضم الدنیا،قضما-و لم یعرها طرفا،أهضم أهل الدنیا کشحا،و أخمصهم من الدنیا بطنا،عرضت علیه الدنیا عرضا فأبی أن یقبلها،و علم أن الله سبحانه أبغض شیئا فأبغضه،و صغر شیئا فصغره،و لو لم یکن فینا إلا حبنا ما أبغض الله-و تعظیمنا لما صغر الله-لکفی به شقاقا لله و محاده عن أمر الله،و لقد کان رسول الله یأکل علی الأرض- و یجلس جلسه العبد،و یخصف بیده نعله،و یرکب الحمار العاری و یردف خلفه، و یکون الستر علی باب بیته-فیکون علیه التصاویر فیقول:یا فلانه-لإحدی أزواجه- غیبیه عنی-فإنی إذا نظرت إلیه ذکرت الدنیا و زخارفها،فأعرض عن الدنیا بقلبه، و أمات ذکرها عن نفسه،و أحب أن یغیب زینتها عن عینه-لکیلا یتخذ منها ریاشا، و لا یعتقدها قرارا،و لا یرجو فیها مقاما،فأخرجها من النفس،و أشخصها عن القلب، و غیبها عن البصر،و کذلک من أبغض شیئا أبغض أن ینظر إلیه-و أن یذکر عنده.

۷-و فی الإحتجاج،عن موسی بن جعفر عن أبیه عن آبائه عن الحسن بن علی عن أبیه علی(ع)فی خبر طویل: و کان(ص)یبکی- حتی یبتل مصلاه خشیه من الله عز و جل من غیر جرم ،الحدیث.

۸-و فی المناقب،: و کان(ص)یبکی حتی یغشی علیه فقیل له:أ لیس قد غفر

الله لک ما تقدم من ذنبک و ما تأخر؟فقال:أ فلا أکون عبدا شکورا؟و کذلک کان غشیات علی بن أبی طالب وصیه فی مقاماته.

أقول:بناء سؤال السائل علی تقدیر کون الغرض من العباده هو الأمن من العذاب و قد ورد:أنه عباده العبید،و بناء جوابه(ص)علی کون الداعی هو الشکر لله سبحانه،و هو عباده الکرام،و هو قسم آخر من أقسام العباده،

-و قد ورد فی المأثور عن أئمه أهل البیت(ع): أن من العباده ما تکون خوفا من العقاب و هو عباده العبید،و منها ما تکون طمعا فی الثواب و هو عباده التجار،و منها ما تکون شکرا لله سبحانه،و فی بعض الروایات حبا لله تعالی،و فی بعضها لأنه أهل له.

و قد استقصینا البحث فی معنی الروایات فی تفسیر قوله تعالی: «وَ سَیَجْزِی اللّٰهُ الشّٰاکِرِینَ» :آل عمران:۱۴۴ فی الجزء الرابع من الکتاب،و بینا هناک أن الشکر لله فی عبادته هو الإخلاص له،و أن الشاکرین هم المخلصون(بفتح اللام)من عباد الله المعنیون بمثل قوله تعالی: «سُبْحٰانَ اللّٰهِ عَمّٰا یَصِفُونَ، إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِینَ» :الصافات:۱۶۰.

۹-و فی إرشاد الدیلمی،: أن إبراهیم(ع)کان یسمع منه فی صلاته أزیز-کأزیز الوجل من خوف الله تعالی، و کان رسول الله ص کذلک.

۱۰-و فی تفسیر أبی الفتوح،عن أبی سعید الخدری قال: لما نزل قوله تعالی:

«اذْکُرُوا اللّٰهَ ذِکْراً کَثِیراً -اشتغل رسول الله ص بذکر الله-حتی قال الکفار:

إنه جن.

۱۱-و فی الکافی،بإسناده عن زید الشحام عن أبی عبد الله(ع)قال: کان رسول الله ص یتوب إلی الله فی کل یوم سبعین مره،قلت:أ کان یقول:أستغفر الله و أتوب إلیه؟قال:لا و لکن کان یقول:أتوب إلی الله،قلت کان رسول الله ص یتوب و لا یعود،و نحن نتوب و نعود،قال:الله المستعان.

۱۲-و فی مکارم الأخلاق،نقلا من کتاب النبوه عن علی(ع): أنه کان إذا وصف رسول الله ص یقول:قال:کان أجود الناس کفا،و أجرأ الناس صدرا،و أصدق الناس لهجه،و أوفاهم ذمه،و ألینهم عریکه،و أکرمهم عشیره،من رآه بدیهه هابه،

و من خالطه معرفه أحبه،لم أر قبله و لا بعده مثله،(ص).

۱۳-و فی الکافی،بإسناده عن عمر بن علی عن أبیه(ع)قال: کانت من أیمان رسول الله ص لا و أستغفر الله.

۱۴-و فی إحیاء العلوم،: کان(ص)إذا اشتد وجده أکثر من مس لحیته الکریمه.

۱۵-و فیه،: و کان(ص)أسخی الناس لا یثبت عنده دینار و لا درهم،و إن فضل شیء و لم یجد من یعطیه و فجأ اللیل-لم یأو إلی منزله حتی یتبرأ منه إلی من یحتاج إلیه، لا یأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط-من أیسر ما یجد من التمر و الشعیر،و یضع سائر ذلک فی سبیل الله.

لا یسأل شیئا إلا أعطاه-ثم یعود إلی قوت عامه فیؤثر منه-حتی إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم یأته شیء،قال:و ینفذ الحق-و إن عاد ذلک علیه بالضرر أو علی أصحابه،قال:و یمشی وحده بین أعدائه بلا حارس،قال:لا یهوله شیء من أمور الدنیا.

قال:و یجالس الفقراء،و یؤاکل المساکین،و یکرم أهل الفضل فی أخلاقهم، و یتألف أهل الشرف بالبر لهم،یصل ذوی رحمه من غیر أن یؤثرهم علی من هو أفضل منهم،لا یجفو علی أحد،یقبل معذره المعتذر إلیه.

قال:و کان له عبید و إماء-من غیر أن یرتفع علیهم فی مأکل و لا ملبس،لا یمضی له وقت من غیر عمل لله تعالی-أو لما لا بد منه من صلاح نفسه،یخرج إلی بساتین أصحابه- لا یحتقر مسکینا لفقره أو زمانته،و لا یهاب ملکا لملکه،یدعو هذا و هذا إلی الله دعاء مستویا.

۱۶-و فیه،قال: و کان(ص)أبعد الناس غضبا و أسرعهم رضی،و کان أرأف الناس بالناس،و خیر الناس للناس،و أنفع الناس للناس.

۱۷-و فیه،قال: و کان(ص)إذا سر و رضی فهو أحسن الناس رضی،فإن وعظ وعظ بجد،و إن غضب-و لا یغضب إلا لله-لم یقم لغضبه شیء،و کذلک کان فی أموره کلها،و کان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلی الله،و تبرأ من الحول و القوه، و استنزل الهدی.

أقول:و التوكل على الله و تفويض الأمور إليه و التبرى من الحول و القوه و استنزال الهدى من الله يرجع بعضها إلى بعض و ينشأ الجميع من أصل واحد،و هو أن للأمور استنادا إلى الإراده الإلهيه الغالبه غير المغلوبه و القدره القاهره غير المتناهيه،و قد أطبق على الندب إلى ذلك الكتاب و السنه كقوله تعالى: «وَ عَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» :إبراهيم:

١٢ و قوله: «وَ أُفَوِّضُ أَمْرِی إِلَی اللّٰهِ» :المؤمن:۴۴ و قوله: «وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» :الطلاق:٣ و قوله: «أَلاٰ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ» :الأعراف:۵۴ و قوله: «وَ أَنَّ إِلىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهىٰ» :النجم:۴۲ إلى غير ذلک من الآيات،و الروايات فی هذه المعانی فوق حد الإحصاء.

و التخلق بهذه الأخلاق و التأدب بهذه الآداب على أنه يجرى بالإنسان مجرى الحقائق و يطبق عمله على ما ينبغی أن ينطبق عليه من الواقع و يقره على دين الفطره فإن حقيقه الأمر هو رجوع الأمور بحسب الحقيقه إلى الله سبحانه كما قال: «أَلاٰ إِلَى اللّٰهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» :الشورى:۵۳،له فائده قيمه هی أن اتكاء الإنسان و اعتماده على ربه-و هو يعرفه بقدره غير متناهيه و إراده قاهره غير مغلوبه-يمد إرادته و يشيد أركان عزيمته فلا ينثلم عن كل مانع يبدو له،و لا تنفسح عن كل تعب أو عناء يستقبله،و لا يزيلها كل تسويل نفسانی و وسوسه شيطانيه تظهر لسره فی صوره الخطورات الوهميه.

(من سننه و أدبه فی العشره)

١٨-و فی إرشاد الديلمی،قال: كان النبی ص يرقع ثوبه،و يخصف نعله،و يحلب شاته،و يأكل مع العبد و يجلس على الأرض،و يركب الحمار و يردف،و لا يمنعه الحياء أن يحمل حاجته من السوق إلى أهله،و يصافح الغنی و الفقير،و لا ينزع يده من يد أحد حتى ينزعها هو،و يسلم على من استقبله من غنی و فقير و كبير و صغير،و لا يحقر ما دعی إليه و لو إلى حشف التمر.

و كان(ص)خفيف المئونه،كريم الطبيعه،جميل المعاشره،طلق الوجه،بساما من غير ضحک،محزونا من غير عبوس،متواضعا من غير مذله،جوادا من غير سرف- رقيق القلب،رحيما بكل مسلم،و لم يتجش من شبع قط،و لم يمد يده إلى طمع قط.

١٩-و فی مكارم الأخلاق،عن النبی ص: أنه كان ينظر فی المرآه و يرجل

جمته و يتمشط،و ربما نظر فى الماء و سوى جمته فيه،و لقد كان يتجمل لأصحابه فضلا على تجمله لأهله،و قال:(ص)إن الله يحب من عبده-إذا خرج إلى إخوانه أن يتهيأ لهم و يتجمل.

۲۰-و فى العلل،و العيون،و المجالس،بإسناده عن الرضا عن آبائه(ع) قال:قال رسول الله ص: خمس لا أدعهن حتى الممات:الأكل على الأرض مع العبيد، و ركوبى مؤكفا،و حلبى العنز بيدى،و لبس الصوف،و التسليم على الصبيان لتكون سنه من بعدى.

۲۱-و فى الفقيه،عن على(ع):أنه قال لرجل من بنى سعد:أ لا أحدثك عنى و عن فاطمه-إلى أن قال-فغدا علينا رسول الله ص و نحن فى لحافنا-فقال:السلام عليكم فسكتنا و استحيينا لمكاننا-ثم قال(ص):السلام عليكم فسكتنا،ثم قال(ص):

السلام عليكم فخشينا إن لم نرد عليه أن ينصرف،و قد كان يفعل ذلك فيسلم ثلاثا فإن أذن له و إلا انصرف؛فقلنا:و عليك السلام يا رسول الله ادخل فدخل ،الخبر.

۲۲-و فى الكافى،بإسناده عن ربعى بن عبد الله عن أبى عبد الله(ع)قال:

كان رسول الله ص يسلم على النساء و يرددن عليه السلام،و كان أمير المؤمنين(ع) يسلم على النساء-و كان يكره أن يسلم على الشابه منهن،و يقول:أتخوف أن يعجبنى صوتها-فيدخل على أكثر مما أطلب من الأجر:.

أقول:و رواه الصدوق مرسلا،و كذا سبط الطبرسى فى المشكاه،نقلا عن كتاب المحاسن .

۲۳-و فيه،بإسناده عن عبد العظيم بن عبد الله الحسنى رفعه قال: كان النبى ص يجلس ثلاثا:القرفصاء و هو أن يقيم ساقيه و يستقبلهما بيده،و يشد يده فى ذراعه،و كان يجثو على ركبتيه،و كان يثنى رجلا واحده و يبسط عليها الأخرى،و لم ير متربعا قط.

۲۴-و فى المكارم،نقلا من كتاب النبوه عن على(ع)قال: ما صافح رسول الله ص أحدا قط فنزع يده من يده-حتى يكون هو الذى ينزع يده،و ما فاوضه أحد قط فى حاجه أو حديث فانصرف-حتى يكون الرجل هو الذى ينصرف،و ما نازعه أحد قط الحديث-فيسكت حتى يكون هو الذى يسكت،و ما رئى مقدما رجله

بین یدی جلیس له قط.

و لا ـ خیر بین أمرین إلا ـ أخذ بأشدهما،و ما انتصر لنفسه من مظلمه حتی ینتهک محارم الله-فیکون حینئذ غضبه لله تبارک و تعالی،و ما أکل متکئا قط حتی فارق الدنیا، و ما سئل شیئا قط فقال لا،و ما رد سائل حاجه قط إلا أتی بها أو بمیسور من القول، و کان أخف الناس صلاه فی تمام،و کان أقصر الناس خطبه و أقلهم هذرا،و کان یعرف بالریح الطیب إذا أقبل،و کان إذا أکل مع القوم-کان أول من یبدأ و آخر من یرفع یده، و کان إذا أکل أکل مما یلیه،فإذا کان الرطب و التمر جالت یده،و إذا شرب شرب ثلاثه أنفاس،و کان یمص الماء مصا و لا یعبه عبا،و کان یمینه لطعامه و شرابه و أخذه و عطائه- فکان لا یأخذ إلا بیمینه،و لا یعطی إلا بیمینه، و کان شماله لما سوی ذلک من بدنه- و کان یحب التیمن فی جمیع أموره-فی لبسه و تنعله و ترجله.

و کان إذا دعا دعا ثلاثا،و إذا تکلم تکلم وترا،و إذا استأذن استأذن ثلاثا، و کان کلامه فصلا یتبینه کل من سمعه،و إذا تکلم رئی کالنور یخرج من بین ثنایاه، و إذا رأیته قلت:أفلج و لیس بأفلج.

و کان نظره اللحظ بعینه،و کان لا ـ یکلم أحدا بشیء یکرهه،و کان إذا مشی کأنما ینحط فی صبب،و کان یقول:إن خیارکم أحسنکم أخلاقا،و کان لا یذم ذواقا و لا یمدحه،و لا یتنازع أصحاب الحدیث عنده،و کان المحدث عنه یقول:لم أر بعینی مثله قبله و لا بعده(ص).

۲۵-و فی الکافی،بإسناده عن جمیل بن دراج عن أبی عبد الله(ع)قال: کان رسول الله ص یقسم لحظاته بین أصحابه-فینظر إلی ذا و ینظر إلی ذا بالسویه.قال:

و لم یبسط رسول الله ص رجلیه بین أصحابه قط،و إن کان لیصافحه الرجل-فما یترک رسول الله ص یده من یده-حتی یکون هو التارک-فلما فطنوا لذلک کان الرجل إذا صافحه مال بیده-فنزعها من یده.

۲۶-و فی المکارم،قال: کان رسول الله ص:إذا حدث بحدیث تبسم فی حدیثه.

۲۷-و فیه،عن یونس الشیبانی قال:قال لی أبو عبد الله(ع): کیف مداعبه بعضکم بعضا؟قلت:قلیلا.قال: هلا تفعلوا؟فإن المداعبه من حسن الخلق،و إنک

لتدخل بها السرور على أخيك،و لقد كان رسول الله ص يداعب الرجل يريد به أن يسره.

- و فيه،عن أبى القاسم الكوفى فى كتاب الأخلاق،عن الصادق(ع)قال:

ما من مؤمن إلا و فيه دعابه،و كان رسول الله ص يداعب و لا يقول إلا حقا.

۲۹-و فى الكافى،بإسناده عن معمر بن خلاد قال: سألت أبا الحسن(ع)فقلت:

جعلت فداك-الرجل يكون مع القوم-فيمضى بينهم كلام يمزحون و يضحكون؟فقال:

لا بأس ما لم يكن،فظننت أنه عنى الفحش.

ثم قال:إن رسول الله ص كان يأتيه الأعرابى-فيأتى إليه بالهديه ثم يقول مكانه:أعطنا ثمن هديتنا فيضحک رسول الله ص-و كان إذا اغتم يقول:ما فعل الأعرابى ليته أتانا.

۳۰-و فى الكافى،بإسناده عن طلحه بن زيد عن أبى عبد الله(ع):قال كان رسول الله ص أكثر ما يجلس تجاه القبله.

۳۱-و فى المكارم،قال: كان رسول الله ص يؤتى بالصبى الصغير-ليدعو له بالبركه فيضعه فى حجره تكرمه لأهله،و ربما بال الصبى عليه فيصيح بعض من رآه حين يبول-فيقول(ص):لا تزرموا بالصبى حتى يقضى بوله-ثم يفرغ له من دعائه أو تسميته، و يبلغ سرور أهله فيه،و لا يرون أنه يتأذى ببول صبيهم- فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده.

۳۲-و فيه،روى: أن رسول الله ص كان لا يدع أحدا يمشى معه-إذا كان راكبا حتى يحمله معه-فإن أبى قال:تقدم أمامى و أدركنى فى المكان الذى تريد.

۳۳-و فيه،عن أبى القاسم الكوفى فى كتاب الأخلاق،:و جاء فى الآثار: أن رسول الله ص لم ينتقم لنفسه من أحد قط-بل كان يعفو و يصفح.

۳۴-و فيه،: كان رسول الله ص-إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثه أيام سأل عنه-فإن كان غائبا دعا له،و إن كان شاهدا زاره،و إن كان مريضا عاده.

۳۵-و فيه،:عن أنس قال: خدمت النبى ص تسع سنين فما أعلم أنه قال لى

قط:هلا فعلت كذا و كذا؟و لا عاب على شيئا قط.

۳۶-و فى الإحياء،قال:قال أنس: و الذى بعثه بالحق ما قال لى فى شىء قط كرهه:

لم فعلته؟و لا لامنى نساؤه إلا قال:دعوه إنما كان هذا بكتاب و قدر.

۳۷-و فيه،عن أنس: و كان(ص)-لا يدعوه أحد من أصحابه و غيرهم إلا قال:لبيك.

۳۸ و فيه،عنه: و لقد كان(ص)يدعو أصحابه بكناهم-إكراما لهم و استماله لقلوبهم،و يكنى من لم يكن له كنيه فكان يدعى بما كناه به،و يكنى أيضا النساء اللاتى لهن الأولاد و اللاتى لم يلدن،و يكنى الصبيان فيستلين به قلوبهم.

۳۹-و فيه،: و كان(ص)يؤثر الداخل عليه بالوساده التى تحته-فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل.

۴۰-و فى الكافى،بإسناده عن عجلان قال: كنت عند أبى عبد الله(ع)-فجاء سائل فقام(ع)إلى مكيل فيه تمر فملأ يده فناوله،ثم جاء آخر فسأله فقام فأخذ بيده فناوله-ثم جاء آخر فسأله فقام فأخذ بيده فناوله،ثم جاء آخر فقال((ع)):الله رازقنا و إياك.

ثم قال:إن رسول الله ص كان-لا يسأله أحد من الدنيا شيئا إلا أعطاه-فأرسلت إليه امرأه ابنا لها فقالت:انطلق إليه فاسأله فإن قال:ليس عندنا شىء-فقل:أعطنى قميصك،قال:فأخذ قميصه فرمى به(و فى نسخه أخرى فأعطاه)فأدبه الله على القصد- فقال: «وَ لاٰ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلىٰ عُنُقِكَ-وَ لاٰ تَبْسُطْهٰا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً» .

۴۱-و فيه،بإسناده عن جابر عن أبى جعفر((ع))قال: كان رسول الله ص يأكل الهديه و لا يأكل الصدقه.

۴۲-و فيه،عن موسى بن عمران بن بزيع قال:

قلت للرضا((ع)):جعلت فداك إن الناس رووا-أن رسول الله ص كان إذا أخذ فى طريق رجع فى غيره!كذا كان؟ قال:فقال نعم-فأنا أفعله كثيرا فافعله،ثم قال لى:أما إنه أرزق لك.

۴۳-و فى الإقبال،بإسناده عن أبى جعفر(ع)قال: كان رسول الله ص يخرج بعد طلوع الشمس.

ص :۳۱۵

۴۴-و فی الکافی،بإسناده عن عبد الله بن المغیره عمن ذکره قال: کان رسول الله ص إذا دخل منزلا-قعد فی أدنی المجلس إلیه حین یدخل:

أقول:و رواه سبط الطبرسی فی المشکاه،نقلا عن المحاسن،و غیره .

۴۵-و من سننه و آدابه(ص)فی التنظف و الزینه ما فی المکارم،قال":کان رسول الله ص-إذا غسل رأسه و لحیته غسلهما بالسدر.

۴۶-و فی الجعفریات،بإسناده عن جعفر بن محمد عن آبائه عن علی(ع)قال:

کان رسول الله ص یرجل شعره،و أکثر ما کان یرجل بالماء،و یقول:کفی بالماء طیبا للمؤمن.

۴۷-و فی الفقیه،قال:قال رسول الله ص: إن المجوس جزوا لحاهم و وفروا شواربهم،و إنا نحن نجز الشوارب و نعفی اللحی.

۴۸-و فی الکافی،بإسناده عن أبی عبد الله(ع)قال: من السنه تقلیم الأظفار.

۴۹-و فی الفقیه،:روی: من السنه دفن الشعر و الظفر و الدم.

۵۰-و فیه،بإسناده عن محمد بن مسلم: أنه سأل أبا جعفر(ع)عن الخضاب- فقال:کان رسول الله ص یختضب،و هذا شعره عندنا.

۵۱-و فی المکارم،: کان رسول الله ص یطلی فیطلیه من یطلی-حتی إذا بلغ ما تحت الإزار تولاه بنفسه.

۵۲-و فی الفقیه،:قال علی(ع): نتف الإبط ینفی الرائحه الکریهه-و هو طهور و سنه مما أمر به الطیب(ع).

۵۳-و فی المکارم،": کان له(ص)مکحله یکتحل بها فی کل لیله-و کان کحله الإثمد.

۵۴-و فی الکافی،بإسناده عن أبی أسامه عن أبی عبد الله(ع)قال: من سنن المرسلین السواک.

ص :۳۱۶

۵۵-و فی الفقیه،بإسناده عن علی(ع)فی حدیث الأربعمائه قال: و السواک مرضاه الله و سنه النبی ص و مطهره للفم.

أقول:و الأخبار فی استنانه(ص)بالسواک من طرق الفریقین کثیره جدا.

۵۶-و فی الفقیه،:قال الصادق(ع): أربع من أخلاق الأنبیاء:التطیب و التنظیف بالموسی-و حلق الجسد بالنوره و کثره الطروقه.

۵۷-و فی الکافی،بإسناده عن عبد الله بن سنان،عن أبی عبد الله(ع)قال:

کانت لرسول الله ص ممسکه-إذا هو توضأ أخذها بیده و هی رطبه-فکان إذا خرج عرفوا أنه رسول الله ص.

۵۸-و فی المکارم،": کان لا یعرض له طیب إلا تطیب،و یقول:هو طیب ریحه خفیف محمله،و إن لم یتطیب وضع إصبعه فی ذلک الطیب ثم لعق منه.

۵۹-و فیه،": کان(ص)یستجمر بالعود القماری.

۶۰-و فی ذخیره المعاد،": و کان أی المسک أحب الطیب إلیه(ص).

۶۱-و فی الکافی،بإسناده عن إسحاق الطویل العطار عن أبی عبد الله(ع) قال: کان رسول الله ص ینفق فی الطیب-أکثر مما ینفق فی الطعام.

۶۲-و فیه،بإسناده عن أبی عبد الله(ع)قال:قال أمیر المؤمنین(ع):

الطیب فی الشارب-من أخلاق النبیین و کرامه للکاتبین.

۶۳-و فیه،بإسناده عن السکن الخزاز قال:سمعت أبا عبد الله(ع)یقول:

حق علی کل محتلم فی کل جمعه أخذ شاربه و أظفاره- و مس شیء من الطیب،و کان رسول الله ص إذا کان یوم الجمعه-و لم یکن عنده طیب-دعا ببعض خمر نسائه فبلها فی الماء- ثم وضعها علی وجهه.

۶۴-و فی الفقیه،بإسناده عن إسحاق بن عمار عن أبی عبد الله(ع)قال: کان رسول الله ص-إذا أتی بطیب یوم الفطر بدأ بنسائه.

۶۵-و فی المکارم،: و کان یدهن(ص)بأصناف من الدهن،قال و کان(ص)

یدهن بالبنفسج و یقول:هو أفضل الأدهان.

۶۶-و من آدابه(ص)فی السفر ما فی الفقیه،بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبی جعفر(ع)قال: کان رسول الله ص یسافر یوم الخمیس.

أقول:و فی هذا المعنی أحادیث کثیره.

۶۷-و فی أمان الأخطار،و مصباح الزائر،قال": ذکر صاحب کتاب عوارف المعارف:أن النبی ص کان إذا سافر حمل معه خمسه أشیاء:المرآه و المکحله و المذری و السواک،قال:و فی روایه أخری:و المقراض":.

أقول:و رواه فی المکارم و الجعفریات .

۶۸-و فی المکارم،عن ابن عباس قال": کان رسول الله ص-إذا مشی مشی مشیا یعرف أنه لیس بعاجز و لا کسلان.

۶۹-و فی الفقیه،بإسناده عن معاویه بن عمار عن أبی عبد الله(ع)قال: کان رسول الله ص فی سفره إذا هبط هلل و إذا صعد کبر.

۷۰-و فی لب اللباب،للقطب:عن النبی ص: أنه لم یرتحل من منزل إلا و صلی فیه رکعتین،و قال:حتی یشهد علی بالصلاه.

۷۱-و فی الفقیه،قال: کان رسول الله ص إذا ودع المؤمنین-قال:زودکم الله التقوی،و وجهکم إلی کل خیر،و قضی لکم کل حاجه،و سلم لکم دینکم و دنیاکم،و ردکم سالمین إلی غانمین.

أقول:و الروایات فی دعائه(ص)عند الوداع مختلفه لکنها علی اختلافها متفقه فی الدعاء بالسلامه و الغنیمه.

۷۲-و فی الجعفریات،بإسناده عن جعفر بن محمد عن آبائه عن علی(ع):

أن رسول الله ص کان یقول للقادم من مکه:تقبل الله نسکک،و غفر ذنبک، و أخلف علیک نفقتک.

۷۳-و من آدابه(ص)فی الملابس و ما یتعلق بها ما فی الإحیاء،: کان(ص)یلبس

من الثیاب ما وجد من إزار أو رداء،أو قمیص أو جبه أو غیر ذلک،و کان یعجبه الثیاب الخضر،و کان أکثر ثیابه البیاض،و یقول:ألبسوها أحیاءکم،و کفنوا فیها موتاکم.

و کان یلبس القباء المحشو للحرب و غیر الحرب،و کان له قباء سندس فیلبسه فیحسن خضرته علی بیاض لونه،و کانت ثیابه کلها مشمره فوق الکعبین، و یکون الإزار فوق ذلک إلی نصف الساق-و کان قمیصه مشدود الإزار-و ربما حل الإزار فی الصلاه و غیرها.

.و کانت له ملحفه مصبوغه بالزعفران،و ربما صلی بالناس فیها وحدها،و ربما لبس الکساء وحده لیس علیه غیره،و کان له کساء ملبد یلبسه و یقول:إنما أنا عبد ألبس کما یلبس العبد،و کان له ثوبان لجمعته خاصه سوی ثیابه فی غیر الجمعه،و ربما لبس الإزار الواحد لیس علیه غیره،و یعقد طرفیه بین کتفیه،و ربما أم به الناس علی الجنائز، و ربما صلی فی بیته فی الإزار الواحد-ملتحفا به محالفا بین طرفیه-و یکون ذلک الأزر الذی جامع فیه یومئذ،و کان ربما صلی باللیل فی الإزار-و یرتدی ببعض الثوب مما یلی هدبه،و یلقی البقیه علی بعض نسائه فیصلی کذلک.

و لقد کان له کساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمه،بأبی أنت و أمی ما فعل ذلک الکساء الأسود؟فقال:کسوته.فقالت:ما رأیت شیئا قط کان أحسن من بیاضک علی سواده-و قال أنس:و ربما رأیته یصلی بنا الظهر فی شمله عاقدا بین طرفیها،و کان یتختم،و ربما خرج و فی خاتمه الخیط المربوط یتذکر بها الشیء،و کان یختم به علی الکتب و یقول:الخاتم علی الکتاب خیر من التهمه.

و کان یلبس القلانس تحت العمائم و بغیر عمامه،و ربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها ستره بین یدیه ثم یصلی إلیها،و ربما لم تکن العمامه فیشد العصابه علی رأسه و علی جبهته، و کانت له عمامه تسمی السحاب-فوهبها من علی فربما طلع علی فیها فیقول(ص):أتاکم علی فی السحاب.

و کان إذا لبس ثوبا لبسه من قبل میامنه-و یقول:الحمد لله الذی کسانی ما أواری به عورتی و أتجمل به فی الناس،و إذا نزع ثوبه أخرجه من میاسره،و کان إذا لبس جدیدا أعطی خلق ثیابه مسکینا-ثم یقول:ما من مسلم یکسو مسلما من سمل ثیابه،

لا يكسوه إلا لله إلا كان فی ضمان الله-و حرزه و خيره ما واراه حيا و ميتا.

و كـان له فراش من أدم حشوه ليف-طوله ذراعـان أو نحوه و عرضه ذراع و شبر أو نحوه،و كـانت له عباءه تفرش له حيثما تنقل تثنى طاقين تحته،و كان ينام على الحصير ليس تحته شیء غيره.

و كان من خلقه تسـميه دوابه و سلاحه و متاعه؛و كان اسم رايته العقاب،و سيفه الذی يشهد به الحروب ذا الفقار،و كان له سيف يقـال له:المخـذم،و آخر يقـال له:الرسوب، و آخر يقال له القضـيب،و كانت قبضه سـيفه محلاه بالفضه،و كان يلبس المنطقه من الأـدم فيهـا ثلاـث حلق من فضه،و كـان اسم قوسه الكتوم و جعبته الكافور،و كان اسم ناقته العضـباء، و اسم بغلته الدلـدل،و كان اسم حماره يعفور،و اسم شاته التی يشرب لبنها عينه.

و كان له مطهره من فخار يتوضأ فيها و يشـرب منها-فيرسل الناس أولادهم الصـغار الذين قد عقلوا-فيدخلون على رسول الله ص فلا يدفعون عنه،فإذا وجدوا فی المطهره ماء شربوا منه-و مسحوا على وجوههم و أجسادهم-يبتغون بذلك البركه.

۷۴-و فی الجعفريـات،عن جعفر بن محمـد عن آبـائه عن على(ع)قـال: كـان رسول الله ص يلبس من القلانس المضـربه-إلى أن قال-و كان له درع يقال له ذات الفضول- و كانت له ثلاث حلقات من فضه،بين يديها واحده و اثنتان من خلفها ،الخبر.

- ۷۵-و فی العوالی،:روی": أنه كان له(ص)عمامه سوداء يتعمم بها و يصلی فيها.

أقول:و

- روی أن عمامته(ص)كانت ثلاث أكوار أو خمسا.

۷۶-و فی الخصـال،بإسـناده عن على فی الحـديث الأربعمائه قال: البسوا الثياب القطن فإنها لباس رسول الله ص-و لم يكن يلبس الشعر و الصوف إلا من عله:.

أقول:و رواه الصـدوق أيضا مرسـلا،و رواه الصـفوانی فی كتاب التعريف ،و يتبين بهذا معنى ما مر من لبسه(ص)الصوف و أنه لا منافاه.

۷۷-و فی الفقيه،بإسـناده عن إسـماعيل بن مسلم عن الصادق عن أبيه(ع) قال: كانت لرسول الله ص عنزه فی أسفلها عكاز-يتوكأ عليها و يخرجها فی العيدين يصلی إليها:.

أقول:و رواه فی الجعفریات، .

۷۸-و فی الکافی،بإسناده عن هشام بن سالم عن أبی عبد الله(ع)قال: کان خاتم رسول الله ص من ورق.

۷۹-و فیه،بإسناده عن أبی خدیجه قال": قال:الفص مدور،و قال:هکذا کان خاتم رسول الله ص.

۸۰-و فی الخصال،بإسناده عن عبد الرحیم بن أبی البلاد عن أبی عبد الله(ع) قال: کان لرسول الله ص خاتمان:أحدهما علیه مکتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله-، و الآخر:صدق الله.

۸۱-و فیه،بإسناده عن الحسین بن خالد عن أبی الحسن الثانی(ع)فی حدیث:

أن النبی ص و أمیر المؤمنین و الحسن و الحسین-و الأئمه(ع)کانوا یتختمون فی الیمین.

۸۲-و فی المکارم،عن الصادق عن علی(ع)قال: لبس الأنبیاء القمیص قبل السراویل:.

أقول:و رواه فی الجعفریات، و فی المعانی السابقه أخبار أخر کثیره.

۸۳-و من آدابه(ص)فی مسکنه و ما یتعلق به ما

- فی کتاب التحصین،لابن فهد قال": توفی رسول الله ص و ما وضع لبنه علی لبنه.

۸۴-و فی لب اللباب،قال:قال(ع): المساجد مجالس الأنبیاء.

۸۵-و فی الکافی،بإسناده عن السکونی عن أبی عبد الله(ع)قال: کان النبی ص إذا خرج فی الصیف من البیت خرج یوم الخمیس،و إذا أراد أن یدخل فی الشتاء من البرد دخل یوم الجمعه:.

أقول:و رواه أیضا فی الخصال مرسلا.

۸۶-و عن کتاب العدد القویه،للشیخ علی بن الحسن بن المطهر أخ العلامه رحمهما

الله عن خديجه رضى الله عنها قالت": كان النبى ص إذا دخل المنزل دعا بالإناء فتطهر للصلاه-ثم يقوم فيصلى ركعتين يوجز فيهما ثم يأوى إلى فراشه.

٨٧-و فى الكافى،بإسناده عن عباد بن صهيب قال:سمعت أبا عبد الله(ع) يقول: ما بيت رسول الله ص عدوا قط.

٨٨-و فى المكارم،: كان فراش رسول الله ص عباءه،و كانت مرفقته من أدم حشوها ليف-فثنيت ذات ليله فلما أصبح قال:لقد منعتنى الليله الفراش الصلاه-فأمر أن يجعل له بطاق واحد،و كان له فراش من أدم حشوه ليف،و كانت له عباءه تفرش له حيثما انتقل،و تثنى ثنتين.

٨٩-و فيه،:عن أبى جعفر(ع)قال: ما استيقظ رسول الله ص من نوم قط إلا خر لله ساجدا.

٩٠-:و من آدابه(ص) فى المناكح و الأولاد-ما فى رساله المحكم و المتشابه،للمرتضى- بإسناده إلى تفسير النعمانى عن على(ع)قال:إن جماعه من الصحابه كانوا-قد حرموا على أنفسهم النساء-و الإفطار بالنهار و النوم بالليل-فأخبرت أم سلمه رسول الله ص فخرج إلى أصحابه-فقال:أ ترغبون عن النساء؟فإنى آتى النساء و آكل بالنهار و أنام بالليل-فمن رغب عن سنتى فليس منى ،الخبر.

أقول:و هذا المعنى مروى فى كتب الفريقين بطرق كثيره.

٩١-و فى الكافى،بإسناده عن إسحاق بن عمار عن أبى عبد الله(ع)قال: من أخلاق الأنبياء حب النساء.

٩٢-و فيه،بإسناده عن بكار بن كردم و غير واحد عن أبى عبد الله(ع)قال:

قال رسول الله ص: جعل قره عينى فى الصلاه و لذتى فى النساء.

أقول:و يقرب منه ما روى بطرق أخرى.

٩٣-و فى الفقيه،: و كان رسول الله ص إذا أراد أن يتزوج بامرأه-بعث إليها من ينظر إليها ،الخبر.

٩٤-و فى تفسير العياشى،:عن الحسين بن بنت إلياس قال:سمعت أبا الحسن

الرضا(ع)يقول: إن الله جعل الليل سكنا،و جعل النساء سكنا،و من السنه التزويج بالليل و إطعام الطعام.

۹۵-و فی الخصال،بإسناده عن علی(ع)فی حدیث الأربعمائه قال: عقوا عن أولادکم یوم السابع،و تصدقوا بوزن شعورهم فضه علی مسلم،و کذلک فعل رسول الله ص بالحسن و الحسین و سائر أولاده.

۹۶-:و من آدابه(ص)فی الأطعمه و الأشربه-و ما یتعلق بالمائده ما فی الکافی، بإسناده عن هشام بن سالم و غیره-عن أبی عبد الله(ع)قال: ما کان شیء أحب إلی رسول الله ص-من أن یظل جائعا خائفا فی الله.

۹۷-و فی الإحتجاج،بإسناده عن موسی بن جعفر عن آبائه عن الحسین بن علی (ع)فی حدیث طویل: فی أسئله الیهودی الشامی عن أمیر المؤمنین(ع)-إلی أن قال-قال له الیهودی:فإن عیسی یزعمون أنه کان زاهدا!،قال له علی(ع):

کان کذلک،و محمد ص أزهد الأنبیاء-کان له ثلاث عشره نسوه سوی من یطیف به من الإماء-ما رفعت له مائده قط و علیها طعام، و ما أکل خبز بر قط،و لا شبع من خبز شعیر قط ثلاث لیال متوالیات.

۹۸-و فی أمالی الصدوق،عن العیص بن القاسم قال: قلت للصادق(ع):

حدیث یروی عن أبیک:أنه قال:ما شبع رسول الله ص من خبز بر قط-أ هو صحیح؟فقال:لا-ما أکل رسول الله ص خبز بر قط و لا شبع من خبز شعیر قط.

۹۹-و فی الدعوات،للقطب قال:و روی ما أکل رسول الله ص متکئا إلا مره-ثم جلس فقال:اللهم إنی عبدک و رسولک.

أقول:و روی هذا المعنی الکلینی و الشیخ بطرق کثیره و الصدوق و البرقی و الحسین بن سعید فی کتاب الزهد.

۱۰۰-و فی الکافی،بإسناده عن زید الشحام عن أبی عبد الله(ع)قال: ما أکل رسول الله ص متکئا منذ بعثه الله-حتی قبض کان یأکل أکله العبد،و یجلس جلسه العبد.قلت:و لم؟قال تواضعا لله عز و جل.

۱۰۱-و فیه،بإسناده عن أبی خدیجه قال: سأل بشیر الدهان عن أبی عبد الله (ع)و أنا حاضر-فقال:هل کان یأکل رسول الله ص-متکئا علی یمینه و علی یساره؟ فقال:ما کان رسول الله ص یأکل-متکئا علی یمینه و لا علی یساره،و لکن یجلس جلسه العبد،قلت:و لم ذاک؟قال:تواضعا لله عز و جل.

۱۰۲-و فیه،بإسناده عن جابر عن أبی جعفر(ع)قال: کان رسول الله ص یأکل أکل العبد،و یجلس جلسه العبد ،و کان یأکل علی الحضیض و ینام علی الحضیض.

۱۰۳-و فی الإحیاء،": کان(ص)إذا جلس یأکل جمع بین رکبتیه و بین قدمیه-کما یجلس المصلی-إلا أن الرکبه فوق الرکبه و القدم فوق القدم،و یقول إنما أنا عبد آکل کما یأکل العبد-و أجلس کما یجلس العبد.

۱۰۴-و فی کتاب التعریف،للصفوانی عن علی(ع): کان رسول الله ص إذا قعد علی المائده قعد قعده العبد،و کان یتکئ عن (۱)فخذه الأیسر.

۱۰۵-و فی المکارم،:عن ابن عباس قال": کان النبی ص یجلس علی الأرض، و یعتقل الشاه،و یجیب دعوه المملوک.

۱۰۶-و فی المحاسن،بإسناده عن حماد بن عثمان عن أبی عبد الله(ع)قال: کان رسول الله ص یلعق أصابعه إذا أکل.

۱۰۷-و فی الإحتجاج،نقلا من کتاب موالید الصادقین قال: کان النبی ص یأکل کل الأصناف من الطعام،و کان یأکل ما أحل الله له مع أهله و خدمه إذا أکلوا- و مع من یدعوه من المسلمین علی الأکل،و علی ما أکلوا علیه-و ما أکلوا إلا أن ینزل بهم ضیف فیأکل مع ضیفه-إلی أن قال-و کان أحب الطعام إلیه ما کان علی ضفف.

أقول:قوله:«و علی ما أکلوا علیه»یرید أمثال المائده و الصحفه،و قوله:

«و ما أکلوا»ما موصوله أو توقیتیه،و قوله:«إلا أن ینزل،إلخ»استثناء من قوله:

«مع أهله و خدمه»و«الضفف»کثره العیال و نحوها،و الضفه بالفتح الجماعه.

ص :۳۲۴

۱- ۱) کذا

۱۰۸-و فی الکافی،بإسناده عن ابن القداح عن أبی عبد الله(ع)قال: کان رسول الله ص إذا أکل مع القوم طعاما-کان أول من یضع یده و آخر من یرفعها لیأکل القوم.

۱۰۹-و فی الکافی،بإسناده إلی محمد بن مسلم عن أبی جعفر(ع)قال:قال أمیر المؤمنین(ع): عشاء النبیین بعد العتمه-فلا تدعوا العشاء فإن ترک العشاء خراب البدن.

۱۱۰-و فی الکافی،بإسناده عن عنبسه بن نجاد عن أبی عبد الله(ع)قال: ما قدم إلی رسول الله ص طعام فیه تمر إلا بدأ بالتمر.

۱۱۱-و فی الکافی،و صحیفه الرضا،بإسناده عن آبائه(ع)قال: کان رسول الله ص إذا أکل التمر-یطرح النوی علی ظهر کفه ثم یقذف به.

۱۱۲-و فی الإقبال،نقلا من الجزء الثانی من تاریخ النیسابوری،فی ترجمه الحسن بن بشر بإسناده قال": کان رسول الله ص یحمد الله بین کل لقمتین.

۱۱۳-و فی الکافی،بإسناده عن وهب بن عبد ربه قال: رأیت أبا عبد الله (ع) یتخلل فنظرت إلیه-فقال:إن رسول الله ص کان یتخلل،و هو یطیب الفم.

۱۱۴-و فی المکارم،عن النبی ص: أنه کان إذا شرب بدأ فسمی-إلی أن قال:و یمص الماء مصا و لا یعبه عبا،و یقول:إن الکباد من العب.

۱۱۵-و فی الجعفریات،عن جعفر بن محمد عن آبائه عن علی(ع)قال: تفقدت النبی ص غیر مره،و هو إذا شرب تنفس ثلاثا-مع کل واحده منها تسمیه إذا شرب- و تحمید إذا انقطع فسألته عن ذلک-فقال:یا علی شکرا لله تعالی بالحمد و تسمیه من الداء.

۱۱۶-و فی المکارم،": کان(ص)لا یتنفس فی الإناء إذا شرب-فإن أراد أن یتنفس أبعد الإناء عن فیه حتی یتنفس.

۱۱۷-و فی الإحیاء،": و کان(ص)إذا أکل اللحم لم یطأطئ رأسه إلیه-و یرفعه إلی فیه رفعا-ثم ینهشه انتهاشا ثم قال:و کان إذا أکل اللحم خاصه غسل یدیه غسلا جیدا-ثم مسح بفضل الماء علی وجهه.

۱۱۸-و فی المکارم،عن النبی ص: أنه کان یأکل الأصناف من الطعام.

أقول:ثم ذکر الطبرسی أصنافا من الطعام کان(ص)یأکلها کالخبز و اللحم علی أقسامه و البطیخ و الخربز و السکر و العنب و الرمان و التمر و اللبن و الهریسه و السمن و الخل و الهندباء و الباذروج و الکرنب.و روی:أنه کان یحب التمر.و روی أنه کان یعجبه العسل.و روی أنه کان أحب الثمرات إلیه الرمان.

۱۱۹-و فی أمالی الطوسی،بإسناده عن أبی أسامه عن أبی عبد الله(ع)قال:

کان طعام رسول الله ص الشعیر إذا وجده،و حلواه التمر،و وقوده السعف.

۱۲۰-و فی المکارم،عن النبی ص: أنه کان لا یأکل الحار حتی یبرد و یقول:

إن الله لم یطعمنا نارا إن الطعام الحار غیر ذی برکه.

و کان إذا أکل سمی،و یأکل بثلاث أصابع،و مما یلیه و لا یتناول من بین یدی غیره،و یؤتی بالطعام فیشرع قبل القوم ثم یشرعون،و کان یأکل بأصابعه الثلاث.

الإبهام و التی تلیها و الوسطی و ربما استعان بالرابعه،و کان یأکل بکفه کلها،و لم یأکل بإصبعین،و یقول:إن الأکل بإصبعین هو أکل الشیطان،و لقد جاء أصحابه یوما بفالوذج فأکل معهم و قال:مم هذا؟فقالوا:نجعل السمن و العسل فیأتی کما تری-فقال:

إن هذا طعام طیب.

و کان یأکل خبز الشعیر غیر منخول(و ما أکل خبز بر قط،و لا شبع من خبز شعیر قط،و لا أکل علی خوان حتی مات،و کان یأکل البطیخ و العنب-و یأکل الرطب و یطعم الشاه النوی،و کان لا یأکل الثوم و لا البصل و لا الکراث-و لا العسل الذی فیه المغافیر،و المغافیر ما یبقی من الشجر فی بطون النحل-فیلقیه فی العسل فیبقی له ریح فی الفم.

و ما ذم طعاما قط.کان إذا أعجبه أکله،و إذا کرهه ترکه و لا یحرمه علی غیره، و کان یلحس القصعه و یقول:آخر الصحفه أعظم الطعام برکه،و کان إذا فرغ لعق أصابعه الثلاث التی أکل بها واحده واحده،و کان یغسل یده من الطعام حتی ینقیها، و کان لا یأکل وحده.

أقول:قوله:«الإبهام و التی تلیها و الوسطی» من جمیل أدب الراوی حیث لم

يقل:الإبهام و السبابه«إلخ»صونا له(ص)عن إطلاق السبابه على إصبعه الشريفه لما فى اللفظ من الإيهام.

و الذى رواه من أكله(ص)الفالوذج يخالف ما فى المحاسن مسندا عن يعقوب بن شعيب عن أبى عبد الله(ع)قال:بينا أمير المؤمنين(ع)فى الرحبه فى نفر من أصحابه إذ أهدى إليه خوان فالوذج فقال لأصحابه:مدوا أيديكم فمدوا أيديهم و مد يده ثم قبضها و قال:إنى ذكرت أن رسول الله ص لم يأكله فكرهت أكله.

۱۲۱-و فى المكارم،قال: و كان(ص)يشرب فى أقداح القوارير-التى يؤتى بها من الشام،و يشرب فى الأقداح-التى تتخذ من الخشب و الجلود و الخزف:.

أقول:و روى قريبا من صدره فى الكافى،و المحاسن،و فيه:و يعجبه أن يشرب فى القدح الشامى و كان يقول:هى أنظف آنيتكم.

۱۲۲-و فى المكارم،عن النبى: أنه كان يشرب بكفه يصب الماء فيها،و يقول:

ليس إناء أطيب من اليد.

۱۲۳-و فى الكافى،بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: كان رسول الله ص يذبح يوم الأضحى كبشين-أحدهما عن نفسه و الآخر عمن لم يجد من أمته.

۱۲۴-و من آدابه(ص)فى الخلوه ما

-فى شرح النفليه،للشهيد الثانى عن النبى ص:

أنه لم ير على بول و لا غائط.

۱۲۵ و فى الجعفريات،بإسناده عن جعفر بن محمد عن آبائه عن على(ع)قال:

إن رسول الله ص إذا أراد أن يتخنع غطى رأسه ثم دفنه،و إذا أراد يبزق فعل مثل ذلك،و كان إذا أراد الكنيف غطى رأسه.

أقول:و اتخاذ الكنيف فى العرب مما حدث بعد الإسلام،و كانوا قبل ذلك يخرجون إلى البر على ما يستفاد من بعض الروايات.

۱۲۶-و فى الكافى،بإسناده عن الحسين بن خالد عن أبى الحسن الثانى(ع)قال:

قلت له:إنا روينا الحديث-أن رسول الله ص كان يستنجى و خاتمه فى إصبعه،و كذلك كان يفعل أمير المؤمنين(ع)،و كان نقش خاتم رسول الله ص:محمد رسول الله؟

قال:صدقوا،قلت:فينبغى لنا أن نفعل،قال:إن أولئك كانوا يتختمون فى اليد اليمنى-و إنكم أنتم تتختمون فى اليسرى ،الحديث.

أقول و روى قريب منه فى الجعفريات،و فى المكارم،نقلا عن كتاب اللباس،للعياشى عن الصادق(ع).

١٢٧-و من آدابه(ص)عند المصائب و البلايا و فى الأموات و ما يتعلق بها ما فى المكارم،":كان رسول الله ص إذا رأى من جسمه بثره أعاذ بالله-و استكان له و جار إليه-فيقال له:يا رسول الله ما هو ببأس،فيقول:إن الله إذا أراد أن يعظم صغيرا عظم،و إذا أراد أن يصغر عظيما صغر.

١٢٨-و فى الكافى،بإسناده عن جابر عن أبى جعفر(ع)قال: السنه أن يحمل السرير من جوانبه الأربع،و ما كان بعد ذلك من حمل فهو تطوع.

١٢٩-و فى قرب الإسناد،عن الحسين بن طريف عن الحسين بن علوان عن جعفر عن أبيه: أن الحسن بن على(ع)كان جالسا و معه أصحاب له-فمر بجنازه فقام بعض القوم و لم يقم الحسن(ع)-فلما مضوا بها قال بعضهم:أ لا قمت عافاك الله-فقد كان رسول الله ص يقوم للجنازه إذا مروا بها؟فقال الحسن(ع):إنما قام رسول الله ص مره واحده،و ذلك أنه مر بجنازه يهودى و قد كان المكان ضيقا-فقام رسول الله ص و كره أن يعلوا رأسه.

١٣٠-و فى دعوات القطب،قال": كان النبى ص إذا أتبع جنازه غلبته كآبه، و أكثر حديث النفس،و أقل الكلام.

١٣١-و فى الجعفريات،بإسناده عن جعفر بن محمد عن آبائه عن على(ع):

أن رسول الله ص كان يحثو ثلاث حثيات-من تراب على القبر.

١٣٢-و فى الكافى،بإسناده عن زراره عن أبى جعفر(ع)قال: كان رسول الله ص-يصنع بمن مات من بنى هاشم خاصه شيئا-لا يصنعه بأحد من المسلمين:كان إذا صلى بالهاشمى و نضح قبره بالماء-وضع رسول الله ص كفه على القبر حتى ترى أصابعه فى الطين،فكان الغريب يقدم أو المسافر من أهل المدينه-فيرى القبر الجديد عله أثر كف رسول الله ص-فيقول: من مات من آل محمد؟

۱۳۳-و فی مسکن الفؤاد،للشهید الثانی عن علی(ع): أن رسول الله ص إذا عزی قال:آجرکم الله و رحمکم،و إذا هنأ قال:بارک الله لکم و بارک الله علیکم.

۱۳۴-و من آدابه(ص)فی الوضوء و الغسل ما فی آیات الأحکام،للقطب عن سلیمان بن بریده عن أبیه": أن النبی ص کان یتوضأ لکل صلاه-فلما کان عام الفتح صلی الصلوات بوضوء واحد-فقال عمر:یا رسول الله صنعت شیئا ما کنت صنعته، فقال:عمدا فعلته.

۱۳۵-و فی الکافی،بإسناده عن زراره قال:قال أبو جعفر((ع)): أ لا أحکی لکم وضوء رسول الله ص؟فقلنا:بلی؛فدعا بقعب فیه شیء من ماء فوضعه بین یدیه،ثم حسر عن ذراعیه،ثم غمس فیه کفه الیمنی-ثم قال:هکذا إذا کانت الکف طاهره-ثم غرف ملأها ماء فوضعها علی جبینه،ثم قال:بسم الله و سدله علی أطراف لحیته-ثم أمر یده علی وجهه و ظاهر جبینه مره واحده،ثم غمس یده الیسری فغرف بها ملأها-ثم وضعه علی مرفقه الیمنی-فأمر کفه علی ساعده-حتی جری الماء علی أطراف أصابعه-ثم غرف بیمینه ملأها فوضعه علی مرفقه الیسری-فأمر کفه علی ساعده-حتی جری الماء علی أطراف أصابعه،و مسح مقدم رأسه و ظاهر قدمیه-ببله یساره و بقیه بله یمناه.

قال:و قال أبو جعفر(ع):إن الله وتر یحب الوتر فقد یجزیک من الوضوء ثلاث غرفات:واحده للوجه و اثنتان للذراعین،و تمسح ببله یمناک ناصیتک،و ما بقی من بله یمینک ظهر قدمک الیمنی،و تمسح ببله یسارک ظهر قدمک الیسری.

قال زراره:قال أبو جعفر(ع) -سأل رجل أمیر المؤمنین(ع)عن وضوء رسول الله ص-فحکی له مثل ذلک.

أقول:و هذا المعنی مروی عن زراره و بکیر و غیرهما بطرق متعدده رواها الکلینی و الصدوق و الشیخ و العیاشی و المفید و الکراجکی و غیرهم،و أخبار أئمه أهل البیت (ع)فی ذلک مستفیضه تقرب من التواتر.

۱۳۶-و فی الأمالی،لمفید الدین الطوسی بإسناده عن أبی هریره": أن النبی ص کان إذا توضأ بدأ بمیامنه.

ص :۳۲۹

۱۳۷-و فی التهذیب،بإسناده عن أبی بصیر قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن الوضوء-فقال:کان رسول الله ص یتوضأ بمد من ماء و یغتسل بصاع:.

أقول:و روی مثله عن أبی جعفر(ع)بطریق آخر .

۱۳۸-و فی العیون،بإسناده عن الرضا عن آبائه(ع)فی حدیث طویل:

قال رسول الله ص: إنا أهل بیت لا تحل لنا الصدقه،و أمرنا بإسباغ الطهور،و لا ننزی حمارا علی عتیقه.

۱۳۹-و فی التهذیب،بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبی عبد الله(ع)قال:

المضمضه و الاستنشاق مما سن رسول الله ص.

۱۴۰-و فیه،بإسناده عن معاویه بن عمار قال:سمعت أبا عبد الله(ع)یقول:

کان رسول الله یغتسل بصاع، و إذا کان معه بعض نسائه یغتسل بصاع و مد.

- أقول:و روی هذا المعنی الکلینی فی الکافی،بإسناده عن محمد بن مسلم عنه:و فیه:

یغتسلان جمیعا من إناء واحد ،و کذلک الشیخ بطریق آخر.

۱۴۱-و فی الجعفریات،بإسناده عن جعفر بن محمد،عن أبیه(ع)قال:

سأل الحسن بن محمد،جابر بن عبد الله-عن غسل رسول الله ص-فقال جابر:کان رسول الله ص یغرف علی رأسه ثلاث مرات- فقال الحسن بن محمد:إن شعری کثیر کما تری- فقال جابر:یا حر لا تقل ذلک-فشعر رسول الله ص کان أکثر و أطیب.

۱۴۲-و فی الهدایه،للصدوق:قال الصادق(ع): غسل الجمعه سنه واجبه-علی الرجال و النساء فی السفر و الحضر-إلی أن قال-و قال الصادق(ع):غسل یوم الجمعه طهور و کفاره-لما بینهما من الذنوب من الجمعه إلی الجمعه،قال:و العله فی غسل الجمعه-أن الأنصار کانت تعمل لنواضحها و أموالها-فإذا کان یوم الجمعه حضروا المسجد- فیتأذی الناس بأریاح آباطهم-فأمر الله النبی ص بالغسل فجرت به السنه.

أقول:و قد روی من سننه(ص)فی الغسل غسل یوم الفطر و الغسل فی جمیع الأعیاد و أغسال أخر کثیره ربما یأتی بعضها فیما سیأتی إن شاء الله تعالی.

۱۴۳-و من آدابه و سننه(ص)فی الصلاه و ما یلحق بها ما فی الکافی،بإسناده عن الفضیل بن یسار و عبد الملک و بکیر قالوا:سمعنا أبا عبد الله(ع)یقول: کان

رسول الله ص يصلى من التطوع مثلى الفريضه، و يصوم من التطوع مثلى الفريضه:.

أقول:و رواه الشيخ أيضا .

۱۴۴-و فيه،بإسناده عن حنان قال: سأل عمرو بن حريث أبا عبد الله(ع) و أنا جالس-فقال:جعلت فداك أخبرنى عن صلاه رسول الله ص-فقال:كان النبى ص يصلى ثمان ركعات الزوال،و أربعا الأولى،و ثمانى بعدها،و أربعا العصر، و ثلاثا المغرب،و أربعا بعد المغرب،و العشاء الآخره أربعا،و ثمانى صلاه الليل، و ثلاثا الوتر،و ركعتى الفجر،و صلاه الغداه ركعتين.

قلت:جعلت فداك-إن كنت أقوى على أكثر من هذا-يعذبنى الله على كثره الصلاه؟ فقال:لا و لكن يعذبك على ترك السنه.

أقول:و يظهر من الروايه أن الركعتين عن جلوس العشاء أعنى العتمه ليستا من الخمسين بل يتم بهما-محسوبتين بواحده عن قيام-العدد إحدى و خمسين بل إنما شرعت العتمه بدلا من الوتر لو نزل الموت قبل القيام إلى الوتر

- فقد روى الكلينى رحمه الله فى الكافى،بإسناده عن أبى بصير عن أبى عبد الله(ع)قال: من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فلا يبيتن إلا بوتر-قلت:تعنى الركعتين بعد العشاء الآخره؟قال:نعم إنهما بركعه فمن صلاهما-ثم حدث به حدث مات على وتر-فإن لم يحدث به حدث الموت يصلى الوتر فى آخر الليل.

فقلت:هل صلى رسول الله ص هاتين الركعتين؟قال:لا-قلت:و لم؟ قال:لأن رسول الله ص كان يأتيه الوحى،و كان يعلم أنه هل يموت فى تلك الليله أم لا؟و غيره لا يعلم فمن أجل ذلك لم يصلهما و أمر بهما ،الخبر.

و يمكن أن يكون المراد بقوله فى الحديث:«لم يصلهما»أنه لم يداوم عليهما بل ربما صلى و ربما ترك كما يستفاد من بعض آخر من الأحاديث،فلا يعارض ما ورد من أنه كان يصليهما.

۱۴۵-و فى التهذيب،بإسناده عن زراره قال:سمعت أبا جعفر(ع)يقول: كان رسول الله ص لا يصلى من النهار شيئا-حتى تزول الشمس-فإذا زالت قدر نصف إصبع صلى ثمانى ركعات-فإذا فاء الفيء ذراعا صلى الظهر،ثم صلى بعد الظهر ركعتين،

و يصلى قبل وقت العصر ركعتين،فإذا فاء الفیء ذراعین صلى العصر،و صلى المغرب (حين)تغيب الشمس،فإذا غاب الشفق دخل وقت العشاء،و آخر وقت المغرب إياب الشفق-فإذا آب الشفق دخل وقت العشاء-و آخر وقت العشاء ثلث الليل.

و كان لا يصلى بعد العشاء حتى ينتصف الليل-ثم يصلى ثلاث عشره ركعه منها الوتر و منها ركعتا الفجر قبل الغداه،فإذا طلع الفجر و أضاء صلى الغداه.

أقول:و لم يستوعب تمام نافله العصر فی الروايه،و هی معلومه من روايات أخر.

۱۴۶-و فيه،بإسناده عن معاويه بن وهب قال:سمعت أبا عبد الله(ع)يقول: و ذكر صلاه النبی ص قال:كان(ص)يؤتى بطهور فيخمر عند رأسه-و يوضع سواكه تحت فراشه،ثم ينام ما شاء الله فإذا استيقظ جلس-ثم قلب بصره فی السماء،ثم تلا الآيات من آل عمران: «إِنَّ فِی خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ » الآيات،ثم يستن و يتطهر،ثم يقوم إلى المسجد-فيركع أربع ركعات على قدر قراءته ركوعه،و سجوده على قدر ركوعه، يركع حتى يقال:متى يرفع رأسه؟ و يسجد حتى يقال:متى يرفع رأسه.

ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله،ثم يستيقظ فيجلس-فيتلو الآيات و يقلب بصره إلى السماء،ثم يستن و يتطهر و يقوم إلى المسجد-فيصلی الأربع ركعات كما ركع قبل ذلك.

ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله-ثم يستيقظ و يجلس و يتلو الآيات من آل عمران- و يقلب بصره فی السماء،ثم يستن و يتطهر و يقوم إلى المسجد-فيوتر و يصلی الركعتين-ثم يخرج إلى الصلاه.

أقول:و روى هذا المعنى أيضا فی الكافی،بطريقين.

۱۴۷-و روى: أنه(ص)كان يوجز فی نافله الصبح يصليهما عند أول الفجر-ثم يخرج إلى الصلاه.

۱۴۸-و فی المحاسن،بإسناده عن عمر بن يزيد عن أبی عبد الله(ع):أنه قال:

من قال فی وتره إذا أوتر:أستغفر الله ربی و أتوب إليه سبعين مره،و واظب على ذلك حتى قضى سنه-كتبه الله عنده من المستغفرين بالأسحار.

و كان رسول الله ص يستغفر الله فی الوتر سبعين مره،و يقول:هذا مقام العائذ

بک من النار سبعا ،الخبر.

۱۴۹-و فی الفقیه،:کـان النبی ص یقول فی قنوت الوتر: اللهم اهـدنی فیمن هـدیت،و عـافنی فیمن عافیت،و تولنی فیمن تولیت،و بارک لی فیما أعطیت،و قنی شر ما قضیت،إنک تقضی و لا یقضی علیک،سبحانک رب البیت،أستغفرک و أتوب إلیک و أومن بک و أتوکل علیک، و لا حول و لا قوه إلا بک یا رحیم.

۱۵۰-و فی التهذیب،بإسناده عن أبی خدیجه عن أبی عبد الله(ع)قال: کان رسول الله ص-إذا جاء شهر رمضان زاد فی الصلاه و أنا أزید فزیدوا.

أقول:یعنی(ع)بالزیاده الألف رکعه-التراویح-نوافل شهر رمضان التی کان یصلیها رسول الله ص غیر الخمسین نوافل الیوم و اللیله،و قد وردت فی کیفیتها و تقسمها علی لیالی شهر رمضان أخبار کثیره،

-و ورد من طرق أئمه أهل البیت(ع):

أن النبی ص کان یصلیها بغیر جماعه،و ینهی عن إتیانها بالجماعه،و یقول:

لا جماعه فی نافله.

و للنبی ص صلوات خاصه أخری منقوله عنه فی کتب الأدعیه ترکنا ذکرها لخروجها عن غرضنا فی هذا المقام،و کذلک له(ص)سنن فی الصلوات و الأدعیه و الأوراد من أراد الوقوف علیها فلیراجع مظان ذکرها.

۱۵۱-و فی الکافی،بإسناده عن یزید بن خلیفه قال: قلت لأبی عبد الله(ع):

إن عمر بن حنظله أتانا عنک بوقت قال:إذن لا یکذب علینا-إلی أن قال-قلت:

و قال:إن وقت المغرب إذا غاب القرص-إلا أن رسول الله ص کان إذا جد به السیر أخر المغرب-و یجمع بینها و بین العشاء،فقال:صدق.

۱۵۲-و فی التهذیب،بإسناده عن طلحه بن زید عن جعفر عن أبیه(ع):

أن النبی ص کان فی اللیله الممطره یوجز فی المغرب-و یعجل فی العشاء یصلیهما جمیعا، و یقول:من لا یرحم لا یرحم.

۱۵۳-و فیه،بإسناده عن ابن أبی عمیر عن حماد عن الحلبی عن أبی عبد الله (ع) قال: کان رسول الله ص إذا کان فی سفر أو عجلت به الحاجه-یجمع بین الظهر و العصر و بین المغرب و العشاء الآخره ،الخبر.

أقول:و فی هذا المعنی روایات کثیره رواها الکلینی و الشیخ و ابنه و الشهید الأول رحمهم الله.

۱۵۴-و فی الفقیه،بإسناده عن معاویه بن وهب عن أبی عبد الله(ع)أنه قال:

کان المؤذن یأتی النبی ص فی الحر فی صلاه الظهر-فیقول له رسول الله ص:أبرد أبرد.

أقول:قال الصدوق:یعنی عجل عجل أخذ ذلک من البرید،و الظاهر أن المراد به التأخیر لیزول شده الحر کما یدل علیه ما

- فی کتاب العلاء،عن محمد بن مسلم قال:

مر بی أبو جعفر(ع)بمسجد رسول الله ص-و أنا أصلی فلقینی بعد فقال:إیاک أن تصلی الفریضه فی تلک الساعه،أ تؤدیها فی شده الحر؟قلت:إنی کنت أتنفل.

۱۵۵-و فی الإحیاء،قال": و کان(ص)لا یجالس إلیه أحد-و هو یصلی إلا خفف صلاته و أقبل علیه فقال،أ لک حاجه؟فإذا فرغ من حاجاته عاد إلی صلاته.

۱۵۶-و فی کتاب زهد النبی،لجعفر بن أحمد القمی قال": کان النبی ص إذا قام إلی الصلاه تربد وجهه خوفا من الله،و کان لصدره أو لجوفه أزیز کأزیز الوجل.

أقول:و روی هذا المعنی ابن الفهد و غیره أیضا.

۱۵۷-و فیه،قال:و فی روایه أخری: أن النبی ص کان إذا قام إلی الصلاه کأنه ثوب ملقی.

۱۵۸-و فی البحار،قال": قالت عائشه:کان رسول الله ص یحدثنا و نحدثه- فإذا حضرت الصلاه فکأنه لم یعرفنا و لم نعرفه.

۱۵۹-و فی المجالس،لمفید الدین الطوسی بإسناده إلی علی(ع): فی کتابه إلی محمد بن أبی بکر حین ولاه مصر-إلی أن قال-ثم انظر رکوعک و سجودک-فإن رسول الله ص کان أتم الناس صلاه،و أخفهم عملا فیها.

۱۶۰-و فی الجعفریات،بإسناده عن جعفر بن محمد عن آبائه عن علی(ع)قال:

کان رسول الله ص-إذا تثاءب فی الصلاه ردها بیده الیمنی.

أقول:و روی فی الدعائم مثله .

۱۶۱-و فی العلل،بإسناده عن هشام بن الحکم عن أبی الحسن موسی(ع)فی

حدیث قال: قلت له:لأی عله یقال فی الرکوع:سبحان ربی العظیم و بحمده؟و یقال فی السجود:سبحان ربی الأعلی و بحمده؟فقال:یا هشام إن رسول الله ص لما أسری به،و صلی و ذکر ما رأی من عظمه الله ارتعدت فرائصه-و ابترک علی رکبتیه،و أخذ یقول:سبحان ربی العظیم و بحمده،فلما اعتدل من رکوعه-فإنما نظر إلیه فی موضع أعلی من ذلک-خر علی وجهه و هو یقول:سبحان ربی الأعلی و بحمده-فلما قالها سبع مرات سکن ذلک الرعب-فلذلک جرت به السنه.

۱۶۲-فی تنبیه الخواطر،للشیخ ورام بن أبی فراس عن النعمان قال: کان رسول الله ص یسوی صفوفنا-کأنما یسوی بها القداح حتی رأی أنا قد أغفلنا عنه؛ثم خرج یوما و قام حتی کاد أن یکبر فرأی رجلا بادئا صدره-فقال:عباد الله لتسوون صفوفکم- أو لیخالفن بین وجوهکم.

۱۶۳-و فیه،عن ابن مسعود قال: کان رسول الله ص یمسح مناکبنا فی الصلاه- و یقول:استووا و لا تختلفوا فتختلف قلوبکم ،الخبر.

۱۶۴-و فی الفقیه،بإسناده عن داود بن الحصین عن أبی العباس عن أبی عبد الله(ع)قال": اعتکف رسول الله ص فی شهر رمضان فی العشر الأول-ثم اعتکف فی الثانیه فی العشر الوسطی،ثم لم یزل یعتکف فی العشر الأواخر.

۱۶۵-و فیه،قال:قال أبو عبد الله(ع): کانت بدر فی شهر رمضان و لم یعتکف رسول الله ص-فلما أن کان من قابل اعتکف عشرین:عشرا لعامه،و عشرا قضاء لما فاته:.

أقول:و رواه و الذی قبله الکلینی فی الکافی، .

۱۶۶-و فی الکافی،بإسناده عن الحلبی،عن أبی عبد الله(ع)قال: کان رسول الله ص إذا دخل العشر الأواخر(یعنی من شهر رمضان)اعتکف فی المسجد، و ضربت له قبه من شعر،و شمر المیزر،و طوی فراشه-و قال بعضهم:و اعتزل النساء؟ قال:أما اعتزال النساء فلا.

أقول:و هذا المعنی مروی فی روایات کثیره،و المراد من نفی الاعتزال-کما ذکروه و تدل علیه الروایات-تجویز مخالطتهن و معاشرتهن دون المجامعه.

۱۶۷-و من آدابه و سننه(ص)فی الصیام ما فی الفقیه،بإسناده عن محمد بن مروان قال:سمعت أبا عبد الله(ع)یقول: کان رسول الله ص یصوم حتی یقال:

لا یفطر،و یفطر حتی یقال:لا یصوم،ثم صام یوما و أفطر یوما،ثم صام الإثنین و الخمیس،ثم آل من ذلک إلی صیام ثلاثه أیام فی الشهر:الخمیس فی أول الشهر،و أربعاء فی وسط الشهر،و الخمیس فی آخر الشهر،و کان(ص)یقول:ذلک صوم الدهر.

و قد کان أبی(ع)یقول:ما من أحد أبغض إلی الله من رجل یقال له:کان رسول الله یفعل کذا و کذا-فیقول:لا یعذبنی الله علی أن أجتهد فی الصلاه و الصوم-کأنه یری أن رسول الله ص-ترک شیئا من الفضل عجزا منه.

۱۶۸-و فی الکافی،بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبی عبد الله(ع): کان رسول الله ص أول ما بعث-یصوم حتی یقال:ما یفطر و یفطر حتی یقال:ما یصوم،ثم ترک ذلک و صام یوما-و أفطر یوما و هو صوم داود،ثم ترک ذلک و صام الثلاثه الأیام الغر،ثم ترک ذلک و فرقها فی کل عشره یوما:خمیسین بینهما أربعاء فقبض(ص)و هو یعمل ذلک.

أقول:و فی هذا المعنی روایات کثیره مستفیضه.

۱۶۹-و فیه،بإسناده عن عنبسه العابد قال": قبض النبی ص علی صیام شعبان و رمضان و ثلاثه أیام من کل شهر.

۱۷۰-و فی نوادر،أحمد بن محمد بن عیسی عن علی بن نعمان عن زرعه عن سماعه قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن صوم شعبان-أ صامه رسول الله ص؟قال:نعم و لم یصمه کله،قلت:کم أفطر منه؟قال:أفطر،فأعدتها و أعادها ثلاث مرات لا یزیدنی علی أن أفطر،ثم سألته فی العام القابل عن ذلک-فأجابنی بمثل ذلک الخبر.

۱۷۱-و فی المکارم،عن أنس قال": کانت لرسول الله ص شربه یفطر علیها- و شربه للسحر،و ربما کانت واحده و ربما کانت لبنا،و ربما کانت الشربه خبزا یماث ،الخبر.

۱۷۲-و فی الکافی،بإسناده عن ابن القداح عن أبی عبد الله(ع)قال: کان رسول الله ص-أول ما یفطر علیه فی زمن الرطب الرطب-و فی زمن التمر التمر.

۱۷۳-و فیه،بإسناده عن السکونی عن جعفر عن أبیه(ع)قال: کان رسول الله ص إذا صام-و لم یجد الحلواء أفطر علی الماء-و فی بعض الروایات:أنه ربما

أفطر على الزبيب.

۱۷۴-و فى المقنعه،روى عن آل محمد(ع)أنهم قالوا: يستحب السحور و لو بشربه من الماء،و روى أن أفضله التمر و السويق-لمكان استعمال رسول الله ص ذلك.

أقول:و هذا فى سننه الجاريه،و كان من مختصاته صوم الوصال و

هو الصوم أكثر من يوم من غير فصل بالإفطار،و قد نهى(ص)الأمه عن ذلك،و قال:إنكم لا تطيقون ذلك-و إن لى عند ربى ما يطعمنى و يسقين.

۱۷۵-و فى المكارم،عن النبى ص: أنه كان يأكل الهريسه أكثر ما يأكل و يتسحر بها.

۱۷۶-و فى الفقيه،قال: و كان رسول الله ص إذا دخل شهر رمضان-أطلق كل أسير و أعطى كل سائل.

۱۷۷-و فى الدعائم،عن على(ع)قال: كان رسول الله ص يطوى فراشه- و يشد ميزره فى العشر الأواخر من شهر رمضان،و كان يوقظ أهله ليله ثلاث و عشرين، و كان يرش وجوه النيام بالماء فى تلك الليله،و كانت فاطمه(ع)لا تدع أحدا من أهلها-ينام تلك الليله-و تداويهم بقله الطعام و تتأهب لها من النهار،و تقول: محروم من حرم خيرها.

۱۷۸-و فى المقنع،": و السنه أن يفطر الرجل فى الأضحى بعد الصلاه-و فى الفطر قبل الصلاه.

۱۷۹-و من آدابه(ص)فى قراءه القرآن و الدعاء ما فى مجالس الشيخ،بإسناده عن أبى الدنيا عن أمير المؤمنين(ع)قال: كان رسول الله ص لا يحجزه عن قراءه القرآن إلا الجنابه.

۱۸۰-و فى مجمع البيان،عن أم سلمه": كان النبى ص يقطع قراءته آيه آيه.

۱۸۱-و فى تفسير أبى الفتوح،: كان(ص)لا يرقد حتى يقرأ المسبحات، و يقول:فى هذه السور آيه هى أفضل من ألف آيه.قالوا:و ما المسبحات؟قال:

سوره الحديد و الحشر-و الصف و الجمعه و التغابن.

أقول:و روی هذا المعنی فی مجمع البیان،عن العرباض بن ساریه.

۱۸۲-و فی درر اللئالی،لابن أبی جمهور عن جابر قال": کان النبی ص لا ینام حتی یقرأ تبارک و الم التنزیل.

۱۸۳-و فی مجمع البیان،:و روی علی بن أبی طالب(ع)قال: کان رسول الله ص یحب هـذه السوره:سبح اسم ربک الأعلی،و أول من قال:«سبحان ربی الأعلی»میکائیل.

أقول:و روی أول الحدیث فی البحار عن الدر المنثور،و هنا أخبار أخر فی ما کان یقوله(ص)عند تلاوه القرآن أو عند تلاوه سور أو آیات مخصوصه،من أرادها فعلیه بمظانها.

و له(ص)خطب و بیانات یرغب فیها و یحث علی التمسک بالقرآن و التدبر فیه، و الاهتداء بهدایته،و الاستناره بنوره،و کان هو(ص)أولی الناس بما یندب إلیه من الکمال و أسبق الناس و أسرعهم إلی کل خیر،و هو القائل-فی الروایه المشهوره-:

شیبتنی (۱)سوره هود،

- و قد روی (۲)عن ابن مسعود قال: أمرنی رسول الله ص أن أتلو علیه شیئا من القرآن-فقرأت علیه من سوره یونس حتی إذا بلغت قوله تعالی:« وَ رُدُّوا إِلَی اللّٰهِ مَوْلاٰهُمُ الْحَقِّ » الآیه-رأیته و إذا الدمع تدور فی عینیه الکریمتین.

فهذه شذرات (۳)من آدابه و سننه(ص)و قد استفاضت الروایات و تکرر النقل فی کثیر منها فی کتب الفریقین،و الکلام الإلهی یؤیدها و لا یدفع شیئا منها،و الله الهادی.

(کلام فی الرق و الاستعباد)

اشاره

قوله تعالی: «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبٰادُکَ») :«المائده:۱۱۸ کلام منبئ عن معنی الرق و العبودیه،و الآیات المتضمنه لهذا المعنی و إن کانت کثیره فی القرآن الکریم غیر

۱- ۱) یشیر صلی الله علیه و آله إلی قوله تعالی فیها:فاستقم کما أمرت.

۲- ۲) الروایه منقوله بالمعنی.

۳- ۳) استخرجناها من رساله عملناها سابقا فی سنن النبی صلی الله علیه و آله.

أن هذه الآيه مشتمله على التعليل العقلى الكاشف عن أنه لو كان هناك عبد كان من المسلم عند العقل أن لمولاه أن يتصرف فيه بالعذاب لأنه مولاه المالك له.

و العقل لا يحق الحكم بجواز التعذيب،و تسويغ التصرف الذى يشقه إلا بعد حكمه بإباحه سائر التصرفات غير الشاقه فللمولى أن يتصرف فى عبده كيف شاء و بما شاء،و إنما استثنى العقل التصرفات التى يستهجنها بما أنها تصرفات شنيعه مستهجنه لا بما أن العبد عبد.

و لازم ذلک أيضا أن على العبد أن يطيع مولاه فيما كلفه به و أن يتبعه فيما أراد و ليس له أن يستقل بشىء من العمل إن لم يرض به مولاه كما يشير إلى ذلک بعض الإشاره قوله تعالى: «بَلْ عِبٰادٌ مُكْرَمُونَ لاٰ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» :الأنبياء:۲۷ و قوله تعالى: «ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ وَ مَنْ رَزَقْنٰاهُ مِنّٰا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ» :النحل:۷۵.

و استقصاء البحث فى جهات ما يراه القرآن الشريف فى مسأله العبوديه و الرق يتوقف على فصول:

۱-اعتبار العبوديه لله سبحانه:

فى القرآن الكريم آيات كثيره جدا يعد الناس عبادا لله سبحانه،و تبنى على ذلک أصل الدعوه الدينيه:الناس عبيد و الله مولاهم الحق.

بل ربما تعدى ذلک و أخذ كل من فى السماوات و الأرض موسوما بسمه العبوديه كالحقيقه المسماه بالملک على كثرتها و الحقيقه الأخرى التى يسميها القرآن الشريف بالجن قال تعالى:

«إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ إِلاّٰ آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً» :مريم:۹۳.

و لا ريب أن اعتبار العبوديه لله سبحانه أمر مأخوذ بالتحليل و هو تحليل معنى العبوديه إلى أجزائها الأصليه ثم الحكم بثبوت حقيقته بعد طرح خصوصياته الزائده الطارئه على أصل المعنى فى أولى العقل من الخليقه فهناک أفراد من الناس يسمى الواحد منهم عبدا،و لا يسمى به إلا لأن نفسه مملوكه لغيره ملكا يسوغ لذلک الغير الذى هو مالكه و مولاه أن يتصرف فيه كيف يشاء و بما أراد،و يسلب عن العبد استقلال الإراده مطلقا.

و التأمل فى هذا المعنى يوجب الحكم بأن الإنسان-و إن شئت وسعت و قلت:

كل ذى شعور و إراده-عبد لله سبحانه بحقيقه معنى العبوديه فإن الله سبحانه مالك كل ما يسمى شيئا بحقيقه معنى الملك فلا يملك شيء من نفسه و لا من غيره شيئا من ضر و لا نفع و لا موت و لا حياه و لا نشور،و لا يستقل أمر فى الوجود بذات و لا وصف و لا فعل اللهم إلا ما ملكه الله ذلك تمليكا لا يبطل بذلك ملكه تعالى،و لا ينتقل به الملك عنه إلى غيره بل هو المالك لما ملكهم،و القادر على ما عليه أقدرهم، و هو على كل شيء قدير،و بكل شيء محيط.

و هذه السلطه الحقيقيه و الملك الواقعى هى المنشأ لوجوب انقيادهم لما يريده منهم بإرادته التشريعيه،و ما يصنع لهم من شرائع الدين و قوانين الشريعه مما يصلح به أمرهم و تحاز به سعادتهم فى الدارين.

و الحاصل أنه تعالى هو المالك لهم ملكا تكوينيا يكونون به عبيده الداخرين لقضائه سواء عرفوه أم جهلوه أطاعوه فى تكاليفه أم عصوه و هو المالك لهم ملكا تشريعيا يوجب له عليهم السمع و الطاعه، و يحكم عليهم بالتقوى و العباده.

و يتميز هذا الملك و المولويه بحسب الحكم عن الملك و المولويه الدائر بين الناس -و كذا العبوديه المقابله له-بأن الله سبحانه لما كان مالكا تكوينا على الإطلاق لا مالك سواه لم يجز فى مرحله العبوديه التشريعيه اتخاذ مولى سواه و لا عباده أحد غيره قال تعالى: «وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِيّٰاهُ» :الإسراء:۲۳ بخلاف الموالى من الناس فإن الملك هناك لمن غلب بسبب من أسباب الغلبه.

و أيضا لما لم يكن فى عبيده تعالى المملوكين شيء غير مملوك له تعالى و لم ينقسموا فى وجودهم إلى مملوك و غير مملوك بل كانوا من حيث ذواتهم و أوصافهم و أحوالهم و أعمالهم مملوكين له تكوينا تبع ذلك التشريع فحكم فيهم بدوام العبوديه و استيعابها لجميع ما يرجع إليهم بوجه من الوجوه فلا يسعهم أن يعبدوا الله من جهه بعض ما يرجع إليهم دون بعض مثل أن يعبدوه باللسان دون اليد كما لا يسعهم أن يجعلوا بعض عبادتهم لله تعالى و بعضها لغيره و هذا بخلاف المولويه الدائره بين الناس فلا يسع للمولى عقلا أن يفعل ما يشاء،تأمل فيه.

و هذا هو الذى يدل على إطلاق أمثال قوله تعالى: «مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ شَفِيعٍ» :السجده:۴ و قوله تعالى: «وَ هُوَ اللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْأُولىٰ

وَ الْآخِرَهِ وَ لَهُ الْحُكْمُ» :القصص:۷۰،و قوله: «يُسَبِّحُ لِلّهِ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» :التغابن:۱.

و كيفما كان فالعبوديه المعتبره بالنسبه إليه تعالى معنى تحليلى مأخوذ من العبوديه التى تعتبره العقلاء من الإنسان فى مجتمعهم فلها أصل فى المجتمع الإنسانى فلننظر ما هو أصله؟.

۲-استعباد الإنسان و أسبابه:

كان الاستعباد و الاسترقاق دائرا فى المجتمع الإنسانى شائعه معروفه إلى ما يقرب من سبعين سنه قبل هذا التاريخ،و لعلها توجد معموله فى بعض القبائل المتطرفه النائيه فى إفريقيا و آسيا حتى اليوم،و كان اتخاذ العبيد و الإماء من السنن الدائره بين الأقوام القديمه لا يكاد يضبط بدء تاريخى له؛و كان ذا نظام مخصوص و أحكام و قوانين عامه بين الأمم،و أخرى مخصوصه بأمه أمه.

و الأصل فى معناه كون النفس الإنسانيه عند وجود شرائط خاصه سلعه مملوكه كسائر السلع المملوكه من حيوان و نبات و جماد،و إذا كانت النفس مملوكه كانت مسلوبه الاختيار مملوكه الأعمال و الآثار يتصرف فيها كيف أريد.

هذه سنتهم الدائره بينهم فى الاسترقاق غير أنه لم يكن متكئا على إراده جزافيه أو مطلقا غير مبنى على أى شرط فلم يكن يسع لأحدهم أن يتملك كل من أحب،و لا أن يملك كل من شاء و أراد ببيع أو هبه أو غير ذلك فلم يكن أصل المعنى متكئا على الجزاف،و إن كان ربما يوجد فى تضاعيف القوانين المتبعه فيه بحسب اختلاف آراء الأقوام و سننهم أمور جزافيه كثيره.

كانت الاستعباد مبنيا على نوع من الغلبه و السيطره كغلبه الحرب التى تنتج للغالب الفاتح أن يفعل بخصمه المغلوب ما يشاء من قتل أو سبى أو غيره،و غلبه الرئاسه التى تصير الرئيس الجبار فعالا لما يشاء فى حوزه رئاسته،و اختصاص التوليد و الإنتاج الذى يضع ولايه أمر المولود الضعيف فى كف والده القوى يصنع به ما بدا له حتى البيع و الهبه و التبديل و الإعاره و نحو ذلك.

و قد تكرر فى أبحاثنا السابقه:أن أصل الملك فى المجتمع الإنسانى مبنى على القدره المغروزه فى الإنسان على الانتفاع من كل شيء يمكنه أن ينتفع به بوجه-و الإنسان

مستخدم بالطبع-فالإنسان يستخدم فی سبيل إبقاء حياته كل ما قدر عليه و استخدامه و الانتفاع بمنافع وجوده آخذا من الماده الأصليه فالعناصر فالمركبات الجماديه المتنوعه فالحيوان حتى الإنسان الذى هو مثله فى الإنسانيه.

غير أن حاجته المبرمه إلى الاجتماع و التعاون اضطره إلى قبول الاشتراك مع سائر أفراد نوعه فى الانتفاع بالمنافع المحصله من الأشياء بأعمالهم المشتركه فهو و سائر الأفراد من نوعه يكونون لذلك مجتمعا يختص كل جزء من أجزائه و كل طرف من أطرافه بعمل أو أعمال ثم ينتفع المجموع بالمجموع،و إن شئت فقل:ثم تقسم نتائج الأعمال بينهم فيتمتع كل واحد منهم بذلك على مقدار زنته الاجتماعيه،و لذلك نرى أن الفرد من الإنسان و هو اجتماعى كلما قوى و اشتد أبطل المدنيه الطبعيه و أخذ يستخدم الناس بالغلبه،و يتملك رقابهم،و يحكم فى نفوسهم و أعراضهم و أموالهم بما يقترحه.

و لأجل ذلك إذا تأملت تأملا حرا فى سنتهم فى استعباد الإنسان وجدت أنهم لا يعتبرون تملك الإنسان ما دام داخلا فى المجتمع و جزء من أجزائه بل إما أن يكون الإنسان المملوك محكوما بالخروج عن المجتمع كالعدو المحارب الذى لا هم له إلا أن يهلك الحرث و النسل و يمحى الإنسان باسمه و رسمه فهو خارج عن مجتمع عدوه،و له أن يهلكه بالإفناء و يتملك منه ما يشاء لأن الحرمه مرفوعه،و مثله الأب بالنسبه إلى صغار أولاده و التابعين لنفسه فإنه يرى أنهم من توابعه فى المجتمع من غير أن يكافئوه أو يماثلوه أو يوازنوه فله أن يتصرف فيهم حتى بالقتل و البيع و غيرهما.

و إما أن يكون الإنسان المالك ذا خصيصه تدعوه إلى أن يعتقد أنه فوق المجتمع من غير أن يعادلهم فى وزن أو يشاركهم فى نفع بل له نفوذ الحكم،و التمتع بصفوه ما يختار،و التصرف فى نفوسهم حتى بالملك و الاستعباد.

فقد تبين أن الأصل الأساسى الذى كان يبنى عليه الإنسان سنه الاستعباد و الاسترقاق هو حق الاختصاص و التملك المطلق الذى يعتقده الإنسان لنفسه،و أن الإنسان لا يستثنى عنه أحدا إلا مشاركيه فى مجتمعه الإنسانى ممن يعادله فى الزنه الاجتماعيه و يتحصن منه فى حصن التعاون و التعاضد،و أما الباقون فلا مانع عنده من تملكهم و استعبادهم.

و عمدتهم فی ذلک طوائف ثلاث:العدو المحارب،و الأولاد الضعفاء بالنسبه إلی آبائهم و کذا النساء بالنسبه إلی أولیائهن،و المغلوب المستبذل بالنسبه إلی الغالب المتعزز.

۳-سیر الاستعباد فی التاریخ:

سنه الاستعباد و إن کانت مجهوله من حیث تاریخ شیوعها فی المجتمع الإنسانی غیر أن الأشبه أن یکون أرقاء مأخوذین فی أول الأمر بالقتال و التغلب ثم یلحق به الأولاد و النساء،و لذلک نعثر فی تاریخ الأمم القویه الحربیه من القصص و الحکایات و کذا القوانین و الأحکام المربوطه بالاسترقاق بالسبی علی ما لا یوجد فی غیرهم.

و قد کان دائرا بین الأمم المتمدنه القدیمه کالهند و الیونان و الرومان و إیران، و بین الملیین کالیهود و النصاری علی ما یستفاد من التوراه و الإنجیل حتی ظهر الإسلام فأنفذ أصله مع تضییق فی دائرته و إصلاح لأحکامه المقرره،ثم آل الأمر إلی أن قرر مؤتمر بروسل إلغاء الاستعباد قبل سبعین سنه تقریبا.

قال«فردینان توتل»فی معجمه (۱)لأعلام الشرق و الغرب:کان الرق شائعا عند الأقدمین،و کان الرقیق یؤخذ من أسری و سبایا الحرب و من الشعوب المغلوبه، کان للرق نظام معروف عند الیهود و الیونان و الرومان و العرب فی الجاهلیه و الإسلام.

و قد ألغی نظام الرق تدریجا:فی الهند سنه(۱۸۴۳)و فی المستعمرات الإفرنسیه سنه (۱۸۴۸)و فی الولایات المتحده بعد حرب الانفصال سنه(۱۸۶۵)و فی البرازیل سنه(۱۸۸۸) إلی أن اتخذ مؤتمر بروسل قرارا بإلغاء الاستعباد سنه(۱۸۹۰)غیر أنه لا یزال موجودا فعلا بین بعض القبائل فی إفریقیا و آسیا.

و مبدأ إلغاء الرق هو تساوی البشر بالحقوق و الواجبات،انتهی.

۴-ما الذی رآه الإسلام فی ذلک؟

قسم الإسلام الاستعباد بحسب أسبابه، و قد تقدم أن عمدتها کانت ثلاثه:الحرب،و التغلب و الولایه کالأبوه و نحوها فألغی سببین من الثلاثه من أصله و هما التغلب و الولایه.

فاعتبر احترام الناس شرعا سواء من ملک و رعیه و حاکم و محکوم و أمیر و جندی

۱- ۱) ص ۲۱۹.

و مخدوم و خادم بإلغاء الامتيازات و الاختصاصات الحيويه،و التسويه بين الأفراد فی حرمه نفوسهم و أعراضهم و أموالهم،و الاعتناء بشعورهم و إرادتهم-و هو الاختيار التام فی حدود الحقوق المحترمه-و أعمالهم و ما اكتسبوه و هو تسلطهم على أموالهم و منافع وجودهم من الأفعال فليس لوالی الأمر فی الإسلام إلا الولايه على الناس فی إجراء الحدود و الأحكام و فی أطراف المصالح العامه العائده إلى المجتمع الدينی،و أما ما تشتهيه نفسه و ما يستحبه لحياته الفرديه فهو كأحد الناس لا يختص من بينهم بخصيصه، و لا ينفذ أمره فی الكثير مما يهواه لنفسه و لا فی القليل،و يرتفع بذلك الاسترقاق التغلبی بارتفاع موضوعه.

و عدل ولايه الآباء لأبنائهم فلهم حق الحضانه و الحفظ و عليهم حق التربيه و التعليم و حفظ أموالهم ما داموا محجورين بالصغر فإذا بلغوا بالرشد فهم و آباؤهم سواء فی الحقوق الاجتماعيه الدينيه،و هم أحرار فی حياتهم،لهم الخيره فيما رضوا لأنفسهم.

نعم أكدت التوصيه لآبائهم عليهم بالإحسان و مراعاه حرمه التربيه،قال تعالى:

«وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَ فِصالُهُ فِی عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِی وَ لِوالِدَيْكَ إِلَیَّ الْمَصِيرُ، وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِی ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِی الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَیَّ» :لقمان:۱۵ و قال تعالى:

«وَ قَضى رَبُّكَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً، وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَهِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِی صَغِيراً» :الإسراء:۲۴ و قد عد فی الشرع الإسلامی عقوقهما من المعاصی الكبيره الموبقه.

و أما النساء فقد وضع لهن من المكانه فی المجتمع و اعتبر لهن من الزنه الاجتماعيه ما لا يجوز عند العقل السليم التخطی عنه و لو بخطوه،فصرن بذلك أحد شقی المجتمع الإنسانی و قد كن فی الدنيا محرومات من ذلك،و أعطين زمام الازدواج و المال و قد كن محرومات أو غير مستقلات فی ذلك.

و شاركن الرجال فی أمور و اختصصن عنهم بأمور و اختص الرجال بأمور كل ذلك عن مراعاه تامه لقوام وجودهن و تركيب بناهن،ثم سهل عليهن فی أمور شق فيها على الرجال كأمر النفقه و حضور معارك القتال و نحو ذلك.

و قد تقدم الكلام فی ذلک کله تفصیلا فی أواخر سوره البقره فی الجزء الثانی من الکتاب،و فی أوائل سوره النساء فی الجزء الرابع منه،و تبین هناک أن النساء مختصات فی الإسلام من مزید الإرفاق بالنسبه إلی الرجال بما لا یوجد نحوه فی سائر السنن الاجتماعیه قدیمها و حدیثها.

قال تعالی: «لِلرِّجالِ نَصِیبٌ مِمَّا اکْتَسَبُوا وَ لِلنِّساءِ نَصِیبٌ مِمَّا اکْتَسَبْنَ» :النساء:۳۱ و قال تعالی: «فَلا جُناحَ عَلَیْکُمْ فِیما فَعَلْنَ فِی أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» :البقره:۲۳۴ و قال تعالی: «وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِی عَلَیْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» :البقره:۲۲۸ و قال: «أَنِّی لا أُضِیعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْکُمْ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی بَعْضُکُمْ مِنْ بَعْضٍ» :آل عمران:۱۹۵ ثم جمع الجمیع فی بیان واحد فقال: «لَها ما کَسَبَتْ وَ عَلَیْها مَا اکْتَسَبَتْ» :البقره:۲۸۶ و قال وَ لا تَکْسِبُ کُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَیْها وَ لا تَزِرُ وازِرَهٌ وِزْرَ أُخْری» :الأنعام:۱۶۴ إلی غیر ذلک من الآیات المطلقه التی تأخذ الفرد من الإنسان جزءا تاما کاملا من المجتمع، و یعطیه من الاستقلال الفردی ما ینفصل به عن أی فرد آخر فی نتائج أعماله من خیر أو شر أو نفع أو ضر من غیر أن یستثنی صغیرا أو کبیرا أو ذکرا أو أنثی.

ثم سوی بینهم جمیعا فی العزه و الکرامه ثم ألغی کل عزه و کرامه إلا الکرامه الدینیه المکتسبه بالتقوی و العمل فقال: «لِلّهِ الْعِزَّهُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ» :المنافقون:۸ و قال: «یا أَیُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثی وَ جَعَلْناکُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاکُمْ» :الحجرات:۱۳.

و قد أبقی الإسلام السبب الثالث من الأسباب الثلاثه للاستعباد أعنی الحرب، و هو أن یسبی الکافر المحارب لله و رسوله و المؤمنین،و أما اقتتال المؤمنین بعضهم مع بعض فلا سبی فیه و لا استعباد بل یقاتل الباغی من الطائفتین حتی ینقاد لأمر الله قال تعالی: «وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَی الْأُخْری فَقاتِلُوا الَّتِی تَبْغِی حَتّی تَفِیءَ إِلی أَمْرِ اللّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُما بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللّهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَهٌ فَأَصْلِحُوا بَیْنَ أَخَوَیْکُمْ» :الحجرات:۱۰.

و ذلک أن العدو المحارب الذی لا هم له إلا أن یفنی الإنسانیه و یهلک الحرث و النسل لا ترتاب الفطره الإنسانیه أدنی ریب فی أنه یجب أن لا یعد جزء من المجتمع

الإنسانی الذی له التمتع بمزایا الحیاه و التنعم بحقوق الاجتماع،و أنه یجب دفعه بالإفناء فما دونه،و علی ذلک جرت سنه بنی آدم منذ عمروا فی الأرض إلی یومنا هذا و علی ذلک ستجری.

و الإسلام لما وضع بنیه المجتمع-المجتمع الدینی-علی أساس التوحید و حکومه الدین الإسلامی ألغی جزئیه کل مستنکف عن التوحید و حکومه الدین من المجتمع الإنسانی إلا مع ذمه أو عهد فکان الخارج عن الدین و حکومته و عهده خارجا عن المجتمع الإنسانی لا یعامل معه إلا معامله غیر الإنسان الذی للإنسان أن یحرمه عن أی نعمه یتمتع بها الإنسان فی حیاته،و یدفعه بتطهیر الأرض من رجس استکباره و إفساده فهو مسلوب الحرمه عن نفسه و عمله و نتائج أی مسعی من مساعیه،فللجیش الإسلامی أن یتخذ أسری و یستعبد عند الغلبه.

۵-ما هو السبیل إلی الاستعباد فی الإسلام؟

یتأهب المسلمون علی من یلونهم من الکفار فیتمون علیهم الحجه و یدعونهم إلی کلمه الحق بالحکمه و الموعظه و المجادله بالتی هی أحسن فإن أجابوا فإخوان فی الدین لهم ما للمسلمین و علیهم ما علیهم و إن أبوا إلا الرد فإن کانوا أهل کتاب و قبلوا الجزیه ترکوا و هم علی ذمتهم،و إن أخذوا عهدا کانوا أهل کتاب أم لا وفی بعهدهم،و إن لم یکن شیء من ذلک أوذنوا علی سواء و قوتلوا.

یقتل منهم من شهر سیفا و دخل المعرکه و لا یقتل منهم من ألقی السلم، و لا یقتل منهم المستضعفون من الرجال و النساء و الولدان،و لا یبیتون و لا یغتالون،و لا یقطع عنهم الماء،و لا یعذبون و لا یمثل بهم فیقاتلون حتی لا تکون فتنه و یکون الدین لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا علی الظالمین.

فإذا غلبوهم و وضعت الحرب أوزارها فما تسلط علیه المسلمون من نفوسهم و أموالهم فهو لهم؛و قد اشتمل تاریخ حروب رسول الله ص و مغازیه علی صحائف غر متلمعه مملوءه من السیره العادله الجمیله فیها لطائف الفتوه و المروه،و طرائف البر و الإحسان.

۶-ما هی سیره الإسلام فی العبید و الإماء؟

إذا استقرت العبودیه علی من استقرت

علیه صار ملک یمین،منافع عمله لغیره و نفقته علی مولاه.

و قد وصی الإسلام أن یعامل المولی مع عبده معامله الواحد من أهله و هو منهم فیساویهم فی لوازم الحیاه و حوائجها،و قد کان رسول الله ص یؤاکل عبیده و خدمه و یجالسهم،و لا یؤثر نفسه علیهم فی مأکل و لا ملبس و نحوهما.

و أن لا یشق علیهم و لا یعذبوا و لا یسبوا و لا یظلموا،و أجیز أن یتزوجوا فیما بینهم بإذن أهلهم،و أن یتزوج بهم الأحرار،و أن یشارکوهم فی الشهادات،و یساهموهم فی الأعمال حال الرق و بعد الانعتاق.

و قد بلغ من إرفاق الإسلام فی حقهم أن شارکوا الأحرار فی عامه الأمور،و قد قلد جمع منهم الولایه و الإماره و قیاده الجیش علی ما یضبطه تاریخ صدر الإسلام، و یوجد بین الصحابه الکبار عده من الموالی کسلمان و بلال و غیرهما.

و هذا رسول الله ص أعتق جاریته صفیه بنت حی بن أخطب و تزوج بها، و تزوج جویریه بنت الحارث بعد وقعه بنی المصطلق و قد کانت بین سبایاهم،و کانوا مائتی بیت بالنساء و الذراری،و صار ذلک سببا لانعتاق الجمیع،و قد مر إجمال القصه فی الجزء الرابع من الکتاب .

و من الضروری من سیره الإسلام أنه یقدم العبد المتقی علی المولی الحر الفاسق، و أنه یبیح للعبد أن یتملک المال و یتمتع بعامه مزایا الحیاه بإذن من أهله هذا إجمال من صنیع الإسلام فیهم.

ثم أکد الوصیه و ندب أجمل الندب إلی تحریر رقبتهم،و إخراجهم من ظرف الاستعباد إلی جو الحریه و لا یزال یقل بذلک عددهم و یتبدل جمعهم موالی و أحرارا لوجه الله،و لم یقنع بذلک دون أن جعل تحریر الرقبه أحد خصال الکفارات مثل کفاره القتل و کفاره الإفطار،و أجاز لهم الاشتراط و الکتابه و التدبیر،کل ذلک عنایه بهم و قصدا إلی تخلیصهم و إلحاقا لهم بالمجتمع الإنسانی الصالح إلحاقا تاما یقطع دابر الاستذلال.

۷-محصل البحث فی الفصول السابقه:

تحصل مما مر أمور ثلاث:

الأول:أن الإسلام لم یأل جهدا فی إلغاء أسباب الاستعباد و تقلیلها و تضعیفها حتی

وقف على واحد منها لا- محيص عن اعتباره بحكم الفطره القاطع و هو جواز استعباد كل إنسان محارب للدين مضاد للمجتمع الإنسانى غير خاضع للحق بوجه من وجوه الخضوع.

الثاني:أنه استعمل جميع الوسائل الممكنه فى إكرامهم-العبيد و الإماء- و تقريب شئونهم الحيويه من حياه أجزاء المجتمع الحره حتى صاروا كأحدهم و إن لم يصيروا أحدهم،و لم يبق عليهم إلا حجاب واحد رقيق، و هو أن الزائد من أعمالهم على واجب حياتهم حياه متوسطه لمواليهم لا لهم،و إن شئت فقل:لا فاصل فى الحقيقه بين الحر و العبد فى الإسلام إلا إذن المولى فى العبد.

الثالث:أنه احتال بكل حيله مؤثره إلى إلحاق صنف المماليك إلى مجتمع الأحرار بالترغيب و التحريص فى موارد،و بالفرض و الإيجاب فى أخرى كالكفارات،و بالتسويغ و الإنفاذ فى مثل الاشتراط و التدبير و الكتابه.

٨-سير الاستعباد فى التاريخ

ذكروا (١)أن الاستعباد ظهر أول ما ظهر بالسبى و الأسر،و كانت القبائل قبل ذلك إذا غلبت فى حروبها و مقاتلها و أخذت سبايا قتلتهم عن آخرهم ثم رأوا أن يتركوهم أحياء و يتملكوهم كسائر الغنائم الحربيه لا- لينتفعوا بأعمالهم بل إحسانا فى حقهم و حفظا للنوع و احتراما للقوانين الأخلاقيه التى ظهرت فيهم بالترقى فى صراط المدنيه شيئا بعد شيء.

و إنما ظهرت هذه السنه بين القبائل بعد ما ارتحلت عنهم طريقه الارتزاق لاصطياد إذ لم تكن لهم فيها من السعه ما يسوغ لهم الإنفاق على العبيد و الإماء حتى انتقلوا إلى عيشه النزول و الارتحال و تمكنوا من ذلك.

و بشيوع الاستعباد بين القبائل و الأمم على أى وتيره كانت تحولت حياه الإنسان الاجتماعيه بظهور جهات من الانتظام و الانضباط فى المجتمعات أولا و تقسيم الأعمال ثانيا.

و لم يكن الاستعباد إذ كان دائرا فى الدنيا على وتيره واحده فى أقطار المعموره فلم يستن فى بعض المناطق أصلا كأوستراليا و آسيا المركزيه و سيبريا و أميركا الشماليه

١- ١) مأخوذ من ١-دائره المعارف:المذهب و الأخلاق تأليف جان هيسينيک طبعه بريطانيه، ٢-مجمل التاريخ تأليف ه.ج.ولز طبعه بريطانيه،٣-روح القوانين تأليف مونيسكيو طبعه طهران.

و إسكيمو و بعض المناطق بإفريقيا بشمال النيل و جنوب راميز.

و بـالعكس كـان رائجـا فى جزيره العرب و إفريقيا الوحشـيه و أوروبا و أميركا الجنوبيه و كان دائرا بين اليهود،و فى التوراه دعاء العبيد إلى طاعه مواليهم،و كذا بين النصارى و فى كتاب بولس إلى فيلمن أن أفسيموس كان عبدا شاردا رده بولس إلى سيده.

و كـانت اليهود أرفق النـاس بعبيـدهم،و من الشواهـد على ذلـك أنا لم نعثر لهـم من شواهق الأبنيه على ما يشـبه الأهرام المعموله بمصر و الأبنيه الآشوريه التاريخيه فإنها كانت من أعمال العبيد الشاقه،و كانت الروم و اليونان أكثر الأمم تشديدا على العبيد.

و قـد ذاع فى الروم الشـرقى بعـد قسـطنطين فكر التحرير حتى لغـا الرق فيها فى القرن ١٣ الميلاـدى،و بقى فى الروم الغربى على شكـل آخر و هو أنهم كـانوا يـبيعون و يشـترون المزارع بزراعهـا-و كـانت الزراعه من مشاغـل العبيـد-لكن لغت بينهم الأعمـال الإجباريه.

و كـان الاسـتعباد دائرا فى معظم ممالـك أوروبا إلى سـنه ١٧٧٢ الميلاديه و قـد انعقـدت قبل ذلك بحين معاهـده بين الـدولتين إنجلترا و إسـبانيا على أن يجبى الإـنجليز إليهم كـل سـنه أربعه آلاف و ثمان مائه نسـمه من رقيق إفريقيا إلى ثلاثين سـنه ليبيعهم منهم قبال مبالغ خطيره يأخذها منهم.

و قـد ثـارت الأفكـار العـامه سـنه ١٧٦١ على الرق و الاسـتعباد بينهـم،و أقـدم الطوائـف الـتى قـامت عليـه منهـم طـائفه«لرزان»(١)المذهبيه،و لم يزالوا على ذلك حتى وضعت ماده قانونيه سنه ١٧٧٢ أن كل من دخل أرض بريطانيا فهو حر.

و قد ظهر سنه ١٧٨٨ بعد بحث دقيق أن إنجلترا يعامل كل سـنه مائتى ألف نسمه رقيقا،و كان الذين يجلبون منهم من إفريقيا إلى أميركا وحدها مائه ألف.

و لم يزل حتى ألغى الاستعباد فى بريطانيا سنه ١٨٣٣ و أدت الـدوله إلى كمبانيات النخس عشـرين ميليونا ليره أثمان من حررته من رقيقهم العبيد و الإماء،و انعتق فى هذه الواقعه فيها(٧٧٠٣٨٠)نسمه.

١- (١ Quaker.

و لغا الاستعباد فی أمیرکا سنه ۱۸۶۲ بعد مجاهدات شدیده تحملتها أهالی أمیرکا و قد کان شمال هذه المملکه و جنوبها مختلفین فی أخذ الرقیق:أما أمیرکا الشمالیه فإنما کانت تأخذ العبید و الإماء للتجمل فحسب،و أما الجنوبیه فکان معظم الأشغال فیها شغل الزراعه و الحرث،و کانوا فی حاجه شدیده إلی کثره الأیدی العماله فکانوا یأخذون الأرقاء استثمارا بأعمالهم،و لذلک کانوا یتحرجون من قبول التحریر العام.

و لم یزل الاستعباد یلغی فی مملکه بعد مملکه حتی انعقد قرار بروسل سنه(۱۸۹۰) المیلادیه علی إلغاء سنه الاستعباد،و أمضاها الدول و أجریت فی الممالک،و لغت العبودیه فی الدنیا،و انعتقت بذلک الملایین من النسمات،انتهی ما ذکروه ملخصا.

و أنت تجد بثاقب نظرک أن هذه المجاهده الطویله و المشاجره ثم ما وضع من قوانین الإلغاء و أنفذ من الحکم کل ذلک إنما کان یدور حول الاسترقاق من طریق الولایه أو التغلب کما یشهد به أن جل الأرقاء أو کلهم کانوا یجلبون من نواحی إفریقیا المعمول فیها ذلک،و أما الاسترقاق من طریق السبی الحربی الذی أنفذ الإسلام فلم یکن موردا للبحث قط.

۹-نظره فی بنائهم:

هذه الحریه الفطریه التی نسمیها بالحریه الموهوبه للإنسان (و لسنا ندری ما هو السبب الذی یسلبها عن سائر أنواع الحیوان و هی تماثل الإنسان فی الشعور النفسانی و الإراده الباعثه؟غیر أن نقول إن الإنسان هو الذی یسلبها ذلک لینتفع بها)لا تتفرع علی أصل إلا علی أن الإنسان مجهز بشعور باطنی یمیز له ما یلتذ به و ما یتألم به ثم بإراده تبعثه إلی جذب ما یلذه و دفع ما یؤلمه فکان له أن یختار لنفسه ما یشاء.

و لم یتقید الشعور الإنسانی بأن یتعلق بشیء و لا یتعلق بآخر کأن لا یشعر الإنسان الضعیف المستذل بما یشعر به الإنسان القوی المتعزز،و لا تحددت الإراده الإنسانیه بحد یمنعها عن التعلق ببعض ما یستحبه أو یجبرها علی التعلق بما تعلقت به إراده غیره لتنطلق لنفع غیره و تنسی نفسها،فالإنسان الضعیف المغلوب یرید لنفسه نظائر جمیع ما یریده الإنسان الذی غلبه و قهره لنفسه،و لا رابطه طبیعیه بین إراده الضعیف و إراده القوی تجبر إراده الضعیف علی أن لا تتعلق بما تعلقت به إراده القوی،أو تفنی فی إراده القوی فتعود الإرادتان إراده واحده تجری لنفع القوی،أو تتبع الإراده اتباعا یسلبها الاستقلال.

ص: ۳۵۰

و إذ كـان كـذلك و كـان من حق قوانين الحيـاه أن تبتنى على أسـاس البنيه الطبيعيه كـان من الواجب أن يعيش الإنسان حرا فى نفسه و حرا فى عمله،و من هذا الثدى يرتضع إلغاء الاستعباد.

لكن ينبغى لنا أن نتأمل هـذه الحريه الموهوبه للإنسان هل هى فى المجتمع الإنسانى على إطلاقها منـذ ولـدت و عاشت فى البنى الإنسانيه؟.

فلم يزل النوع الإنسـانى-فيما نعلم-يعيش فى حال الاجتماع و لا يسـعه بحسب جهازه الوجودى إلا ذلك،و من المحال أن يـدوم مجتمع فى حـال الاجتمـاع و لو حينـا مـا إلاـ مع سـنه مشتركه بين أفراد المجتمع سواء كـانت سـنه عـادله تعقليه أو سـنه جائره أو مجازفه أو بأى وصف اتصفت،و هذه السنه كيفما كانت تحدد الحريه الفرديه.

على أن الإنسان لا يتأتى له أن يعيش إلا مع تصـرف ما فى الماده يضـمن له البقاء و لا يتأتى له ذلك إلا بأن يختص بما يتصرف فيه نوعـا من الاختصـاص الـذى نسـميه بالملك -أعم من الحق و الملك المصـطلح عليه-فالـذى يلبسه هـذا حين يلبس لا يسـع لـذاك أن يلبسه و الـذى يـأكله فرد أو يشـربه أو يشـغله بالتمكن فيه لا يمكن لغيره أن يسـتقل به، و ليس ذلك إلا تحديـدا لغير المتصرف فى إطلاق إرادته،و تقييدا لحريته.

و لم يزل الاختلاف يلازم هـذا النوع منـذ سـكن الأرض فلم يمض على هؤلاء الأفراد المنتشـره فى رحب الأرض يوم إلا و تطلع فيه الشـمس على اختلافـات،و تغيب عن اختلافـات تسـير بهم إلى فناء نفوس و ضـيعه أعراض و انتهاب أموال،و لو كان الإنسان يرى لنفسه -أى للإنسانيه-حريه مطلقه لم يكن لهذه الاختلافات بينهم أثر.

و سـنه المجـازاه و المؤاخـذه لم تزل دائره معموله بين المجتمعـات المتنوعه مـدنيه كـانت أو همجيه،و لاـ معنى للمجـازاه إلا أن يملك المجتمع من الإنسان المجرم بعض ما وهبه له الخلقه من النعم،و أن يسلب عنه بعض الحريه فلو لا أن المجتمع أو من بيده الأـمر فى المجتمع يملـك من المجرم القاتـل المحكوم بالقصاص حياته لما وسـعه أن يسـلبها عنه،و لو لا أن الإثم المأخوذ بإثمه المؤاخذ بأنواع التعذيب و النكايه كالقطع و الضرب و الحبس و غيره ذلك يملك الحكم و الإجراء منه ما يسلبه من شئون الحياه أو الراحه أو السلطه الماليه لما صح ذلك،و كيف يصح منع الجائر المتعدى أن يجور و يتعدى و لا الذب عن حريم

نفس أو عرض أو مال إلا مع سلب بعض حريه المتغلب الممنوع؟.

و بالجمله فمما لا يشک فيه ذو مسکه أن بقاء الحريه الإنسانيه على إطلاقها فى المجتمع الإنسانى و لو لحظه يوجب اختلال النظام الاجتماعى من وقته فهذا الاجتماع الذى هو أيضا فطرى للإنسان و لا يعيش بدونه هو يقيد إطلاق الحريه الفطريه التى وهبته للإنسان إرادته و شعوره الغريزيان فلا يتأتى لمجتمع إنسانى أن يعيش إلا مع تقييد ما لإطلاق الحريه كما لا يتأتى له أن يعيش مع بطلان الحريه من أصلها،و لم يزل المجتمع الإنسانى يحفظ بين الحدين هذه الحريه التى يخيل لنا من کثره التبليغات الغربيه أنهم هم الذين خلقوا اسمها بعد ما اخترعوا معناها،و حفظوها على إطلاقها.

فهذا الاجتماع الفطرى هو الذى يقيد تلک الحريه الفطريه و يحددها على حد تقييد القوى الطبيعيه البدنيه و غير البدنيه بعضها؛بعضا فيقف البعض عن الفعل اعتناء بشأن بعض آخر يزامله کقوه الإبصار التى هى مبدأ للإبصار على الإطلاق تفعل فعلها حتى تکل لامسه العين أو تتعب القوه المفکره فتقف الباصره عن فعلها تقيدا بفعل مزاملها، و الذائقه تلتذ بالتقام الغذاء اللذيذ و ازدراده و بلعه حتى تکل عضلات الفک فتقيد الذائقه فتکف عن مشتهاها.

فالاجتماع الفطرى لا يتم للإنسان إلا بأن يجود ببعض حريته فى العمل و استرساله فى التمتع.

۱۰-ما مقدار التحديد:

و أما المقدار الذى تحدد به الحريه الموهوبه من قبل الاجتماع الفطرى و يتقيد به إطلاقها الفطرى فهو يختلف باختلاف المجتمعات الإنسانيه بحسب کثره القوانين الدائره المعتبره فى المجتمع و قلتها فإن المقيد للحريه بعد أصل الاجتماع إنما هو القانون المجرى بين الناس فکلما زادت القوانين و دقت فى رقوب أعمالهم زاد الحرمان من الحريه و الاسترسال و کلما نقصت نقص.

لکن الذى لا مناص عنه فى أى اجتماع لأى مجتمع فرض،و الواجب الذى ليس فى وسع الإنسان الاجتماعى أن يستهين به و يتساهل فى أمره:هو حفظ وجود الاجتماع و کونه إذ لا حياه للإنسان دونه،و حفظ السنن الدائره و القوانين الجاريه فيه من النقص و الانتقاض،و لذلک لست تجد مجتمعا من المجتمعات البشريه إلا و فيه جهه دفاعيه

تـذب عن النفوس و الـذرارى و تقيهم من الفناء و الهلاك،و ولى يلى أمرهم و يحفظ السـنه الجاريه و العادات الدائره المحترمه بينهم من الانتقاض ببسط الأمن الاجتماعى،و سياسه المتعدى الجائر،و الموجود من التاريخ يصدق ذلك أيضا.

و إذا كان كذلك فأول حق مشروع للمجتمع فى شريعه الفطره أن يسلب الحريه عن عدو المجتمع فى أصل اجتماعه،و إن شئت فقل:أن يملك من عدوه المبيد لحياته المفسد لحرثه و نسـله نفسه و عمله و يذهب بحريه إرادته بما يشاء من قتل فما دونه،و أن يسلب عن عدو السنه و القانون حريه العمل و الاسترسال فى النقض،و يملك منه ما يفقده بالمجازاه من نفس أو مال أو غيرهما.

و كيف يسع الإنسـان-حتى الإنسـان الفرد-أن يـذعن بحريه عـدو لاـ لحياه مجتمعه يحترم فيؤاخيه و يشاركه و يمتزج به،و لا عن إبـاده مجتمعه و إفنـائه يغمض فيتركهم و شـأنهم؟و هل الجمع بين العنايه الفطريه بالاجتماع و بين ترك هـذا العـدو و حريته فى العمل إلا جمعا بين المتناقضين صريحا و سفها أو جنونا؟.

فتبين ممـا مر أولاـ:أن البنـاء على إطلاـق حريه الإنسـان أمر مخـالف لصـريح الحق الفطرى المشـروع للإنسان الـذى هو من أول الحقوق الفطريه المشروعه.

و ثانيا:أن حق الاسـتعباد الذى اعتبره الإسـلام هو المطابق لشـريعه الفطره،و هو أن يسـتعبد أعداء الدين الحق المحاربين للمجتمع الإسلامى فيسلب عنهم حريه العمل، و يجلبوا إلى داخل المجتمع الدينى و يكلفوا بأن يعيشوا فى زى العبوديه حتى يتربوا بالتربيه الصـالحه الـدينيه،و ينعتقوا تـدريجا،و يلتحقوا بـالمجتمع الحر سـالمين غانمين،و لولى الأمر أن يشتريهم و يعتقهم عن آخرهم إن رأى صلاح المجتمع الدينى فى ذلك،أو يسلك فى ذلك طريقا آخر لا ينتسخ بذلك الأحكام الإلهيه.

۱۱-إلى م آل أمر الإلغاء؟:

أجرت الـدول المعظمه قرار مؤتمر بروسـل و منعوا بيع الرقيق أشـد المنع و انعتقت الإماء و العبيـد فلا يصـطفون اليوم فى دكاك النخاسـين و لا يساقون سوق الأغنام،و تبع ذلك أن انتسخ اتخاذ الخصـيان،و لا يكاد يوجد اليوم من هؤلاء و أولئك و لو نماذج قليله إلا ما ربما يذكر من أمر الأقوام الهمجيه.

لکن هـذا المقـدار أعنى ارتفاع اسم الاسـتعباد و الاسترقاق من الألسـنه و غيبه المسـمين بهـذا الاسم عن الأنظار هل يقنع الباحث الناقـد فى هـذه المسـأله؟أ و ليس يسـأل أن هـذه المسـأله هل هى مسأله لفظيه يجزى فيها المنع من أن يـذكر الاسم،و يكفى فى إجرائهـا أن يسـمى العبـد حرا و إن سـلب منافع عمله و تبع غيره فى إرادته،أو أن المسأله معنويه يراعى فيها حال المعنى بحسـب حقيقته و آثاره الخارجيه؟.

فهاتيک الحرب العالميه الثانيه لم يمض عليها إلا بضع عشره سنه حملت الدول الفاتحه على عدوها المغلوب التسليم بلا شرط ثم احتلوا بلادهم،و أخذوا ملايين من أموالهم، و تحكموا على نفوسـهم و ذراريهم،و نقلوا الملايين من أسراهم إلى داخل مملكتهم يستعملونهم فيما شاءوا و كيف شاءوا،و الأمر يجرى على ذلک حتى اليوم.

فليت شعرى هل للاستعباد مصداق ليس به و إن منع من إطلاق لفظه؟و هل له معنى إلا سـلب إطلاق الحريه،و تملک الإراده و العمل،و إنفاذ القوى المتعزز حکمه فى الضعيف المستذل كيف شاء و أراد عدلا أو ظلما؟.

فيا لله العجب يسـمى حكم الإسـلام بنظير الحكم على أصلح وجه يمكن استعبادا و لا يسمى حكمهم بذلک،و الإسلام يأخذ فيه بأسـهل الوجوه و أخفها و هم يأخـذون بأشـقها و أعنفها،فقـد رأينا محبتهم و صـداقتهم حينما احتلوا بلادنا تحت عنوان المحبه و الحمايه و الوقايه، فكيف حال من استعلوا عليه بالعداوه و النكايه؟.

و من هنـا يظهر أن قرار الإلغـاء لم يكن إلاـ لعبـا سياسـيا هو فى الحقيقه أخـذ فى صوره الرد،أمـا الاسـتعباد عن حرب و قتال فقد أنفذه الإسـلام و أنفذوه عملا و إن منعوا عن التلفظ باسـمه لسانا،و أما الاستعباد من طريق بيع الآباء أبناءهم الذى منعوه فقد كان الإسـلام منعه من قبل،و أما الاسـتعباد من طريق الغلبه و السـلطه الحكميه فقد منعه الإسـلام من قبل،و أما هؤلاء فقد أجمعوا على منعه لكن هل توقف المنع فى مرحله اللفظ كنظيره أو تعداها إلى مرحله المعنى و وافقه العمل؟!.

يمكنک أن تستخرج الجواب لهذا السؤال بإمرار النظر فى تاريخ الاستعمارات الأروبيه فى آسيا و إفريقيا و أميركا،و الفجائع التى ارتكبوها،و الدماء و الأعراض و الأموال التى أهرقوها و استباحوها و نهبوها،و التحكمات التى أتوا بها و ليس بالواحد

و المائه و الألف.

لیس یلزمک أن تسلک هذا السبیل علی بعدها-إن کان بعیدا-فقد یجزیک أن تتأمل أخبار ما یقاسیه أهل الجزائر من فرنسا منذ سنین من إباده النفوس و تخریب البلاد و التشدید علی أهله،و ما تلقاه الممالک العربیه من الإنجلیز،و ما یتحمله السودان و الحمر فی أمیرکا،و الأوروبه الشرقیه من الجمهوریات الاشتراکیه،و ما نکابده نحن من أیدی هؤلاء و أولئک،کل ذلک فی لفظه نصح و إشفاق،و فی معناه استعباد و استرقاق!.

فظهر من جمیع ما مر أنهم أخذوا فی مرحله العمل بما شرعه الإسلام من إباحه و سلب إطلاق الحریه عند وجود سببها الفطری الذی هو حرب من یرید هدم المجتمع و إهلاک الإنسانیه، و هو حکم مشروع فی شریعه الفطره له أصل واقعی لا یتغیر و هو حاجه الإنسانیه فی بقائها إلی دفع ما یطاردها وجودا و یناقضها بقاء ثم أصل اجتماعی عقلائی لا یتبدل متفرع علی أصله الواقعی و هو وجوب حفظ المجتمع الإنسانی عن الانعدام و الانهدام.

فهذا هو الذی راموه فی عملهم و أخذوه معنی و أنکروه اسما غیر أنهم تعدوا هذا القسم المشروع إلی غیره غیر المشروع و هو الاستعباد بسبب الغلبه و السلطه فلا یزالون یستعبدون الألوف و الملایین قبل حدیث الإلغاء و بعده،و یبیعون و یشترون و یهبون و یعیرون إلا أنهم لا یسمون ذلک استعبادا،و إنما یسمی استعمارا أو استملاکا أو قیمومه أو حمایه أو عنایه و إعانه أو غیر ذلک من الألفاظ التی لا یراد بشیء منها إلا أن یکون ستره علی معنی الاستعباد،و کلما خلق أو خرق شیء منها رمی به و جیء بآخر.

و لم یبق مما نسخه قرار بروسل و لا یزال یقرع به أسماع الدنیا و أهلها و یتباهی به الدول المتمدنه الذین هم رواد المدنیه الراقیه،و بأیدیهم رایه الحریه الإنسانیه إلا الاستعباد من طریق بیع الأبناء و البنات و الإخصاء و لا فائده هامه فیه تعود إلیهم مع کونه أشبه بالمسأله الفردیه منه بالمسأله الاجتماعیه،و نسخه مع ذلک حجه لفظیه تبلیغیه بأیدیهم کسائر حججهم التی لا تعدو مقام اللفظ و تؤثر أثر المعنی.

نعم یبقی هناک محل بحث آخر و هو أن الإسلام یبدأ فی غنائمه الحربیه من رقیق أو مال غیر الأرض المفتوحه عنوه بالأفراد من مجتمعه فیقسمها بینهم ثم ینتهی إلی الدوله

على ما سير به فى صدر الإسلام و هؤلاء يحفظون الاستفاده منها حقا موقوفا على الدوله، و هذه مسأله أخرى غير مسأله أصل الاسترقاق لعلنا نوفق لاستقصاء البحث عنها فيما سيأتى إن شاء الله من الكلام فى آيات الزكاه و الخمس و الله المستعان.

و بعد ذلك كله نعود إلى كلمه صاحب معجم الأعلام المنقوله سابقا:«مبدأ إلغاء الرق هو تساوى البشر فى الحقوق و الواجبات»فما معنى تساوى البشر فى الحقوق(إلخ)، فإن أريد به تساويهم فى استحقاق ما لهم من الحقوق الواجبه مراعاتها و إن كانت نفس تلك الحقوق مختلفه غير متساويه البته كاختلاف الرئيس و المرءوس و الحاكم و المحكوم و الآمر و المأمور و المطيع للقانون و المتخلف عنه و العادل و الظالم من جهه اختلافهم فى الزنه الاجتماعيه.

فهو كذلك لكنه لا يستلزم التسويه بين من هو جزء شريف نافع فى المجتمع و بين من ليس فى صلاحيته أن ينضم إلى المجتمع و لا كرامه،و إنما هو كالسم المهلك الذى أينما حل أبطل الحياه فإن من الحكم الفطرى الصريح أن يفرق بينهما بإعطاء الحريه الكامله للأول،و سلبها عن الثانى فلا حق للعدو على عدوه فيما يعاديه،و لا واجب للذئب فى ذمه الغنم و لا للأسد على فريسته.

و إن أريد به أن الإنسانيه لما كانت مشتركه بين أفراد الإنسان و كان فى قوه الفرد من الإنسان كائنا من كان أن يرقى فى المدنيه و ينال من السعاده ما يناله الآخر كان من حق الإنسانيه على المجتمع الراقى أن يجود بالحريه على كل إنسان و يربيه حتى يلحق المجتمع الصالح.

فلذلك حق لكن ربما كان من شرائط التربيه أن يسلب المربى حريه الإراده و العمل حينا حتى تتم التربيه،و يتبصر النفس المرباه فى استعمال إرادتها،و تتنعم بنعمه حريتها كما يعالج المريض بما يسوؤه و يربى الصغير بما يتحرج منه،و هذا هو الذى يراه الإسلام من سلب حريه الإراده و العمل عن الأمه الكافره المحاربه،و اجتلابهم إلى داخل المجتمع الدينى،و تربيتهم فيها،و تخليصهم تدريجا إلى ساحه الحريه فإن السلوك سلوك اجتماعى ينبغى أن ينظر إليه و إلى نتيجته و أثره بنظر عام كلى،و ليس بأمر فردى ينظر إليه بنظر فردى جزئى،ثم من العجب أن هؤلاء أيضا يجرون عملا بما جرت عليه السيره الإسلاميه و إن خالفوه فى التسميه و حسن النيه كما تقدم بيانه.

ص :٣٥٦

و إن أريد به أن من حق الحريه الإنسانيه أن تطرد فى الجميع و يخلى بين كل إنسان و إرادته المطلقه.

فمن الواضح الذى لا مريه فيه أن ذلك غير جائز التسليم و لا ميسور العمل على إطلاقه و خاصه فى الخصم المحارب و هو المورد الوحيد الذى يعتنى به الإسلام فى سلب إطلاق الحريه.

ثم لو كان هذا حقا لم يكن فيه فرق بين الواحد و الاثنين و بين الجماعه فما بالهم يسلمون للواحد من الحريه القانونيه حتى مثل«الانتحار»و للاثنين مثل«دئل»و لا يسلمون لطائفه مساكين من أبناء نوعهم أن ينعزلوا فى ملجإ أو مغارات و يشتغلوا بأنفسهم و يأكلوا رزق ربهم و يسلكوا سبيل حياتهم؟.

بقى هنا شىء و هو أنه ربما قال القائل:ما بال الإسلام لم يشرع للرقيق تملك المال حتى يستعين به على حوائجه الضروريه من غير أن يكون كلا على مولاه؟و ما باله لم يحدد الرق بالإسلام حتى ينعتق العبد بالإسلام و ينمحى عنه لوث المحروميه اللازمه له و لأعقابه إلى يوم القيامه.

لكن ينبغى أن يتنبه هذا القائل إلى أن الحكم باستقرار الرق و الحرمان من تملك المال إنما ظهوره و وقوعه بحسب نظر التشريع فى أول زمان الاستيلاء عليه،و حكم الفطره عليهم-و هم الأعداء المحاربون-بجواز سلب الحريه إنما هو لإبطال كيدهم و سلب قوتهم على المقاومه لهدم الاجتماع الدينى الصالح،و لا قوه و لا قدره إلا بالملك فإذا لم يملكوا عملا و لا نتاج عمل لم يقووا على المخاصمه و المحاربه.

نعم أجاز الإسلام لهم أن يتملكوا فى الجمله بتمليك الموالى،و هذا ملك فى طول ملك،و ليس فيه محذور الاستقلال بالتصرف.

و أما تحديد رقهم بالإيمان فهو أمر يبطل السياسه الدينيه فى حفظ بيضه الإسلام و إقامه المجتمع الدينى على ساقه و بسط التربيه الدينيه على هؤلاء المحاربين المستعلى عليهم بالعده و القوه،و لو لا ذلك لدخلوا فى ظاهر الدين بمجرد أن استقرت عليهم سيطره الدين،و ضربت عليهم بذله العبوديه فحفظوا بذلك عدتهم و قوتهم ثم عادوا لما نهوا عنه.

و ليرجع فى ذلـك إلى السـنه الجـاريه بين الأـمم و الأـقوام من يومنـا هـذا إلى أقـدم العهود التى يسـتطاع العثور فيهـا على تاريخ الإنسانيه فالأمتان أو القبيلتان إذا تحاربتا و تقاتلتا ثم غلبت إحداهما الأخرى و اسـتعلت عليها فإنها ترى من حقها المشروع لها فى الحرب أن تضع فى عدوها السيف حتى يسلم لها الأمر تسليما مطلقا من غير شرط.

و ليست ترضـى من التسـليم بمجرد أن تضع الأمه المقاتله المغلوبه أسـلحتها على الأرض فتتركهم و ما يريـدون بل بالتسـليم لأمر الأمه الغالبه،و الخضوع التام لما تحكم فيهم، و ترى لهم أو عليهم،و تتصرف فى نفوسهم و أموالهم.

و من سـفه الرأى أن تقيـد هذه السـيطره بقيد يفسد أثر هذا التسـليم المطلق،و يبطل حكمه،و يمهد الطريق للعدو فى الرجوع إلى كيـده و مكره،و يجـدد له رجاء العود إلى ما بـدأ،و كيف يسوغ للأمه الغالبه ذلك و قـد فـدت عن اسـتقلال مجتمعها المقـدس عندها بالنفوس و الأموال؟و هل ذلك إلا ظلما لنفسها و استهانه بأعز ما عندها،و تبذيرا للدماء و الأموال و المساعى؟.

و ليس لمعترض أن يعترض على أمه غـالبه غلبت بتضـحيه النفوس و الأموال فضـربت على عـدوها بالـذله و المسـكنه،و حفظهم على حاله الرق:بأن رجالهم قاتلوا و قتلوا و أفسدوا فأخذوا بالأسـر و جوزوا بسـلب الحريه على ما يبيحه الحق المشـروع للمحارب على محاربه فما ذنب الأصاغر من الذرارى المتولدين بعد ذلك،و لم يحملوا سـلاحا،و لا سـلوا سـيفا،و لا دخلوا معركه؟و ذلك أنهم ضحايا آبائهم.

بعـد ذلـك كله لاـ ينبغى أن ينسـى أن للحكومه الإسـلاميه أن يحتال فى انعتاق الرقيق بشـراء و عتق و نحو ذلك إذا أحرزت أن الأصلح بحال المجتمع الإسلامى ذلك و الله أعلم.

(كلام فى المجازاه و العفو فى فصول)

۱-ما معنى الجزاء؟:

لاـ يخلو أى مجتمع من المجتمعـات من تكـاليف اجتمـاعيه على أجزائه أن يحترموهـا فلاـ هـم للمجتمع إلاـ أن يوافق بين أعمـال الأفراد و يقرب بعضها من بعض،و يربط جانبا منها بجانب حتى تأتلف و تجتمع و ترفع بآثارها و نتائجها حوائج

الأفراد بمقدار ما يستحقه كل واحد بعمله و سعيه.

و هـذه التكاليف لما كانت متعلقه بأمور اختياريه يسع الإنسان أخـذها و تركها، و هی بعينها لا تتم إلا مع سـلب ما لحريه الإنسان فی إرادته و عمله لم يمتنع أن يتخلف عنها أو عن بعضها الإنسان المتمائل بطبعه إلی الاسترسال و إطلاق الحريه.

و التنبه إلی هـذا النقص فی التكـاليف و الفتور فی بنی القوانين هو الـذی بعث الإنسان الاجتماعی علی أن يتمم نقصـها و يحكم فتورهـا بـأمر آخر،و هو أن يضم إلی مخالفتهـا و التخلف عنهـا أمورا يكرهها الإنسان المكلف فيـدعوه ذلك إلی طاعه التكليف الذی يكلف به حذرا من أن يحل به ما يكرهه و يتضرر به.

و هذا هو جزاء السـيئه،و هو حق للمجتمع أو لولی الأمر علی المتخلف العاصی، و له نظير فی جانب طاعه التكاليف فمن الممكن أن يوضع للمطيع الممتثـل بإزاء عمله بالتكليف أمر يؤثره و يحبه ليكون ذلك داعيا يـدعوه إلی إتيان الواجب أو المطلوب مطلقا من التكـاليف،و هو حق للمكلف المطيع علی المجتمع أو لولی الأمر،و هـذا هو جزاء الحسـنه،و ربما يسـمی جزاء السـيئه عقابا و جزاء الحسنه ثوابا.

و علی هـذه الوتيره يجری حكم الشـريعه الإلـهيه؛قال تعالی: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنیٰ» :يونس:۲۶ و قـال تعالی: «وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا» :يونس:۲۷ و قال: «وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا» :الشوری:۴۰.

و للعقاب و الثواب عرض عريض آخذا من الاسـتكراه و الاستحسان و الذم و المدح إلی آخر ما يتعلق به القدره من الشر و الخير و يرتبطـان فی ذلـك بعوامـل مختلفـه من خصوصـيات الفعـل و الفاعـل و ولی التكليـف و مقـدار الضـرر و النفـع العائـدين إلی المجتمع، و لعله يجمع الجميع أن العمل كلما زاد الاهتمام بأمره زاد عقابا فی صوره المعصيه و ثوابا فی صوره الطاعه.

و يعتبر بين العمـل و بين جزائه-كيف كـان-نوع من المماثله و المسانخه و لو تقريبا، و علی ذلك يجری كلامه تعالی أيضا كما هو ظاهر أمثال قوله تعالی: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُا بِمَا عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَی» :النجم:۳۱ و أوضح منه قوله تعالی و قد حكاه عن صحف إبراهيم و موسی(ع): «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاّ

مٰا سَعىٰ، وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ، ثُمَّ يُجْزٰاهُ الْجَزٰاءَ الْأَوْفىٰ» :النجم:۴۱.

و هـذا فيمـا شـرعه الله فى أمر القصـاص أظهر،قـال تعـالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصٰاصُ فِى الْقَتْلىٰ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثىٰ بِالْأُنْثىٰ» :البقره:۱۷۸ و قـال: «الشَّهْرُ الْحَرٰامُ بِالشَّهْرِ الْحَرٰامِ وَ الْحُرُمٰاتُ قِصٰاصٌ فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ» :البقره:۱۹۴.

و لازم هـذه المماثله و المسانخه أن يعود العقاب أو الثواب إلى نفس العامل بمثل ما عمل بمعنى أنه إذا عصـى حكما اجتماعيا مثلا فإنما تمتع لنفسه بما يضـر المجتمع أى بما يفسـد تمتعا من تمتعات المجتمع فينقص من تمتعاته فى نفسه ما يعادل ذلك من نفسه أو بدنه أو ماله أو جاهه أو نحو ذلك مما يعود بوجه إليه.

و هذا هو الذى أومأنا إليه فى البحث عن معنى الاستعباد أن المجتمع أو من يلى أمره يملك من المجرم نفسه أو شأنا من شئون نفسه يعادل الجرم الذى اجترمه و نقيصه الضـرر الذى أوقعه على المجتمع فيعاقب بذلك أى يتصرف المجتمع أو ولى الأمر استنادا إلى هذا الملك-و هو الحق-فى حياه المجرم أو شأن من شئون حياته،و يسلب حريته فى ذلك.

فلو قتل نفسـا مثلا بغير نفس أو فساد فى الأرض فى المجتمع الإسلامى ملك ولى الأمر من المجرم نفسه حيث نقصـهم نفسـا محترمه،و حده الذى هو القتل تصرف فى نفسه عن الملك الذى ملكه،و لو سرق ما يبلغ ربع دينار من حرز فقد أضر بالمجتمع بهتك ستر من أستار الأمن العام الذى أسدلته يد الشريعه و حفظته يد الأمانه،و حدها الذى هو القطع ليس حقيقته إلا أن ولى الأمر ملك من السارق بإزاء ما أتى به شأنا من شئون حياته و هو الشأن الذى تشتمل عليه اليد فيتصرف فيه بسلب ما له من الحريه و وسيلتها من هذه الجهه،و قس على ذلك أنواع الجزاء فى الشرائع و السنن المختلفه.

فيتبين من هنا أن الاجرام و المعصيه الاجتماعيه يستجلب نوعا من الرق و العبوديه، و لذلك كان العبد أظهر مصاديق المؤاخذه و العقاب قال تعالى: «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبٰادُكَ» » :«المائده:۱۱۸.

و لهذا المعنى مظاهر متفرقه فى سائر الشرائع و السنن المختلفه قال الله تعالى فى قصه يوسف(ع)إذ جعل السقايه فى رحل أخيه ليأخذه إليه: «قٰالُوا فَمٰا جَزٰاؤُهُ

إنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ -أی فی إنكاركم سرقه صواع الملک- قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِی رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِی الظّالِمِينَ -أی نجزی السارق باسترقاقه- فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ -إلی أن قال- قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ -و هذا هو التبديل و نوع من الفديه- قالَ مَعاذَ اللّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنّا إِذاً لَظالِمُونَ» :يوسف:٧٩.

[٢-هل يعد المطيع عبدا للمطاع]

و ربما كان يؤخذ القاتل أسيرا مملوكا،و ربما كان يفدی بواحده من نسائه و حرمه كبنته و أخته إلی غير ذلک،و سنه الفديه بالتزويج كانت مرسومه إلی هذه الأيام بين القبائل و العشائر فی نواحينا لأن الازدواج يعد عندهم نوعا من الاسترقاق و الإساره للنساء.

و من هنا ما ربما يعد المطيع عبدا للمطاع لأنه بإطاعته يتبع إرادته إراده المطاع فهو مملوكه المحروم من حريه الإراده قال تعالی: «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِی آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، وَ أَنِ اعْبُدُونِی» :يس:٦١ و قال: «أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ» :الجاثيه:٢٣.

و بالعكس من تملک المجتمع أو ولی الأمر المجرم المعاقب يملک المطيع المثاب من المجتمع أو ولی الأمر ما يوازن طاعته من الثواب فإن المجتمع أو الولی نقص من المكلف المطيع بواسطه التكليف شيئا من حريته الموهوبه فعليه أن يتممه كما نقص.

و هذا الذی ذكرناه هو السر فی ما اشتهر:أن الوفاء بالوعد واجب دون الوعيد؛ و ذلک أن مضمون الوعد فی ظرف المولويه و العبوديه هو الثواب علی الطاعه كما أن مضمون الوعيد هو العقاب علی المعصيه و الثواب لما كان من حق المطيع علی ولی الأمر و فی ذمته وجب عليه تأديته و تفريغ ذمته منه بخلاف العقاب فإنه من حق ولی الأمر علی المكلف المجرم،و ليس من الواجب أن يتصرف الإنسان فی ملكه و يستفيد من حقه إن كان له ذلک،و للكلام تتمه.

٣-العفو و المغفره؟:

استنتجنا من البحث السابق جواز ترک المجازاه علی المعصيه بخلاف الطاعه،و هو حكم فطری فی الجمله مبنی علی أن العقاب حق للمعصی علی العاصی، و ليس من الواجب إعمال الحق دائما.

ص :٣٦١

غیر أنه کما لا یجب إعمال حق العقاب دائما کذلک لا یجوز ترکه دائما و إلا لغا القضاء الفطری بثبوت الحق،و لا معنی لثبوت شیء لا أثر له و لا فی وقت من الأوقات علی أن إلغاء حق العقاب من رأسه هدم للقوانین الموضوعه الحافظه لبنیه الاجتماع و فی هدمها هدم الاجتماع بلا ریب.

فالحکم-و هو جواز العفو عن الذنب-ثابت فی الجمله،و القضیه مهمله فإن کان هناک سبب مسوغ بحسب الحکمه للعفو جاز العفو و إلا-وجبت المجازاه احتراما للقوانین الحافظه لبنیه المجتمع و سعاده الإنسان،و إلیه الإشاره بقوله تعالی حکایه عن عیسی(ع): «وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ» » :«المائده:۱۱۸.

و یوجد فی القرآن الکریم من أسباب المغفره مما تمضیه الحکمه الإلهیه سببان کلیان:

أحدهما:توبه العبد إلی الله سبحانه أعم من رجوعه من الکفر إلی الإیمان أو رجوعه من المعصیه إلی الطاعه علی ما تقدم بیانه فی الکلام علی التوبه فی الجزء الرابع من الکتاب،قال تعالی: «قُلْ یا عِبادِیَ الَّذِینَ أَسْرَفُوا عَلی أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَهِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِیعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ، وَ أَنِیبُوا إِلی رَبِّکُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَکُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ -و هذه التوبه من الکفر الذی فیه وعید العذاب الذی لا ینفع فیه ناصر شفیع- وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَکُمُ الْعَذابُ بَغْتَهً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ» :الزمر:۵۵ و هذه هی التوبه من المعصیه إلی الطاعه، و لم ینف فیه نفع الشفاعه.

و قال تعالی: «إِنَّمَا التَّوْبَهُ عَلَی اللّهِ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَهٍ ثُمَّ یَتُوبُونَ مِنْ قَرِیبٍ فَأُولئِکَ یَتُوبُ اللّهُ عَلَیْهِمْ وَ کانَ اللّهُ عَلِیماً حَکِیماً، وَ لَیْسَتِ التَّوْبَهُ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السَّیِّئاتِ حَتّی إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّی تُبْتُ الْآنَ وَ لاَ الَّذِینَ یَمُوتُونَ وَ هُمْ کُفّارٌ أُولئِکَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِیماً» :النساء:۱۸.

و ثانیهما:الشفاعه یوم القیامه قال تعالی: «وَ لا یَمْلِکُ الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَهَ إِلاّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ یَعْلَمُونَ» :الزخرف:۸۶ إلی غیر ذلک من الآیات الکثیره المتعرضه لأمر الشفاعه،و قد أشبعنا البحث فیها فی الکلام علی الشفاعه فی الجزء الأول من الکتاب.

و یوجد فی القرآن الکریم موارد متفرقه یذکر فیها العفو من غیر ذکر سببه و إن کان التدبر فیها یهدی إلی إجمال ما روعی فیها من المصلحه و هی مصلحه الدین کقوله تعالی: «وَ لَقَدْ عَفٰا عَنْکُمْ وَ اللّٰهُ ذُو فَضْلٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ» :آل عمران:۱۵۲،و قوله تعالی: «أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَیْ نَجْوٰاکُمْ صَدَقٰاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تٰابَ اللّٰهُ عَلَیْکُمْ فَأَقِیمُوا الصَّلاٰهَ وَ آتُوا الزَّکٰاهَ وَ أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ» :المجادله:۱۳ و قوله تعالی:

«لَقَدْ تٰابَ اللّٰهُ عَلَی النَّبِیِّ وَ الْمُهٰاجِرِینَ وَ الْأَنْصٰارِ الَّذِینَ اتَّبَعُوهُ فِی سٰاعَهِ الْعُسْرَهِ مِنْ بَعْدِ مٰا کٰادَ یَزِیغُ قُلُوبُ فَرِیقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تٰابَ عَلَیْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِیمٌ» :التوبه:۱۱۷ و قوله تعالی: «وَ حَسِبُوا أَلاّٰ تَکُونَ فِتْنَهٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا ثُمَّ تٰابَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا کَثِیرٌ مِنْهُمْ» :المائده:۷۱،و قوله تعالی: «الَّذِینَ یُظٰاهِرُونَ مِنْکُمْ مِنْ نِسٰائِهِمْ مٰا هُنَّ أُمَّهٰاتِهِمْ إِنْ أُمَّهٰاتُهُمْ إِلاَّ اللاّٰئِی وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَیَقُولُونَ مُنْکَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً وَ إِنَّ اللّٰهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ» :المجادله:۳،و قوله تعالی: «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَقْتُلُوا الصَّیْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ - إلی أن قال- عَفَا اللّٰهُ عَمّٰا سَلَفَ وَ مَنْ عٰادَ فَیَنْتَقِمُ اللّٰهُ مِنْهُ وَ اللّٰهُ عَزِیزٌ ذُو انْتِقٰامٍ» :المائده:۹۵.

فهذه موارد متنوعه من العفو الإلهی و قد بینا خصوصیه کل منها فی الکلام علی الآیه المشتمله علیه من الکتاب فلیراجع.

و لیس من قبیل ما تقدم قوله تعالی: «عَفَا اللّٰهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ» :التوبه:۴۳ فإنه دعاء نظیر قولنا:غفر الله لک لم فعلت کذا و کذا،و نظیره علی الخلاف قوله تعالی «إِنَّهُ فَکَّرَ وَ قَدَّرَ، فَقُتِلَ کَیْفَ قَدَّرَ» :المدثر:۱۹ و لیس من ذاک القبیل أیضا قوله تعالی: «إِنّٰا فَتَحْنٰا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً، لِیَغْفِرَ لَکَ اللّٰهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ مٰا تَأَخَّرَ» :الفتح:۲، و یدل علی ذلک جعل المغفره غایه متفرعه علی فتحه تعالی مکه لنبیه و لا رابطه بین مغفره الذنب بمعنی الإثم و بین الفتح،و سیجیء تمام الکلام فی محله إن شاء الله.

۴-للعفو مراتب:

لما کان العفو و المغفره یتعلق بالذنب الذی یستتبع نوعا من المجازاه و العقاب،و للجزاء کما عرفت-عرض عریض و مراتب مختلفه متشتته أتبعه العفو فی اختلاف المراتب حسب اختلافه،و لیس الاختلاف الواقع فی نفس الذنب أعنی التبعه السیئه التی یستتبعها العمل؛فالاختلاف فیها مما لا سبیل إلی إنکاره،و الجزاء

سواء کان عقابا أو ثوابا إنما یوزن بزنتها.

فمما لا محیص عنه فی بحثنا هـذا هو البحث عن الذنب و اختلاف مراتبه،و التأمل فیما یهدی إلیه العقل الفطری فإن البحث و إن کـان قرآنیـا یراد به الحصول علی مـا یراه الکتـاب الإلهی فی هـذه الحقائق غیر أنه تعالی علی ما بین فی کلامه یکلمنا علی قـدر عقولنـا و بـالموازین الفطریـه الـتی نزن بهـا الأشـیاء فی مرحلـتی النظر و العمـل،و قـد مرت الإشـاره إلیه فی مـوارد من الأبحـاث الموضوعه فی هذا الکتاب،و قد استمد تعالی فی موارد من بیاناته بالعقل و الفکر الإنسانی،و أید به مقاصد کلامه فقال تعالی: أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ . أَ فَلاٰ تَتَفَکَّرُونَ ،و ما فی معناهما.

و الـذی یفیـده الاعتبـار الصـحیح هو أن أول مـا یتعلق به و یحترمه المجتمع الإنسانی هو الأحکام العملیه و السـنن المحترمه التی تحفظ بالعمل بها و المـداومه علیها مقاصـده الإنسانیه و تهـدیه إلی سـعادته فی الحیاه،ثم تضع أحکاما جزائیه یجازی علی طبقها المتخلف العاصی عن القوانین الاجتماعیه و یثاب المطیع الممتثل.

و فی هـذه المرحله لا یسـمی باسم الذنب إلا التخلف عن متون القوانین العملیه، و تحاذی الذنوب لا محاله فی عددها عدد مواد الأحکام الاجتماعیه،و هذا هو المغروز المرکوز فی أذهاننا معاشر المسـلمین أیضا من معنی لفظ الذنب و الألفاظ التی تقارنه فی المعنی کالسیئه و المعصیه و الإثم و الخطیئه و الحوب و الفسق و نحوها.

لکن الأمر لا یقف علی هـذا الحد فإن الأحکام العملیه إذا عمل بها و روقبت و تحفظ علیها ساق المجتمع إلی أخلاق و أوصاف مناسـبه لهـا ملائمه لمقاصـد المجتمع التی هی غـایه اجتمـاعهم،و هـذه الأخلاـق هی التی یسـمیها المجتمع بالفضائل الإنسانیه و یحرص و یحرض علیها،و تقابلها الرذائل.

و هی و إن کانت مختلفه باختلاف السـنن و المقاصد فی المجتمعات إلا أن أصل إنتاج الأحکام الاجتماعیه لها مما لا سبیل إلی سده و إعفائها عنه.

و هـذه الأخلاـق الفاضـله و إن کـانت أوصافـا روحیه لا ضامن لإجرائها فی مقام العمل فی المجتمعات،و کانت غیر اختیاریه بلا واسـطه لکونهـا ملکـات لکنهـا لکونهـا فی تحققهـا تتبع تکرر العمـل بالأحکـام المقرره فی المجتمع أو تکرر التخلف عن العمل کانت نفس

العمل بالأحكام ضامنه لإجرائها و تعد اختياريه باختياريه مقدمتها و هی تكرر العمل، و تتصور فی مواردها أوامر عقليه متعلقه بالأخلاق الفاضله كالشجاعه و العفه و العداله، و نواه عقليه تردع عن الأخلاق الرذيله كالجبن و التهور و الخمود و الشره و الظلم،و كذا يتصور لها عقاب و ثواب يسميان بالعقاب و الثواب العقليين كالمدح و الذم.

و بالجمله تتحقق بذلک مرتبه من مراتب الذنب فوق المرتبه السابق ذكرها،و هی مرتبه التخلف عن الأحكام الخلقيه و الأوامر العقليه المتعلقه بها.

و لم تعد هذه الأوامر العقليه أوامر إلا من جهه التلازم بين الأعمال الواجبه التی تسوق إليها و بينها،فهناک حاكم يحكم بالوجوب و يأمر به و هو العقل الإنسانی و نظيره القول فی تسميه النواهی،العقليه نواهی و هذا دأبنا فی جميع موارد التلازم فإذا فرضنا العمل بأحد المتلازمين لا نلبث دون أن نأمر بإتيان الآخر و وجوبه،و نری التخلف عن ذلک عصيانا لهذا الأمر العقلی،و ذنبا يستحق به نوع من المؤاخذه.

و يظهر من هنا أمر آخر و هو أن هذه الفضائل لما كانت مشتمله علی واجبات لا محيص عن التلبس بها-و مثله اشتمال الرذائل علی المحرمات-و علی أمور مندوبه مستحبه هی كالزينه و الهيأه الجميله فيها-و هی الآداب الحسنه التی تتعلق بها أوامر عقليه استحسانيه إلا أنها إذا فرضت ظرفا لأحد منا كان ما يلازمها من الآداب و هی مندوبه فی نفسها-مأمورا به عقلا أمرا إيجابيا قضاء لحق الظرفيه المفروضه،مثال ذلک أن البدوی العائش عيشه العشائر البدويه لما كان ظرف حياته بعيدا من المستوی المتوسط فی الحياه الحضريه لا يؤاخذ إلا بالضروريات من أحكام المجتمع و السنن العامه التی يناله عقله و فهمه،و ربما أتی بالوقيح من الأعمال أو الركيک من الأقوال فيغمض عنه الحضری معتذرا بقصور الفهم و بعد الدار من السواد الأعظم الذی تكرر مشاهده الرسوم و الآداب فيه أحسن معلم للناس القاطنين فيه.

ثم المتوسط من الناس الحضريين لا يؤاخذ بما يؤاخذ به الآحاد النوادر من المجتمع الذين هم أهل الفهم اللطيف و الأدب الظريف و لا عذر فيما يقع من المتوسط من الناس من ترک دقائق الأدب و ظرائف القول و الفعل إلا أن فهمه علی قدر ما يأتی به،لا يشعر من لوازم الأدب بأزيد مما يأتی به و ظرفه هو ظرفه.

و ما یأتی به مما لا ینبغی هو مما یؤاخـذ به الأوحدیون من الرجال فربما یؤاخذون بلحن خفی فی کلام أو بتبطؤ یسـیر فی حرکه أو بتفویت آن غیر محسوس فی سکون أو التفات أو غمض عین و نحو ذلک فیعد ذلک کله ذنبا منهم،و لیس من الذنب بمعنی مخالفه المواد القانونیه دینیه کانت أو دنیویه،و قد اشتهر بینهم:أن حسنات الأبرار سیئات المقربین.

و کلمـا دق المسـلک و لطف المقـام ظهرت هنالـک خفایـا من الـذنوب کانت قبل تحقق هـذا الظرف مغفولا عنها لا یحس بها الإنسان المکلف بالتکالیف،و لا یؤاخذ بها ولی المؤاخذه و المحاسبه.

و ینتهی ذلـک-فیمـا یعطیه البحث الـدقیق-إلی الأحکام الناشئه فی ظرفی الحب و البغض فتری عین المبغض-و خاصه فی حال الغضب-عامه الأعمال الحسـنه سیئه مذمومه،و یری المحب إذا تاه فی الغرام و اسـتغرق فی الوله أدنی غفله قلبیه عن محبوبه ذنبا عظیما و إن اهتم بعمل الجوارح بتمام أرکانه،و لیس إلا أنه یری أن قیمه أعماله فی سبیل الحب علی قـدر توجه نفسه و انجذاب قلبه إلی محبوبه فإذا انقطع عنه بغفله قلبیه فقد أعرض عن المحبوب و انقطع عن ذکره و أبطل طهاره قلبه بذلک.

حتی أن الاشـتغال بضـروریات الحیاه من أکل و شـرب و نحوهما یعد عنده من الاجرام و العصیان نظرا إلی أن أصل الفعل و إن کـان من الضـروری الـذی یضـطر إلیه الإنسان لکن کل واحـد واحـد من هـذه الأفعال الاضـطراریه من حیث أصـله اختیاری فی نفسـه،و الاشـتغال بـه اشـتغال بغیر المحبـوب و إعراض عنه اختیـارا و هـو من الـذنب، و لـذلک نری أهـل الـوله و الغرام و کـذا المحزون الکئیب و من فی عداد هؤلاء یستنکفون عن الاشتغال بأکل أو شرب أو نحوهما.

و علی نحو من هذا القبیل ینبغی أن یحمل

- مـا ربمـا یروی عنه(ص)من قـوله: «إنه لیغـان علی قلبی فأسـتغفر الله کـل یوم سـبعین مره» ،و علیه یمکن أن یحمـل بوجه قوله تعالی: «وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ بِالْعَشِیِّ وَ الْإِبْکارِ» :المؤمن:۵۵ و قوله:

«فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ کانَ تَوّاباً» :النصر:۳.

و علیه یحمل ما حکی تعالی عن عده من أنبیائه الکرام کقول نوح: «رَبِّ اغْفِرْ لِی

وَ لِوٰالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً» :نوح:٢٨ و قول إبراهيم: «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوٰالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسٰابُ»: إبراهيم:٤١ و قول موسى لنفسه و أخيه: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنٰا فِي رَحْمَتِكَ» :الأعراف:١٥١ و ما حكى عن النبى ص:

«سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا غُفْرٰانَكَ رَبَّنٰا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ» :البقره:٢٨٥.

فإن الأنبياء(ع)مع عصمتهم لا يتأتى أن تصدر عنهم المعصيه،و يقترفوا الذنب بمعنى مخالفه ماده من المواد الدينيه التى هم المرسلون للدعوه إليها،و القائمون قولا و فعلا بالتبليغ لها،و المفترض طاعتهم من عند الله،و لا معنى لافتراض طاعه من لا يؤمن وقوع المعصيه منه،تعالى الله عن ذلك.

و هكذا يحمل على هذا الباب ما حكى عن بعضهم(ع)من الاعتراف بالظلم و نحوه كقول ذى النون: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنْتَ سُبْحٰانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظّٰالِمِينَ» :الأنبياء:٨٧ إذ كما يجوز عدهم بعض الأعمال المباحه الصادره عنهم ذنبا لأنفسهم و طلب المغفره من الله سبحانه،كذلك يجوز عده ظلما من أنفسهم لأن كل ذنب ظلم.

و قد مر أن هنالك محملا آخر و هو أن يكون المراد بالظلم هو الظلم على النفس كما فى قول آدم و زوجته: «رَبَّنٰا ظَلَمْنٰا أَنْفُسَنٰا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰاسِرِينَ» :الأعراف:٢٣.

و إياك أن تتوهم أن معنى قولنا فى آيه:إن لها محملا كذا و محملا كذا هو تسليم أن ذلك من خلاف ظاهر الكلام ثم الاجتهاد فى اختلاف معنى يحمل عليه الكلام،و تطبق عليه الآيات القرآنيه تحفظا على الآراء المذهبيه،و اضطرارا من قبل التعصب.

و قد تقدم البحث الحر فى عصمه الأنبياء(ع)بالتدبر فى الآيات أنفسها من غير اعتماد على المقدمات الغريبه الأجنبيه فى الجزء الثانى من الكتاب.

و قد بينا هناك و فى غيره أن ظاهر الكلام لا يقتصر فى تشخيصه على الفهم العامى المتعلق بنفس الجمله المبحوث عنها بل للقرائن المقاميه و الكلاميه المتصله و المنفصله-كالآيه المتعرضه لمعنى آيه أخرى-تأثير قاطع فى الظواهر،و خاصه فى الكلام الإلهى الذى بعضه ببعض،و يشهد بعضه على بعض،و يصدق بعضه بعضا.

و الغفله عن هذه النکته هی التی أشاعت بین عده من المفسرین و أهل الکلام إبداع التأویل بمعنی صرف الکلام إلی ما یخالف ظاهره،و ارتکابه فی الآیات المخالفه لمذهبهم الخاص علی زعمهم؛فتراهم یقطعون القرآن قطعا ثم یحملون کل قطعه منها علی ما یفهمه العامی السوقی من کلام سوقی مثله فإذا سمعوه تعالی یقول: «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَیْهِ حملوه علی أنه(ع)-و حاشاه-زعم أو أیقن أن الله سبحانه یعجز عن أخذه مع أن ما فی الآیه التالیه: «وَ کَذٰلِکَ نُنْجِی الْمُؤْمِنِینَ » یعده من المؤمنین، و لا إیمان لمن شک فی قدره الله فضلا عن أن یرجح أو یقطع بعجزه.

و إذا سمعوه تعالی یقول: لِیَغْفِرَ لَکَ اللّٰهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ مٰا تَأَخَّرَ » تفهموا منه أنه(ص)أذنب فغفر الله له کما یذنب الواحد منا بمخالفه أمر أو نهی مولوی من الله تنعقد بهما مسأله فرعیه فقهیه.

و لم یهدهم التدبر حتی بمقدار أن یرجعوا إلی سابقه الآیه: «إِنّٰا فَتَحْنٰا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً » حتی ینجلی لهم أن هذا الذنب و المغفره المتعلقه به لو کانا کالذنوب التی لنا و المغفره التی تتعلق بها لم یکن وجه لتعلیق المغفره علی فتح مکه تعلیق الغایه علی ذی الغایه،و کذا لم یکن وجه لعطف ما عطف علیه أعنی قوله: «وَ یُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ وَ یَهْدِیَکَ صِرٰاطاً مُسْتَقِیماً، وَ یَنْصُرَکَ اللّٰهُ نَصْراً عَزِیزاً» :الفتح:٣.

و کذا إذا سمعوا سائر الآیات التی تشتمل علی عثرات الأنبیاء بزعمهم کالتی وردت فی قصص آدم و نوح و إبراهیم و لوط و یعقوب و یوسف و داود و سلیمان و أیوب و محمد صلی الله علیه و آله و علیهم بادروا إلی الطعن فی ساحه نزاهتهم،و لم ینقبضوا عن إساءه الأدب إلیهم و هم أنفسهم أولی بما رموا و لا شین کسوء الأدب.

فساقهم سوء الحظ و رداءه النظر إلی أن أبدلوا ربهم رب العالمین برب تنعته التوراه و الأناجیل المحرفه قوه غیبیه متجسده تدیر رحی الوجود کما یدیر جبار من جبابره الإنسان مملکته لا هم له إلا إشباع طاغیه شهوته و غضبه فجهلوا مقام ربهم ثم سهوا عن مقام النبوه و عفوا مدارجهم العالیه الشریفه الروحیه و مقاماتهم السامیه الحقیقیه فعادت بذلک هاتیک النفوس الطاهره المقدسه تماثل النفوس الردیئه الخسیسه التی لیس لها من شرف الإنسانیه إلا التسمی باسمها؛تهلک من (١)هذا نفسه،و تخون من ذاک عرضه،

ص :٣۶٨

١- ١) راجع ما رووه فی داود و سلیمان و فی إبراهیم و لوط و غیرهم علیهم السلام.

و تطمع من ذلک فی ماله مع أنهم علی ما لهم من الجهل لا یرضون بهـذه الفضائـح فیمن یتقلـد أمرا من أمور دنیاهم أو یتصدی یوما للقیام بمصـلحه بیتهم و أهلهم فکیف یرضون بنسـبه هذه الفضائح إلی الله سبحانه و هو العلیم الحکیم الذی أرسل رسله إلی عبـاده لئلا یکون لهم حجه بعـدهم؟و لیت شـعری أی حجه تقوم علی کافر أو فاسق إذا جاز للرسول أن یکفر أو یفجر أو یـدعو إلی الشرک و الوثنیه ثم یتبرأ منه و ینسبه إلی الشیطان؟.

و إذا ذکروا ببعض ما لأنبیاء الله(ع)من العصـمه الإلهیه و المقامات الموهوبه و المواقف الروحیه عدوا ذلک شرکا بالله،و غلوا فی حق عباد الله،و أخذوا فی تلاوه قوله: «قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ » .

و قـد أصابوا فی ردهم بوجه فإن ما یتصورونه من الرب عز اسـمه و ینعتونه بها من النعوت فی ذاته و فعله دون ما یذکرون به من مقامات الأنبیاء(ع)و أخفض منها منزله و قدرا،و هذا کله من المصائب التی لقیتها الإسلام و أهله مما دسته أهل الکتاب و خاصه الیهود فی الروایـات و عملته أیـدیهم،و حرکوا بها الرحی علی غیر محوره،و اعتقـدوا فی الله سـبحانه الـذی لیس کمثله شـیء أنه مثل الإنسان المتجبر الذی یری لنفسه أنه حر غیر مسـئول فیما یفعل و هم المسئولون،و أن ترتب المسببات علی أسبابها و استیلاد المقدمات نتائجها،و اقتضاء الخصائص الوجودیه صوریه أو معنویه لآثارها کل ذلک جزافی لا لرابطه حقیقیه.

و أن الله تعالی ختم بمحمد النبوه و أنزل علیه القرآن،و خص موسـی بالتکلیم، و عیسی بالتأیید بالروح لا لخصوصیه فی نفوسهم الشریفه بل لأنه أراد أن یخصهم بکذا و بکذا،و أن ضرب موسی بعصاه الحجر فانفجرت کضرب أحدنا بعصاه الحجر غیر أن الله یفجر ذاک و لاـ یفجر هـذا،و أن قول عیسـی للموتی:قوموا بـإذن الله مثـل أن ینـادی أحـدنا بین المقـابر:قوموا بإذن الله إلا أن الله یحیی أولئک و لا یحیی هؤلاء و هکذا.

و لیس ذلـک کله إلا قیاسا لنظام التکوین إلی نظام التشـریع الـذی لا قوام له إلا الوضع و الاصـطلاح و التعاهـد الـذی لا یتجاوز ظرف الاجتماع سعه،و لا یعدو دنیا الإنسان المجتمع.

ص :۳۶۹

و لو أنهم تفطنوا قليلا و تدبروا فی أطراف الآيات المتعرضه لأمر الذنب و المعصيه بالمعنی المصطلح عليه،و هی مخالفه الأمر و النهی المولويين تنبهوا إلی أن من المغفره ما هو فوق المغفره المعروفه.

فإن الله سبحانه يكرر فی كلامه أن له عبادا يسميهم بالمخلصين مصونين عن المعصيه لا مطمع فيهم للشيطان فلا ذنب-بالمعنی المعروف-لهم و لا حاجه إلی المغفره المتعلقه بذلک الذنب،و قد نص فی حق عده من أنبيائه كإبراهيم و إسحاق و يعقوب و يوسف و موسی أنهم مخلصون كقوله فی إبراهيم و إسحاق و يعقوب: «إِنّٰا أَخْلَصْنٰاهُمْ بِخٰالِصَهٍ ذِكْرَی الدّٰارِ» :_ص:۴۶،و قوله فی يوسف: «إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُخْلَصِينَ»:

يوسف:۲۴،و قوله فی موسی: «إِنَّهُ كٰانَ مُخْلَصاً» :مريم:۵۱ و قد حكی عنهم سؤال المغفره كقول إبراهيم(ع): «رَبَّنَا اغْفِرْ لِی وَ لِوٰالِدَیَّ » :إبراهيم:۴۱ و قول موسی(ع): «رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِأَخِی وَ أَدْخِلْنٰا فِی رَحْمَتِکَ» :الأعراف:۱۵۱ و لو كانت المغفره لا يتعلق إلا بالذنب بالمعنی المعروف لم يستقم ذلک.

نعم ربما قال القائل:إنهم(ع)يعدون أنفسهم مذنبين تواضعا لله سبحانه و لا ـ ذنب لهم لكن ينبغی لهذا القائل أن يتنبه إلی أنهم(ع)لم يخطئوا فی نظرهم هذا،و لم يجازفوا فی قولهم فلشمول المغفره لهم معنی صحيح و المسأله جديه.

علی أن فی دعاء إبراهيم(ع): «رَبَّنَا اغْفِرْ لِی وَ لِوٰالِدَیَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسٰابُ » دعاء لكافه المؤمنين-و فيهم المخلصون-بالمغفره،و كذا فی دعاء نوح(ع):

«رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِوٰالِدَیَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِیَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ» :نوح:۲۸ شمول بإطلاقه للمخلصين،و لا معنی لطلب المغفره علی من لا ذنب له يحتاج إلی المغفره.

فهذا كله ينبهنا إلی أن من الذنب المتعلق به المغفره ما هو غير الذنب بالمعنی المتعارف و كذا من المغفره ما هی غير المغفره بمعناها المتعارف،و قد حكی الله تعالی عن إبراهيم قوله: «وَ الَّذِی أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِی خَطِيئَتِی يَوْمَ الدِّينِ» :الشعراء:۸۲ و لعل هذا هو السبب فيما نشاهد أنه تعالی فی موارد من كلامه إذا ذكر الرحمه أو الرحمه الأخرويه التی هی الجنه قدم عليه ذكر المغفره كقوله: «وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ» :المؤمنون:۱۱۸ و قوله: «وَ اغْفِرْ لَنٰا وَ ارْحَمْنٰا» :البقره:۲۸۶ و قوله حكايه عن آدم و زوجته: «وَ إِنْ

لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا» :الأعراف:۲۳ و قوله عن نوح(ع): «وَ إِلاّ تَغْفِرْ لِی وَ تَرْحَمْنِی» :هود:۴۷.

فتحصل من البیان السابق:أن للذنب مراتب مختلفه مترتبه طولا کما أن للمغفره مراتب بحذائها،تتعلق کل مرتبه من المغفره بما یحاذیها من الذنب،و لیس من اللازم أن یکون کل ذنب و خطیئه متعلقا بأمر أو نهی مولوی فیعرفه و یتبینه الأفهام العامیه الساذجه،و لا أن یکون کل مغفره متعلقه بهذا النوع من الذنب.

فالذی تبین لنا من مراتب الذنب و المغفره بحسب البحث السابق العام مراتب أربع:

أولاها:الذنب المتعلق بالأمر و النهی المولویین و هو المخالفه لحکم شرعی فرعی أو أصلی و إن عممت التعبیر قلت:مخالفه ماده من المواد القانونیه دینیه کانت أو غیر دینیه،و تتعلق به مغفره تحاذیه مرتبه.

و الثانیه:الذنب المتعلق بالحکم العقلی الخلقی و المغفره المتعلقه به.

و الثالثه:الذنب المتعلق بالحکم الأدبی ممن ظرف حیاته ظرف الأدب و المغفره المتعلقه به،و هذان القسمان ربما لم یعدا بحسب الفهم العامی من الذنوب و المغفرات،و ربما حسبوهما منها مجازا،و لیس من المجاز فی شیء لما عرفت من ترتب الآثار الحقیقیه علیهما.

و الرابعه:الذنب الذی یحکم به ذوق الحب و المغفره المتعلقه به،و فی ظرف البغض أیضا ما یشبههما،و هذا النوع لا یعده الفهم العامی من الأقسام،و قد أخطئوا فی ذلک لا لجور منهم فی الحکم و القضاء بل لقصور فهمهم عن تعقله و تبین معناه.

و ربما قال القائل منهم:أنه من أوهام العشاق و المبرسمین أو تخیل شعری لا یتکئ علی حقیقه عقلیه،و قد غفل عن أن هذه التصورات علی أنها أوهام و تخیلات فی طریق الحیاه الاجتماعیه هی بعینها تعود حقائق-و أی حقائق-فی طریق العبودیه عن حب إلهی یذیب القلب و یوله اللب،و لا یدع للإنسان شعورا یشعر بغیر ربه،و لا إراده یرید بها إلا ما یریده.

و حینئذ یلوح له أن التفاته یسیره منه إلی نفسه أو إلی مشتهاها من شیء ذنب عظیم و حجاب غلیظ لا ترفعه إلا المغفره الإلهیه،و قد عد الله سبحانه الذنب حجابا للقلب

عن التوجه التام إلى ربه إذ قال: «كَلّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ كَلّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ» :المطففين:١٥.

فهـذا مـا يعطيه البحث الجـدى الـذى لاـ يلعب فيه بالحقـائق،و ربمـا أمكن أن يلوح لأوليـاء الله السالكين فى عبوديتهم سبيل حبه تعالى دقائق من الذنب و لطائف من المغفره لا تكاد تناله أيدى الأبحاث الكليه العامه.

٥-هل المؤاخذه أو المغفره تستلزم ذنبا؟:

البـاحـث فى ديـدن العقلاـء من أهـل الاجتمـاع يعثر على أنهم يبنون المؤاخـذه و العقـاب على التكليف الاختيـارى،و من شـرائط صحته عنـدهم العقل،و هناك شـرائط أخر تختلف فى أصـلها و فى تحديـد ماهياتها و حـدودها المجتمعات،و لسـنا هاهنا بصدد البحث عنها.

و إنما كلامنا فى العقل الـذى هو قوه التمييز بين الحسن و القبح و النافع و الضار و الخير و الشـر بحسب المتوسط من حال الناس فى مجتمعهم،فإن الناس من حيث النظر الاجتماعى يرون أن فى الإنسان مبـدأ فعالا هـذا شأنه و إن كان البحث العلمى ربما أدى إلى أنه ليست قوه من القوى الطبيعيه المودعه فى الإنسان كالمتخيله و الحافظه،و إنما هى ملكه حاصـله من توافق عده من القوى فى الفعل كالعداله.

فالمجتمعـات على اختلافهـا ترى أن التكليف منوط بهـذا المسـمى عقلا فيتفرع الثواب و العقاب المتفرعين على التكليف عليه لا محاله فيثاب العاقل بطاعته و يعاقب بجرمه.

و أما غير العاقل كالصبى و المجنون و السـفيه و كل مستضـعف غيرهم فلا ثواب و لا عقاب على ما يأتون به من طاعه أو معصيه بحقيقه معنى الثواب و العقـاب،و إن كانوا ربما يثابون قبال طاعتهم ثوابا تشويقيا أو يؤاخـذون و يساسون قبال جرمهم بما يسـمى عقابا تأديبا،و هذا شائع دائر فى المجتمعات حتى المجتمع الإسلامى.

و هؤلاء بالنظر إلى السـعاده و الشقاوه المكتسبتين بامتثال التكاليف و مخالفتها فى الحياه الدنيا،لا سعداء و لا أشقياء إذ لا تكليف لهم فلا ثواب حتى يسعدوا به و لا عقاب حتى يشقوا به،و إن كانوا ربما يشوقون بخير أو يؤدبون بشر.

و أما بالنسبه إلى الحياه الآخره التى يثبتها الدين الإلهى ثم يقسم الناس إلى قسمين

لا ثالث لهما:السعيد و الشقی أو المثاب و المعاقب فالذی یذکره القرآن الشریف فی ذلک أمر إجمالی لا یتبین تفصیله إذ لا طریق عقلا إلی تشخیص تفاصیل أحوالهم بعد الدنیا،قال تعالی: «وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ إِمّا یُعَذِّبُهُمْ وَ إِمّا یَتُوبُ عَلَیْهِمْ وَ اللّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ» :التوبه:۱۰۶،و قال تعالی: «إِنَّ الَّذِینَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِکَهُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِیمَ کُنْتُمْ قالُوا کُنّا مُسْتَضْعَفِینَ فِی الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَکُنْ أَرْضُ اللّهِ واسِعَهً فَتُهاجِرُوا فِیها فَأُولئِکَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِیراً، إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا یَسْتَطِیعُونَ حِیلَهً وَ لا یَهْتَدُونَ سَبِیلاً، فَأُولئِکَ عَسَی اللّهُ أَنْ یَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ کانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُوراً» :النساء:۹۹.

و الآیات-کما تری-تشتمل علی العفو عنهم و التوبه علیهم و لا مغفره فی مورد لا ذنب هناک،و علی عذابهم و لا عذاب علی من لا تکلیف له،غیر أنک عرفت أن الذنب و کذا المغفره و العقاب و الثواب ذوات مراتب مختلفه:منها ما یتعلق بمخالفه التکلیف المولوی أو العقلی،و منها ما یتعلق بالهیئات النفسانیه الردیئه و أدران القلب التی تحجب الإنسان عن ربه،و هؤلاء و إن کانوا فی معزل من تعلق التکلیف المتوقف علی العقل لکنهم لیسوا بمصونین من ألواث النفوس و أستار القلوب التی یحتاج التنعم بنعیم القرب،و الحضور فی ساحه القدس إلی إزالتها و عفوها و الستر علیها و مغفرتها.

و لعل هذا هو المراد

- مما ورد فی بعض الروایات: «أن الله سبحانه یحشرهم-ثم یخلق نارا و یأمرهم بدخولها فمن دخلها دخل الجنه-و من أبی أن یدخلها دخل النار» و سیجیء ما یتعلق بالروایات من الکلام فی تفسیر سوره التوبه إن شاء الله،و قد مر بعض الکلام فی سوره النساء.

و من استعمال العفو و المغفره فی غیر مورد الذنب فی کلامه تعالی ما تکرر وقوعه فی مورد رفع الحکم بقوله تعالی: «فَمَنِ اضْطُرَّ فِی مَخْمَصَهٍ غَیْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ» :المائده:۳،و نظیره ما فی سوره الأنعام، و قوله تعالی فی رفع الوضوء عن فاقد الماء: «وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضی أَوْ عَلی سَفَرٍ -إلی أن قال- فَتَیَمَّمُوا صَعِیداً طَیِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِکُمْ وَ أَیْدِیکُمْ إِنَّ اللّهَ کانَ عَفُوًّا غَفُوراً» :النساء:۴۳،و قوله فی حد المفسدین فی الأرض: «إِلاَّ الَّذِینَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَیْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ» :المائده:۳۴،و قوله فی رفع حکم الجهاد عن المعذورین: «ما عَلَی الْمُحْسِنِینَ

مِنْ سَبِيلٍ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» :التوبه:۹۱،إلی غیر ذلک.

و قال تعالی فی البلایا و المصائب التی تصیب الناس: «وَ مٰا أَصٰابَکُمْ مِنْ مُصِیبَهٍ فَبِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ» :الشوری:۳۰.

و ینکشف بذلک أن صفه العفو و المغفره منه تعالی کصفتی الرحمه و الهدایه تتعلق بالأمور التکوینیه و التشریعیه جمیعا فهو تعالی یعفو عن الذنوب و المعاصی فیمحوها من صحیفه الأعمال،و یعفو عن الحکم الذی له مقتض یقتضی وضعه فیمحوه فلا یشرعه، و یعفو عن البلایا و المصائب و أسبابها قائمه فیمحوها فلا تصیب الإنسان.

۶-رابطه العمل و الجزاء:

قد عرفنا فیما تقدم من البحث أن الأوامر و النواهی العقلائیه-القوانین الدائره بینهم-تستعقب آثارا جمیله حسنه علی امتثالها و هی الثواب، و آثارا سیئه علی مخالفتها و التمرد منها تسمی عقابا،و أن ذلک کالحیله یحتالون بها إلی العمل بها،فجعلهم الجزاء الحسن للامتثال إنما هو لیکون مشوقا للعامل،و الجزاء السیئ علی المخالفه لیکون العامل علی خوف و حذر من التمرد.

و من هنا یظهر أن الرابطه بین العمل و الجزاء رابطه جعلیه وضعیه من المجتمع أو من ولی الأمر،دعاهم إلی هذا الجعل حاجتهم الشدیده إلی العمل لیستفیدوا منه و یرفعوا به الحاجه و یسدوا به الخله،و لذلک تراهم إذا استغنوا و ارتفعت حاجتهم إلی العمل ساهلوا فی الوفاء علی ما تعهدوا به من ثواب و عقاب.

و لذلک أیضا تری الجزاء یختلف کثره و قله و الأجر یتفاوت شده و ضعفا باختلاف الحاجه إلی العمل فکلما زادت الحاجه زاد الأجر و کلما نقصت نقص؛فالأمر و المأمور و المکلف و المکلف بمنزله البائع و المشتری کل منهما یعطی شیئا و یأخذ شیئا.

و الأجر و الثواب بمنزله الثمن،و العقاب بمنزله الدرک علی من أتلف شیئا فضمن قیمته و استقرت فی ذمته.

و بالجمله فهو أمر وضعی اعتباری نظیر سائر العناوین و الأحکام و الموازین الاجتماعیه التی یدور علیها رحی الاجتماع الإنسانی کالرئاسه و المرئوسیه و الأمر و النهی و الطاعه و المعصیه و الوجوب و الحرمه و الملک و المال و البیع و الشراء و غیر ذلک،و إنما الحقائق

هی الموجودات الخارجیه و الحوادث المکتنفه بها التی لا تختلف حالها بغنی و فقر و عز و ذل و مدح و ذم کالأرض و ما یخرج منها و الموت و الحیاه و الصحه و المرض و الجوع و الشبع و الظمأ و الری.

فهذا ما عند العقلاء من أهل الاجتماع،و الله سبحانه جارانا فی کلامه مجاراه بعضنا بعضا فقلب سعادتنا التی یهدینا إلیها بدینه فی قالب السنن الاجتماعیه فأمر و نهی و رغب و حذر،و بشر و أنذر،و وعد بالثواب و أوعد بالعقاب فصرنا نتلقی الدین علی أسهل الوجوه التی نتلقی بها السنن و القوانین الاجتماعیه،قال تعالی: «وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ مٰا زَکیٰ مِنْکُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً» :النور:۲۱.

و لم یهمل سبحانه أمر تعلیم النفوس المستعده لإدراک الحقائق فأشار فی آیات من کلامه إلی أن وراء هذه المعارف الدینیه التی تشتمل علیها ظواهر الکتاب و السنه أمرا هو أعظم،و سرا هو أنفس و أبهی فقال تعالی: «وَ مٰا هٰذِهِ الْحَیٰاهُ الدُّنْیٰا إِلاّٰ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَهَ لَهِیَ الْحَیَوٰانُ» :العنکبوت:۶۴.

فعد الحیاه الدنیا لعبا لا بنیه له إلا الخیال،و لا شأن له إلا أن یشغل الإنسان عما یهمه،و هی الدار الآخره و سعاده الإنسان الدائمه التی لها حقیقه الحیاه،و المراد بالحیاه الدنیا إن کان هو عین ما نسمیه حیاه دون ما یلحق بها من الشئون الحیویه من مال و جاه و ملک و عزه و کرامه و نحوها فکونها لعبا و لهوا مع ما نراها من الحقائق یستلزم کون الشئون الحیویه لعبا و لهوا بطریق أولی،و إن کان المراد الحیاه الدنیویه بجمیع لواحقها فالأمر أوضح.

فهذه السنن الاجتماعیه و المقاصد التی یطلب بها من عز و جاه و مال و غیرها،ثم الذی یشتمل علیه التعلیم الدینی من مواد و مقاصد هدانا الله سبحانه إلیها بالفطره ثم بالرساله مثلها کمثل اللعب الذی یضعه الولی المربی العاقل للطفل الصغیر الذی لا یمیز صلاحه من فساده و خیره من شره ثم یجاریه فیه لیروض بدنه و یروح ذهنه و یهیئه لنظام العمل و ابتغاء الفوز به،فالذی یقع من العمل اللعبی هو من الصبی لعب جمیل یهدیه إلی حد العمل،و من الولی حکمه و عمل جدی لیس من اللعب فی شیء.

و قال تعالی: «وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا لاٰعِبِینَ، مٰا خَلَقْنٰاهُمٰا

إِلاّ بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ» :الدخان:۳۹ و الآيه قريبه المضمون من الآيه السابقه.

ثم شرح تعالى كيفيه تأديه هذه التربيه الصوريه إلى مقاصدها المعنويه فى مثل عام ضربه للناس فقال: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهٰا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رٰابِياً وَ مِمّٰا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النّٰارِ ابْتِغٰاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتٰاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَ الْبٰاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفٰاءً وَ أَمّٰا مٰا يَنْفَعُ النّٰاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ» :الرعد:۱۷.

فظهر من بيانه تعالى أن بين العمل و الجزاء رابطه حقيقيه وراء الرابطه الوضعيه الاعتباريه التى بينهما عند أهل الاجتماع و يجرى عليها ظاهر تعليمه تعالى.

۷-و العمل يؤدى الرابطه إلى النفس:

ثم بين تعالى أن العمل يؤدى هذه الرابطه إلى النفس من جهه الهيأه النفسانيه التى تحصل لها من العمل و الحاله التى تؤديها إليها فقال تعالى: «وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ» :البقره:۲۲۵،و قال:

«وَ إِنْ تُبْدُوا مٰا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحٰاسِبْكُمْ بِهِ اللّٰهُ» :البقره:۲۸۴ و فى هذا المعنى آيات أخر كثيره.

و يتبين بها أن جميع الآثار المترتبه على الأعمال من ثواب أو عقاب إنما تترتب بالحقيقه على ما تكسبه النفوس من طريق الأعمال،و أن ليس للأعمال إلا الوساطه.

ثم بين تعالى أن الذى سيواجههم من الجزاء على الأعمال إنما هو نفس الأعمال بحسب الحقيقه لا كما يضع الإنسان فى مجتمعه عملا ثم يردفه بجزاء بل العمل محفوظ عند الله سبحانه بانحفاظ النفس العامله ثم يظهره الله عليها يوم تبلى السرائر قال الله تعالى:

«يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهٰا وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً» :آل عمران:۳۰ و قال تعالى: «لاٰ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» :التحريم:۷ و دلاله الآيات ظاهره،و تلحق بها فى ذلك آيات أخر كثيره.

و من أحسنها دلاله قوله تعالى: «لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» :ق:۲۲ فإن هذا إشاره إلى مقام الجزاء الحاضر،و قد عده غافلا عنه فى الدنيا بقرينه قوله: «الْيَوْمَ » و لا معنى للغفله إلا عن أمر موجود،ثم

ذکر کشف غطائه عنه،و لا وجه للغطاء إلا أن یکون هناک مغطی علیه،فقد کان ما یلقاه و یبصره من الجزاء یوم القیامه حاضرا موجودا فی الدنیا غیر أنه لم یکشف عنه.

و هذه الآیات تفسر الآیات الأخر الظاهره فی المجازاه و بینونه العمل و الجزاء لکون آیات المجازاه ناظره إلی مرحله الرابطه الاجتماعیه الوضعیه،و هذه الآیات ناظره إلی مرحله الرابطه الحقیقیه کما بیناه،و قد تعرضنا لهذا البحث بعض التعرض فی تفسیر قوله تعالی: «خَتَمَ اللّٰهُ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ» :البقره:۷ فی الجزء الأول من الکتاب فلیراجعه من شاء.و الله الهادی.

(تم و الحمد لله).

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية فی أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامی عام ۱۴۲۶ الهجری فی المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً علی النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين فی الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر فی العلوم الإسلامية وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول علی مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية فی أصفهان إلی التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلی الباحثين فی العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهی منظمة فی برامج إلكترونية وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة علی النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلی أساس خطة تنوی تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبیّ عليهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب علی دراسة أدقّ فی المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين فی الحوازت العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب علی تقديم آثارهم لتنظيمها فی ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فى نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فى مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فى الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

١.JAVA

٢.ANDROID

٣.EPUB

٤.CHM

٥.PDF

٦.HTML

٧.CHM

٨.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

١.ANDROID

٢.IOS

٣.WINDOWS PHONE

٤.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فی تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزی

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزی ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فی طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ ـ ٠٢١

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.